

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0022918663

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



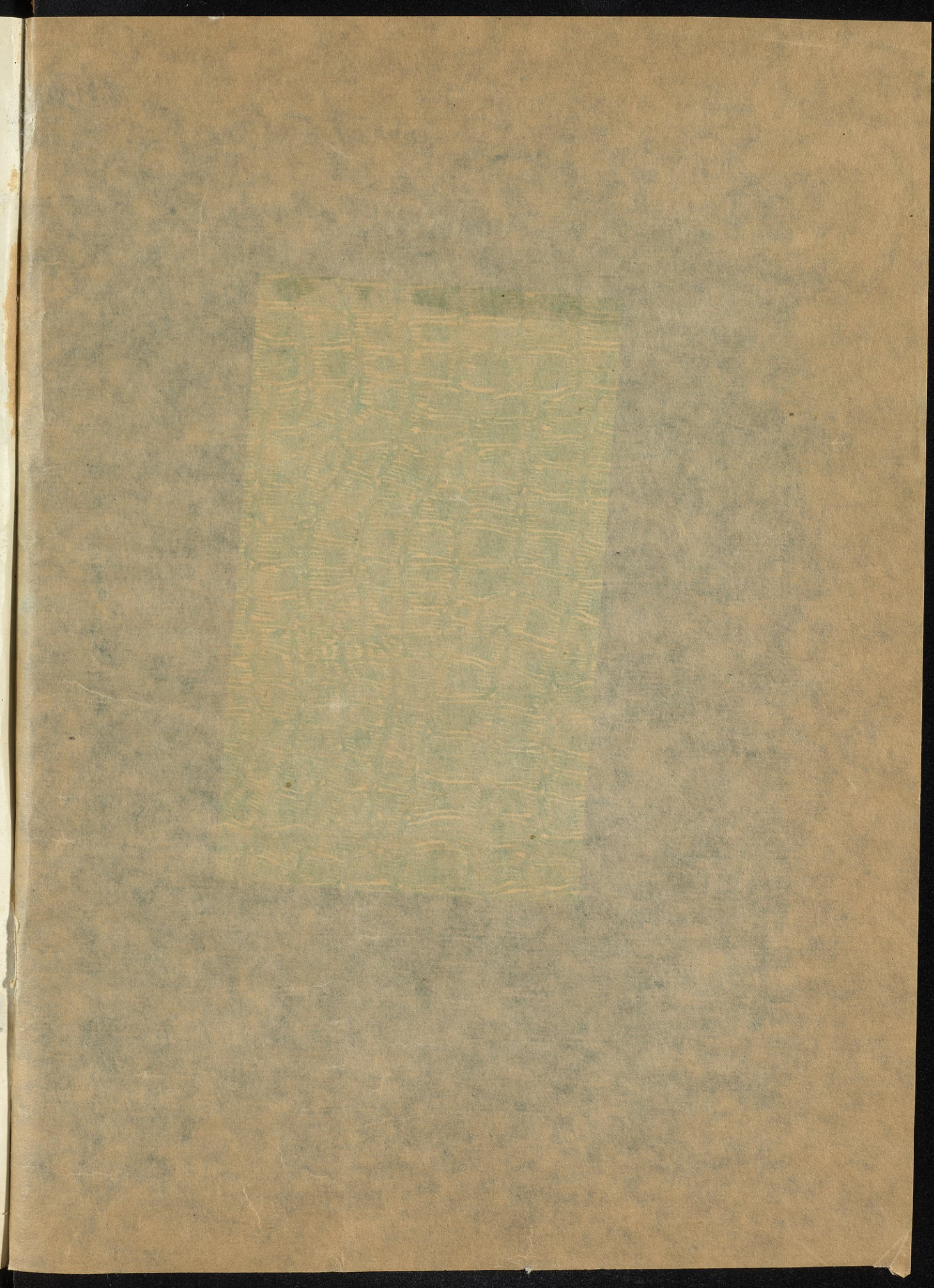
DUE DATE

FEB 15 1992

FEB 4 REC'D

201-6503

Printed
in USA



ع

كتاب
خطب الشريعة

الجزء الرابع

تأليف

محمد عبد السلام

رئيس المجمع العلمي العربي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع في مطبعة الترقي بدمشق ١٤٤٥ هـ و ١٩٢٦ م

956.9
K 9654
V. 4

التاريخ المدني

—••••—

العلم والادب

ما يُراد بالعلم } نريد بالعلم علم الدين والدنيا ، فالعالم بالحديث عالم ، والعالم
والأدب } بالطب عالم ، والعالم بالكلام عالم ، والعالم بالهندسة عالم .
والكيميااء علم ، والبيطرة علم ، والتاريخ علم ، والجدل علم ، وشرف هذه العلوم بشرف
مقاصدها ، وأشرفها في نظر الالهيين ما هذب النفس وأعدّها للحياة الخالدة . وعلوم
الدنيا هي الوسيلة الى تلك السعادة كما قال حجة الاسلام الغزالي ان الفقيه معلم
السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينظم باستقامتهم امورهم في
الدنيا ، ولعمري انه متعلق ايضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا . فان
الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا .

وقد كان البشر قبل ظهور الاديان المشهورة يستخدمون علوم الدنيا للدنيا ، وكانت
بسائط على حالة ابتدائية بالطبع ، ويعكفون من جهة أخرى على تماثيلهم وأربابهم ومعابدهم
يجوّدون صنعها ، ويمجدونها وينغنون بمدحها ، فلما جاءت الأديان المعروفة تغير الشكل
بصورة أخرى ، وبقيت العناية بالعلوم تختلف باختلاف الأصقاع والدول . اما الادب
فالذي كانت العرب تعرفه انه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم . واصطلمح الناس
بعد الاسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أدبياً وعلوم العربية أدباً . والمراد
بالاسلام كما قال النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل الهجرة النبوية
بنحو ست سنين .

للاهووية والاهواء تأثير في العلم ، والعلوم ربيبة البلاد المعتدلة او الباردة
 أكثر من البلاد الحارة والوبئة ، لان اهل هذه قصيرة آمالم في الحياة ، محدودة
 مطالبهم ، فآرة همهم ، مآلوم حدم ، متداعية صحتهم . ومن صرف وكده ايضاً الى الاهواء
 المذهبية ضعف سلطان العلم فيه ، لتوزع القوى ، وانصراف رغبته عن الفانية الى
 الباقية ، واشتغال الذهن بآمور لا يتسع لغيرها في الاغلب . وكما توغلت امة في مضمار
 المدنية نظرت الى علوم الدين وعلوم الدنيا نظرة واحدة ، وشرفت ما تشد حاجتها اليه
 منها ، وأقبلت بكليتها على المشتغلين بها . فقد رأينا جامعات اوربا في القرون الوسطى
 نشأت لغرض الدين على الاكثر ، فلما عظمت مطالب البشر ، وأخذت المدنية تسير
 سيرها ، أصبحت العلوم الدينية في جامعاتهم نقرأ كما يقرأ التاريخ والادب والطبيعة ،
 لا فضل لديني لاهوتي على طبيعي رياضي ، الا بالآثر الناتج عن درسه وبجته ، هذا
 ان لم يرجحوا في عرفهم العالم الثاني . وبيننا نجد تماثيل العلماء بالآئات في شوارع
 الغربين وساحاتهم ومتاحفهم ودور العلم والصناعات عندهم ، لا تشهد من علماء الدين
 الا نقرأ قليلاً أقيمت لهم التماثيل داخل البيع والكنائس فقط .

كان الاقتصار على العلم الديني في الصدر الاول للاسلام ، ثم تسربت العلوم الدنيوية
 بسرعة ، ورأى علماء الامة انها نافعة لقوام الدين والدنيا ، وبذلك أقتنعوا العامة ومن
 فوق درجتهم ، فأقبل الناس عليها ، وكانت العناية اولاً بعلوم القرآن والسنة ، ثم
 أقبل الناس على الفقه « توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه » ذلك لان حالة الزمن
 اقتضت الاقبال عليه لتعدد الخصومات بين الناس واتساع المملكة الاسلامية ، ثم
 أقبلوا على علم الكلام ، لما رأوا له رواجاً بين السلاطين وللحاجة الماسة اليه خصوصاً
 وقد دخلت فلسفة القدماء وصادفت لها أنصاراً وعشاقاً ، وتولدت من فتح باب المناظرة
 في الكلام تعصبات فاحشة وخصومات أفضت الى إهراق الدماء وتخريب البلاد ،
 ثم مالوا الى المناظرة في الفقه وبيان الآولى من مذاهب الشافعي والبي حنيفة ، ونشأت
 فنن من تخاصم الحنابلة مع الشوافع ، والسنة مع الشيعة ، والمعتزلة مع الحشوية حتى
 اضطر السلطان سنة ٢٧٩ ان يحلف الوراقين ببغداد ان لا يبيعوا كتب الكلام والجدل
 والفلسفة ، كأنها بعض المخدرات التي تضر بالعقل . ثم كثرت العلوم بين العرب

في المدن على توالي الايام ، وضعفت وضعف سندها في القرن العاشر للهجرة ، الى ان أخذت بالتطور ظوراً جديداً أواخر القرن الثالث عشر وأوائل هذا القرن على ما سيبي .

وأهم العوامل في اضمحلال العلم في كثير من بلاد الاسلام زهد الملوك والامراء فيها واشتغال الناس بالفن والغوائل . ومذاخذ العلماء بتعلمون علوم الدين للجاه والمال ، ضعفت علوم الدين والدنيا معاً . وأصبح السلطان للممخرفين والمعطلين والمتهموسين بمسائل الكشف والولاية من علماء الرسم ، وليس الغرض من العلوم كما قال ابن ساعد الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق ، وتهذيب الأخلاق ، على ان من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالماً وانما يجيئ شبيهاً بالعلماء . ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الامر ، ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد ، فأقاموا للعلم مأتماً ، وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينفع بهم ويعلمهم ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل ، فيكون ذلك سبباً لارتفاعه ، ومن هنا هجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها اه . ان الذين يولعون بالعلم للعلم في هذا العالم قلائل جداً ، ولكنهم يكونون على الاكثر ممن نسميهم او اكثرهم باهل النبوغ والعبقريه ، لانهم ينفقون في مقصدهم ويأتون بالجديد والابداع فيبرزون على من اتخذوا العلم آلة للمظاهر وعنواناً للتصدر ، وهم هم الذين يذهبون بفضل الشهرة في الارض ، وتبقى أعمالهم شاهدة لهم بعد موتهم أحقاباً ودهوراً ، ومن هذا الفريق أنجبت الشام قديماً وحديثاً جماعة افتخرت بهم ، وعُدُّوا بأعمالهم بالقياس الى حال هذا القطر والى مجموع علماء الامة كتلة صالحة أثرت تأثيراً محموداً في العلم والمدنية ، وقد عرفنا تراجم أكثر رجال العهد العربي لقربه منا ، ولاطراد التدوين في العرب في أغلب العصور على طريقة حسنة في الجملة ، فوقفنا بها على منازلهم وأعمالهم الا قليلاً . وقد غابت عنا تراجم كثير من المهندسين والنقاشين والمصورين والموسيقيين لانه جاء زمن والقوم على ما يظهر يحسبون هذا الصنف النافع من الناس من اهل الصناعات فقط ، لا من أهل العلم . كان العلم كله على اختلاف ضروبه ليس صناعة من الصناعات . وقد اصطلح المتأخرون

على ان المراد بالعلم اذا أُطلق يقصد منه العلم الديني . ومن الغريب ان بعض المتأخرين من دونوا تراجم اهل عصورهم حرصوا على تراجم المجاذيب والمخترقين ولم يذكروا مثلاً تراجم اهل تلك الايام من المقدرين والبنائين وغيرهم ممن خلدوا باعمالهم مدنية اعصارهم . لم يتسلسل العلم قرونًا طويلاً في الشام تبعاً لتغير الدول وانصراف العهم « والعلم مذ كان محتاج الى العلم » ذلك لان الشام كان في جميع ادواره ممراً للفالحين بطمع فيه جيرانه ، بل البعيدون عنه لتوسطه بين قارات آسيا وافريقية واوربا . والقدر الذي عرفناه من رسوخ العلم في ديارنا كافٍ ولا شك في إنشاء مدينة صالحة خصوصاً اذا دعمها ما كانت ينهال عليها من علوم أهل العراق والجزيرة ومصر والاندلس وفارس وغيرها . وكان الشرق مُني بالتساهل والاهمال ، وعدم التسلسل في الفكر والاطراد في العمل ، فكان مظهر الحياة الفردية في الاعم الأغلب من حالاته ، وعلى العكس في الغرب فانه كان ولا يزال مثال الحياة الاجتماعية والتعصب للفكر والاستماتة فيه ، والتسلسل في الافكار .

فقد رأينا الغرب في قرونه الوسطى قبيل عهد النهضة يشتد في إرهاب الافكار الحرة ، وديوان التنقيش الديني يحرق الانفس البشرية بالعشرات والمئات للقضاء على الفلسفة والتجدد ، بيد ان الغرب كان اذا هنك فيه رجل بطريق الإلحاد والخروج عن مألوف القوم ، يقوم غيره من أخلافه في الحال يتناول ما بدأ به سلفه ، ناسياً ان الهلاك يحل به اذا اشتهر امره . ورأينا في هذا الشرق القريب أناساً ينزعون الى التجديد والإبداع فكان نصيبهم من الحياة ضرب أعناقهم ، أو إدخال الرعب على قلوبهم حتى قضوا أعمارهم في خمول وثقية ، وكان نصيب الامة العربية ان يقل فيها جداً ظهور من يخلفهم في دعوتهم ، وقد يأتي العصر والعصران ولا يظهر فيها نابغة يذكر وعالم مبدع ، وجاء زمن وهو ليس ببعيد ، وقد أصبح الناس ينكرون البديهيات في العلم ، ويجرمون ما حلل الله من ضروره النافعة في قيام المجتمع الانساني ، فغارت بنايهم من أرضنا وفاضت في الغرب وزادت مع الايام فيضاناً ، وقويت ثقية العلماء ودخل في غمارهم الجاهلون فسقطت هبة العلم . وكان من نتائج عمل الغربيين تلك الحضارة الحديثة المدهشة ومن نقاشلنا وتجاهلنا هذا الانحطاط المحسوس وإضاءة مدينة الاجداد الا قليلاً .

نعم العلم ابن الحرية ، والأدب ربيب التسامح ، وقد شاهدنا أجدادنا في هذه الديار المثال الصالح في هذا الباب على اختلاف العصور والمذاهب ، وكان العرب في أدوارهم المختلفة يمثلون أجمل صورة من هذا القبيل . فان كانت أنطاكية وبيروت قبل الاسلام عاصمتي الحكمة والأدب والشرائع ، فقد امتازت بعدهما حلب والمعرة وطرابلس ودمشق وحصن بهذه الخصائص . والعلم بضاعة ثمينة لا تزوج الرواج المطلوب الا في ظل السلام وصلاح السلطان .

هذا شأن العلم اما الادب وهو منظوم الكلام ومنثوره فيتصرف ايضاً على هذا المثال ، وبه ولا سيما بالشعر أدر كنا بعض الحالة الاجتماعية والروحية التي كانت عليها تلك الاعصر ، ورأينا فيه تبديلاً محسوساً في القرون التالية ، فكانت الآداب في الشام في القرن الاول غيرها في القرن الثاني والثالث ، وقد استحكمت اسباب الحضارة وعم الترف ، ونقلت علوم الأوائل وراجت سوق الشعر في الرابع والخامس في الشمال ، وما لبثت في أواخر هذا القرن ان عراها الكساد قليلاً ، ثم هبت الى الحياة بعض الشيء في السادس والسابع تبعاً للحالة السياسية التي كانت عليها البلاد زمن الحروب الصليبية ، ولم ينشأ في الشام خلال القرنين الثامن والتاسع شاعر يجوز عدّه في مصاف المفلقين على مثال شعراء القرن الثالث والرابع ، اما في القرون الاربعة التالية فضعفت حالة الشعر اكثر من ذلك بما لا يقدر ، وأصبح نظماً لا شعراً فقدت من اكثر ما نقل من الشعر الروح وبقي جسماً له من الشعر قوافيه وأوزانه ، يطرس فيه المتأخر على مثال المتقدم ونثار أنفاس الابن بانفاس أبيه وجده .

ان حكماً على المنظوم يسوغ ان نورد في المنثور ، فبعد ان كانت الانشاء في القرنين الاولين للإسلام يسير مع الطبع غالباً ونبغ فيه في الشام أفراد كعبد الحميد بن يحيى الذي وضع أساس الكتابة المرسلة ، ورأينا عمر بن عبد العزيز يكتب الكتاب في الادارة او السياسة او القضاء او في امر مهم من امور الدولة في سطرين او ثلاثة لا غبار عليه من الكلفة بته بل هو الفصاحة والبلاغة بجملتها ونفصيلها ، وهكذا معظم آل بيته من بني أمية وبني مروان ، ومن نشأ في دولتهم أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي وزباد بن ابيه وصالح بن جناح — شهدنا التكلف بادياً في كتابة القرون

التالية التي انتقلت فيها صناعة الكتابة الى بغداد او القاهرة وضعف امرها بالشام . وكان الشام يتبع العراق تارة ومصر تارة أخرى ، حتى اذا كان القرن السادس ، ونبغ في الدولة صلاحية القاضي الفاضل بطر يقته المستملحة في الكتابة المسيجة على الاغلب ، وحذا حذوه العماد الكاتب ثم ضياء الدين ابن الاثير صاحب المثل السائر وغيرهما من كتاب الدولة أخذت تضيق حلقة الكتابة وهي احتذاء مثال المجودين من القدماء لخصرها في قيود الجناس والبديع والاسجاع الثقيلة على الطباع فجمدت القرائح وقل المبرزون فيها المجيدون لصناعتها ، فما بالك بالانشاء الذي هو ابتكار المعاني والابداع في القوالب . واذا استطعنا ان نعد عشرة كتاب في القرن الواحد لا نقوى على عدّ منشيء واحد فيه . وحكمنا هذا مبني على ما قرأناه فيما خلفه السلف في هذه الديار من الكتب والآثار المبعثرة في بطون الدفاتر ، وربما كان في المفقود الذي لم يصلنا من هذا النوع ما يؤهلنا لو ظفرنا به ، ان نصدر حكماً أصح من هذا على فنون الانشاء والكتابة والشعر والنظم ، والانشاء من الكتابة كالشعر من النظم .

ولو لم ينبغ في الكتابة من المؤلفين أمثال القفطي وياقوت وابن ابي أصيدعة وابن العديم ثم الصفدي وابن فضل الله والمقرزي والشهاب الحلبي وأمثالهم في القرنين السابع والثامن لقلنا ان الانحطاط في الكتابة بدأ في الشام منذ القرن السادس ، بيد انها أصبحت في الحقيقة سجعاً كسجع الكهان بظهور ابن عربشاه دمشقي وابن حجة الحموي وأمثالهما في القرن التاسع ، اما في القرن العاشر وما بعده فان الكتابة كالشعر كانت الى التكلف والسجع غالباً ، ومن أفلت من المؤلفين من قيود التكلف ، ونجس من الترصيع والتسجيع ، جاء كلامه مقبولاً في الجملة وقليل ما هم .

بقيت الكتابة والشعر ترسنان في قيودهما القديمة الى أوائل القرن الرابع عشر أيام نشأ للامة في مصر بضعة شعراء ومنشئين أدخلوا الآداب في طور جديد ونزعوا عنها ثيابها البالية ، وألبسوها حلة قشبية ، فقام من المنشئين أمثال محمد عبده وابراهيم المويلحي ثم المنفلوطي وطه حسين وعباس محمود العقاد وأضرابهم . ومن الشعراء أمثال محمود سامي واسماعيل صبري ثم حافظ ابراهيم واحمد شوقي . وتلك الحلبة ، وانتشرت كتاباتهم وقصائدهم في العالم العربي ومنها اقتبس شعراء الشام وكتابه

ونظريتهم اقتدوا وغيروا أسلوهم من حيث يشعرون او لا يشعرون . وما أسلوهم الا الجمع بين متانة القدماء ورقة المحدثين ومعانيهم وتصوراتهم ، وأصبح لهذا العصر طراز خاص عرف به لم يكن له منذ عرف تاريخ الادب العربي اي منذ زهاء خمسة عشر قرناً . وكان للصحف والمجلات ولا انتشار الادب الانكليزية والفرنسية والتركية وغيرها تأثير كبير في هذا الانقلاب الأدبي في ديارنا ، والمبرزون فيه مازالوا قلائل جداً ، ويرجى ان لا يمضي عقدان او ثلاثة من السنين حتى تكون الشام اخت مصر في هذا الشأن مع مراعاة النسبة بين حالة القطرين السياسية ، والنظر الى وفرة السكان والغنى ، وتوفر أسباب التعليم العربي في القطر المصري .

العلم والأدب عند أقدم
شعوب الشام } صمت تاريخ العلم في هذه الديار عن ذكر الرجال
الذين اشتهروا مثلاً على عهد الحثيين ومن كان
قبلهم من القبائل التي نزلت الشام ، وخلفت فيها آثاراً في العمران لا يتأتى ايجاد مثلها
الا بالعلم ، ولم ينقل الا اسماء قليلة لمن اشتغلوا بالعلم الديني والديوي على عهد بعض
الدول الخالفة ، ولا سيما الكلدان والعبران والرومان واليونان ، ولولا بعض عاديات
أثرت عن الامم التي تأصل حكما في بعض أرجاء البلاد ، وأخبار نقلتها التواريخ
الصحيحة ، لقلنا ان اكثرهم كانوا أمماً بدوية على الفطرة . وأهم ما أثر عن الفينيقيين
مما ساعد العلم بالنسبة لصورهم اختراعهم حروف الكتابة ، بل تحسين اصولها وجعلها
مطابقة للاصوات ، ونقلهم لها الى الامم التي أبحروا اليها والتجروا معها ، وعنهم أخذتها
أم الحضارة الحديثة النازلة على شواطئ البحر المتوسط وما اليها . وهذا الاختراع
أهم ما عرف في القديم كما كانت الطباعة في القرون الحديثة أهم اختراعاتها في نظر
العلم . قال بورتير : لا يستحق الذكر من علوم الفينيقيين سوى علم الكتابة بحروف
هجائية وليس هم اول من استعملوا الكتابة لانا علمنا من الآثار انها كانت عند
المصريين والكلدانيين قبل عهدهم غير ان كتابتهم لم تكن بحروف وفق الاصوات
البشرية الاصلية كالخروف الهجائية التي استنبطها الفينيقيون واعتبروا بها كل

الاعتبار لانهم أنقنوا الكتابة ونشروها بين اكثر الامم المتمدنة لاتساع تجارتهم فان الحروف الهجائية في لغات اوربا وغربي آسيا وشمالى افريقية مشتقة من حروفهم .
 وأخبار العلم قبل الاسلام في الشام ضئيلة ومنها يستدل بعض الاستدلال على مكانة العقل فيه وسلامة أذواق بنيه . وكان النور يسطع بين أهل هذا القطر على حالة منقطعة لا مطردة ، ويخرج العلماء والفلاسفة فرادى ، انتقلت اليها اسماء بعضهم ممن كانوا يعملون برأسهم او يعملون مجتمعين مع أقرانهم في ظل الحكومات مثل يوسيفوس المؤرخ اليهودي في سنة ١٠٠ م وله عدة تواريخ وقد صار والياً على الجليل ، وكتب بالسريانية ثم ترجمت كتاباته باليونانية ، ومنهم يوستوس الطبراني اليهودي المؤرخ وفيلون اليهودي الجبلي وفيلودورم الابيكوري من جدر وتودور الخطيب من عسقلان وأقليدس المهندس النجار الفيلسوف الرياضي الذي نبغ في صور ، كما نبغ فيها فرفور يوس الفيلسوف ، وكان بعد زمن جالينوس ، ونبغ في العلم بولودر المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً على نهر الطونة (الدانوب) وجاء في رافية ارسطيفس الرفي وفلسفته هي الفلسفة الاولى قبل ان تتحقق الفلسفة ، وثاوذوسيوس الفلكي كان في القرن الاول قبل المسيح في مدينة طرابلس الشام ، وعن نشأ في اللاذقية نيقولاوس صاحب جوامع الفلسفة وتوفلس صاحب الحجج في قدم العالم .

واشتهر في هذه القرون الاولى هر مپوس البيروتي تليذ فيلون المؤرخ الفيثقي في فنون الأدب ، وطوروس البيروتي في الحكمة ، ولو پيركوس البيروتي في اللغويات والفلسفات ، ومناسياس البيروتي في الخطابة ، واشتهر في الآداب مرقس كالريوس يرويس البيروتي ، وفي الجغرافيا مار ينوس الصوري ، وكان معاصراً لبطليوس القلوذي في القرن الثاني للمسيح . وكانت انطاكية على عهد خلفاء الاسكندر او سلوقس نيقاتور ومن جاء بعده مباءة أدب وحكمة ، ونبغ فيها من الشعراء ورجال الدين والأدب والخطابة على عهد انتشار النصرانية رجال عظام مثل القديس يوحنا فم الذهب اليوناني ، والقديس لوقا ، والشاعر ارسنياس . وكما كانت انطاكية دار حكمة وعلم ، كانت بيروت تدعي مرضعة الحكمة على عهد الرومان ، لانه كانت فيها

مدرسة الفقه التي أسسها على الغالب بعض امبراطرة الرومان من الشاميين — وقد نشأ من حمص وبصري امبراطرة لبسوا تاج المملكة الرومانية وحكموها — وكانت اللغة اللاتينية لسان العلم في تلك المدرسة ، ويدرّس فيها الفقه والآداب واللغة يقصدها الطلاب من جميع أنحاء المملكة حتى من روم القسطنطينية ومن أبناء العرب ، وقد تخرج باساتذتها أناس تأفقت شهرتهم في الادب والشريعة ، وكان قضاة الرومان من خريجيها مدة اربعة قرون ، وكان اثنان من تلامذتها من جملة اعضاء المجمع الذي ألفه الامبراطور يوستينيانوس لتدوين الفقه وقيل ثلاثة وهم اودكسيوس واناطوليوس ودوروثاوس ، ومن أساتذتها اميل بابنيان من بيروت وكان من أشهر فقهاء الرومان ، وعد من جملة الفقهاء الخمسة الذين نزل أقوالهم منزلة شريعة ، واذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله ، ومنهم اولبيان وهو من المشهورين من فقهاء الرومانين ذهب بعضهم الى ان مولده بيروت وغيرهم الى انه في صور ، ومنهم يوليوس بولس الحمصي وهو مشهور في الفقهاء الرومان ، ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف افلاطوني ، ومنهم لوسيان السميساطي كان نقاشاً فقيهاً فيلسوفاً بليغاً ، ومنهم اسباسيوس الجبيلي الخطيب المؤرخ ، ولنجينيوس صاحب زينب ملكة تدمر الذي جلبته كما جلبت بولس دي ساموزات اسقف انطاكية لينشر العلم في أرجاء مملكتهما . ومن كان في تدمر وفي أرجاء الشام على ذلك العهد كيكاراتيس الصوري وعالم المؤرخين يوسانياس الدمشقي ونيكوماخوس المؤرخ . ومن أفضلت عليه زينب صاحبة تدمر وكانت تعرف التدمرية المصرية واليونانية واللاتينية والعربية على الأرجح لان اسماء اولادها عربية — كاسيوس ويونيسيوس واوريجانس فيلسوف قيسارية . ومن علماء بيروت الاقدمين هرمبوس له تأليف عديدة وسيلير الفيلسوف ومناسيا ألف كتاباً في الببائ والفيلسوف الافلاطوني طورس والطبيب اسطرابون وساو يرس بطريرك اليعاقبة وهذا كان في القرن الخامس للميلاد . وكثر في القرن الثالث للميلاد ببلاد الشام الكتاب وارباب القرائح واهل العلم والحصافة والحكمة ومن نشأ فيها من الادباء والفلاسفة لوسين وجامبلتوس وبلوتين . قال سنيوبوس : حفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا

ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها ونشروها .

مواطن العلم في القطر } كان العلم يدرس في تلك الاحقاب في اربع
قديمًا } مدارس وهي القسطنطينية والاسكندرية
ورومية وبيروت ، وقد أنشأ الرومان مدرسة في قيسارية ، وأخرى في آثينة ،
وكان لصيدا على ذلك العهد مدرسة حكمة ذات شأن ، ولكن دون مكانة مدرسة
جارتها بيروت . وقد الغى يوستينيانوس مدارس قيسارية وآثينة والاسكندرية ،
وابقى مدارس رومية والقسطنطينية وبيروت ، ولقب بيروت بأُم العلوم وظئر
الشرائع . وأعني ديوقليسيانوس قيصر الفقراء المتخرجين في مدرسة بيروت من
الضرائب نشيطاً لهم . قال المسعودي : انتقل مجلس التعليم من آثينة الى
الاسكندرية وجعل اغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين
الاسكندرية ورومية ، ونقل تيودوسيوس الملك التعليم من رومية وردّه الى
الاسكندرية . وقد خربت مدرسة بيروت قبل الاسلام بالزلازل التي تواترت على
الثغر في القرن السادس للميلاد ثم حريق سنة ٥٦٠ م الذي التهم بيروت
ومساكنها ومعاهدها .

قال استرابون الجغرافي اليوناني من اهل القرن الاول قبل الميلاد لم يبق في صور
وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة ، بل كان فيهما كثير من أصحاب علم
الهيئة والعلوم الرياضية والخطباء والفلاسفة ، ومدارس تقتبس فيها كل العلوم
البشرية ، وقد أنشأت صيدا في ايامنا كثيراً من الفلاسفة منهم بواتيوس تليدنا
وديودوت ابوه ، ونشأ في صور انتيباتر وقبله ابولون ، وكان في ايامنا فيلسوف اسمه
بوسيدونيوس كان شليشرون يسمع خطبه .

وكانت اللغة اللاتينية ثم اللغة اليونانية هما لغة العلم في هذه الأحقاب ، ولكن
السريانيين أصحاب البلاد الأصليين لم يكونوا دون الرومانيين واليونانيين في تخريج
الرجال ، ولا سيما في عهد النصرانية . فقد هبت في المئة الرابعة للميلاد اللغة الآرامية

السريانية بحلب وجوارها من رقدتها ، فسار في ظليعة أهلها كيرتونا الشاعر الكبير ،
نشأ في حلب او في صقعا ودرس الآداب السريانية في مدرسة الرثا ، وهي احدى
المدارس العالية في العالم السرياني ، ونشأ منهم سمعان العمودي وبلاي والقديس
اسحق الانطاكي ، ومن فحول شعراء السريان ، اخسنايا المنجي احد غلاة المنوفسية
(الطبيعة الواحدة) ويوحنا بن افتون القنسريني شيد ديراً على ساحل الفرات عرف
بدير قنسرين ، وكان جامعة للآداب والمعارف الآرامية عصر أطويلاً مات سنة ٥٣٨
وتوما الحرقلي نشأ في دير ترعيل قرب حلب وتلقى دروسه في قنسرين وقد ترجم
الأناجيل وغيرها من الاسفار المقدسة من اليونانية الى السريانية .

ومن المدارس التي أنشأها السريان في غير أرض الشام ، ولكنها خرجت للشاميين
رجالاً أيضاً ، وسرى من علومها على هذا القطر نسمات مباركات ، مدرسة حران ،
وقد اخذت الشام ولا سيما شمالها منذ القرن الخامس نغص بالمدارس والاديار حيث
تدرس الآداب السريانية ، ويتنافس مع المدارس العالية الاخرى في بلاد
السريان ، وكانت حران بمثابة آئينة العالم الآرامي ، كما انبعثت من مدرسة نصيبين
في ديار مضر في القرن الرابع شعلة الآداب الكلدانية الآرامية . وفي تاريخ
كلدو واثور ان مدرسة نصيبين كانت اول مدرسة في الشرق ، ازهرت في القرن
الخامس والسادس والسابع وبلغت عزها ومجدها ، واشتهرت مدرسة نصيبين اكثر
من مدرسة اورهاي اشتهار مدرسة المدائن وغيرها ، وكان صيتها في فارس والروم
وايطاليا وافريقية ، وهي اول كلية لاهوتية بل اول جامعة درس فيها علم الالهيات ،
وظهر منها علماء كفاءة كتبوا في كل فن ولا سيما في الالهيات . واشتهر اليعاقبة
كالنساطرة في العلم والتأليف . والنسطوريون اكثر عدداً ، واليعاقبة اكثر مادة .
وكان يرشح من علوم هؤلاء الاشور بين على بلاد الشام شيء كثير للاشتراك في
اللغة والدين اذ ذلك .

هذا بعض ما انتهى اليه من أخبار العلم ونوابغه في الشام من الفينيقية والسريانية
والرومانية والبيزنطية ، وما زالت بعض آثارهم وأخبارهم شاهدة بفضلهم ، وانهم
لإسوادون من خلفهم في امور كثيرة ، مما اهتدي اليه العقل البشري ، فان حرمانا

كتبهم لان الكتابة كانت على حالة ابتدائية فلم نحرم كتابات لهم منبورة على بعض
الاحجار ، دونوا فيها أعمالهم الحربية وماثرهم العلية ، لا جرم ان من ينشي هذه
المصانع وينزل فيها لا بد ان يكون على جانب من الغنى ، وهذا لا يزكو الا بالعلم المختلف
الضرور وفي ظل حضارة رائعة .

العلم عند العرب وما حملوا } تاريخ العلم في العرب من أغرب ما سُمع في
منه الى الشام } تاريخ البشر ، فبعد ان كانوا نصف متمدنين
يكثروا فيهم الأُميون ويقل من يكتب فيهم حتى في اهل الطبقة الاولى ، وبعد فيهم
من الممتازين من يحسن الكتابة ، خرجوا فجأة من ظلمات الجهل الى أنوار العلم ، ومن
ضيق البداوة الى متسع المدينة . ولما جاء الاسلام لم يكونوا مولعين بغير الشعر
والخطب ، لا يعرفون غير الفصاحة والبلاغة ، وهما في مجتمعاتهم جماع كل العلوم ،
وكانوا ينقلون أنسابهم وأخبارهم في الصدور ، وعلومهم في الطب والنجوم عبارة عن
تجارب شخصية او تقليدية ، ولم يكن التدوين يعهد عندهم ، وكانت حدثت هذه الكتابة
بالخط العربي قبل الاسلام بقليل نقلها الى الحجاز حرب بن أمية بن عبد شمس بن
عبد مناف القرشي الأموي ، وكان قدم الخيرة فعاد الى مكة بهذه الكتابة . وقيل
لابي سفيان بن حرب ممن أخذت هذه الكتابة فقال من واضعها مراسم بن مرة .
واول من علم بمكة الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاصي بن أمية أمره الرسول صلى الله
عليه وسلم ان يعلم الكتاب بالمدينة ، ثم كان ممن أسر بيدرو ولا مال له ، فقبل منه ان يعلم
عشرة من غلمان الانصار الكتابة ويحلى سبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت .
ولما فتحت الشام وكانت أشبه بنصف عربية بن حكمها من الغسانيين في الجنوب
والوسط والنتوخيين في الشمال من عمال الروم ومن كان ينزلها من القبائل والبطون
العربية في أرجاء تدمر والفرات وغزة وسينا ، كان الشعر مما يفاخرون به ، واذا نشأ
فيهم شاعر رفعوا من شأنه واعتمدوا على قريحته في الشدائد . وكان جبلة بن الايهم
من ملوك الغسانيين شاعراً مجيداً يحجب بالشعر ويميز عليه وهو ممدوح حسان بن ثابت
ومن اهل بيته فصحاء لا يستهان بهم . ولطالما جاء الشام في الجاهلية كثير من شعراء

جزيرة العرب فكأنهم كانوا ينزلون على أهل جيلهم وقبيلهم ، ومنهم امرؤ القيس وقد ذكر في شعره بعض بلاد الشام ، وكذلك حسان بن ثابت ذكر بلاد الغساسنة ومنازلهم . وأقام المتوفى سنة ٥٨٠ م في حوران عند الغساسنة الى وفاته .

قال الجاحظ : لم يكن العرب تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ، ولا حساباً ، ولا اصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ، ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ، ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ، ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم ، وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ، ورؤوس المكابيل ، ولا عرفوا الدوابنيق والقراريظ ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغناء الذي يورث البلادة ، والثروة التي تحدث الغرة ، ولم يهتموا ذلاً قط فبيعت قلوبهم ، او تصغر عندهم أنفسهم ، وكانوا سكان فياف ، وتربة عمراء ، لا يعرفون التعمق ولا اللثق (اي الندى والغيم اي ان ارضهم جافة) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم : اذهاب حداد ، ونفوس مفكرة ، فحين جلوا حدهم ، ووجهوا قواهم الى قوت الشعر ، وبلاغة المنطق ، وثقيف اللغة ، وتصريف الكلام ، وقيافة البشر ، بعد قيافة الاثر ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، وتعرف الانواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ، وبعض هذه العلال صارت نفوسهم اكبر ، وهمهم ارفع ، وهم من جميع الامم انحر ، ولايامهم اذكر اه .

جمع القرآن ونشره } اول عمل عظيم قام به الصحابة (رضوان الله عليهم)
 في الشام } على عهد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) جمع
 القرآن ، وكانوا ستة نفر من الانصار على ما روى ابن سعد وهم أبي بن كعب ومعاذ
 ابن جبل وابوالدرداء وزيد بن ثابت وسعد بن عبيد وابوزيد ثابت . وكان مجمع
 ابن جارية قد جمع القرآن الا سورتين او ثلاثاً . وكان ابن مسعود قد أخذ بضعا
 وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع . قال وكان بقي على مجمع بن جارية سورة

او سورتان حين قُبِضَ النبي (ص) وفي رواية ابن النديم ان من جماع القرآن عدا من ذكروا ، علي بن ابي طالب وعبيد بن معاوية رضي الله عنهما . فلما كان زمنُ عمر بن الخطاب كتب اليه يزيد بن ابي سفيان : ان اهل الشام قد كثروا وربلوا وملؤا المدائن ، واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعني يا امير المؤمنين برجال يعلمونهم . فدعا عمر اولئك الخمسة فقال لهم : ان اخوانكم من اهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم ، ان أجبتهم فاستهموا ، وان انذبت ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لتساهم . هذا شيخ كبير لأبي ايوب ، واما هذا فستيم لأبي بن كعب . فخرج معاذ وعبادة وابو الدرداء . فقال عمر : ابدؤا بجمص فانكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة منهم من يلقن ، فاذا رأيتم ذلك فوجهوا اليه طائفة من الناس ، فاذا رضيتهم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد الى دمشق ، والآخر الى فلسطين . وقدموا حمص فكانوا بها حتى اذا رضوا من الناس اقام بها عبادة ، وخرج ابو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين . واما معاذ فمات عام طاعون عمواس ، واما عبادة فصار بعد الى فلسطين فمات بها ، واما ابو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات . وابو الدرداء هذا هو الذي قال : لا يكون (المرء) عالماً حتى يكون متعلماً ولا يكون عالماً حتى يكون بالعلم عاملاً .

قلنا وهذه اول بعثة علمية حجازية انت الشام لتعلم اهلها وثقافتهم . ويرجع الفضل الأول في اقتراح انفاذها لاحد ابناء ابي سفيان النجباء كما كان ابو سفيان وابو حرب نقلوا الخط العربي الى الحجاز ، والشام مدينة لأمية في امور كثيرة لا شترأكها في خدمة الحضارة اشترأكاً عملياً بفضل عقولهم ونبوغهم .

قال زيد بن ثابت : أرسلت الى ابي بكر فأتيته فاذا عمر بن الخطاب عنده فقال ابو بكر : ان عمر اتاني فقال لي ان القتل قد استحرّ بالقراء يوم اليمامة واني اخشى ان يستجر القتل في القراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن ، فأرى ان يجمع القرآن بحال فقلت لعمر : كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال عمر : هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ورأيت ذلك الذي رآه عمر . قال زيد بن ثابت قال ابو بكر : انك رجل شاب

عاقل لا نتهمك . قد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) فتدبّع القرآن واجمعه ، قال زيد : فوالله لنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ من الذي أمرني به من جمع القرآن ، أجمع من الرقاع والخفاف^(١) والعسب^(٢) وصدور الرجال حتى وجدت سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصاري لم اجدها مع احد غيره . فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة ابنة عمر — رواه صاحب النهروست .

وامر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثلاثين بنسخ المصحف الذي كتب في زمن سلفه أبي بكر ونفر يقه في الامصار ، وكان بلغ عثمان ما وقع في امر القرآن من اهل العراق فانهم يقولون : قرآنا اصح من قرآن اهل الشام ، لانا قرأنا على ابي موسى الاشعري ، واهل الشام يقولون : قرآنا اصح لانا قرأنا على المقداد بن الاسود ، وكذلك غيرهم من الامصار ، فأجمع رأيه ورأي الصحابة على ان يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر رضي الله عنه ، وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الامصار . وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بامر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان : ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

فتح العرب الشام ولم يحملوا اليه غير دين يبعد عن الشرك وعبادة الاصنام ، وغير بلاغة الشعر والخطب المغروسة في طباعهم ، وفطر سليمة جبلت عليها نفوسهم ، فاقتبسوا في الحال مدنية من نزلوا عليهم وتمثلوها وهضموها في اقصر مدة ، واتوا بعدها بامور جديدة ، على ما قاموا بمثل ذلك في بغداد ومصر وفارس والاندلس وغيرها . وقد اظهروا وهم في اوج عزهم من التسامح مع اهل البلاد الاصليين ما دهش له

(١) الخفاف ككتاب حجارة بيض رفاق . (٢) العسب بضمين جمع العسيب وهي

جر يدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

المخالقون واستغربه الموافقون ، ولا غرو اذا فتحوا صدورهم لتعلم العلوم بعد ان ثبت ان الرسول عليه السلام امر زيد بن ثابت ان يتعلم كتاب اليهود اي يتعلم لغة غير لغة العرب .

العلم والأدب في }
القرن الأول }
ومن شعراء الأمويين جرير والفرزدق وكانت
للاخطل الشاعر صحبة يزيد بن معاوية مدحه وهجا
الانصار، وما فيهم بيت الا ويقول الشعر ولم يمسه احد بسوء ، وكان خلفاء الشام
يقربونه على حين كان اهل نخلته يتبرمون بسلاطة لسانه ، حتى ان الاسقف حبسه
مرة في الكنيسة بدمشق لشمته أعراض الناس ، واسترساله في هجوم ، هذا والملوك
تهابه ، والخلفاء تكرمه ، وذكره في الناس عظيم . ومنهم مسكين الدارمي والراعي
والراجز العجلي والأحوص وعددي بن الرقاع القضاعي وعلقمة بن عبدة وجناح بن
روح والربيع بن مطر التميمي وحكيم بن عباس بن الاعور الكلابي والحسين بن عبيد
الكلابي وانيف العذري واسباط بن واصل الشيباني صدوق الخليفة يزيد بن الوليد
وجواس بن القعطل الكلابي وعثمان بن الوليد القرشي . وكان معاوية ومن خلفه من
خلفاء بني أمية وبني مروان يفضلون عليهم ، ومن شعرائهم نابعة بنى شيبان النصراني
كان يفد على المروانيين فيجزلون عطائه ، وكان الأمويون يزسون لابي العباس الاعمي
احد شعرائهم بعطائه الى مكة ، وغالوا في الحرص على اكرام الشعراء ما خلا عمر بن
عبد العزيز فانه كان همه ان لا ترهق الرعية بالظلمات ، ولا يعطي لاحد شي
جزافاً ، وكان يقصي الشعراء عن حضرته لارتكابهم المطاعن والتشبيب في أشعارهم ،
ولكنه كان رضي الله عنه يفضل على العلماء فقد كتب الى والي حمص : « انظر الى
القوم الذين نصبوا انفسهم للنقمة وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل
منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي
هذا وان خيرا خيرا عجلة والسلام اه » . وظلت القبائل في الاسلام اذا نشأ منها شاعر
تغتبط وتفاخر ، واذا عدمته ذلت ، لانها تعده لسانها الناطق ومدون مفاخرها .
وقد اعطى النعمان بن بشير عامل حمص اعشى همذان شاعر اليمن عشرين الف

دينار من مال اليمانية ، اقتطعها برضاهم من عطائهم ديناراً ديناراً ، وكان من خلفاء الأمويين مثل يزيد الاول والوليد الثاني من يقول الشعر الجيد وكان عبد الملك من اكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً .

وقد نشأ في القرب الاول من الفقهاء والمحدثين جملة صالحة في الشام منهم عبد الرحمن بن غنم بن سعد الاشعري الصحابي ، بعثه عمر بن الخطاب الي الشام يفتقه الناس فذقه عليه عامة التابعين بالشام (٧٨) ومنهم فضالة بن عبيد الصحابي ولي قضاء دمشق لمعاوية وأمره غز الروم في البحر (٥٣) ، وابوالدرداء الخزرجي الزاهد الحكيم المقرئ ولي قضاء دمشق في خلافة عثمان مات سنة ٣٢ واول من أحدث رواية القرآن بدمشق هشام بن اسماعيل وبفلسطين الوليد بن عبد الرحمن . ومن علماء الشام ابو ذر جندب بن جنادة الغفاري صادق الاسلام واللسان . واوس بن اوس الصحابي الشاعر سكن بيت المقدس والرملة (سنة ٣٢) ، ومن اخباريهم عبيد بن شريحه الجهمي وفد على معاوية بن ابي سفيان ودون اشياء في أخبار الملوك اخذ عنه علاقة بن كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب ايام يزيد بن معاوية ، وكان عارفاً بايام العرب وأحاديثها وهو احد من أخذت عنه المأثر وربما جاز ان يعدّ اول من دون التاريخ في الشام ، والقاسم بن عبد الرحمن الشامي من فقهاء دمشق (١١٢) .

ومن علماء الشاميين ابو ادريس الخولاني فقيه الشام وقاضيه ، وعمرو البكالي المحدث الفقيه ، وبشير بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني مروان ، وابراهيم بن كثير بن المرتجل الرملي ، وكان عبادة بن الصامت والي بيت المقدس لعمر بن الخطاب قرأ عليه ابو سلام الحبشي واسمه محذور ويقال الباهلي الدمشقي ، وشهر بن حوشب الاشعري المحدث (١٠٠) ، وبلال بن ابي الدرداء الانصاري قاضي دمشق (٩٣) ، وابو مسلم الخولاني شيخ النجباء وزاهدا من سادات التابعين ، وثور بن يزيد الحمصي المحدث ، ورجاء بن حيوة بن جندب الكندي الأردني ويقال الفلسطيني الفقيه كان ثقة عالماً كثير العلم ، وروح بن زنباع يكنى بابي زرعة ويقال بابي زنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان ، ورجاء بن ابي سلمة الفلسطيني المحدث . ومالك بن دينار احد الاعلام أقام في القدس (٢٣) وجبير

ابن نفيير الحضرمي عالم اهل الشام (٧٩) وغيلان بن مروان الدمشقي من كبار المعتزلة وكان الحسن يقول اذا رأى غيلان في الموسم « أترون هذا هو حجة الله على اهل الشام ولكن الفتى مقتول » وكان أوحد دهره في العلم والزهد قتله هشام بن عبد الملك وقتل معه صاحبه صالحاً لانه كان ينال من بني أمية .

ونشأ من الكتاب في هذا القرن عبد الله بن اوس الغساني سيد اهل الشام وفي الفلسفة ساويرا سابوخت أسقف قنسر بن يعقوب بن كان على عهد السفيا بنين في الشام ممثل الحركة الأدبية وقد جادل الموارنة بمحضرة الخليفة معاوية سنة ٦٥٩ م والف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطراب والفلسفة واللاهوت ، ويعقوب الرهاوي وغيرهم ، ونشأ في القرن السابع للميلاد اي في القرن الاول للهجرة كالنيكيوس البعلبي وهو مهندس كياوي قيل انه مخترع النار اليونانية المركبة من النفط والكبريت والقطران وغيرها ، وكان الروم باستعمالها لها نجوا من حصار معاوية للقسطنطينية . وكان ابو قرة اول كاتب نصراني ديني كتب بالعربية . ومن مشاهير المسيحيين في القرون الاولى القديس يوحنا الدمشقي (٧٨٠ م) كان علماً في عصره والف كتباً كثيرة في اللاهوت ومنهم قزما المنشي وقزما البار وندراوس الاقريطشي والبطريك صفرونيوس وهذا هو الذي سلم القدس لعمر بن الخطاب .

وكان سرجون بن منصور المسيحي من أمناء سر معاوية بأتمنه على الاموال اي انه كان وزير ماليته ، وظلت دواوين الخراج في الشام تكتب بالرومية وعليها سرجون ثم ابنه منصور بن سرجون الى ان نقلت الى العربية ، نقلها ابو ثابت سليمان بن سعد وكان على كتابة الرسائل ايام عبد الملك . وكان نقل الديوان من الرومية الى العربية وضرب النقود وكتابتها بالعربية على عهد عبد الملك بن مروان اول خطوة في رسم الشخصيات العربية في الامة ، وتأسيس قواعد المملكة على الاصول ، وبذلك اصبحَت الدولة العربية مستقلة من كل وجه .

وكانت الكتب التي ترجمت لابي هاشم	}	خالد بن يزيد اول فيلسوف مسلم
خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان		

عني بالنقل واوائل التدوين

الأموي حكيم آل مروان وعالم قریش، أول نقل اوتعرب كان في الاسلام في عاصمة الشام . وخالد بن يزيد هذا زهد في الخلافة وعشق العلم ، واذا أنشأ جده معاوية ملكاً في الشام دام الف شهر ، فانه أنشأ بعلمه مملكة باقية بقضاء الدهر ، فقد « امر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وامرهم بنقل الكتب الى الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي » والصنعة صنعة الكيمياء . فترجمت له كتب فيها كما ترجمت له كتب في الطب والنجوم . ومن نقل له اصطفن القديم ، نقل من اليونانية واللاتينية كتب الكيمياء ، وكان خالد هو نفسه بصيراً بالطب اخذه عن يحيى النخوي واخذ الكيمياء على مريانس الرومي واثقن هذين العلمين والف فيهما وله رسائل وكتب في غير هذه الاغراض ، دالة على معرفته وبراعته ، وله شعر كثير ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه . وكان من الطبقة الثانية من تابعي اهل الشام وقيل عنه قد علم علم العرب والعجم ، وكان خطيباً شاعراً حازماً ذارأي ، فهو اول من اعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب اهل الحكمة ورؤساء اهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات . هذا ما اجمع عليه المؤرخون في خالد الا ان بوليوس روسكا الالماني قال : ليس لدينا شهادة من عصر خالد بن يزيد تثبت ميله العلمي وليس فيما نعرفه عن الحياة الرسمية في ذلك العصر أقل اشارة تدعو الى الظن ان ابن خليفة في دمشق عني بالعلم اليوناني وعملاً يبحث المرء عن رجل اهتم بترقية العلم في المغنين والموسيقين والشعراء والنساء والرجال الذين كانوا ينادون اهل القصر الأموي فان المهندسين الذين كانوا يبنون قصور الخلفاء والجوامع هم من الغرباء وكذلك نجد من الغرباء ايضاً الاطباء والفلكيين ، هؤلاء هم الحاشية ولكننا لا نستطيع ان نبين ولا ان ننقض ما ذكر من ان خالداً له كان ولع بالكيمياء وما من تأليف علمي او شعري مما نسب اليه يمكن ان يعتبر انه من تأليفه اه عن المجلة الآسيوية الباريزية الصادرة سنة ١٩٢٤ م .

واسمع الآن ما قاله صاحب الفهرست قال محمد بن اسحق الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذارأي وهو اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً

يقال انه قيل له : لقد فعلت اكثر شغلك في طلب الصنعة فقال خالد ما أطلب بذلك الا ان اغني اصحابي واخواني اني طمعت في الخلافة فاخترت دوفي فلم اجد منها عوضاً الا ان أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا احوج احداً عرفني يوماً او عرفته الى ان يقف بباب سلطان رغبة او رهبة ويقال والله أعلم انه صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه كتاب الحرات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة .

جاء في التاريخ العام لم يعرف العالم القديم منذ القرن الثامن الى القرن الثاني عشر سوى مدينتين مدينة البيزنطيين ومدينة العرب . وقد دبت الروح في هذه بما تمهياً لها من الانتشار فأزهرت في آسيا واوربا وافريقية من الصين الى اسبانيا فنشأت مدينة العرب من احتكاكهم بالمدينيات الشرقية ، وأثر فيها مؤثران الفارسي واليوناني فان فارس على عهد الحكومة الساسانية نشأت لها شبه نهضة ، وذلك لوقوعها بين ثلاث ممالك كبرى بيزنطية والصين والهند وأصبحت مدة اربعة قرون نقطة تبادل الفكر الانساني . وينا كانت فارس تتلقى سفراء الصين وتجذب بالاخذ من المصادر الهندية آدابها وافكارها كانت تقبل الكهنة النساطرة وأصحاب الفلسفة الافلاطونية من آثينة والاسكندرية يكافؤنها على ضيافتها لهم بترجمة تآليف فلاسفة يونان وعلماهم . وقد عاوت فارس على انتشار التمهيد اليوناني بعد دولة السلاقس (السلوقيين) في الشام والبطالسة والبارثيين والساسانيين فلما جاءت العرب وجدت المدينة اليونانية راسخة في جميع البلاد التي داهمتها اولاً مثل الشام ومصر والعراق على تخوم آسيا الصغرى . فكانت تقرب من المملكة البيزنطية فبدت لهم من وراء المدينة البيزنطية القرية اليونانية كما تجلى لهم من الفرس المدينيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدوا في بلاد كنعان ومصر تذكارات من الامم القديمة التي لا تزال عليها مسحة الاجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها .

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها ، بل بعد ان تمزقت ونقسمت أصبح دينها واحداً ولسانها واحداً وقوانينها المعمول بها واحدة ، وذلك من نهر السند الى أعمدة

هي كقول وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم ، وأخذوا يقتبس احدهم من الآخر من تبادل التجارة وسياحة الافراد ونقل الجيوش والامم وانتشار المعتقدات والاخلاق والافكار يتصادمون ويتمازجون ويتحدون ويتداخلون وكل شعب ينقل الى الآخر ثقاليده وتاريخه وملكااته الطبيعية . فالمدينة التي عمل فيها هذا العدد الكثير من المؤازرين المختلفين ليست اذاً عربية صرفية بل هي بحسب النموذجات التي تشبعت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه يونانية وفارسية وشامية ومصرية واسبانية وهندية ، ولكن اذا وجب ان يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف الانكار بان قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم فلم يكونوا واسطة فقط لنقل هذه المدينة ينقلون الى الشعوب الجاهلة في افريقية واسبانيا واوربا اللاتينية معارف الشرق الادنى والاقصى وعلومه واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبّت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدينة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم . وبنضلم تيسر للحضارة الاسلامية في القرون الوسطى التي عاونت فيها ابد أخرى ان تكون ذات وحدة موصوفة ، فالنقل في محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، فان سلطة الاساتذة الأقدمين لا تمنع الابحاث العلمية والاختراعات الحديثة كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار الفنون ولطافة الابداع في الاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق احدي مراكزها ومنبعث انوارها اه .

وخالد بن يزيد اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الاسلام في دمشق اذاً أنشئت اول دار للكتب في العالم العربي ، ودمشق اول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فأولي ابو هاشم بعمله هذه الامة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلي على الايام . وان الشام ليغخر بان فيه قامت اول دولة عربية ممدنة ، وتمت فيه كثير من شخصيات الامة العربية ، ومن اولها التدوين والترجمة ، فالشام اول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب فباعثها من غيرها وهذا يعد من مفاخرها الثالثة . وخالد بن يزيد اول من عني بعلوم الفلسفة ولم ينفرد بذلك المنصور العباسي خلافاً لما قاله كاتب چليبي من ان علوم الاوائل

كانت مهجورة في عصر الاموية . قال الاصفهاني كان خالد بن يزيد ينزل حلب
وتوفي سنة ٨٥ هـ .

وبذا رأينا ان التدوين حدث في القرن الاول في العلوم الدنيوية ويرى
المستشرق ناليو الايطالي انه ربما كان اول كتاب ترجم من اليونانية الى العربية
كتاب أحكام النجوم المنسوب الى هرمس الحكيم ، واختلفوا في اول من صنف في
الاسلام ، فقيل الامام عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥
اول من صنف في الحجاز ، وقيل ابونصر سعيد بن ابي عروبة سنة ١٥٦ اول من صنف
بالعراق وقيل ربيع بن صبيح سنة ١٦٠ وكان مطمح نظر المدونين ضبط مقاصد
القرآن والحديث ومعانيهما ثم دونوا فيما هو كالوسيلة اليها .

والحقيقة ان التدوين حدث في عصر الصحابة الكرام على ما في « توجيه النظر »
فقد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت ألف كتابا في علم الفرائض وذكر البخاري
ان عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في
عهد ابن عباس في قضاء علي . وذكر صاحب الفهرست انه رأى في مدينة
الحديثة — حديثة الفرات وتعرف بحديثة النورة على فرسخ من الانبار — خزانة للكتب
فيها يخطوط الامامين الحسن والحسين وأمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه
السلام ويخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطوط العلماء في النحو
واللغة مثل ابي عمرو بن العلاء وابي عمرو الشيباني والاصمعي وابن الاعرابي وسبويه
والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان
الثوري والاوزاعي وغيرهم . قال ابن النديم وكان في خزانة المأمون كتاب يخط
عبد المطلب بن هاشم في جلد ادم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة
على فلان بن فلان الحميري من اهل وزل صنعا عليه الف درهم كيلاً بالحديدة ومتى
دعاها اجابه شهد الله والمكان .

وذكر المؤرخون ان اول كتاب نقل الى العربية كتاب اهرن بن اعين وجده
عمر بن عبدالعزيز في خزائن الكتب فأمر باخراجه ووضع في مصلاه واستخار الله
في اخراجه الى المسلمين للانتفاع به ، فلما تم له في ذلك اربعون صباحاً أخرجته الي

الناس وبثه في أيديهم . وعمر بن عبد العزيز هو الذي قال كنت أصحب من الناس سراهم ، واطلب من العلم شريفه ، فلما وليت امر الناس اجتبت الى ان أعلم سفاسف العلم ، فتعلموا من العلم جيداً ورديته وسفاسفه .

* * *

علماء القرن الثاني والادب } مضي القرن الاول وجاء الثاني فكثرت القراء
والنقلة والمنشئون فيه } والمحدثون والشعراء بل النقلة والمترسلون
والكتاب بكثرة الفتوحات وفرط العناية بالعلم والادب وشدة الحاجة اليها ، وقد
نبغ في هذا القرن كثير من أهل العلم منهم رجاء بن حيوة الفلستيني الكندي الفقيه
العالم الذي كان يجالس عمر بن عبد العزيز (١١٢) ومكحول مولى بني هذيل فقيه
الدمشقيين واحد أوعية العلم والآثار (١١٣) وعبد الله بن عامر اليحصبي القاري
المحدث احد القراء السبعة من التابعين من اهل دمشق (١١٨) وسليمان بن ابي موسى
الاشدق الفقيه وكان أعلم اهل الشام بعد مكحول (١١٩) وربعة بن يزيد شيخ دمشق
بعد مكحول (١٢٣) وسليمان بن حبيب الحاربي قاضي دمشق اربعين سنة (١٢٦)
ويحيى بن يحيى بن قيس الغساني كان ثقة اماماً عالماً بالفنوى والقضاء وسيد اهل
دمشق (١٣٥) ويزيد بن يزيد بن جابر الازدي امام فقيه (١٣٤) والعلاء بن الحرث
الحضرمي الفقيه (١٣٦) ويحيى بن الحرث الزيادي المقرئ الدمشقي وعليه دارت
قراءة الشاميين (١٤٥) وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر المحدث (١٥٤) وعبد الرحمن
ابن عمرو الازاعي البيروتي (١٥٧) كان امام اهل الشام وعلمهم قيل انه أجاب في
سبعين الف مسألة ، وصار يعمل بمذهبه في الشام نحو مائتي سنة وآخر من عمل بمذهبه
احمد بن سليمان بن جندلم قاضي الشام وعمل أهل الاندلس بمذهبه اربعين سنة ثم
تناقص بمذهب الامام مالك . وكان الازاعي عظيم الشأن بالشام وأمره فيهم أعز من
امر السلطان . وكان مع علمه بارعاً في الكتابة والترسل .

ومن علماء الشام يونس بن ميسرة بن حابس كان ثقة ولما دخل المسودة اية
العباسيون في اول سلطان بني هاشم دمشق دخلوا مسجدها فقتلوا من وجدوا فيه
فقتل يومئذ يونس بن ميسرة بن حابس ، وقتل جد ابي مسهر عبد الاعلى بن مسهر

الغساني دمشقي وذلك سنة ١٣٢ وثور بن يزيد الكلاعي الحمصي وكان ثقة في الحديث (١٥٣) والوليد بن مسلم الدمشقي صاحب الاوزاعي وكانوا يقولون علم الشام عند اسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم فأما الوليد فمضى على سنه ميموناً عند أهل العلم منقناً صحيح العلم (١٩٥ او ١٩٤) ومن المحدثين الفقهاء في دمشق المطعم بن المقدم الصنعاني وابو مرثد الغنوي وابراهيم بن جدار العذري ومبشر بن اسماعيل الحلبي مولى كلب كان ثقة مأموناً (٢٠٠) ويحيى بن عمرو السيباني من أهل الرملة (وسيبان بالسين المهملة بطن من حمير) (١٤٨) وصعصعة بن سلام الدمشقي المحدث كان اول من أدخل علم الحديث الى الاندلس . وصدقة بن عبد الله السمين من كبار محدثي دمشق (١٦٦) والهلقل بن زياد مفتي الوليد بن مسلم وله تصانيف تبلغ السبعين (١٩٥) وعبد الله بن ابي زكريا الخزاعي الفقيه كان عمر بن عبد العزيز يكرمه ويجلسه معه على السرير (١١٧) ونمير بن اوس الاشعري المحدث (١٢١) وربيعه بن يزيد القيصري من أئمة التابعين (١٢٢) وابراهيم بن عبله من علماء التابعين (١٥٢) وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان المحدث (١٦٥) وسعيد بن عبد العزيز النخعي الفقيه العالم (١٦٧) ومحمد بن الوليد الزبدي كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث (١٤٨) ويحيى بن حمزة كان كثير الحديث وكان قاضياً بدمشق (١٨٣) وبقية بن الوليد الحمصي المحدث (١٩٧) واسد بن وداعة الطائي الحمصي المحدث (١٣٧) .

وحرص المسلمون في الصدر الاول بعد علم الدين على علم الطب ، وكان من الاطباء من القرنين الاول والثاني زمرة صالحة مختلفة مذاهيم منهم الحكم بن ابي الحكم الدمشقي الطبيب وكان ابوه ابو الحكم طبيباً في صدر الاسلام ، وكان ابو الحكم يستطبه معاوية ويعتمد عليه اعتماده على ابن أثال من الاطباء التميزين بدمشق . ومنهم عيسى ابن حكم الدمشقي المشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير . وتياذوق كان في اول دولة بني مروان ومشهوراً عندهم بالطب . ومنهم عبد الملك بن ابجر الكناني كان طبيباً عالمًا ماهراً يقيم في اول امره في الاسكندرية لانه كان المتولي للتدريس بها بعد الاسكندرانيين ، ولما ملك المسلمون الاسكندرية اسلم ابن ابجر على يد عمر بن عبد العزيز فاستطبه واعتمد عليه في صناعة الطب .

وفي اواخر المئة الاولى مالت النفوس الى الكتابة ميلها الى الشعر من قبل
 للاغراض التي ثنوقف عليها في التأليف والمكاتبات ، وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب
 امام الانشاء العربي وواضع أساسه في مدينة دمشق ايضاً ، وكان عالماً في كل فن من
 فنون الادب (١٣٢) وهو الذي فك قيود الانشاء وضبط اصوله وكتب خننه سالم
 ويكنى ابا العلاء هشام بن عبد الملك وهو احد الفصحاء والبلغاء . وقد نقل من
 رسائل ارسطاليس الى الاسكندر ونُقل له وأصلح هو وله رسائل ومجموع نحو مائة
 ورقة . وكتب قنان بن متى ليزيد بن ابي سفيان لما ولي الشام ثم معاوية بعده ووصله
 معاوية بابنه يزيد وفي خلافته مات . واستكتب يزيد ابنه قيس وكتب قيس
 لمروان ولعبد الملك ثم هشام وفي ايامه مات واستكتب هشام ابنه الحصين ثم
 استكتبه مروان . ومنهم أسامة بن زيد ابو عيسى النخعي الكاتب ويقال الكلابي
 ولي كتابة الوليد بن عبد الملك وكان على ديوان الجند بدمشق . ومن المشهورين
 بالبلاغة والخطابة عبد الملك بن صالح الهاشمي نسب الى منبج ، وخالد بن عبد الله
 القسري الخطيب المفوه (١٢٦) وابو السامي كاتب الوليد بن معاوية وعبد الله بن
 خراش كاتب كلثوم بن عمرو العتابي وابو مسلم الشامي .
 قلنا ان النقل نشأ في الشام بعناية خالد بن يزيد الأموي ، وزاد النقل بعده ،
 ومن الناقلين اي المترجمين جبلة بن سالم كاتب هشام ، وكان ناقلاً من العربي الى
 الفارسي ونقل بعضهم شيئاً من تواريح الامم عن الفارسية لهشام بن عبد الملك ولم
 يلبث النقل ان صار الى بغداد بانتقال الخلافة اليها فانقل بذلك المترجمون الذين
 أنبغتهم الشام مثل قسطا بن لوقا البعلبي الفيلسوف الطبيب المهندس المترجم المصنف ،
 وكان يحسن العربية والسريانية واليونانية ، جيد النقل فصيح اللسان ، ومثل ابي عثمان
 الدمشقي الذي كان منقطعاً الى الامير علي بن عيسى وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي
 الناعمي المعروف بابن الناعمة ، وزروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي وكلاهما من النقلة ،
 وهلال بن ابي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وحنين بن اسحق البغدادي
 المولد نشأ في الشام وتعلم فيه .
 وظهرت آثار معارف هؤلاء النقلة على عهد المنصور والمأمون العباسيين لشدة

رغبة الدولة اذ ذاك في النقل من السرياني واليوناني والفارسي والهندي وغيره . وللشاميين منذ القديم ميل الى النقل عن الامم الاخرى ، هكذا فعلوا في كل قرن فقد كان الناقلون منهم في القرنين الاول والثاني وكذلك في القرون التالية الى يومنا هذا وهم أقدر الامم على تعلم اللغات الغربية والاجادة فيها كأهلها . وكان اكثر النقل عن السريانية ، وهذه نقلت عن العبرانية ، وهذه نقلت عن اليونانية ، ولذلك تعب فلاسفة المسلمين في حل رموز الفلسفة اليونانية لانها نقل عن نقل ، وذكر احد المعاصرين من الافرنج ان كتب ارسطو كانت تنقل ليفهمها اهل القرون الوسطى من اليونانية الى السريانية ومنها الى العربية ومنها الى العبرية ومن هذه الى اللاتينية وكان التراجمه بادىءً لا يدركون فهم المعاني من كتب العرب وينقلونها الى اللاتينية حرفاً بحرف بدون محصل . وقال نالينو : ان اكثر نقلة القرن الثاني كانوا ضعافاً في العلوم يترجمون بالحرف دون فهم الموضوع وكثيراً ما ترددوا في تعريب المصطلحات العلمية المحبولة عند العرب في ذلك العصر ، ومن المعلوم ان طريقة التعريب لم تنقن الا في القرن الثالث .

وقد سلك جميع فلاسفة المسلمين طريقة ارسطاطاليس في جميع ماذهب اليه وانفرد به سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي افلاطن والمتقدمين . قال المؤرخون : ان المنصور كان اول خليفة قرب المنجمين واول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية ككتاب كليلة ودمنة وكتاب أفليدس وكتب اليونان فنظر الناس فيها وتعلقوا بها . وقالوا ان المأمون او اباه الرشيد أنشأ دار الحكمة ببغداد وكان يجتمع فيها علماء ذلك العصر للبحث والمذاكرة ، وان المأمون جرت بينه وبين ملك الروم مراسلات في شأن العلم واستأذنه في انفاذ من يجمع من الكتب المدخرة في خزائن الروم فأذن ملك الروم فأنفذ المأمون السجاج بن مطر ويحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وغيرهم وعادوا الى بغداد بكتب كثيرة من العلوم وأخذوا يترجمتها .

كادت تصبغ دمشق دار العلم والفلسفة فتراجعت تراجعاً ظاهراً بانقراض دولة بني مروان منها ، فانتقل العلماء والنقلة الى عاصمة اتسع صدرها اكثر من الشام للعلوم البشرية ، ووجدت من رجال بني العباس في بغداد معاضدة فعلية وحرية وتسامحاً

مستغرباً ، فانتقلت مجالس العلم من الشام الى العراق ، وكان عمر بن عبد العزيز في خلافته نقل التدريس الى انطاكية سنة ٩٩ ثم انتقل العلم الى حران في ايام المتوكل وكانت حران من ارض الجزيرة مدينة الصابئين . ولها منذ عهد المتوكل القدر المعلى في إنشاء علماء ورياضيين وفلكيين ، ولو لم ينبغ فيها غير ثابت بن قرة وأولاده وغير البتاني صاحب الزيج لكفاها نغراً على غير الدهر ، ومعظم الصابئة الذين تخرجوا في حران دانوا بعد بالاسلام ، ونقلوا العلوم الى العراق والشام ، الا ان اعمالهم كانت عمل أفراد لا عمل جماعة ، فلم تسمع لها تلك الرنة القوية كما كانت على عهد الخلفاء الأول من العباسيين في بغداد ، وكان من أثرها في القرون التالية انشاء المدرسة النظامية ثم المستنصرية ، من أقدم جامعات العرب . وحافظت انطاكية على مكانتها الاولى أوائل ظهور الدين المسيحي حتى القرن الثاني للهجرة وربما زادت ونبغ فيها كثير من الرجال .

* * *

العلم والادب في القرن الثالث } لم يكن للقرن الثالث ما كان للقرن الذي سلفه من النهضة وتجلي آثار النبوغ والتجدد ، بل كان كالثمة لبعض ما سميت له الهمم في القرنين الماضيين ، وعلى صورة ربما كانت أضعف ، ولكن زاد التدوين فيه أكثر من ذي قبل ، وأخذت بغداد حظها من العلماء الذين قصدوها من القاصية وبقية الشام بمعزل ، واذ كانت العلوم الفلسفية قد راجت في بغداد أواخر القرن الثاني والثالث سرى منها شعاع الى الشام بالطبع لكن عراها ما خنتها . فقد ذكر المؤرخون ان المهدي العباسي بلغه وهو في حلب ذاعباً الى غزو الروم ان في تلك الناحية زنادقة فجمعهم وقتلهم وقطع كتبهم . وما يدرينا ان كان هؤلاء الزنادقة فلاسفة فلطالما وصم اهل الفلسفة بتلك الوصمة . ومن افضل على الشام من العباسيين الخليفة المأمون فانه أنشأ فيها مرصداً فلكياً عمله له يحيى بن ابي منصور وهو أحد أصحاب الأرصاد المشهورين في ايامه وكان ذلك في سنة خمس عشرة وست عشرة وسبع عشرة بعد المائتين وبطل الامر بموت المأمون في شهر ثمانى عشرة . وقام في الشام أمثال محمد بن عائذ صاحب المغازي والفتوح وغير ذلك من

المصنفات المفيدة (٢٣٣) وعبد الله بن ذكوان القاري الحافظ (٢٤٢) وهشام بن
عمار خطيب دمشق وقارمها وفقهها ومحدثها (٢٤٥) واحمد بن ابي الحواري من
كبار المحدثين والصوفية (٢٤٦) ومحمود بن سميع صاحب الطبقات وأحد الاثبات
الثقات (٢٥٩) وابو زرعة البصري وعبد الرحمن بن عمرو المحدث صنف كتباً (٢٨١)
وابو مسهر عبد الاعلى الغساني شيخ دمشق وعالمها كان راوية سعيد بن عبد العزيز
المنونجي وغيره من الشاميين (٢١٨) وصفوان بن صالح المؤذن المحدث (٢٣٩) والقاسم
ابن عثمان الجوعي شيخ دمشق وزاهاها (٢٤٨) والحافظ زكريا بن يحيى الشجري
المعروف بخياط السنة (٢٨٧) وعبد الغفار بن عثمان والوليد بن مزيد العذري
البيروتي كان من اهل العلم والرواية وكان الاوزاعي يقول فيما عرفت ما حمل عني
اصح من كتب الوليد بن مزيد (٢٠٣) وولده ابو الفضل العباس بن الوليد البيروتي
كان من اهل العلم والرواية (٢٧٠) والامام محمد بن ادريس الشافعي الكوفي احد
الائمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومئة وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ وهو اول من صنف
في اصول الفقه . ومن اعيان العلماء محمد بن عوف الطائي الحمصي (٢٦٩) ذكر عند
عبد الله بن احمد بن حنبل في سنة ٢٧٣ فقال ما كان بالشام منذ اربعين سنة مثل
محمد بن عوف . وعبد الله بن اسماعيل بن زيد بن صخر البيروتي ومحمد عبد الله بن
عبد السلام بن ايوب البيروتي وآدم بن ابي اياس العسقلاني من مشايخ البخاري في
صحيحه (٢٢١) وهشام بن الغازي بن ربيعة الجُرشي الصيداوي (٢٥٦) والحافظ
ابوبكر محمد بن بركة بن الحكم بن ابراهيم بن الفرداج الحميري المصيصي القنسريني
المعروف ببرداعس من اهل قنسرين سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها عن
ابي جعفر احمد بن محمد بن رجاء المصيصي ويوسف بن سعيد بن مسلم وهلال بن
ابي العلاء الرقي وابي زرعة الدمشقي .

ولقب حافظ كان يطلق على من يحفظ الؤفاً من الاحاديث باسانيدها ، وفي تدر يب
الراوي وكانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث باسناده سواء كان عنده علم به
اوليس له الا مجرد رواية ، ويطلقون اسم المحدث على من كان ارفع منه والعالم على من يعلم
المتن والاسناد جميعاً ، والفقهاء على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون

المحدث والحافظ بمعنى والمحدث من عرف الاسانيد والعلل واسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ من ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند احمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر الف جزء من الاجزاء الحديثة .
هذا أقل درجاته فاذا سمع ما ذكره كتب الطباقي ودار على الشيوخ وتكلم في العلال والوفيات والمسانيد كان في اول درجات المحدثين . سأل نقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزني عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز له ان يطلق عليه الحافظ قال يرجع الى أهل العرف .

ومن كان في الشام الامام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة كان من أهل حرستا من غوطة دمشق كان والده جندياً موسراً قال والده ترك ابي ثلاثين الف درهم فأنتفت خمسة عشر الفاً على النحو والشعر وخمسة عشر الفاً على الفقه والحديث .
وعثمان بن خرداذ الانطاكي المحدث . وابو الحسن محمد الغساني الصيداوي المعروف بابن جميع الحافظ المحدث وابو عبد الله محمد بن علي الصوري الحافظ . واحمد بن اخليل الحلبي المحدث واحمد بن المسيب الحلبي المحدث وعبد الله بن اسحق الصُفْرِي المحدث ومؤمل الرملي وابن بويه الربيع بن نافع ويزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله ابن موهب الرملي روى عن الليث بن سعد والمفضل بن فضالة وروى عنه ابو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني وابو زرعة الرازي ومات سنة ٢٣٢ وموسى بن سهل الرملي (٢٦٢) وعبد الله بن محمد بن نصر بن طويط ويقال طويث ابو الفضل البزاز الرملي الحافظ سمع في دمشق هشام بن عمار ودُحِيماً وهشام بن خالد بن احمد ابن زكوان ووارث بن الفضل العسقلاني ونوح بن حبيب القومسي .

ومن شعراء هذا القرن البطين الشاعر الحمصي وعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن من شعراء بني العباس وأصله من سلميَّة وادريس بن يزيد النابلسي الاديب الشاعر وادم بن محرز والعتابي وابو تمام . واشتهر في هذا القرن بالهندسة ابوبكر البناء المهندس الذي لابن طولون ميناء عكا .

الادب في القرن الرابع ونهضته } قل في القرن الثالث في الشام الشعراء
 على عهد سيف الدولة } والادباء ، ولم ينبغ فيه الا رجال في
 الحديث ، والمغازي والفقهاء ، فطلع القرن الرابع وقد ظهر فيه الادب العربي في
 مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله ، ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير ، اللهم
 الا اذا كان على عهد الامويين ولم تبلغنا جميع أخبار شعرائه ونعني به عهد سيف الدولة
 ابن حمدان في حلب ، وقد قصده نوابغ الشعراء والادباء ، وتجلي في علم الأدب
 وشعر العرب روح غريب كان القرنان السالفتان كالمقدمة للكتاب الكبير الذي
 صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الأدب أحسن شرح .

قال الثعالبي: و يطول بنا الكلام في ذكر المتقدمين من شعراء الشام ، فأما المحدثون
 فخذ اليك منهم العتابي ومنصور النمر والاشعج السلي ومحمد بن زرعة الدمشقي ورببعة
 الرقي على ان في الطائفتين (ابي تمام والبحتري) اللذين انتبته اليها الرياسة في هذه
 الصناعة كفاية وهماهما . ومن مولدي اهل الشام المعوج الرقي والمريبي والعباسي المصيبي
 وابو الفتح كُشاجم والصنوبري وابوالمعتصم الانطاكي ، وهؤلاء رياض الشعر وحدائق
 الظرف . قال : انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام بالين زمام
 وأحسنوا وأبدعوا ما شاؤوا .

ويقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف
 الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وانما السلطان سوق يُجلب اليها ما ينفق
 لديها ، وكان أدبياً شاعراً محبباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . ولقد أورد
 صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة ومن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من
 أدبهم في سوقه ما هو بهجة النفوس مدي الايام .

وبينا كان سيف الدولة يفضل على الشعراء ويأخذ بايديهم كان الفاطميون وهم مثله
 شيعة يُرهقون بعض علماء السنة في الشام إرهابهم لهم في كل قطر حكموه حتى قتلوا
 على رواية بعض المؤرخين بعض من تظاهروا بالسنة . ومن خلفائهم من كان يتساهل
 مع اهل السنة فيؤذنون ويصلون على مراسمهم . ومن رأي القلقشندي ان
 الفاطميين كانوا بالعكس يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من اظهار شعائرهم

على اختلاف مذاهبهم ولا ينعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك ، ومذاهب مالك والشافعي واحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب ابي حنيفة ويزعون مذهب مالك ومن سألم الحكم به آجابوه .
 وكان في هذا القرن اكثر الجهابذة والصباغين والصارفة والديباغين بالشام من اليهود واكثر الاطباء والكتبة نصارى . والنحطت مدن الشام في العلم انحطاطاً كثيراً ومنها حمص . ذكر السيوطي انه نزلها خلق من الصحابة وانتشر بها الحديث زمن التابعين والى ايام حر يز بن عثمان وشعيب بن ابي حمزة ثم اسماعيل بن عياش وبقية وابي المغيرة وابي اليماني ثم اصحابهم ثم تناقص ذلك في المائة الرابعة وتلاشي ثم عدم بالكلية .

كان ابو فراس الحمداني الذي قال فيه صاحب بُديء الشعر بملك وختم بملك ، يعني امراً القيس و ابا فراس — ابن عم سيف الدولة وأعطاه على بيت واحد ضيعة بمئج تغل الف دينار . ولطالما اعطاه واعطى الشعراء في بابه ولا سيما ابو الطيب المنيني عشرات الالوف من الدنانير دع الايقاعات والضياع ، وكان ابوبكر وابو عثمان الخالديان من خواص شعراء سيف الدولة وكانا على خزانه كتبه . وربما قل في الملوك من مُدح بمثل ما مدح به سيف الدولة حتى ان كلاً من ابي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وابي الحسن علي بن محمد السمساطي قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت . وكان ابو محمد الفياض كاتباً لسيف الدولة ونديمه معروفاً ببعده المدي في مضمار الأدب وحلبة الكتابة ، اخذ بطرفي النظم والنثر ، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السفارة الى الحضرة احدًا ، لحسن عبارته ، وقوة بانه ، ونفاذه في استغراق الاغراض ، وتحصيل المراد .

ومن خواص شعراء سيف الدولة ابو العباس احمد بن محمد النامي وكان عنده تلو المنيني في المنزلة والرتبة ، ومنهم ابو الفرج عبد الواحد البيضا من اهل نصيبين ومن شعرائه او ما قربوا من عصره الخليل الشامي والواواء الدمشقي وابو طالب الرقي وابو حامد احمد بن محمد الانطاكي المعروف بابي الرقعمقي ، وابو القاسم الحسن الواساني الدمشقي واحمد بن محمد الطائي الدمشقي وابن ابي الجوع وابن رشدين وكشاجم

(وأقام كشاحم في الرملة كثيراً فسمي الرملي ٣٦٠) والصنوبري و أبو الفتح البكتيري
 و أبو الفرج العجلي و أبو حصين الرقي و أبو الفرج سلامة بن بجر . و من علماء الأدب
 و اللغة ابن خالويه و ابن جني . و من الشعراء أبو محمد جعفر و أبو أحمد عبد الله أبناء
 و رقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام و قوادها و المخلصين بسيف الدولة . و كان جعفر بن
 و رقاء الشيباني (٣٥٢) من بيت امرأة و تقدم و آداب ، و كان المقتدر يجره مجرى بني
 حمدان و تقلد عدة ولايات ، و كان شاعراً كاتباً جيد البديهة و الروية ، و كان يأخذ
 القلم و يكتب ما أراد من نثر و نظم كأنه عن حفظه ، و كان بينه و بين سيف الدولة
 مكاتبات بالشعر و النثر مشهورة — قاله ابن النديم . و من الشعراء منصور و أحمد أبناء
 كريمة ناغ و أبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البازيار تديمه مشهور في البلاغ و أبو زهير
 المهلهل نصر بن حمدان و المغنم المصري و اسمه أبو الحسن محمد الشعباني و أبو عبد الله
 محمد بن الحسين و أبو نصر بن نباتة التميمي و الشيطمي و أبو العباس الصنوبري و أبو
 العباس الناشئ و أبو نصر البنص كان من جلسائه و تولى القضاء ، و أبو القاسم الرقي
 المنجم الفلكي صحب سيف الدولة و خدمه و اختص به و حضر مجالس انسه ، و عبد العزيز
 ابن نباتة السعدي كان شاعراً مجيداً وله في سيف الدولة غرر القصائد و نخب المدائح
 (٤٠٥) و من شعراء القرن الرابع الحسين بن عبد الله بن حصينة المعري (٣٢٧) و من
 اجتمع بسيف الدولة و جالسه مدة ثم جاء معه الى دمشق فتوفي فيها المعلم الثاني فيلسوف
 الاسلام أبو نصر محمد الفارابي صاحب التأليف الممتعة في الحكمة (٣٣٩) و كان
 سيف الدولة عين له اربعة دراهم كل يوم .

و قام في هذا القرن من العلماء ابراهيم بن عبد الرزاق الانطاكي مقري اهل الشام
 (٣٣٨) و من المحدثين عمر بن علي العتكي الانطاكي الخطيب الحافظ صاحب كتاب
 المقبول و عبد الوهاب الكلابي المحدث (٣٩٦) و محمد بن عبيد الله يعرف بابن ابي
 الفضل ابو الحسن الكلاعي الحمصي المحدث (٣٠٩) و عمر بن حسن الخرقني الحنبلي
 الدمشقي صاحب التصانيف العديدة و أحمد بن سليمان بن جدم الفقيه (٣٤٧) و أحمد
 ابن شرام الغساني احد النخاة المشهورين بالشام (٣٨٧) و محمد بن أحمد بن ابي بكر
 البناء المقدسي الجغرافي الرحالة صاحب كتاب احسن التقاسيم المطبوع و ابو مسهر

البيروتي المعروف بمخول الحافظ الثقة الثبت المشهور (٣٢١) وابو طاهر بن ذكوان
 البعلبي المؤدب (٣٥٩) والنجم الصابي البعلبي كان صحب الأئمة خشيده محمد بن طنج وابو القاسم
 علي بن احمد الانطاكي كان رياضياً مهندساً وله تصانيف جليلة وكان مشاركاً في
 علوم الأوائل (٣٧٦) وابراهيم الأزدى العجلي الانطاكي الفقيه المقرئ (٣٣٨) ومحمد
 ابن جعفر صاحب التصانيف المشهورة كاعتلال القلوب وغيره توفي في يافا (سنة ٣٢٧)
 ومحمد التميمي المقدسي كان مخمناً بالحسن بن عبدالله بن طنج . والحافظ احمد بن عمير
 مولى بني هاشم شيخ الشام في وقته رحل وصنف وذاكر وحدث (٣٢٠) وابو الحسين
 ابن كشكرايا الطبيب العالم صاحب الكناش المعروف بالحاي وعيسى الرقي المنجم
 الطبيب وكلاهما من أطباء سيف الدولة . وكان عيسى ينقل من السريانية الى
 العربية ويأخذ اربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب
 علمين آخرين . وعبدالله بن عطيه المقرئ الدمشقي المفسر كان يحفظ خمسين الف بيت
 من شعر العرب في الاستشهادات على معاني القرآن واللغة (٣٨٣) وعبدالرحيم بن نباتة
 الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان خطيب حلب وبها اجتمع بابي الطيب المنبئي في
 خدمة سيف الدولة (٣٧٤) وقام في حلب اربعة من الشعراء المعدودين وهم ابو الحسن
 المستهام الحلبي وابو محمد الماهر الحلبي وابن القتيح الموازني الحلبي وابو الفرج بن ابي
 حصين القاضي الحلبي . ومن الشعراء الشاميين ابو الجود الرسعيني واسمه محمد بن
 احمد وابو مسكين البردعي شاعر محدث يتنقل في البلدان وكان مجوداً . والخليغ الرقي
 واسمه محمد بن ابي الغمر القرشي . ومن المهندسين الرياضيين المجتبي الانطاكي (٣٧٦)
 وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة له تاريخ . وقيس الماروني له كتاب حسن في التاريخ .

* * *

الآداب في القرن الخامس } امتاز القرن الخامس بان نشأت فيه طائفة من
 الخامس } الرجال الذين عُنوا بالفلك والعلم الطبيعي والرياضي
 والطب ، كما امتاز بان نبغ فيه في الأقطار العربية الاخرى من الفلاسفة امثال ابن
 رشد وابن سينا والبيروني والغزالي والرازي ممن فخر العرب على تعاقب الحقب .
 وقد انتقلت من كتبهم وافكارهم اشياء كثيرة الى بلاد الشام ، ويصح ان يقال ان

العلم اقترب من العلوم المادية في هذا الدور ، فبعد ان ذهبت عن الناس الدهشة بالفصاحة والشعر ونقل الاحاديث والعناية بالدين وتم تدوين أقوال ارباب المذاهب والشعراء انصرفت العناية الى علوم الدنيا . وممن نشأ في هذه الديار من هذا القبيل ابو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والتقسيمات والهندسة وعلم الهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب وله عدة تأليف (٥٠٠) ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم والهندسة والهيئة وعلم المساحة والميقات والفلك (٥٠٠) ورضوان الخراساني نزيل دمشق العالم بالرياضيات . وجورجس بن يوحنا البرودي العالم بالطب وله عدة رسائل ومقالات . ومن المؤرخين حمزة بن اسد ابو يعلي التميمي المعروف بابن القلانسي العميد صنف تاريخاً للحوادث بعد سنة اربعين واربعمائة الى حين وفاته وقد طبع باسم ذيل تاريخ دمشق تولى رئاسة دمشق مرتين . ومبارك بن شرارة ابو الخير الطيب الكاتب الحلبي النصراني كان له جرائد مشهورة يجلب عند اهلها يحفظونها لاجل الخراج المستقر على الضياع اذا اختلف النواب في شيء من هذا النوع رجعوا اليها وله تاريخ حلب توفي في حدود سنة ٤٩٠ في صور . ومن الحفاظ محمد بن علي الصوري الحفاظ قالوا كان يذاكر بمائتي الف حديث . قال غيث : سمعت جماعة يقولون ماراً بناً أحفظ منه (٤٤١) والحافظ محمد بن جميع الغساني الصيداني ويقال له الصيداوي (٤٠٢) وعبد الواحد الشيرازي المقدسي الانصاري شيخ الشام في وقته نشر مذهب الامام احمد بن حنبل فيما حوله ثم أقام بدمشق فنشر المذهب بها وله تصانيف مهمة (٤٨٦) وسلامة بن اسماعيل بن جماعة المقدسي الضرير كان كثير الحفظ الف تأليف (٤٨٠) والحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني صاحب الخطب البديعة مشهور بنثره (٤٨٢) .

ومن الكتاب والخطباء صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي الكاتب وابواليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني كان صاحب الديوان مجلب وتدرس بن الحسن النصراني كان وزير صالح بن مرداس وصاحب السيف والقلم وعبدالله بن اسعد فقيه مجمص يعرف بابن الدهان . وأسامة بن مرشد الكنتاني الملقب بمؤيد الدولة من ساكني حماة كانت له يدبضاء في الادب والكتابة والشعر . وعبدالعزيز بن احمد

الكناني الدمشقي الصوفي المحدث (٤٦٦) نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي عالم الشام له عدة تصانيف درس العلم ببيت المقدس مدة ثم أتى صور فأقام بها عشر سنين ثم جاء دمشق (٤٩٠) علي بن داود الداراني الخطيب (٤٠٢) وهو الذي طلع الى داريا كبراء دمشق لما مات خطيب جامعهم وأرادوه على ان يخطبهم فوثب اهل داريا بالسلاح وقالوا: لا نعطيكم خطيبنا فقال رئيسهم: اما ترضون يا اهل داريا ان نسمع الناس في البلاد ان اهل دمشق احتاجوا اليكم في امام . ومن مشاهيره الحسين ابن علي بن شواش الكناني المقرئ (٤٩٧) والحسين بن علي بن ابراهيم الاهوازي شيخ القراء بدمشق (٤٤٦) والخطيب ابو نصر بن طلاب مسند دمشق (٤٧٠) وابو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الواعظ العالم شيخ الشافعية في عصره (٤٥٦) ومن الشعراء عبد المحسن الصوري الشاعر (٤١٨) وابو الفتيان بن حيوس الحلبي الشاعر . محمد بن سنان الحلبي الشاعر . ابو مشكور الحلبي الشاعر . احمد ابن فضالة الدمشقي شاعر . علي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة يعرف بابن القارح من شيوخ الادب راوية للاخبار كتب لابي العلاء المعري رسالته المشهورة فأجابه عنها برسالة الغفران وكلا الرسالتين مطبوع .

وأهم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ ابي العلاء احمد بن سليمان المعري النخوي حكيم العرب وأديبهم ، وقد كانت المعرفة في ايامه كعبة القصاد ، من طلاب الآداب ، جذبهم اليها ابو العلاء بعقله وعلمه ، فجعلها دار حكمة وأدب ، كما جعل سيف الدولة في القرن الذي قبله مدينة حلب مجمع الادباء والشعراء بفضل احسانه ومشاركته . أحسن نابغة الشام ابو العلاء المعري الى الآداب العربية اي احسان ، وهو من بيت أدب وفضيلة ، كان ابوه عبد الله بن سليمان لغوياً شاعراً ، وأخوه الاكبر محمد بن عبد الله واخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وكان الشعر والأدب متسلسلاً فيهم من بطون كما تسلسل في بيتهم القضاء مدة مائتي سنة . ومن شيوخ ابي العلاء ابوبكر محمد بن مسعود النخوي ومحمد بن عبد الله بن سعد النخوي الحلبي ، ومن تلامذته ابو غالب همام بن الفضل بن المهذب صاحب التاريخ المشهور ، وابو يعلى عبد الباقي بن ابي الحصين ، وابو محمد عبد الله الخفاجي ، ورشاء بن لطيف

ابن ماشاء الله المقرئ وهذا كان اول من أنشأ في دمشق داراً للقرآن في حدود سنة ٤٤٤
والخطيب التبريزي والحسن علي بن همام والامير ابو الفتح الحسن بن عبد الله بن ابي
حصينة ومئات غيرهم من أهل المعرة وكفرطاب وحلب ودمشق وحمص وحماة
وطرابلس والرقية وهكار والمصيصة وبغداد وتبريز والاندلس الى غيرهم من النواحيين
اهل بيته ، وكان اكثر هؤلاء يقول الشعر الجيد حتى أصبح ذلك من اختصاصهم .
ومن صحب ابا العلاء المعري واخذ عنه كثيراً علي بن القاضي النونخي كان من اهل
بيت كلهم فضلاء ادباء ظرفاء . ومما يستدل به على انتشار الآداب في هذا العصر
وتغالي الناس في الشعر والأدب ما قيل من ان سبعين شاعراً رثوا المعري على قبره
يوم مات ، فما بالك بسائر شعراء الشام على ذلك العهد .

ومما يذكر في هذا القرن ان القاضي جلال الملك ابا الحسن علي بن محمد بن
احمد بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة اثنتين وسبعين
واربعائة لتكون مركزاً من مراكز التشيع ، فنشرت العلوم والآداب واصبحت طرابلس
مبارة علم ودرس ومباراة في التعلم وجهز هذه الجامعة الدينية بمئة الف مجلد وربما
كانت على عهده قبل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام على
مارأى فان برشم .

العلم والادب في القرن } دخل القرن السادس وعلى كثرة ما كان فيه
السادس } من الفتن وأقلها الحروب الصليبية التي كانت
على أشدها ، نشأ للامة في هذه الديار علماء خدموا العلم في فنون مختلفة ، وامتاز هذا
القرن بان أنشئت فيه (٥١٥) اول مدرسة بحلب لاهل السنة أنشأها بدر الدولة
سليمان بن أرئق صاحب حلب وسماها المدرسة الزجاجية حتى كان نور الدين زنكي
فأنشأ المدارس واول مدرسة أنشأها كان سنة ٥٤٥ في حلب سماها المدرسة
العصرونية وهو اول من أنشأ داراً للحديث في الاسلام . ثم كثرت إنشاء المدارس في
هذا القرن والذي بعده فأخذ الفقهاء والمحدثون والادباء يخرجون فيها على نظام في
الجملة ، فكثير بنور الدين وصلاح الدين عدد العلماء .

وقد تحلى الناس عن الشعر قليلاً في هذا القرن اي كانت العناية به أقل من عصر سيف الدولة وعصر ابي العلاء المعري ، وان كان نور الدين وصلاح الدين وأسرتها ممن يميزون عليه ويعجبون به ويترنمون بسماحه ، وكان من أهل بيت صلاح الدين الشعراء المفلحون . ومما عني به نور الدين محمود بن زنكي انه كان يجلب العلماء من القاصية ويسكنهم بالشام مثل قطب الدين النيسابوري وشرف الدين بن ابي عصرون وكان يبني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مرديهم أنواع الاحسان والرواتب . وقد أحصي فقهاء مدارس دمشق في عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه ، كان يعطيهم من صدقاته . ومن كتاب القاضي الفاضل لصلاح الدين : ومما يجب ان يعلم المولى ان ارزاق أرباب العائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي الف دينار بشهادة الله وربما كانت ثلاثمائة الف دينار .

وقد أزهرت في هذا القرن مدرسة اليعاقبة في طرابلس ايضاً ومنها نشأ ابو الفرج بن العبري صاحب التاريخ المطبوع المعروف به . وتجلت في هذا القرن للصلبيين فوائد المدنية الاسلامية بعد ان كانوا تذوقوها من جوارهم في الاندلس . وتعلم كثير من المحاربين والقواد والامراء منهم اللغة العربية في بلاد الشام . قال في تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها : اما بشأن اللغة (اي في عهد الصليبيين) فقد حدث ما يحدث في مثل هذه الاحوال على صورة مطردة ، وهو ان لغة الاكثر تمدناً قد اثر أهلها في غيرهم . وكان اكثر الامم تمدناً بلا مرء الشرقيون ولا سيما العرب واليونان . وقد تعلم قليل جداً من العرب والترك والفرس لغة الافرنج ما عدا بعض التراجمة الرسميين . وعلى العكس تعلم كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقيب وصولهم الى فلسطين . الى ان قال : ولا ريب ان مجاورة التمدن الاسلامي قد ساعدت على زيادة النفوذ الذي كان العلم العربي والفنون العربية تؤثرها فينا منذ زمن طويل . ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير كل من الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ فقد اخذنا عن العرب اشياء كثيرة من مثل طريقة الارقام وشروح ارسطو حتى حمام الزاجل والشعار (Armoiries) وأدوات الموسيقى والأزياء والأقمشة والزهور والبقول . وبعد فاذا حدث أحياناً ان الاشياء التي

نقلت لم تكن تسمى الا باسماء المدينة الشرقية التي أخذت منها مثل ثوم عسقلان وقماش دمشق فان غيرها قد احنفظت باسمائها العربية مع بعض التحريف وهي كثيرة ويتألف منها في الفرنسية مجموع كبير في الجملة ام . قلنا وعلى كثرة انتشار اللغة الفرنسية بين الصليبيين لم تكن اللغة الرسمية بل كانت الايطالية . قال بونفيس في القانون الدولي : كانت اللغة الايطالية لغة السياسة في الشرق وذلك في العصر الذي عقد فيه العرب والمسيحيون انقافتهم السلمية الاولى .

وكان في هذا القرن ابوالمجد محمد بن ابي الحكم ، وكان طبيباً مهندساً فلكياً (٥٧٠) ومنهم ابو زكريا يحيى البيهاسي من اطباء صلاح الدين وعمل لابن النقاش وهو علي بن عيسى بن هبة الله استاذة في الطب آلات كثيرة تتعلق بالهندسة وكان يعرف النجارة ، وابن النقاش هذا كان أوحد زمانه في صناعة الطب وله مجلس عام للشتغلين عليه وكان يعالج ايضاً كتابة الانشاء (٥٧٤) وابو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربي وهو عالم بالحكمة والطب والأدب والهندسة (٥٤٩) (١) . وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي عالم بالطب شاعر له تأليف (٥٧٦) وابن الصلاح عالم بالحكمة متميز بالطب مليح التصنيف (٥٤٠) وموفق الدين بن المطران عالم بالطب والفلسفة متعين في الفنون الأدبية له عدة مصنفات (٥٨٧) وقد نعى على اهل زمانه فتورهم وزهدهم في العلوم وقلة مضائهم ورغبتهم في الكتب والآثار وتطير بنفانم الخطب في هذا الشأن .

وابو الفضل عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي وهو مهندس طبيب نجار نحات هندس اكثر أبواب المستشفى النوري الكبير اشتغل بالأدب وعلم النجوم والحديث له عدة مصنفات (٥٩٩) وهو الذي أصلح الساعات التي لجامع دمشق . وعلي بن عبد الباقي بن ابي جرادة العقيلي الانطاكي الحلبي عالم بالادب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف واربعين وخمسمائة . زين الدين علي بن غانم

(١) قال العماد في الخريدة ان ابا الحكم كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله اربعون رجلاً المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم .

الانصاري الدمشقي المعروف بابن منبج الختلي كان من أعيان أهل العلم وله رأي صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص . ومحمد بن طاهر المقدسي ذوالرحلة الواسعة والتصانيف والنعاليق ذهب الى اباحة السماع (٥٠٧) والحافظ ابو القاسم علي ابن عساكر محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهاء صاحب تاريخ دمشق المشهور (٥٧١) وكتابه من أعظم المفاهيم في التاريخ معدن أدب وركاز علم . وتوفيق بن محمد المهندس المنجم الاديب الدمشقي وله تصانيف (٥١٦) وابو البيان محمد بن محفوظ القرشي شيخ الطائفة البهائية ويعرف بابن الحوراني له عدة تصانيف (٥٠١) . ومخلص الدين ابو البركات عبد القاهر بن ابي جرادة الحلبي كان أميناً على خزائن نور الدين وكان كاتباً بليغاً نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البدع وحسن الخط المحرر على الاصول القديمة المستظرفة . وعبد الرحيم الببائي المشهور بالقاضي الفاضل الكاتب العالم صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة ومحبي الدين بن الزكي الفقيه الخطيب (٥٩٨) وعماد الدين الاصفهاني العالم الكاتب الشاعر (٥٩٧) وكمال الدين محمد الشهرزوري الدمشقي الفقيه الاديب الشاعر الكاتب (٥٧٢) وشرف الدين عبدالله بن ابي عصرون الفقيه له عدة مصنفات (٥٨٥) . وعلي بن جعفر البلخي الدمشقي من أئمة الخنفية (٥٤٨) وسليمان بن ايوب احد أوعية العلم صنف الكثير في التفسير والحديث والفقه والعربية نشر العلم في صور (٥٤٧) والحافظ ابو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني المقدسي كان جوالاً في الآفاق يجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف وله تصانيف كثيرة (٥٦٧) وبهاء الدين بن شداد قاضي العسكر في زمن صلاح الدين يوسف الفقيه الكاتب المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع في سيرة صلاح الدين نشأ في حلب وعظم في أيامه شأن الفقهاء لعظم قدره وارتفاع منزلته . مجد الدين طاهر بن نصرالله بن جهيل الحلبي والد بني جهيل الفقهاء الدمشقيين كان اماماً في الفقه والحساب والفرائض . ومحمد بن خضر المعري شاعر . وثقي الدين عبد الغني الجماعلي له عدة مصنفات في الرجال (٦٠٠) والحسين الاسدي مسند دمشق (٥٥١) وقطب الدين النيسابوري العالم الفقيه (٥٧٨) والحسن بن هبة الله بن صصري التغلبي المحدث (٥٨٦) وتاج الدين الخراساني الفقيه الصوفي (٥٨٤) وثقيبة بنت غيث الارمنازي

الصوري الفاضلة الشاعرة الأديبة ولها شعر سائر (٥٧٩) وعلي بن الموازيني مسند دمشق (٥١٤) وابو طاهر بركات الخشوعي المحدث امتاز بالسمع (٥٩٨) وموسى البلاغشاني الفقيه (٥٠٦) وابو القاسم علي بن ابراهيم الحسيني الخطيب (٥٠٨) وهبة الله بن أحمد الاكفاني الامين المحدث (٥٢٤) وعلي بن مسلم السلمي الدمشقي الفقيه (٥٣٢) ونصر الله بن محمد المصيبي الدمشقي العالم (٥٤٢) ومن الشعراء والادباء احمد بن الخياط الدمشقي الشاعر الكاتب الأديب (٥١٧) واحمد بن منير الطرابلسي الشاعر الهجاء الوصف المشهور (٥٤٨) ومحمد بن نصر بن عنين الدمشقي الشاعر الرقيق في التشويق للديار ووصفها (٥٤٨) وطراد بن علي الكاتب المعروف بالبديع كاتب شاعر (٥٢٤) وابو الوحش الشاعر وعبد القاهر بن عبد الله الوأواء الشاعر الأديب (٥٥١) طبع ديوانه . وعرقلة الدمشقي النديم الخليع الشاعر ومحمد ابن حرب النحوي الأديب (٥٨٠) والحسين بن راحة الانصاري الحموي الفقيه الاديب الشاعر (٥٨٥) ومسلم بن خضر بن قسيم الحموي الشاعر . والحسن بن ابي الحسن صافي النحوي المعروف بملك النخاعة له مصنفات في الفقه والاصلين والنحو وله ديوان شعر (٥٦٨) وحسان بن نمير العقيلي الدمشقي الشاعر (٥٦٧) وعلوي ابن عبد الله بن عبيد الشاعر الحلبي المعروف بالباز الاشهب الاديب المننن (٥٩٦) وابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار المطبوع وكان اهله أصحاب قلعة شيزر وهو شاعر كاتب . وزرعة بن موسى ابو العلاء الطبراني النصراني كاتب الامراء بني منقذ كان معاصراً لعبد الله بن محمد بن سنان شاعر *

وقد جاء حلب الشهاب السهروردي في عهد ملكها الظاهر غازي وهو فيلسوف الهي وناظر المدرسين والفقهاء والمتكلمين فبزمه وبان له فضل عظيم عليهم فصار مكيناً عند الظاهر غازي فشنع اولئك المدرسون عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى صلاح الدين يوسف وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلقه فانه يفسد اي ناحية كان بها من البلاد فصدر امره بقتله فاختر ان يقتل جوعاً وعطشاً وهو في السادسة والثلاثين . وعلي كثرة ما أحسن صلاح الدين للبلاد في سياستها أساء الى الفلسفة بمجاراته اولئك المتعصبين الذي حملوه على قتل

السهروردي وربما كانت هذه الغلظة الفظيعة الوحيدة التي عدت على صلاح الدين لانه بقتله قتل الحكمة ، وهي صناعة الصنائع ، في هذه الديار حتى ان سيف الدين الأمدى الفيلسوف النظار الكبير في القرن التالي لم يجرأ ان يقريَّ احدًا شيئاً من العلوم الحكيمية ، وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا نقرأ الا اشياء قليلة منها وقل النابغون والمشتغلون بهذا الفن ، ومنذ أهملت العلوم الفلسفية في الاسلام أخذ مستوي العقل في علماء المسلمين يضعف وأصبح الناس الى التقليد في كل العلوم المتعارفة ، ولم تقف على حياة فيلسوف نشأ للشام من بين جميع من قام فيها من الاعلام ، ولم ينشأ من الافراد أمثال قطب الدين النيسابوري والشهاب السهروردي وسيف الدين الأمدى ، ولا من الجماعات أمثال أعضاء جمعية إخوان الصفا وجمعية أصحاب التوحيد الذين ذكر محاوراتهم في المقاييس ممن كانوا في بغداد ، وتعرض لآخبارهم ابن النديم في الفهرست والقفطي في أخبار الحكماء وابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء والبيهقي في تاريخ حكماء الاسلام وصاعد في طبقات الامم . ولقد أبان رنان كيف ان الفكر الديني لسوء حظ الاسلام تغلب بعد جدال طويل فحق الحركة العلمية الفلسفية الباهرة التي جعلت المدينة العربية بتأثيرات الفارسية واليونانية والنسطورية واليهودية ردها من الدهر ، وارثة المدينة اليونانية . قال واوربا مدينة لمدينة العرب ببقايا العلم الذي قطفت ثماره في القرون الوسطى .

العلم والأدب في القرن السابع } لما خرب النثر بغداد سنة ٦٥٦ انتقلت الحركة
الادبية بحكم الطبيعة الى الشام ومصر ولم تكن
انقطعت منها كل الانقطاع من قبل ، فهاجر كثير من العلماء من عاصمة العراق الى دمشق والقاهرة . وفي هذا القرن تعينت المسالك العلمية وكثر الاختصاصيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبغ الشام طبقة عالية عدت تأليفهم من الامهات في خزانة كتب الامة العربية ، ومرجعاً ثقة للاخلاف في أعمال الاسلاف فمن المؤرخين كمال الدين عمر بن ابي جرادة الحلبي العقيلي المعروف بابن العديم رئيس الشام صاحب تاريخ حلب ٦٦٠ وهو كمال الدين عمر بن صاحب السعيد قاضي القضاة

نجم الدين أبي الحسن احمد بن صاحب السعيد قاضي القضاة جمال الدين ابي غانم هبة الله ابن قاضي القضاة محمد الدين أبي عبدالله محمد ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي الفضل هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن احمد بن يحيى زهير بن أبي جرادة . بيت تسلسل فيه العلم خمسة بطون كانوا أجداد كمال الدين عمر أكرم به من بيت فضيلة وعلم ، يفخر المنتسب اليه وحق له الفخر . ومن مفاخر هذا القرن بحلب علي بن يوسف القفطي المعروف بالقاضي الاكرم احد الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر وله تأليف اكثرها في التاريخ والأدب (٦٤٦) وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ومن كتبه المطبوعة تاريخ الحكماء . وياقوت الرومي الحموي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الادباء والمشارك وغيرها من الكتب الممتعة المنقحة المطبوعة (٦٢٦) وفي حماة القاضي شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم له التاريخ الكبير المظفري في الملة الاسلامية (٦٤٢) وقام فيها عبد الرحمن البازري قاضي حماة وابن قاضيها وابوقاضيها . وفي حماة ايضاً علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس الرياضي (٦٤٢) والقاضي جمال الدين ابن واصل (٦٩٧) كان اماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والاصول والهيئة ألف تاريخاً في أخبار بني أيوب وله عدة مصنفات منها الانبرورية في المنطق صنعها للانبرور (الامبراطور) ملك الافرنج صاحب صقلية وبلاد انبولىة والانبرورية لما توجه اليه رسولاً في أيام الملك الظاهر بيبرس الصالح سنة ٦٥٩ . ونبغ من المهندسين ابراهيم بن غنائم المهندس باني المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق ، واسمه لا يزال منقوشاً على يسار الداخل اليها في زاوية المدخل ، وهو الذي هندس القصر الأبلق الذي قامت التكية السلجمانية في القرن العاشر على أنقاضه . ونبغ في حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر نقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة خلف عدة مصنفات منها المصارع في التاريخ وطبقات الشعراء وكان في خدمته قريب مئتي متعمم من النخاة والفقهاء والمشتغلين بغير ذلك . وجاء الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان شاعراً أدبياً وفي أيامه راجت الفلسفة وأمن المشتغلون بها على أرواحهم . وجاء الملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

وكان شاعراً رقيقاً وله ديوان (٦٢٨) ونبغ في دمشق شمس الدين احمد بن خلكان قاضي قضايتها وصاحب وفيات الاعيان الفقيه المؤرخ المدقق (٦٨١) وموفق الدين احمد بن القاسم بن خليفه المعروف بابن أبي أصيبعة دمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الاطباء المطبوع (٦٦٨) وعبدالرحمن ابو شامة وكان اماماً في فنون شتى له عدة تصانيف في التاريخ وغيره (٦٦٥) ومنها تاريخ الروضتين وذيله والاول مطبوع . وشمس الدين يوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ المطبوع ، أقام زمناً في دمشق (٦٥٤) وعبد المنعم الجليلاني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر وله عدة كتب منها عشرة دواوين من منظوم الكلام ومطلقه في مدح صلاح الدين لم يصلنا منها الا المدجمات . ومن أدهش النوابع في دمشق عز الدين الاربلي الفيلسوف الضرير كان بارعاً في الفنون الادبية رأساً في علوم الأوائل بقريء المسلمين وأهل الكتاب والفلاسفة (٦٦٠) وعاش في دمشق ايضاً حكيمان عظيمان من حكماء الاسلام وماتا فيها وهما سيف الدين علي الثعلبي الأمدى سيد العلماء وأزكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمية والمذاهب الشرعية والمبادي المنطقية أقام سنين كثيرة في حماة مستتراً ممن كانوا تحاملوا عليه ونسبوه الى الانحلال يريدون قتله . وقد صنف في اصول الفقه واصول الدين والمعقولات عدة مصنفات . طبع له كتاب الاحكام ومات في دمشق سنة ٦٣١ والثاني الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الاندلسي الدمشقي صاحب المذهب المشهور في التصوف وله عدة مصنفات في الأخلاق وكلام القوم منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم المطبوعان (٦٣٨) ونبغ في دمشق شمس الدين الخوي العالم في الحكمة والشعر والطب وغيره وله تأليف (٦٣٧) ورفيع الدين الجبلي عالم بالعلوم الحكيمية واصول الدين والفقه والعلم الطبيعي والطب وله تأليف (٦٤١) واسماعيل بن عبد الكريم المعروف بابن المعلم كان شيخ الحنفية في وقته وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر الأديب له تأليف (٦٦٧) وجمال الدين بن الرحبي الطبيب العالم ورشيد الدين الصوري طبيب متهن في علوم كثيرة وله عدة تصانيف في الطب . ومهذب الدين يوسف بن ابي سعيد السامري طبيب متميز في العلوم الحكيمية وأديب له من

الكتب شرح التوراة (٦٢٤) والصاحب امين الدولة ابو الحسن بن غزال عالم
 بالطب له فيه مصنف لم يوضع مثله (٦٤٣) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي ويعرف
 بالدخوار عالم بالطب وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق
 ونجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة والعدد صاحب المدرسة الطبية
 المنسوبة اليه في دمشق وصاحب دار الهندسة أيضاً ألف وله ثلاث عشرة سنة في
 الرد على عبداللطيف البغدادي وله عدة مصنفات (٦٢١) وعلي الدين علي بن ابي الحزم
 ابن النفيس الدمشقي شيخ الاطباء بالديار المصرية وصاحب التصانيف الكثيرة كانت
 تصانيفه يملها من حفظه وكان مشاراً اليه في الفقه والاصول والحديث والعربية
 والمنطق . وشمس الدين بن المؤيد العرضي الدمشقي من الحكماء الذين كانوا بدمشق
 ودعاهم نصير الدين الطوسي لبناء المرصد الايلجاني وأقام نصير الدين الطوسي مرصداً
 فلكياً في دمشق وكان مؤيد الدين العرضي وابنه محمد من علماء الفلك وتولى
 مؤيد الدين الارصاد في مرصد مراغة وقد وضع محمد كرة لا تزال محفوظة - في
 متحف درسدن في المانيا . وعثمان بن الصلاح المضروب به المثل في كل فن (٦٤٣)
 وعلي بن محمود الشكري النجم له يد طولى في علم الفلك وحل النقاويم شاعر خطاط
 (٦٨٠) وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم بالطب وعلوم الأدب له تصانيف طبية
 (٦٥٠) ونجم الدين ابن المنفاخ ويعرف بابن العاملة لان امه كانت عالمة بدمشق
 وتعرف ببنت دهن اللوز طبيب عالم بالحكمة والمنطق والأدب له مؤلفات (٦٥٢)
 عز الدين ابن السويدي الدمشقي عالم بالطب والأدب شاعر مجيد . موفق الدين
 يعقوب السامري عالم بالطب وعلوم الحكمة له عدة مصنفات (٦٨١) ورشيد الدين
 علي بن خليفة بن ابي أصيعة عالم بالطب والعربية وله كتب في الطب وغيره (٦١٦)
 عبد العزيز بن رفيع الدين كان متميزاً في الحكمة والطبيعي والطب واصل الدين
 والفقه . وعفيف الدين التمساني الدمشقي أديب له في كل علم مصنف (٦٩٠) وعبدالرحمن
 ابن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ ابي القاسم صاحب تاريخ دمشق كان فقيه
 وقته (٦٢٠) وشرف الدين احمد بن هبة الله بن عساكر مسند دمشق (٦٩٩) وكريمة
 بنت عبد الوهاب بن علي مسند الشام ام الفضل القرشية الزبيرية وتعرف ببنت

الحقيقي (٦٤١) وفاطمة بنت احمد بن السلطان صلاح الدين المحدث (٦٢٨) وفاطمة بنت عساكر محدثة (٦٨٣) وست العرب بنت يحيى بن قايماز ام الخير الدمشقية الكندية المحدثه . وزينب بنت علي بن احمد بن فضل الصالحية محدثة . وعائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسي المحدث (٦٩٧) . وعلي بن داود القحفازي شيخ أهل دمشق في عصره وخصوصاً في العربية . وعبد الوهاب بن سخنون طبيب مارستان الجبل بدمشق وله شعر وأدب وفقه (٦٩٤) وتاج الدين زيد بن الحسين الكندي علامة في فنون الآداب مفضل عرف بعلم السماع (٦١٣) وعلم الدين السخاوي الدمشقي المقرئ النحوي الأديب الفقيه له تصانيف (٦٥٧) وكمال الدين ابراهيم بن احمد بن فارس التميمي شيخ القراء بدمشق (٦٧٦) وعلم الدين القاسم بن احمد المرسي اللورقي شيخ القراء والمتكلمين (٦٦١) وعماد الدين عبدالكريم بن جمال الدين الحرساني خطيب الشام (٦٦٢) وعزالدين عبدالعزيز بن عبد السلام الدمشقي شيخ الاسلام له تصانيف (٦٦٠) والحافظ شمس الدين محمد بن جعوان الحافظ النحوي (٦٨٢) ورشيد الدين الربيعي مفسر لغوي كاتب (٦٨٧) ومحمد بن سعادة مفسر اصولي فقيه نحوي عالم بالخلاف والآداب والفرائض (٦٩٣) وجاء من المحدثين موسى بن عبد القادر الجبلي مسند دمشق (٦١٨) والحافظ نقي الدين اسماعيل بن عبدالله الانماطي المحدث (٦١٩) ونجم الدين مكرم بن محمد بن ابي الصقر القرشي المسند الفقيه (٦٣٥) ونقي الدين اسماعيل بن ابي اليسر النونخي مسند الشام (٦٧٦) والحافظ عبد العظيم وهو عبد الرحمن المعروف بالمسجف (٦٣٥) وامين الدين القاسم بن ابي بكر الاربلي المقرئ المحدث (٦٨٠) ومحمد بن علي ابن الصابوني المحدث (٦٨٠) .

وجاء من العلماء في الشام عبدالله الجماعلي الامام في علم الخلاف والفرائض والاصول والفقه والنحو والحساب والنجوم السيارة والمنازل (٦٢٠) ويعقوب بن صقلان المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الانطاكي وعرف بها (٦٢٦) ومحمد بن القيسراني الدمشقي عالم بالأدب والهيئة (٦٣٠) وابوالفضل بن يامين الحلبي عالم بالرياضيات وعلم حل الزيج وتفسير المواليد (٦٠٤) واحمد بن هبة الله المعروف بابن الجزراني الحلبي النحوي اللغوي وعبدالله اليونيني الزاهد اسد الشام المحدث . ونجم الدين القمراوي عالم بالحكمة والشريعة .

وشرف الدين المتاني عالم بالحكمة والشريعة (وقرأ ومتان من قرى صرخد في جبل حوران) وهما اللذان ذهبا الى الموصل مخنفيين ليلقيا الفيلسوف الاكبر كمال الدين بن يونس وحلا لغزه في الحكمة، وكان عجز العلماء عن حله، فسألها عن موطنها فقالا الشام فقال : من اي موضع منه قالوا من حوران فقال : لا أشك ان احدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني . وفي هذا دليل على شهرتها في العلوم الحكيمية والدينية . وقرأ مزرعة يقال لها قميرة اليوم ومتان قرية صغيرة .

وكانت بعض المدن عامرة بالعلماء مثل قنسرين التي خربت في القرن الرابع وكفر طاب التي خربت في أواخر الخامس قال ابن العديم كانت كفرطاب مشحونة باهل العلم وكان بها من يقرأ الأدب ويشغل به . وهاتان المدينتان اصعبتا الآن قريرتين حقيرتين ، وبعض القرى في الغوطة الدمشقية كان بها علماء اعلام ويختلف اليها علماء دمشق يدرسون فيها فمن جملة تأليف الخافظ ابن عساكر كتب في روايات أهل داريا وكفرسوسية وصنعاء دمشق والرطوبة والنيرب ومن حدث بها وأهل الحمير بين وقبية وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة ومسرابا وحرستا وكفر بطنا ولاقانية وحجيرا وعين ثرماء وجديا وطرميس وبيت لهيا وبرزة . ومن هذه القرى ما دثر الآن ، وذكر المحدثين من أهل منين وأهل بعلبك مما دل على العناية بالحديث في القرن السادس .

ومحمد بن مياس العرمانى الشاعر الأديب وموسى القمراوي الفقيه الأديب المناظر (٦٢٥) ومسعود بن ابي الفضل النقاش الحلبي الشاعر والتاج الصرخدي محمود بن عدي التميمي الشاعر المحسن (٦٧٤) والرشيد البصري سعيدي بن علي احد ائمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر (٦٨٤) ودام مذهب الأوزاعي معمولا به في الشام حتى عم مذهب الشافعي . وفي أيام الظاهر بيبرس أضيف الى القضاء الحنفي والحنبلي والمالكي . وعلي بن بلبان الكركي (٦٨٤) والفخر البعلبكي عبدالرحمن الحنبلي الفقيه المحدث (٦٨٧) وشرف الدين عبدالعزيز الانصاري شيخ شيوخ حماة قال الصفدي لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسة وقبلها من نظم أحسن منه ولا اجزل ولا أفصح وبرع في الفقه وحدث كثيراً (٦٦٢) ونبع في حماة جمال الدين بن بركات

له تأليف في التاريخ . وثق الدين ابو بكر بن الخيشمي الحموي كان اماماً في الأدب
 ومحمد بن المظفر بن ابي بكران الحموي عالم الائمة الفقيه المحدث . وعبد العزيز بن حجة
 الحموي الشاعر الأديب وابو الحسن محمد بن عنين دمشقي الشاعر (٦٣٢) وجمال
 الدين محمد بن ابي الفضل الدولعي الفقيه الخطيب الدمشقي (٦٣٥) ومحمد شمس
 الدين الانصاري الكاتب بدمشق (٦٥٠) ومحمد بن العفيف التلمساني الشاعر (٦٨٨)
 ومحمد بن سوار بن اسرائيل شاعر (٦٧٧) ومحمد بن عبد المنعم النونخي شاعر
 (٦٦٩) وابن الساعاتي الشاعر الدمشقي (٦٠٤) وفتيان الشاغوري الدمشقي الشاعر
 المبدع (٦١٥) وثق الدين اليلداني المحدث (٦٥٥) وعلي بن عمر المشد شاعر (٦٥٦)
 وابو الحسن الشواء الشاعر الحلبي (٦٣٥) ومحمد بن ابي اليسر النونخي الدمشقي
 الكاتب الشاعر (٦٦٩) وعبد الرحمن بن ابراهيم الفزاري البصري الدمشقي امام فقيه
 ناظم ناثر له تصانيف جيدة (٦٩٠) ومحمد بن سعادة مفسر اصولي فقيه نحوي عالم
 بالخلاف والأدب والفرائض (٦٩٣) وعبد العزيز السلي الفقيه المجتهد له تصانيف
 (٦٦٠) وناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الحنبلي الواعظ الفقيه (٦٣٤) ومحمد بن
 عبد الواحد السعدي المحدث الاصولي الفقيه له عدة تصانيف (٦٤٣) والحافظ
 زين الدين خالد بن يوسف السابلسي (٦٦٣) وابو السخاء فتيان الحلبي النحوي .
 ويحيى بن حميدة الحلبي المعروف بابن ابي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء (٦٣٠)
 وابو الفرج يحيى بن محمود الثقفي الحلبي محدث . واحمد بن محمد الطرسوسي الحلبي
 محدث . ويعيش بن علي الحلبي النحوي المعروف بابن الصائغ شرح المفصل للزمخشري
 وشرح تصنيف الملوكي لابن جني وهما مطبوعان (٦٤٣) . وكانت حلب لما دخلها
 ابن خلكان في هذا العصر في سنة ٦٢٦ للاشتغال بالعلم الشريف ، أم البلاد مشحونة
 بالعلماء والمشتغلين . ومما انفرد به هذا القرن على صورة لم يسبق لها مثال إنشاء ثلاث
 مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق فكانت في هذه العاصمة أعظم جامعة
 اسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بازهرها الذي
 بني في القرن الرابع ولا بغداد بمدرستها النظامية التي أسست في القرن الخامس .

* * *

الامام ابن تيمية والاصلاح
الديني والأدب والعلم في
القرن الثامن

اختص القرن الثامن بقيام أعظم مصلح فيه
وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، أراد
إرجاع الدين الى نصرته الاولى ، وتعريته
من القشور التي ألصقها به الجهلة المنتمسون ، فأذوه وعذبوه ، وسجنوه ونفوه ، ونعني
به شيخ الاسلام نقي الدين احمد بن تيمية نابعة النوابع في الشرع وصاحب التأليف
العديدة الممتعة ، فهو بلا مرء حجة الكتاب والسنة ، وامام المعقول والمنقول ، وسيد
العلماء ، ورأس الفقهاء (٧٢٨) وان دمشق لنفاخر وحق لها الفخر بانها تجلت فيها روح
ابن تيمية ، ودفنت أعظمه في تربتها ، ولكن عصره يُججل كل الخجل من أعمال من
ناهضوه مدفوعين بعامل الحسد ، ولا سيما المشايخ بنو السبكي الذين آذوه فاكثروا
من آذاه ، طمعا في نيل الخطوة من العامة والملوك ، واستعانوا بنفوذهم السياسي في حكومة
مصر والشام فاعتقل زماناً في القاهرة والاسكندرية ودمشق ، والامة وعقلاء
علمائها تقدسه حتى لقي ربه . وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الاسلام «لوثيروس»
صاحب المذهب الانجيلي في النصرانية بيد ان مصلح النصرانية نجح في دعوته ، ومصلح
الاسلام أخفق وبالأسف .

وقد انتشرت بعد عصره الفوضى العقلية بين المسلمين كما قال العلامة محمد عبده
تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في انفسهم ما لم يعترف به العلم لهم
فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله ، غير انهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ،
ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها . وتحكموا في التضليل
والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين
العلم والدين وقالوا ما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام اه .

قال السيوطي : ان دمشق كثر بها العلم في زمن معاوية ثم في زمن عبد الملك
وأولاده وما زال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون في زمن التابعين وتابعيهم ثم الى أيام
ابي مسهر ومروان بن محمد الطاطري وهشام ودجيم وسليمان بن بنت شرحبيل ثم
أصحابهم وعصرهم . وهي دار قرآن وحديث وفقه ، وتناقص بها العلم في المائة الرابعة
والخامسة وكثر بعد ذلك ولا سيما في دولة نور الدين وأيام محدثها ابن عساكر

والمقادة النازلين بسنحها ثم كثر بعد ذلك بابن تيمية والمزي وأصحابها .
 ونبع أفراد في هذا العصر ولا سيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث ،
 ومنهم بدمشق الحافظ علم الدين البرزالي محدث الشام وصاحب التاريخ والمجم الكبير
 (٧٤٠) والحافظ جمال الدين المزي العالم الكبير صاحب التصانيف (٧٤٢) والحافظ
 محمد بن قايماز الذهبي عالم الشريعة والأدب والتاريخ وله عشرات من المصنفات
 أكثرها في التاريخ والرجال منها تاريخ الاسلام والمشتبه وميزان الاعتدال وطبقات
 الحفاظ وهذه الثلاثة الاخيرة مطبوعة (٧٤٨) والحافظ عماد الدين بن كثير المفسر المؤرخ
 الفقيه صاحب التأليف ومنها تاريخه المطول (٧٧٤) ومحمد بن ابي بكر الزرعي المعروف
 بابن قيم الجوزية الدمشقي الامام السجدة المجدد في تأليفه من اكبر انصار شيخ الاسلام ابن
 تيمية (٧٥١) طبعت بعض كتبه في السنة . واحمد بن فضل الله العمري الدمشقي
 امام أهل الأدب والتاريخ والجغرافية والاصطراب وحل النقاويم وصور الكواكب
 وله عدة مصنفات منها مسالك الابصار والتعريف بالمصطلح الشريف وهما مطبوعان .
 ومسالك الابصار معلة أدبية تاريخية كبرى (٧٤٩) صلاح الدين خليل بن ابيك
 الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب المهمة ومنها الوافي بالوفيات (مخطوط)
 ونكات العميان وشرح قصيدة ابن زيدون وهما مطبوعان الى غير ذلك من الممتع
 (٧٦٤) والملك المؤيد اسماعيل ابو الفداء صاحب حماة وكان عالماً فقيهاً مؤرخاً
 جغرافياً فلكياً منها تاريخه وكتابه تقويم البلدان وهما مطبوعان (٧٣٢) وكان يفضل
 على العلماء كثيراً اوى اليه اثير الدين الابهري فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين
 ابن نباتة في دمشق كل سنة ستمائة درهم غير ما يتخفه به . ويعمل الملك المؤيد ابي الفداء
 وعمل أسرته من قبل ومن بعد أصبحت حماة مدينة علم وأدب وخرجت رجالاً يفتخرون
 بهم في تاريخ العلم بعد ان كانت أشبه بالقرى في القرون الاولى للفتح للاسلامي .
 ولا عجب فمثل هؤلاء الملوك على صغر بلادهم كانوا مادة العلم والأدب في تلك
 العصور على نحو ما كانت أسرة ميديسيس في ايطاليا تفضل على العلم والعلماء ، وكثيراً
 ما كان ملوكنا هؤلاء يمتالون لنشر العلم بطرق غريبة حتى ان الملك المعظم عيسى بن
 الملك العادل شرط لكل من يحفظ المفصل للزحشرى مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا

السبب جماعة • ومن قرأ المفصل تعلم النحو والأدب معاً • وفي أواخر دولة المعظم عيسى هذا وفي دولة أبيه داود اشتهر بدمشق الاشتغال بعلوم الأوائل وكثر ذلك فأُخذ في الدولة الأشرفية • ولعل ما نال أصحاب ابن حزم الظاهري من الضرب الذي أوعد به ملك مصر الى فقهاء الشام في القرن الثامن كان من جملة ما ارتأه الجامدون من الاسباب للنيل من المجددين •

وجاء في هذا العصر ابو بكر محمد الانصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي كان يعرف الرمل والافاق ونحو ذلك من العلوم وهو صاحب نخبة الدهر في القوزموغرافيا والجغرافيا المطبوع والسياسة في علم الفراسة (٧٢٧) وابو بكر بن عبد الله بن ابيك صاحب صرخد له تأليف كثيرة • وجاء المؤرخ العظيم نقي الدين المقرئ البعلبكي صاحب خطط مصر واناغاز الحنفا والننازع والتخامم وغيرها وكلها مطبوعة مهمة (٧٦٠) • وشيخ الاسلام محمد الاكل بن مفلح الدمشقي الفقيه المؤرخ (٧٦٤) ومحمد بن شاكر الكشي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات المطبوع وعيون التواريخ (٧٦٤) • وعمر بن الوردي المعروف بابن ابي الفوارس صاحب التاريخ وديوان الشعر والمقامات المطبوعة كان فقيهاً أدبياً (٧٤٩) • وعلي بن ابراهيم علاء الدين بن الشاطر النلكي الدمشقي (٧٧٧) ويعرف ايضاً بالمطعم الفلكي ، كان أوحده زمانه يعرف تطعيم العاج وعالماً بالهيئة والحساب والهندسة وكانت له ثروة ومباشرات ودار من أحسن الدور • وضعاً وأغربها ، وله الزيج المشهور والأوضاع الغربية التي منها البسيط الموضوع في منارة العروس بجماع دمشق يقال ان دمشق زينت عند وضعه ، وفي تاريخ الصالحية ان ابن الشاطر هو صاحب الاسطرلاب والبسيط وكان له نظر على التوقيت بالجامع وألف الزيج والكرة وله الرسالة عليها • ويعرف علم الخيط في المزالة وتركيبها والزيج كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التوقيتات اي حساب الكواكب سنة سنة • والاسطرلاب قنطرة مقدار ثلث ذراع تدور ابدأ على حركات الفلك على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والزمانية والمنحرفات • فجعل البسيط ابن الشاطر في مأذنة العروس وهذا مما لم يسبق اليه كالزولة ولكن المزالة لا تكفي في ذلك فجعل البسيط •

ومن المهندسين محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد النقي المهندس كان معاصراً لابن فضل الله وحدثه باحاديث عن الجامع الأموي . شهاب الدين احمد الحموي النقاش كتب الختمة الشريفة من أولها الى آخرها على خوصة مفصلة الاجزاء والسور . ومن المحدثين الحافظ شرف الدين علي بن محمد اليونيني البعلبي (٧٠١) قال الزبيدي وله ولايته ترجمة حسنة واخوته البدر الحسن والقطب موسى وأمة الرحيم حدثوا ومن ولده الصدر عبدالقادر وعم أبيه الزين عبد الغني وهم بيت علم وحدث . وعمر بن ابراهيم العجمي الحلبي فقيه فرضي حاسب له مصنفات (٧٧٧) وحسن بن عمر بن حبيب الحلبي له عدة تأليف منها درة الاسلاك في دولة الاتراك واكثر كتبه مسجعة (٧٧٩) وعلي بن مظفر الوداعي المقرئ المحدث الكاتب وقف التذكرة الكندية في خمسين مجلداً وضعها في المدرسة السيمساطية وهي بخطه في فنون مختلفة (٧١٦) وقاضي القضاة بدمشق شرف الدين عبدالله ابن الامام شرف الدين حسن ابن الحافظ ابي موسى ابن الحافظ الكبير عبد الغني المقدسي (٧٣١) وجلال الدين القزويني امام البهان صاحب المصنفات والمثل السائر في الخطابة (٧٣٩) وضياء الدين علي بن سليم بن ربيعة الاذري فقيه اديب نظم التنبيه في النقه في ستة عشر الف بيت وشعره كثير (٧٣٢) وزين الدين عبدالله ابن مروان الفارقي الخطيب الفقيه (٧٠٣) وشرف الدين احمد بن ابراهيم بن سباع الفزاري الخطيب النحوي المحدث (٧٠٥) وصفي الدين محمد بن ابي بكر الارموي القرافي صاحب التأليف (٧١٤) وشيخ الاسلام صلاح الدين خليل بن كبكلي الدمشقي ثم المقدسي أخذ عن مشايخ الدنيا له عدة مصنفات محررة (٧٦١) وبدر الدين محمد بن جماعة الكنتاني الحموي له عدة مصنفات (٧٣٣) وشيخ قراء دمشق شهاب الدين احمد بن محمد بن ابي الحزم سبط السلعوس (٧٣١) وشهاب الدين احمد بن البرهان له مصنفات (٧٣٨) . وشمس الدين محمد بن عبد الهادي البحر الزاخر في العلم (٧٤٤) وشيخ القراء ذو الفنون برهان الدين ابراهيم بن عمر الجعبري بالخليل (٧٣٢) وتصانيفه كثيرة . وبدر الدين محمد بن جماعة الكنتاني الحموي له معرفة بفنون وله عدة مصنفات (٧٣٣) ومحمد بن علي المؤذن المعروف بابن ابي العشار (٧٨٩) له عدة

مصنفات منها تاريخ ففسرين . وامين الدين عبد الرحمن الفقيه المواقيتي سبط الابهري
وكان له يد طولى في الرياضي والوفيق والعمليات ومشاركة في فنون (٧٣٣) وشرف
الدين هبة الله البارزي الجهني الحموي المؤلف العالم المشهور (٧٣٨) ونحر الدين عثمان
ابن محمد البارزي الحموي شرح الحاوي في الفقه (٧٣٠) وشهاب الدين السبكي
الفقيه له تأليف (٧٧١) والكمال ابن الزملاكاني الفقيه الاصولي العالم بالعربية صاحب
الرسائل (٧٢٧) والامير العالم سيف الدين ابو بكر محمد بن صلاح الدين بن
صاحب انكرك وكان فاضلاً شاعراً (٧٣٠) وسليمان بن ابى العز الازرعي الفقيه
(٧٠٧) والقاسم بن محمد الاشبيلي المحدث المؤرخ (٧٣٩) ومحمد بن سليمان الصرخدي
الامام المصنف الجامع بين اشئنا العلوم (٧٩٢) وقاضي القضاة جمال الدين يوسف
الحجبي (٧٣٨) وابن اخيه محمود بن محمد بن جبلة الخطيب ومحمد بن اسماعيل
الكفر بطناوي من فقهاء المدارس ، ومحمد بن يعقوب المعروف بابن الصاحب الحلبي
(٧٦٣) فقيه أدب كاتب ومحمد بن عيسى البعلي كان صاحب فنون (٧٣٠)
واسمى بنت محمد بن سالم بن صصري النغليبة المسندة المحدث (٧٣٣) وزينت بنت
الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء . ومن الاطباء سليمان بن داود كبير الاطباء
بدمشق (٧٣٢) واحمد بن الصلاح البعلبكي الطيب في بعلبك صاحب التأليف .
ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر (٧٣٧) والحسن بن علي
المحدث الكاتب المجدود (٧٣٩) وشهاب الدين محمود الحلبي الدمشقي الحافظ الكاتب
الشاعر له تصانيف (٧٥٥) ومحمد بن الحسن الصائغ العروضي الأديب الشاعر له
تأليف (٧٢٢) واحمد ابو جلنك الشاعر الحلبي (٧٠١) . ومن كتاب هذا القرن
الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل واحمد الانصاري
وكمال الدين الزملاكاني الى أمثالهم ممن نبطوا العلم ونشروه وأظهروه .
ويلاحظ ان أعلاماً من العلماء اشتهروا في هذا القرن والذي قبله وبعده ، وكثير
منهم نشأ من قرى الجنوب والشال فكانوا مادة الحواضر ، والقرى ما زالت مادة
المدن في انزوع والضرع ، فأصبحت في هذا الدور مادتها في العقل وذكاء الطبع ،
ومن مواظبتهم اليوم من لا يعرف شيئاً مما يطلق عليه اسم العلم ، وبعضها في جاهلية

جهلاء ، مثل زمكا وحرستا وكفربطنا والمزة ويلدا وداريا وازرع ومحجة ونوي
والجيدور وبيرود والباق وعجلون وصرخد ومان وقرأ وحسبان والكرك وجبرين
ويونين ، بل وانطاكية وصفد وبعليك والمعرة وكفرطاب وشيزر . وتوشك بعض
تلك القرى ان تدثر ، وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر فسيحان من هذا شأنه .

العلوم في القرن التاسع } بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ، فلم ينبغ
في الشام رجل أحدث عملاً عالياً عظيماً ، او دل على
نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه الجماعون والمخضرون والشارحون من
المؤلفين ، والسبب ان حكومة المالك البرجية والبحرية كانت تشتمد في إرهاب
المنفلسة والمنفقهة على غير الاصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى اربعة أئمة الخنفي
والشافعي والمالكي والحنبلي . فكان المخالف قليلاً يعزر على مذهب المالكية والقتل
يسر مراتب التعزير عندهم ، ثم زادت الحال اشتداداً في أوائل القرن بانسيال جيوش
تيمورلنك على البلاد ، وقتله لبعض العلماء ، وحمله معه الى سمرقند كل ممتاز بعلم
او صناعة . ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم ،
ومنهم ثقي الدين ابوبكر بن احمد بن قاضي شهنه صاحب الطبقات وغيره (٨٥١)
وشهاب الدين احمد بن علاء الدين حجي الحسيني الدمشقي الحافظ المؤرخ له كتاب
سماه الدارس في أخبار المدارس ولعله الأصل لكتاب النعمي في المدارس وله ذيل
على تاريخ ابن كثير وغيره (٨١٥) واحمد بن محمد بن عرشاه له عدة مصنفات في
الأدب والتاريخ شاعر كاتب مجيد في اللغات العربية والفارسية والتركية ومن تأليفه
عجائب المقدور في أخبار تيمور وهو مطبوع (٨٥٤) وصالح بن يحيى صاحب تاريخ
بيروت وامراء الغرب المطبوع كان في أواسط القرن التاسع ونقل عن احمد بن شباط
الغري الأديب المؤرخ ايضاً .

ومن الفقهاء ابراهيم بن محمد العجلوني الفقيه كان في الشام بين نظير البيجوري في
المصر بين (٨٢٥) و ابراهيم بن ابراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب ومتعلقاتها
له تأليف (٨٥٠) و ابراهيم بن علي الحسيني البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو والمنطق

والحكمة وأدب البحث وغيرها . و ابراهيم بن محمد بن مفلح فقيهه (٨٠٣) و عبد الله بن مفلح رئيس الحنابلة في زمانه (٨٣٤) و نقي الدين الحصري عالم له مصنفات في الفقه وغيره (٨٢٩) و ابو بكر محمد بن مزهر الدمشقي الفقيه انتهت اليه رئاسة عصره (٨٣٢) و علاء الدين البهائي الغزولي عالم دمشق (٨٨٥) له كتاب مطالع البدور في منازل السرور مطبوع . و برهان الدين ابراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان اماماً بالعربية و الأدب و الدين و التاريخ و نظم الدرر في تناسب الآي و السور في التفسير و عدة تواريخ للرجال . و عبد الله التتوخي اللبناي المعروف بالسيد فقيهه أديب مشارك في الطب و الفلك (٨٨٤) .

و نشأ في هذا القرن شمس الدين احمد الطولوني كبير المهندسين و كان ابوه و جده مهندسين على ما في الضوء اللامع . و خليل بن جمال الدين الأديب المؤرخ الدمشقي صنف تاريخاً للحوادث وغيره (٨١٥) و بدر الدين محمود العيني (٨٥٥) الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات في التاريخ وغيره . و نور الدين عبد الرحمن ابن العيني عالم دمشق في هذا القرن . و شهاب الدين احمد المقدسي المشهور بابن زوجة ابي عذبة (٨٥٦) صاحب تاريخ دول الاعيان . و احمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ (٨٥٢) صاحب تاريخ الدرر الكامنة و انباء الغمر . و احمد بن خليل المعروف بابن اللبودي عالم مفهين له أدب و شعر و بعض تأليف (٨٩٦) و احمد بن المحوج عالم بالدينيات و اللسانيات . و احمد بن عبد الله العامري فقيه اصولي له تأليف . و احمد بن محمد الكشك عالم فقيهه (٨٣٧) و زين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات . و ابو العباس المالكي الفقيه العالم المفهين له عدة مصنفات . و عبد الرحمن العيني فقيه عالم بعلم اللسان له عدة مصنفات (٨٩٣) و عبد الرحيم بن عبد الرحمن الحموي فقيه أديب له بعض مصنفات . و محمد بن خليل القباقيبي الحلبي (٨٤٩) امام في القراءات صنف فيها . و عبد الله ابن قاضي عجولون فقيه عالم بالمعقولات (٨٦٥) و قاضي القضاة شهاب الدين العوني الناصري خطيب الخطباء (٨١٥) . و صدقة الجيدوري المقرئ (٨٢٥) و نور الدين ابو الثناء خطيب الدهشة استوطن حماة له تأليف كثيرة . و شيخ الاسلام محمد الجزري الدمشقي المقرئ صاحب

المصنفات الجليلة في القراءات (٨٣٣) • وعائشة بنت عبدالمهدي محدثة دمشق (٨١٥) وأبو البقاء البدرى له تأليف (٨٨٧) وعلاء الدين ابن خطيب الناصرية الحلبي المؤرخ (٨٤٣) • وثقي الدين ابوبكر بن علي بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وغيرهما وهما مطبوعان وكان رئيس أدباء عصره (٨٣٧) • وزين الدين ابن الشحنة الحلبي الفقيه المؤرخ (٨١٥) كتب في عدة فنون وله أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض • ومحمود ابن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب (٨٩٠) له ددة تأليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب طبع مختصره • واحمد السرييني الحلبي الفلكي (٨٢٤) علم في الهيئة وحل الزيج وعمل التقويم • وعبد الملك الباني الحلبي (٨٣٩) علم بالقراءات له نزهة الناظرين في الأخلاق • وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام السعدي المقدسي العالم الرحلة صاحب التأليف (٨٥٠) • والبدر البشتكي محمد بن ابراهيم الدمشقي (٨٣٠) • وعلي بن خليل الطرابلسي (٨٤٤) له كتاب في الفقه اسمه معين الحكام • وابن حبيب الحلبي (٨٠٨) فقيه حلب له عدة مصنفات • وجمال الدين عبد الله بن جماعة المقدسي أحد الائمة الأعلام صاحب التأليف (٨٦٥) • والبرهان الحلبي المحدث (٨٤١) وثقي الدين عبد الله توقشندي المقدسي عالم زمانه في الارض المقدسة (٨٦٧) •

ومن علماء السريان نوح البقوفاوي بطريك اليعاقبة في حلب أواخر القرن الخامس عشر • وقد امتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥ هـ : وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الاسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور •

إنحطاط العلم والأدب } زاد انحطاط العلم في القرن العاشر ، فلم تكن
في القرن العاشر } أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه
الديار مثل القرنين السالفين ، وكانت الآداب تسير اذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة
قوتها من تاريخها القديم القويم ، واذا اخنلف لسان الحاكم والمحكوم عليه ، وخصت

الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك ، مالت النفوس عن العلم ، اللهم الا من كانت لم فطر سليمة عشقوه لفائدته في تهذيب النفس ، والتخلي بالفضائل وقليل ما هم . فقد ذكر المقدسي ان أهل الدولة العثمانية كانوا لا يعولون المدارس في الشام احداً من أبناء العرب ، زاعمين ان العلماء في العرب كثير وانهم ان ولوا عربياً من غير طريقهم ، كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن إرضائهم ، وضاق الامر على ملازمي الروم . وحصر الترك عنايتهم بالاستانة كما حصرها من قبل بيورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم ، بل جامعة ذاك العصر ، كما قال جودت . وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون الى القسطنطينية زرافات ، ولذلك لم يكن حظ للولايات دع البيعة من عناية الدولة العثمانية بها وترقيتها في العلم والآداب . أراد الفاتح ان يعوض دار ملكه ما فقدته من العلماء الروم بسقوط الدولة البيزنطية ممن رحلوا الى بلاد الافرنج ولا سيما ايطاليا ونشروا فيها بعض المعارف الطفيفة . وفي التاريخ العام ان الناس بالغوا بتأثير اليونان الذين جاؤوا من القسطنطينية الى الغرب بعد الفتح التركي وبما أثروه في حركة النهضة فقد عد التاريخ منهم عشرة وكثير منهم كانوا من الفقراء الذين لم يرزقوا قرأح ولا شهرة .

وتسلسل العلم الديني في بعض البيوت بدمشق في هذا القرن والذي بعده على صورة غريبة مثل بني الغزي وحمزة ورفور والعمادي والنابلسي ومفلح فكان ذلك من آكد أسباب النجاح ، وعم نبع بدمشق محمد بن محمد الغزي العالم بعلوم اللسان وغيرها وله عدة مصنفات (٩٣٥) . ومحمد بن بدر الدين الغزي الفقيه المفسر النحوي المحدث المقرئ الاصولي النظائر المؤرخ وله مئة وبضعة مصنفات (٩٨٤) . وعبد الرحمن بن فرفور عالم بالتاريخ والأدب (٩٩٢) . ومحمد بن حمزة امام في الدينيات (٩٣٣) . وعلي بن اسماعيل بن عماد الدين الفقيه (٩٧١) . واسماعيل النابلسي العالم في المقولات والمنقولات (٩٩٣) . وابراهيم بن عمر بن مفلح فقيه (٩١٧) . وشمس الدين محمد بن علي بن طولون النحوي الفقيه المحدث المؤرخ صاحب مصنفات كثيرة في التاريخ على اختلاف ضروبه (٩٥٣) . وعبد القادر النعمي المؤرخ المحدث الف كتبا كثيرة منها الدارس (٩٢٧) . وعبد الباسط العموي اخصر بعض كتب النعمي

وزاد عليها ومنها مختصر الدارس (٩٨١) . وابن سكيكر الدمشقي المؤرخ له زبدة الآثار في ما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار (٩٨٢) . و بهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه أراجيز تاريخية (٩١٠) . ومن علماء القرن في دمشق محمد بن محمد بن سلطان العالم الفقيه صاحب التآليف (٩٥٠) . ومحمد ابن مكي عالم بالطب والهيئة والهندسة والفلك (٩٣٨) . وابوبكر البساطنسي عالم في الدينيات (٩٣٦) . وابوبكر بن محمد القاري فقيه متكلم اصولي نحوي مقرئ (٩٣٥) . وابو الفتح البستري له يد طولی في علم الدين (٩٦٢) . واحمد بن محمد الشويكي عالم ديني له تأليف (٩٦٦) . واسماعيل الكردي الباني عالم في المعقولات (٩٥٦) . وعثمان الآمدي عالم في المعقولات خطيب منهنن (٩٨٥) . ومحمد بن محمد بن عماد الدين عالم في الدينيات (٩٨٦) . واحمد بن احمد الطيبي الفقيه النحوي له عدة مصنفات (٩٧٩) . وأسد الشيرازي عالم في البلاغة والعربية والمنطق والاصلين بارع في الفقه (٩٩٨) . ومحمد بن هشام نحوي (٩٠٧) . ومحمد بن منيعه عالم قوال بالحق (٩٠٤) . ومحمد الكنجي له يد في النحو والحساب والميقات والقرآن (٩٣٢) . ومحمد الكفرسوسي عالم فقيه (٩٣٢) . ومحمد الميبداني عالم بالقرآآت والعربية له عدة مصنفات (٩٢٣) . و ابراهيم ابن الهلالي فقيه محدث (٩١٦) . وابو بكر ابن قاضي عجولون امام مفنن (٩٢٨) . ويوسف بن حسن المبرد عالم مصنف (٩٠٩) .

وجاء في القدس عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي صاحب تاريخ القدس والخليل المطبوع . وبرهان الدين المقدسي الفقيه الأديب له عدة مصنفات (٩٢٢) . وفي غزاة ابو عبد الله محمد بن قاسم الغزي (٩١٨) له كتب في الفقه والاصول وغيرها . وبرهان الدين ابراهيم بن يوسف الحنبلي المعروف بابن الحنبلي له عدة كتب (٩٥٩) . وفي دمشق يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩) الفقيه المؤرخ صاحب الرسائل . وفي حلب رضي الدين محمد ابن الحنبلي المؤرخ العالم له عدة تأليف منها في تاريخ حلب (٩٧١) . ومحمد بن علي شمس الدين الحلبي المعروف بابن الطباخ وكان واحداً في التجارة سفيراً وحضراً وعني بسماع الحديث وحفظ تواريخ من أدركه

من المتقدمين والمتأخرين (٩٦٨) . وعبد البر ابن الشحنة الحلبي الاصولي الفقيه (٩٢١) . وزين الدين عمر الشماع الحلبي المؤرخ المحدث له عدة مصنفات جيدة (٩٣٦) . وفي الرملة شمس الدين الرملي العالم الفقيه (٩٢٣) . وفي حماة نور الدين محمود بن ابي بكر المعري الحموي الحلبي الفقيه . وفي دمشق هاشم بن السيد ناصر الدين السروجي الحلبي الحسيني رئيس الأطباء بالمستشفى النوري (٩٦٤) . وفي حماة محب الدين بن داود الحموي له تأليف . وفي دمشق المؤرخ موسى بن يوسف بن أيوب القاضي شرف الدين دمشقي الشافعي ألف تاريخاً في مجلد وتذكرة في مجلدين (١٠٠٠) .

ومع الخطط محسوس في حركة العقول في هذا العصر كانت في الشام بعض النساء العالمات مثل فاطمة بنت قريمان شحنة المدرستين العادية والزجاجية معاً انتهت اليها رياسة أهل زمانها يجلب اخذت العلم عن زوجها (٩٦٦) . وعائشة الباعونية الدمشقية المحدثنة المتصوفة الشاعرة المجيدة لها عدة تأليف ومنها البديعية وشعرها لطيف (٩٢٢) .

وفي نهر الذهب انه كانت قدوم الرهبنة الفرنسيسكانية الى حلب سنة ٩٨٩ هـ (١٥٧٠ م) وقد أقاموا في قيسارية الشيبان اتخذوها دياراً لهم .

الآداب في القرن الحادي عشر } اما القرن الحادي عشر فهو شبيه بتاليه وسالفه من الحادي عشر } حيث قلة الابداع والتجدد والاكتفاء بالموجود، لكن عدد العالمين والمتأدين كان اكثر على ما يظهر او انه دون كله ولم يفقد ، فقد نشأ في دمشق احمد بن محمد الغزي عالم بالدينيات وله بعض التأليف (١٠١٧) . ومحمد اكل الدين بن مفلح المحدث الرحلة المؤرخ كتب تاريخاً ترجم فيه معاصريه وله تعليقات تاريخية مهمة (١٠١١) . والنجم محمد الغزي محدث الشام صاحب التأليف منها في التاريخ وتراجم الرجال (١٠٦١) . واحمد بن سنان القرمانى الأديب المؤرخ صاحب التصانيف وله تاريخ آثار الدول المطبوع (١٠١٩) . وعبدالوهاب الفرغوري الفقيه (١٠٧٣) . واحمد بن ابي الوفاء بن مفلح الحلبي الفقيه المحدث عارف بالفرائض

والحساب والتاريخ (١٠٣٨) . ومن الفقهاء محمد الداودي (١٠٠٦) . ومن علماء
العربية محمد الخوخي (١٠٢٢) . وفي الفقه محمد الحصكفي صاحب التصانيف في
الفقه وغيره (١٠٨٨) . ومحمود الباقراني له عدة تصانيف (١٠٠٣) . وابو بكر بن
عبد المعروف المعروف ابوه بمنلا جامي من محققى علماء الاكراد (١٠٧٧) . واحمد بن
محمد الزريابي فقيه المالكية (١٠٥٠) . وكمال الدين بن مرعي العيتاوي الفقيه
(١٠٨٦) . ورمضان العطيني الفقيه النحوي الراوية (١٠٩٥) . وعبد الباقي بن فقيه
فضة محدث مقريء أثري (١٠٩١) . ويحيى الشاوي له تأليف . وشمس الدين بن
بليسان عالم بالسنة (١٠٨٣) . والشاكر الجموي كان متصوفاً ناضلاً وناثراً وله ديوان
في ثلاث مجلدات .

ومن أدباء هذا القرن وشعرائه ابو بكر بن منصور العمري شيخ الادب (١٠٤٨)
وابراهيم الصالحى الشاعر المعروف بالاكرمي (١٠١٢) . وعمر بن محمد المعروف بابن
الصغير شيخ الأدب بالشام بعد شيخه ابي بكر بن منصور العمري شاعر مجيد عارف
بالنطب (١٠٦٥) . وابراهيم الفتال الشاعر (١٠٩٨) . وابو بكر بن احمد المعروف
بابن الجوهرى . ومحمد الكرمي (١٠٦٨) . وعبد الكريم الطاراني الشاعر الكاتب
المؤرخ (١٠٤١) . وعبد اللطيف البهائي شاعر مفنن (١٠٨٢) . وعبد اللطيف
ابن المنقار شاعر (١٠٥٧) . والحسن البوريني الشاعر اللغوي له تأليف منها تراجم
رجال عصره وشرح ديوان الفارض وهذا مطبوع (١٠٢٤) . واحمد العناياتي
الشاعر (١٠١٤) . واحمد بن الشاهيني الأديب اللغوي (١٠٥٣) . واحمد الصفوري
الشاعر الأديب المؤرخ (١٠٤٣) . واحمد بن محمد بن المنقار أديب شاعر (١٠٣٢)
واسماعيل النابلسي الفقيه له بعض التأليف (١٠٦٢) . ودرويش محمد بن احمد
الطالوي الدمشقي الأديب (١٠١٤) . ومنجك بن محمد بن منجك صاحب الديوان
المطبوع (١٠٨٠) . وشهاب الدين العمادي شاعر منشيء (١٠٩٨) . وعبد الحي
العكري المعروف بابن العماد مصنف أديب مفنن اخباري أثري (١٠٨٩) . وعبد
الرحمن بن النقيب منشيء شاعر (١٠٨١) . وابراهيم العمادي احد بلغاء الشام

المذكورين (١٠٩٨) . واحمد بن المنلا النجواني الملقب بالمنطقي شاعر نادر فقيه
ينظم وينثر في الألسن الثلاثة .

وظهر في دمشق في العلوم والفنون بضعة أفراد منهم علاء الدين بن ناصر الدين
علي الطرابلسي عالم بالرياضيات والقراءات والفرائض والفقہ وله تأليف (١٠٣٢) .
وعمر بن محمد القاري عالم مفنن له باع في الهيئة (١٠٤٦) . وعمر بن يحيى المعروف
بالدويك كان عارفاً بفنون عديدة منها الرياضيات والملك والميقات وله شعر (١٠٨٣)
ومحمد بن يونس الطيب الخطيب (١٠٠٨) . والمنلا محمود الكردي عالم في كثير
من الفنون (١٠٤٧) . وابن الحكيم المصاحب ابوبكر بن محمود رئيس أطباء دمشق
وخطيب أمويها عالم في العلوم الغربية مثل علم الوفاق وعلم الحرف وله يد طولى في
العقليات (١٠٠٧) . وعبد القادر بن عبد الهادي رياضي فقيه اصولي (١١٠٠) .
وعبد الحي بن محمد بن عماد عالم بالرياضيات (١٠٨٩) . وابراهيم بن الأحدث
الزبداني نزيل صالحية دمشق محدث فرضي رحلة أخذ الفرائض والحساب عن العلامة
محمد النجدي ويلحق بابن الهائم في هذين العليين (١٠١٠) . ونشأ في هذه المدينة
أيوب الخلوئي من المتصوفة له في التصوف رسائل (١٠٧١) . ومن الخطباء الشهاب
احمد بن يحيى الهنسي الخطيب ابن الخطيب ابن الخطيب . واحمد بن محمد البصراوي
شمس الدين ويعرف بابن الامام (١٠٠٣)

وجاء في البلاد الاخرى ابو الجود عبد الرحمن الحلبي البتروني كان محققاً في
المذهب والفسير والبحث نظاراً (١٠٣٩) . وابو الوفاء محمد بن عمر العرضي الحلبي
أحد أعيان العلماء في المعرفة والانتقال والحفظ والضبط له تاريخ معادن الذهب وله
رسائل وتأليف (١٠٧١) . ومحمود البيهوني الحلبي كان اذا تكلم في فن من العلم
يقول سامعه لا يحسن غيره (١٠٠٧) . وفتح الله البيهوني الحلبي له عدة مصنفات
وحواش ومجاميع وشعر (١٠٤٢) . ونور الدين بن برهان الحلبي صاحب السيرة
الحلبيّة وغيرها من الحواشي والشروح والرسائل (١٠٤٤) . وعلي البصير له كثير
من التأليف في الفقه وغيره من المعارف (١٠٩٠) . ومحمد بن حسن الكواكبي رئيس حلب
في الفنون والعلوم النقلية والعقلية الف مؤلفات كثيرة في الفقه والفسير وهو شاعر

مجيد (١٠٩٦) • وتاج الدين عبد الوهاب بن رجب امام - في العربية (١٠١٥) •
وعلي البصير الحموي له تأليف في الفقه وغيره • ومحمد بن ابي بكر الملقب بحب الدين
الحموي له تأليف عديدة في الفقه والتفسير والعربية ورسائل ورحلات وكان عالماً
بالفرائض والحساب والمنطق والحكمة والزايجا والرمل وهو جد الشيخ محمد المحبي مؤلف
خلاصة الأثر (١٠١٦) •

ومن علماء السريان اندراوس اخيحيان الحلبي أول بطاركة الكاثوليك •
وابو السعود الكوراني الحلبي الشاعر الأديب (١٠٥٦) • واحمد بن خليل الاطامي
الحمصي الفقيه مفتي حمص وعالمها (١٠٠٤) • واحمد بن النقيب الحلبي الأديب
المنفني (١٠٥٦) • وباكير بن احمد المعروف بابن النقيب الحلبي لم يكن في حلب
من أدباء عصره اكثر رواية منه للنظم والنثر (١٠٩٤) • وبشير بن محمد الخليلي
القدسي الأديب الشاعر لم يكن في زمنه من أقرانه من يدانيه فيه الا شرف الدين
العسيلي (١٠٦٠) • ونقي الدين التميمي الغزي صاحب الطبقات السنية في تراجم
الحنفية وهو عالم وأديب (١٠١٠) • وحسن بن محمد ابو الفوارس الحموي المعروف
بابن الأعوج امير حماة شاعر اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند احد من امرء
عصره • وحسين الجزري الحلبي الشاعر (١٠٣٣) • وحسين بن عبد الله المعروف
بالمملوك متصوف عالم متبحر (١٠٣٤) • وخير الدين الرملي الامام المفسر المحدث الفقيه
اللغوي صاحب التأليف والفتاوي ومنها المطبوع (١٠٨١) • ورجب بن علوان
الحموي امهر ما كان في العلوم الرياضية كالهيمية والحساب والفلك والموسيقى وغيرها
(١٠٨٧) • وسرور بن سنين الحلبي شاعر (١٠٢٠) • وصالح بن سلوم الحلبي
رئيس الأطباء (١٠٨١) • وصلاح الدين الكوراني الحلبي شاعر (١٠٤٩) •
وعبد الحق الحمصي الملقب زين الدين الحمجزي عالم بالمعقولات • وعبد الله بن
حمجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان شعره وانشاؤه في الألسن الثلاثة مطبوع
وله تأليف (١٠٩٦) • وفتح الله النحاس الحلبي الشاعر (١٠٥٢) • ومحمد القاسمي
الحلبسي شاعر نادر (١٠٥٤) • ومحمد الكواكبي الحلبي عالم في المنقول والمعقول
(١٠٩٦) • ومحمد بن عبد القادر المنعوت شمس الدين الشهير بالحادي الصيداوي

أديب فقيهه (١٠٤٢) . ومحمد التمر تاشي الغزي رأس الفقهاء الحنفية له التأليف
 الممتعة الكثيرة (١٠٠٤) . ومحمد بن علي المعروف بالحريري وبالحر فوشى العاملي
 الدمشقي اللغوي النحوي الأديب الشاعر صاحب التصانيف الكثيرة (١٠٥٩) . ومحمد
 البهلواني الحلبي راوية للشعر والوفائع خبير بصنعة النقد أديب (١٠٨٥) . ومحمد بن
 محمد الملقب بنجم الدين الخلفاوي الحلبي أديب بليغ (١٠٥٤) . وعلاء الدين محمد
 العسيلي القدسي له تصانيف دينية . وموسى الرام حمداني الحلبي البصير منفتن في
 الرياضيات والعلوم الحكيمة وعلم الحرف والأخبار والأدب (١٠٨٩) . وبهاء الدين
 العاملي الفقيه الأديب صاحب المختارة والكشكول وغيرهما من كتب الأدب وهي
 مطبوعة . ومحمد بن شمس الدين الفصي البعلبكي الفقيه وآبؤه كلهم رؤساء العلم في
 تلك الناحية وله تأليف (١٠٢٤) . وابو الوفاء بن معروف الحموي له تأليف
 (١٠١٦) . ومنلا حسين الأشقر كان جامعاً لأنواع الفنون (١٠٤٢) . وعبد القادر
 ابن قضيب البان كان له ما ينيف على أربعين تأليفاً (١٠٤٠) . وعبد النافع بن عمر
 الحموي كان متضلعا من العلوم شاعراً (١٠١٦) . وداود الانطاكى ويعرف بالشيخ
 الصوري (١٠٠٥) ألف كتاباً عظيماً في الطب سماه تذكرة اولي الألباب ،
 والتذكرة وغيرهما وهذا مطبوع . ونفي الدين الغزي التميمي (١٠٠٥) له
 الطبقات الحنفية .

* * *

العلوم والآداب في } دخل القرن الثاني عشر ولا تجد بدفيه ولا جديد ،
 القرن الثاني عشر } الا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً
 لا ابداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب
 العربية نخط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و « صارت الفتوى والقضاء
 والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير » . كما قال احد
 العارفين بذاك القرن . وأصبح القوم الا قليلاً ممن عصم الله كما قال حجة الاسلام
 الغزالي ، والههم مواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم

رعونتهم ، و ارادتهم جاههم وشهواتهم ، و عبادتهم خدمتهم اغنياءهم ، و ذكركم
 وساوسهم ، و كنزهم سواوسهم ، و فكرهم استنباط الحيل لما تقنضيه حشمتهم . . .

جاء في عاصمة البلاد زمرة من العلماء منهم ابراهيم بن حمزة محدث لغوي (١١٢٠) .
 و ابو الاسعاد بن أيوب محقق في علوم حجة مبرز في علوم الابدان (١١٠٦) . و ابو
 الصفا المفتي فقيه مفسر نحوي . و احمد بن حسين باشا الكيواني أديب كاتب صاحب
 الديوان المطبوع (١١٧٣) . قال المرادي: وهو في هذا القرن اي الثاني عشر كالامير
 منجك المنجكي في القرن الماضي بل أرجح ، وان لم يكن أرجح منه فهو مقارن له .
 و احمد بن عبد الكريم الغزي فقيه نحوي له تأليف (١١٤٣) . و احمد بن علي المنيني
 المحدث اللغوي النحوي الأديب له تأليف منها شرح تاريخ اليميني المطبوع (١١٧٢) .
 و احمد شاكر الحكواتي شاعر رحلة (١١٩٣) . و احمد الفلافنسي أديب منشي
 (١١٧٣) . و احمد المهنداري فقيه مفنن له شعر و أدب (١١٠٥) و احمد البهنسي
 فقيه أديب (١١٤٨) . و احمد البقاعي أديب مفنن شاعر (١١٧١) . و أسعد الطويل
 أديب (١١٥٠) . و اسماعيل الحائك فقيه عالم (١١١٣) . و اسماعيل العجلوني رحلة
 له يد في العلوم لا سيما الحديث والعربية وله تصانيف (١١٦٢) . و حامد العامري
 فقيه فرضي شاعر أديب له تأليف . و خليل الحمصاني له يد في العلم ولا سيما التفسير
 (١١٢٣) . و زين الدين البصروي عالم أديب (١١٠٢) . و سعيد الجعفري عالم
 أديب له شعر (١١٨٣) . و سعيد السمان لغوي شاعر ناثر مجيد له تأليف (١١٧٢) .
 و سعدي العمري شاعر ناثر (١١٤٧) . و سعدي بن حمزة محدث فرضي حاسوب
 مهندس مساح (١١٣٢) . و سليمان الجموي المعروف بالسواري كاتب شاعر (١١١٧) .
 و صالح الجنيني محدث فقيه (١١٧٠) . و عبد الجليل المواهي عالم في المعقولات
 (١١١٩) . و عبد الرحمن الصناديقي فقيه اصولي نحوي (١١٦٤) . و عبد الرحمن
 الغزي فقيه فرضي نحوي شاعر (١١١٨) . و عبد الرحمن الكيلاني عالم مدقق شاعر
 ناثر (١١٧٢) . و عبد الرحمن البهلول شاعر لغوي أديب (١١٦٣) . و علي الطاغستاني
 عالم محقق مفنن (١١٢٩) . و محمد الدكدجي صوفي مقرئ مفنن (١١٣١) . و محمد

- الكفيري فقيه أديب (١١٥٠) . ومحمد الغزي فقيه أديب مؤرخ نسابة (١١٦٧) .
 ومحمد امين الحبي عالم أديب مؤرخ له تأليف منها خلاصة الأثر المطبوع (١١١١) .
 ومحمود الجزيري عالم في الزايرجا والحرف والافاق والرياضيات (١١٤١) . ومحمود
 العبدلاني عالم محقق (١١٧٣) . ومراد المرادي عالم في المعقول والمنقول له تأليف
 (١١٣٢) . ومكي الجوشي عالم أديب متضلع له شعر وكتابة (١١٩٢) . ومصطفى
 اللقيمي عالم فرضي حيسوب ناظم ناثر (١١٨٧) . ومصطفى البكري عالم بلغت مؤلفاته
 ٢٢٣ مؤلفاً بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وله نظم كثير وقصائد خارجة عن
 الدواوين ثقارب اثني عشر الف بيت (١١٦٢) . ومصطفى العلواني الحموي أديب
 ناثر ناظم (١١٩٣) . ومصطفى السفرجلاني منمنن في العلوم الحكيمية له رسائل في
 المنطق والفلسفة والحكمة والكلام وشعر ونثر (١١٩١) . وموسى الحاسني عالم محقق
 (١١٧٣) . وعبد الرحيم المخلاقي عالم في الفرائض والحساب والفلك (١١٤٠) .
 وعبد الرحمن الكابلي عالم محقق (١١٣٥) . وعبد الرحيم الطواقي فقيه نحوي فرضي
 له بعض تأليف ورسائل (١١٢٣) . وعبد الزقاق الرومي فقيه له تأليف . وعبد
 السلام بن محمد المعروف بالكامل او الكامدي فقيه اصولي نحوي أديب (١١٤٧) .
 وعبد الغني النابلسي امام في النصوص والفقه والتفسير وعلوم الأدب وله تأليف كثيرة
 ونظم ونثر المطبوع منها شرح الطريقة الحمديّة والبدعيّة وكتاب في الزراعة وديوان
 (١١٢٦) . وعبد الفتاح بن مغيزل أديب طبيب (١١٩٥) وعبد القادر النعلبي فقيه
 فرضي (١١٣٥) . وعبد القادر الكردي عالم محقق له ثلاثون تأليفاً (١١٧٨) .
 وعبد الله البصروي عالم محقق في العلوم والفنون مؤرخ (١١٧٠) . وعبد الله
 الطرابلسي أديب شاعر له تأليف ورسائل (١١٥٤) . وعبد الله المكتبي محقق في
 الحساب والفلك والهيئة والنقويمات (١١٦٢) . وعثمان الشمعة عالم بالدينيات وعلوم
 الأدب (١١٢٦) . وعثمان القطان عالم بالعقليات والنقلات (١١١٥) . وعمر البغدادي
 عالم محقق متصوف له رسائل وتآليف (١١٩٤) . وعمر الرجيجي كاتب أديب
 (١١٣٠) . وعلي العادي عالم أديب (١١١٧) . وعلي التدمري فقيه نحوي فرضي
 عالم بالحرف والزايرجة والوقف (١١٣١) . وعلي كزبر عالم رحلة مقرئ (١١٦٥) .

ومحمد بن عيسى بن كنان مؤرخ أديب (١١٥٣) . ويوسف بن محمد الطرابلسي رئيس الأطباء .

هذا غابة ما يقال في رجال دمشق اما في المدن الاخرى فقد نشأ في حلب طه الجبريني المفسر المحدث العالم بالمعقولات (١١٧٨) . واحمد الكواكبي الفقيه المفسر الشاعر الأديب (١١٢٤) . وابوالسعود الكواكبي العالم المحقق الشاعر (١١٣٧) . وبنو الكواكبي وبنو الشحنة في حلب من البيوت التي تسلسل فيها العلم عدة قرون . والمطران جرمانوس فرحات (١١٤٥) كان يحسن عدة لغات وله تأليف بالسريانية والعربية (طبع منها كتابه في النحو) وهو تلميذ عالم عصره وفقهه مصره الشيخ سليمان الحلبي . وعبد الله زاخر (١١٦٢) مترجم الانجيل وطابعه . وعبد اللطيف الاطاسي الحمصي الأديب عالم بالكيمياء والافاق وغير ذلك من الفنون الغربية وله شعر كان حياً سنة ١١٤٠ . والبطريك ميخائيل جردة الحلبي . والايكونيموس بطرس التولوي . والقس يوحنا زندو الحلبي . وعطاء الله زندو عبد المسيح لبيان الشاعر . والشاعران ميخائيل جبارة وانطون ذكري . والخورى يوسف الشرباتي . والخورى يواكيم البعلبكي الواعظ له تأليف (١٧٨٢م) .

واحمد العكي العالم الفقيه له تأليف كثيرة وشعر وأدب (١١٤٧) وعبد الله الاطرابلسي المعروف بالافيويني الفقيه له عدة تأليف وشروح (١١٥٤) . وعبد المعطي الخليلي له فتاوى ورسائل كلها منتخبة (١١٥٤) . وابراهيم الحاقلي له عدة تأليف ترجم عدة كتب من العربية الى اللاتينية منها كتاب ابولونيوس في الهندسة ومختصر في الفلسفة الشرقية (١٦٦٤م) وعدد تأليفه ٦٤ . والبطريك اسطفان الدويهي العالم المؤرخ صاحب التاريخ المطبوع (١٧٠٤م) . وعلي البرادعي البعلبي الواعظ كان جده الاعلى جلال الدين من العلماء الاجلاء . ومحمد التاجي الحنفي صاحب الفتاوى التاجية الفقيه (١١١٤) . والسعماني اللبناني كتب بالعربية واللاتينية منها المكتبة الشرقية (١٧٦٨م) وله شهرة في ايطاليا واسبانيا وتأليفه كثيرة قال الدبس : بعد ان عدد تأليفه وأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وان كان مغرمًا بالمطالعة عن ان يقرأ في حياته ما ألفه هو في اوقات فراغه من باقي أعماله . والقس يوسف الباني

الخليبي ترجم عدة كتب الى العربية في الدين المسيحي . وبالطيريك مكاروريوس الخليبي
نبتغ في أواسط القرن السابع عشر للميلاد وهو صاحب الرحلة الى القسطنطينية
وبلغاريا وروسيا .

العلم والأدب في القرن } كان القرن الثالث عشر نعمة القرن الثاني عشر ،
الثالث عشر } ولكن فيه بطء وضعف ، نشأ فيه من دمشق ،
محمد بن حسين الخليبي العطار العالم بالرياضيات والفنون (١٢٤٣) اهتم بالتساهل في
دينه فالتزم بيته فالف عدة رسائل بالفنون الحربية والفلك والحساب طبع بعضها .
واحمد الكزبري العالم بالكتاب والسنة (١٢٤٨) . واحمد الميني الفقيه المحدث
(١٢٥٦) . واحمد بن اسماعيل بيزرس فقيهه (١٢٤٧) . واسعد المنير فقيهه
(١٢٤٢) . وحامد العطار المحدث المفسر (١٢٦٣) . وكال الدين الصمادي
الجزائحي الدمشقي له تأليف في التاريخ (١٢٠٩) . وحسن جينة فقيهه أديب له
رسائل في الأخلاق (١٢٠٦) . و خليل الخشة فقيهه (١٢٤٢) . ورضاء الدين
الخليبي فقيهه (١٢٨٦) . وشاكر العقاد الشهير بمقدم سعد الفقيه الحكيم الأديب
(١٢٢٢) . وصالح الدسوقي له بعض رسائل في الفقه والأدب (١٢٤٦) .
وعبد الرحمن الكزبري الفقيه المحدث (١٢٦٢) . ومكسيموس مظلوم له خمسون
تأليفاً ومعرباً (١٨٥٥ م) . ويوسف مهنا الحداد عالم بالدينيات والتاريخ
والرياضيات يعرف اليونانية والعبرانية (١٨٦٠ م) . وحسين الغزي الخليبي أديب
(١٢٧١) . وانطون الخلع أديب يحسن الفارسية عرب الكستان للشيخ سعدي
مطبوع (١٨٥١ م) . وعبد القادر العمادي فقيهه (١٢٢٨) . وعبد الغني السقطي
عالم مفسر (١٢٤٦) . وعمر الغزي فقيهه (١٢٧٧) . وقاسم الخلاق فقيهه مفسر محدث
شاعر ناثر (١٢٨٤) . وكال الدين الغزي عالم مؤرخ شاعر صاحب التذكرة (١٢١٤) .
ومحمد الخللاني فرضي موقت فلكي (١٢٠٧) . ونجيب القلعي فقيهه (١٢٤١) . ومحمد
عابدين فقيهه واسع المادة صاحب التأليف والرسائل المثقنة منها حاشيته المشهورة
ورسائله وفتاويه وكلها مطبوع . وعبد الغني الميداني عالم بالاصول والفقه وفتون

العربية (١٢٩٩) . وعبد السلام الشطي شاعر فقيه (١٢٩٥) . ومصطفى المغربي التهامي عالم أديب شاعر (نحو سنة ١٢٨٠) . وعبد القادر الحسيني الجزائري عالم بالنصوف والأخلاق والدين وله شعر ونثر وتأليف ومنها المواقف ورسائل منها مطبوع (١٣٠٠) .

ونشأ في حلب محمد نور الترماني (١٢٥٠) له عدة شروح على بعض كتب الآلات والأدب وله شعر وأخوه احمد الترماني (١٢٩٣) خلف عدة تأليف وحواش وشروح ومنها كتاب الجامع في الكيمياء . ورزق الله حسون (١٨٨٠م) كاتب شاعر ضليع بالعربية وفنونها وله رسائل جيدة وهو اول من أنشأ صحيفة عربية بالاستانة . وفرنسيس مرساش الأديب له عدة تأليف وديوان شعر (١٨٧٣م) . وعمر الانسي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٢٩٣) . وامين الجندي الشاعر الرقيق له ديوان مطبوع (١٢٥٧) . وبطرس كرامة الشاعر له ديوان مطبوع (١٨٥١م) . وناصر اليازجي الشاعر اللغوي الأديب صاحب المقامات والديوان وغيرهما من كتب النحو والبيان وكلها مطبوعة اشتهر في هذا العصر كثيراً (١٨٧١م) . ونقولا الترك شاعر أديب له ديوان شعر وتاريخ حملة الفرنسيس على مصر والشام مطبوع وغيره . ومحمد الحوت البيروتي فقيه محدث له كتاب في الحديث (١٢٧٦) . وحسين بيهم البيروتي أديب له ديوان شعر (١٢٩٢) . ومحمد النصرى كان في حدود المائتين والنف له مؤلفات كثيرة أشهرها شرح قصيدة كعب . ونصر الله الطرابلسي شاعر (١٨٤٠م) . واحمد البربير البيروتي شاعر عالم كبير له عدة مؤلفات طبع بعضها (١٢٢٦) . وحيدر احمد الشهباني اللبناني (١٨٣٤م) مؤرخ أديب له التاريخ المنسوب اليه المطبوع . ومحمد ارسلان اللبناني له مؤلفات في الفلك والتاريخ (١٨٦٤م) . وناصر المعلوف الأديب الكاتب ألف ٣٦ مؤلفاً طبع اكثرها . ونوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي له كتب في التاريخ والأدب . وعمر اليافي متصوف له ديوان شعر (١٢٣٤) . ومحمد الدباغ له عدة مصنفات (١٢٨٨) .

العلوم المادية في منتصف
القرن الثالث عشر } وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت
تباشير العلوم الرياضية والطبيعية ، وكانت
انحطت انحطاطاً أشبه بالانحدار ، تقبل على بلاد الشام من طريق الديار المصرية ،
بواسطة النهضة التي انبعثت بعناية محمد علي عزيز مصر ومؤسس بنيان مملكة النيل ،
فانه أنشأ مدارس للهندسة والطب والترجمة والفنون الجميلة والحربية والبحرية وغيرها ،
فتخرج فيها كثير من المصريين وبعض أفراد من الشاميين ، وأخذت تسري من
أنوارها أشعة نافعة على بلاد الشام .

ثم ان الدولة العثمانية أنشأت المدارس العالية في الاستانة ولاسيما المدرسة الحربية
والطبية ، وبعد مدة مدارس الملكية والحقوق والزراعة والهندسة ، فأخذ بعض أفراد
من الشاميين يدرسون فيها ولكن بالتركية ، فكان ذلك الى آخر عهد العثمانيين في
ديارنا من العوائق الكبيرة في سبيل نشر العلم ، لان الدولة كانت تحرص على نشر
لغتها ، وأبناء العرب او من يريد ان يسلك مسالك الجيش والطب والادارة والهندسة
والزراعة أرغمتهم الحالة على التحلي عن لغتهم ، فجاء اكثرهم ضعافاً حتى في العلم الذي
أخصوا فيه ، وكانوا أضعف من ذلك في لغتهم ، فلم ينبغ منهم رجال اشتهروا وأفادوا
بلادهم كما نبغ من مدارس الوطنيين المسيحيين مثل مدرسة عين ورقة الأكليركية
التي أنشئت سنة ١٧٨٩ م ونبغ منها كثير من البطاركة والمطارنة والكهنة من
الموارنة في القرن التاسع عشر . قال الدبس : ومن هذه المدرسة خاصة انبعثت علوم
اللغتين العربية والسريانية بين نصارى الشام وغيرها من العلوم والفنون ، ومثل
مدرسة كفتين للروم الارثوذكس ، والمدرسة الوطنية في بيروت ، والجامعة
الاميركانية في بيروت التي عملت زمناً طويلاً بالعلوم بالعربية ومنها الطب ، فجاء من
تلامذتها أفراد خدموا الآداب العربية .

ونشأ في لبنان بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط
وكان يعرف العربية والسريانية والايطالية واللاتينية والعبانية واليونانية ، ووجد
من خديوي مصر وغيره من ملوك المسلمين وامرائهم تنشيطاً على اتمام عمله ، كما نشأ
في تلك الحقبة احمد فارس الشدياق اللغوي المحقق صاحب جريدة الجوائب وكتاب

الساق على الساق وكشف الخبايا والجاسوس على القاموس وسر الليالي وغيرها وكلمها مطبوع ، ووجد هذا من عزيز مصر ويايى تونس وملك باهو بال نشيطاً كثيراً . وهنا يقضي الواجب ان نشير بالتكريم للأسرة العلوية المصرية أسرة محمد علي الكبير فان رجالها في كل دور قد ثقفوا آثار جدهم الأعظم في الأخذ بأيدي المعارف وبر المؤلفين والصحافيين والشعراء فعدوا من دعائم النهضة العربية الأخيرة والعاملين على الأخذ بأيدي العاملين فيها .

ومن علماء القرن الأخير في دمشق سليم العطار محدث فقيه . ومحمود الحمزاوي فقيه أديب له مصنفات . وبكري العطار امام العربية ولاسيما النحو والتصريف ثم الفقه والحديث . وحسن البطار فقيه . واحمد المنير فقيه . وسليم الحمزاوي فقيه محدث . وعبد الله السكري فقيه . ومحمد المنيني فقيه محدث . وفي بيروت يوسف الأسير عالم بالعربية والفقه وله شعر وأدب وعدة تأليف نشر العلوم الاسلامية والعربية بين مسيحيي بيروت ولبنان (١٣٠٧) . وابراهيم الأحدث عالم بالفسير والحديث والاصول والفقه واللغة والأدب وله عدة تأليف ثلاثة منها دواوين باسمه ونحو ثمانين مقامة ونظم جمع الأمثال للميداني وشرح رسائل بديع الزمان وهما مطبوعان وغير ذلك من المقالات في الصحف (١٣٠٨) . وامين الشميل حقوقي مؤرخ له عدة تأليف (١٨٩٧) . واسكندر ابكار يوس له تأليف في التاريخ (١٨٨٥) . ويوحنا ابكار يوس (١٨٨٩) له قطف الزهور في تاريخ الدهور ومجم انكليزي مطول . ومحمد الحوت (١٢٧٦) فقيه محدث له كتاب في الحديث . وعبد الغني الرافي الطرابلسي (١٣٠٩) شاعر متصوف . ومحمد الميقاتي الطرابلسي (١٣٠٢) شاعر . وابراهيم الحوراني الحمصي (١٩١٦) أديب رياضي فلكي له عدة تأليف ومقالات وتحقيقات . وسليم كساب لغوي أديب له عدة مصنفات (١٩٠٩) . وميخائيل مشاقفة الدمشقي رياضي فلكي موسيقي مؤرخ من رجال الاصلاح الديني في النصرانية (١٨٨٩) له تأليف . وعمر اليافعي (١٣٣٤) متصوف شاعر له ديوان . وسليمان الصولة شاعر هجاء له ديوان (١٨٩١) . ويوسف الدبس (١٩٠٩) أديب له تاريخ سورية . وجرجس همام رياضي أديب له المعجم العربي الانكليزي والكتب المدرسية والهندسية (١٩٢٠) . وسعيد الخوري

الشرتوني لغوي أديب صاحب معجم أقرب الموارد وغيره من الكتب اللغوية والأدبية كان منقلاً للفقهاء الاسلامي . ورشيد الدحداح اللبناني له عدة تأليف ونشر تأليف مدرسية وغيرها . ورشيد الدحداح اللبناني له عدة تأليف في التاريخ ونشر تأليف فيه (١٨٨٩) . وأديب السحقي كاتب مترسل شاعر سياسي (١٣٠٣) . و ابراهيم سر كيس أديب له بعض الرسائل والمصنفات . وسليم شحادة له اطلاع على التاريخ وهو احد مؤلفي كتاب آثار الأدهار المطبوع . وانطون الصقال شاعر كاتب . وقاسم ابو الحسن الكسبي الشاعر الأديب له ديوان مطبوع (١٣٢٢) . وحسين الجسر فقيه أديب له عدة مصنفات منها الرسالة الحميدية في الرد على الدهر بين وغيرها من المقالات في الصحف ومنها في الأخلاق والأدب (١٣٢٧) . ويوسف ضيا الخالدي المقدسي له عكاظ الأدب والتحفة الحميدية في اللغة الكردية . وروحي الخالدي له عدة تأليف منها علم الأدب عند الأفرنج والعرب . و طاهر الجزائري العالم بالنفسير والحديث والفقهاء والاصول والفلسفة والتاريخ والأدب واللغة له بضعة وعشرون مصنفاً مطبوعاً في فنون مختلفة وله التفسير ومعجم اللغة وغيره مما لم يطبع وكنائش فيها آراؤه ومطالعانه يحسن الفارسية والتركية وهو داعية العلم بين المسلمين في القرن الرابع عشر (١٣٣٩) ومؤسس دار الكتب الظاهرية بدمشق ودار الكتب الخالدية بالقدس وعشرات من المدارس الابتدائية والثانوية في الشام . ومحمد المبارك متصوف أديب لغوي شاعر ناثر له رسائل أدبية مطبوع بعضها (١٣٣٠) . ومحمد مرتضي متصوف فقيه أديب كاتب شاعر . وعبد الرزاق البيطار فقيه أديب له تاريخ لرجال عصره مخطوط . وجمال الدين القاسمي فقيه محدث اصولي أديب شاعر كاتب له تفسير القرآن وعدة كتب في الإصلاح الاسلامي وتاريخ دمشق وبعضها مطبوع (١٣٣٢) . وعبد الله الحموي شيخ القراء . وشاكر الحمزاوي فقيه . وشبلي شمیل فيلسوف كاتب أديب طبيب له تأليف وآثار في النشوء والارتقاء والفلسفة . وجرجي زيدان مؤرخ كاتب قصصي له عدة مصنفات منها روايات تاريخية وتاريخ التمدن الاسلامي وآداب اللغة العربية (١٩١٤) . رفيق العظم مؤرخ سياسي اجتماعي كاتب له عدة مصنفات منها أشهر مشاهير الاسلام (١٣٤٣) . وسليم الذنير كاتب باحث .

ومات من الفقهاء خالد الاتاسي • وابو الخير عابدين • وامين السفرجلاني
أديب له بعض تأليف • واحمد الزو بيتني الحلبي (١٣١٦) النقيه البحر الزاخر •
واحمد صلاح • ومحمد الزرقا • وصالح الزافعي • وتوفيق السيوطي • وصالح قطنا •
واحمد الصديقي • وطاهر الحسيني • ويوسف الامام • و خليل التميمي • ومحيي الدين
الحسيني • وابراهيم ابورباح • وبشير الغزي • ومصطفى كرامة • وصالح الدين
نفاحة • ومحيي الدين اليافعي • ومحمد الحوت • وسليم المسوتي • وحسين
العمري الى امثالهم •

وهلك في هذا القرن من الشعراء والكتاب والكتابت والادبيات سليم قصاب
حسن شاعر له ديوان • نجيب حداد شاعر كاتب قصصي (١٨٩١) • داود عمون
شاعر أديب • يوسف خطار غانم • محمد الهلالي شاعر • اسكندر عازار • نعوم
شقيير كاتب له مؤلف في تاريخ سيناء والسودان مطبوعان • امين حداد • نعوم بلبي •
انطون رباط • ندره مطران • ابوالخير الطباع • محمد علي حشيشو • جرجي ديمتري
سرسقي • صادق المؤيد له رحلة السودان • فرح أنطون له عدة تأليف وترجمات
مطبوعة • اسكندر شاهين له عدة كتب مترجمة • شاكر شقيير كاتب شاعر • امين
أرسلان • عمر حمد شاعر • عمر اليافعي • محمود الشهبال شاعر • نيقولارزق الله • جميل
مدور • نوفل نوفل • امين الشميل • صلاح الدين القاسمي • شاكر الخوري له كتاب هنلي •
احمد الصابوني له تاريخ حماة مطبوع • محيي الدين الخياط كاتب له عدة كتب مدرسية
حسن رزق • حسن بهم • سليم سر كيس كاتب هنلي • عبدالوهاب الانكليزي •
سليم الجزائري • شكري العسلي له عدة رسائل اجتماعية وأدبية • رشدي الشمعة
شاعر كاتب • احمد طيارة • عارف الشهابي • عبد الغني العريسي • جرجي حداد •
سعيد عقل • باترو باولي • رفيق رزق سلوم • فيليب الخازن • فريد الخازن •
محمد الحمصاني • عبد الحميد الزهراوي • عبد القادر المؤيد • حسين وصفي رضا
شاعر كاتب • بشارة زلزل له عدة كتب في الطب وغيره • محمد عبد القادر
الحسني • محيي الدين الحسني له مؤلفات • شاكر عون • سليم بستر • سليم نقلا •
سليم عباس • سليم البستاني • اسعد الشدودي • عبد الغني الزافعي • شاكر ابوناظر •

توما ايوب • منصور باحوط • خليل باخوس • سليم باز • سليم جدي • فيليب
جلاد • نجيب حبيقة • يوسف جرفوش • امين الخوري • يوسف دريان •
وهلك من النساء في العهد الأخير عفيفة كرم • وردة اليازجي • عفيفة اوزون
زينب فواز • وردة الترك • هيلانة البارودي • سلمى قساطلي • هنا كسباني •
مريانا المراس • سارة نوفل • فريدة عطية •

المعاصرون من العلماء } ومن شيوخنا وكهولنا وشباننا ونسائنا من
والادباء } اشتغلوا بالعلوم والآداب على اختلاف أنواعها
وعن اشتهر منهم: (أ) علماء الدين والفقهاء والقضاء: سليم البخاري • رشيد رضا •
بدر الدين الحسيني • عبد الله العلي • عبد الله الجزار • مسعود الكواكبي •
سعيد مراد الغزي • مصباح محرم • عبد المحسن الاسطواني • احمد عباس •
محسن الامين • جرجس صفا • عطا الكسم • سعيد النعسان • سعيد الباني •
بهجة البيطار • طاهر الاناسي • يوسف النهباني • محمود منقارة • عبد الكريم
عويضة • عبد اللطيف نشابة • عبد الحميد الكيالي • عبد الحميد الجابري • عبد
القادر بدران • عبد القادر القصاب • محيي الدين الحسيني • نوري المفتي • طاهر
المنلا الكيالي • احمد النويلائي • خالد النقشبندي • يوسف الحكيم • امين
سويد • نجيب قباني • توفيق الايوبي • عبد الكريم حمزة • نجيب كيوان • محمد
الاسطواني • محمد الكستي • ابراهيم هاشم • سليمان احمد • طاهر ابو السعود •
يوسف الامام الحسيني • محيي الدين الخاني • عيسى العكرماوي • منيب هاشم •
نمر الداري • فهمي الحسيني • عادل زعيتر • احمد الزرقا • نجيب ابو صوان •
مصطفى برمدا • امين عز الدين • اسمعيل حافظ • ميخائيل عيد البستاني • مصطفى
الخاني • مصطفى نجا • فارس الخوري • فوزي الغزي • فتح الله أديب • علي الكيالي •
عبد الحميد المغربي • محمد الحسيني • محاسن الازهري • توفيق الدجاني • خليل
الخالدي • ومن المنفردين بالقرآت في دمشق: محمد الحلواني • عبد الله المنجد • احمد
دهمان • رضا الحديدي • محمد القطب • عبد الرحيم ديس زيت وغيرهم •

- (٢) العلوم الفلسفية والمادية : يعقوب صروف . منصور جرداق . جودت الهاشمي . مصباح حولاً . سعيد البجرة . رشدي سلهب . درويش ابو العافية . شكري خليفة . امين معلوف . عبد الوهاب المالكي . اميل خاشو . يوسف افيتموس . حسن الحسيني . ابراهيم الدادا . وجيه الجابري . فيكتور كورنلي . اسمعيل باقي . احمد رستم . مصطفى الشهابي . وصفي زكريا وغيرهم .
- (٣) العلوم الاجتماعية والتاريخية : شكيب ارسلاف . فارس نمر . داود بركات . خليل ثابت . عيسى اسكندر المعلوف . نقولا حداد . محمدرستم حيدر . نسيم صبيحة . جميل بيهم . سعيد حيدر . جرجي بني . عمر الصالح البرغوثي . خليل طوطح . ميخائيل الوف . قسطنطين الباشا . سليم شحادة . نجيب صلبيا . رفيق التميمي . اسد رستم . جميل مردم . راشد طبارة . اسعد منصور وغيرهم .
- (٤) الأدباء : عبد الله البستاني . لويس شيخو . اسعد خليل داغر . سليم الجندي . اسعاف النشاشيبي . عارف النكدي . كامل الغزي . فسطاكي الحمصي . بطرس البستاني . مصطفى الغلاييني . سعيد شقير . اسعد الحكيم . توفيق شامية . رشيد عطية . امين ظاهر خير الله . حنا صلاح . جميل الخاني . رشيد بقدونس . انيس المقدسي . جبر ضومط . جرجس منش . مرشد خاطر . سليمان ظاهر . عزة دروزة . بندلي الجوزي . عبد الرحمن سلام . عبد القادر المغربي . عبد القادر المبارك . ابراهيم منذر . ميخائيل صقال . نجيب ميخائيل ساعاتي . جرجس شلحت . سامي جريديني . حسني عبدالهادي . راغب الطباخ . سامي الكيالي . عز الدين علم الدين . عبد الله النجار . عمر الاتاسي . ايفانوس زائد . علي ناصر الدين . عبداللطيف صلاح . عبدالله مخلص . عمر الزعني . حبيب كحالة . عارف الزين . فيليب طرازي . فائز الخوري . جرجي معمور . راجي الراعي . جميل معلوف . عمر الفاخوري . جرجي باز . احمد صلاح الدين . احمد عبد المهدي . يوسف زخم . جميل الشطي . بدر الطاغستاني . صبحي القوتلي . صادق بهلوان . توفيق ناطور . انطون جميل . نزيه المؤيد . لويس معلوف . شكري الجندي . شاكر الحنبلي . وصفي الاتاسي . حسني البرازي . زكي الخطيب . عارف الخطيب .

امين الحشيمي . انيس النصولي . أديب النقي . جودت الكيال . محمد الداودي .
احمد عبيد . حمود الزبروتي . منخ هارون . فائز الغصين . سامي العظم . خالد
الحكيم . نظمي الحمزاوي . وجيه بوضون . نجيب الريس . شريف عسيران .
أديب الصفدي . أديب فرحات . سعيد الصباغ . جمال الملاح . أديب وهبة .
عبدالغني باجقني . عارف التوام . فوزي العظم . إحسان الشريف . سعيد المسوتي .
حسن الحكيم . الياس القدسي . عبد الله رعد . صبحي ابو غنيمه . ميشل بطار .
ابراهيم حرفوش . توفيق حمادة . عبد الله رزق الله خير . سليم خطار الدحداح .
ادوار الدحداح . حبيب الدرعوني . حكمة المرادي . بولس الزغبي . يوسف اليان
سر كيس . ميشال الياس سماحة . جورج همان . سليم صادر . يوسف صادر . انطون
جرجس فرج صفيير . نعيم صوايا . اسكندر طحيني . بولس عبود . اميل عرب .
صالحاني . يوسف علوان . يوسف غصوب . جبرائيل فرداخي . يوسف قيقانو . نجيب
مخلوف . فيليب مسك . امين مشحور . حلمي مصري . عيسى بندك . شكري
كنيدر . عبد الله صفيير . حبيب زيات . احمد عمر المحمصاني . محمد علي
الطاهر . يوسف حيدر . انطون شعراوي . توفيق الحلبي . توفيق جانا . اسعد
ملكي . رزق حداد . عباس ابو شقرا . طه مدور وغيرهم .
(٥) الكتاب : احمد رضا . عبد الباسط فتح الله . خليل زينية . خليل سمادة .
خليل سعد . سامي قصيري . نعوم مكرزل . يوسف الخازن . عبد الله الاسطواني .
نجيب شاهين . اميل زيدان . ابراهيم سليم النجار . يوسف العيسى . بدر الدين
التعساني . عادل ارسلان . محمد الجسر . توفيق اليازجي . ادوارد مرقص .
امين الريحاني . محب الدين الخطيب . سليم قبعين . ميخائيل نعيمة . بولس الخولي .
جبران تويني . جبران خليل جبران . شحادة شحادة . امين غريب . فؤاد صروف .
سعيد ابو حمرة . يوسف البستاني . خليل السكاكيني . عادل جبر . نجيب
نصار . رشدي الحكيم . عيسى العيسى . عبد اللطيف الشطي . سليم ابكار يوس .
امين الكيلاني . سعيد الزهور . خليل بدوي . خليل بهدس . بطرس غالب .
ناجي أديب . وجيه الكيلاني . لطفي الحفار . كاظم الطاغستاني . عمر الطيبي .

- طاهر الكيالي • امين الحلبي راشد البيلاني • عبد الهادي اليزجي • فارس فياض • احمد الكرمي • احمد كرد علي • معروف الارناؤوط • عبد الحسين الشيخ سعيد • نجيب اليان • ايليا زكا • نجيب شقرا • زكي مغاضر وأمثالهم •
- (٦) الشعراء : فؤاد الخطيب • امين ناصر الدين • خليل مطران • خير الدين الزركلي • خليل مردم بك • شفيق جبيري • سليمان التاجي • عبد الحميد الرافعي • مصباح رمضان • طانيوس عبده • الياس فياض • سليم عنخوري • محمد الشريفي • نوفل الياس • محمد البزم • جرجي عطية • بشارة الخوري • شبلي ملاط • امين ثقي الدين • رشيد نخلة • محمد سليمان • اسعد رستم • نخري البارودي • نسيب ارسلان • ايليا ابو ماضي • حلیم دموس • ابو السعود مراد • عبد الرحمن القصار • كامل شعيب • عارف الرفاعي • زديم الملاح • محمد الفراتي • عبد الرحيم قليلات • جميل العظم • ابراهيم الشدودي • حسين الحبال • وغيرهم •
- (٧) الخطباء : عبد الرحمن شهنندر • اسعد الشقيري • اسعد عفيش • نقولا فياض • غريغوريوس حداد • حبيب اسطفان • انيس سلوم • فيليكس فارس • حنا خباز • عبد الرزاق الدندشي • مصطفى الشماع • محمود الخماس • بدر الدين الصفدي • افرايم ابض • عبد الرحمن الكيالي • سامي السراج وغيرهم •
- (٩) الكاتبات والشواعر والخطيبات : ماري زيادة • ماري عجمي • سارة خطيب • لبيبة هاشم • نجلا ابو المص • سلمى صانغ • جوليا طعمة • عفيفة صعب • عبيرة سلام • مسرة الادلي • ماري يني • هيلانة البارودي • فاطمة سليمان • ابتهاج قدورة • بهيجة المؤيد • خيرية ترماني • امة اللطيف المؤيد وغيرهن •

تأثيرات الاجانب } ومن المعاهد التي خرجت أناساً بالعربية والافرنسية
في التربية } كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت ، وكان
اول نزول الآباء اليسوعيين في الشام ١٦٥٣ م ، فأسسوا مدرسة عينطورة ببلبنان التي
أخذها الآباء للعازريون بعد مدة (١٨٣٤ م) وخرجت كثيرًا من الأديب بالغة الافرنسية
فقط • وقد ضعفت في هذا القرن ملكة الببان في المسلمين وهم يتلون القرآن ولكن بدون

ان يتدبروا معانيه ويفهموا إعجازه ، حتى أصبح النقيه والمحدث والنحوي والبياني والمنطقي لا يحسن كتابة سطر ين الا بصعوبة ليس بعدها صعوبة . ويتعاصي عليه فهم الكلام الفصيح دون الرجوع في المفردات البسيطة الى المعاجم ، وضعف الشعر على تلك النسبة بحيث لم ينبغ الا أفراد قلائل من الشعراء يستحق شعرهم ان يسمع ويدون ، بل كانوا اذا أرادوا الخطب في الجوامع والمساجد يحفظون شيئاً منها لأهل العصور التي سلفت ويوردونها بدون مناسبة ، بل ان الإجازات التي يكتبها الشيوخ وغيرها من التعميدات والتماريظ وأدعية المواسم ينقلونها عن الأقدمين ويحرفونها على صورة مستكرهة مهزعة ، وقد قوت في هذا العصر ، قاعدة خبز الاب للابن ، وكان المفتي ابو السعود من مشايخ الاسلام في الاستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والامامة وغيرها من المسالك الدينية توسد الى الجهلة بدعوى ان آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب ان يرثوا وظائفهم ومناصبهم وان كانوا جهلة ، كما ورثوا حوائثهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم . بل بلغت الحال بالدولة اذ ذاك ان كانت تولي القضاء للأعميين ، وكم من أمي غدا في دمشق وحلب والقدس وبيروت قاضي القضاة ، اما في بلاد الأقاليم فربما كان الأميون اكثر من غيرهم ، لان أخذ القضاء في دار الملك كان متوقفاً على بذل شيء من الرشى ، فيصل اليه أجهل الناس وبذلك فترت بهم ، وانصرفت الرغبات عن تعلم علوم الدين ، لان الجاهل والعالم كانا سواء في باب المشيخة الاسلامية ، ومن يحسن المصانعة والرشوة ويمت اليهم بأسلوب من أساليب الشفاعة .

وأصبح الشعر عبارة عن شبكة يتعلم صاحبها نصيبها ليتزلف بها الى الكبراء وأرباب الدولة ، والشاعر كطبال اوزامر او قراد يغني ويلعب أمام من يعطيه دربهات قليلة . وهناك شبكة رسمية أخرى بصطاد بها المال وهي ان من حفظ قواعد النحو والصرف في كتب لم معينة ، وانقطع الى مدرسة من المدارس ، وجاز الامتحان ست سنين على أسلوب لم مخصوص يعنى من الخدمة العسكرية ، فتعلم بذلك كثيرون ومن فهموا ما تعلموه جاء منهم بعض فقهاء وأدباء ، ثم أبطل ذلك في العقد الثاني من القرن الرابع عشر .

وبينا كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق وطرابلس والقدس وغيرها أخذة بالافول والاندراس ، والمسلمون او الذين خرجوا من الأمية بعض الشيء من أهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية والادارية والعسكرية ، كان إخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة ، جعلت تدرّس العربية وآدابها واللغات الحية اول بند من منهاج الدراسة فيها ، فجاء من أبنائهم ومن اخذ العلم عنهم من سائر الطوائف جماعات يذكرون في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الآداب ، وإنهاض المجتمع ، ومنهم أفراد نزحوا الى مصر واميركا وتولوا الاعمال الكبرى وأظهروا آثار قرائحهم ونبرغهم ولا سيما في القرن التالي ، وبطلت القاعدة التي كانت وضعها بعض ضعاف النظر من تقبيح نحو النصراري وغناء اليهود ، فأصبح بالتعلم من النصراري نحاة ثقافات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، بمعنى ان الزمن أبطل ذلك الزعم .

* * *

الآداب في القرن الرابع عشر } اختص القرن الرابع عشر بان تجلت فيه فائدة العلم
الرابع عشر } لعامة الشعب ، فصار المقتدرون من الناس يلقون
باولادهم لاي مدرسة كانت ليأخذوا العلم منها ، ودبت الغيرة في نفوس المسلمين
فأنشأوا بعض المدارس الأهلية مثل مدارس المقاصد الخيرية في بيروت وصيدا ،
ومدارس الجمعية الخيرية في دمشق ، وكان تأسيسها في العقد الأخير من القرن الثالث
عشر ، والكلية الاسلامية في بيروت والمدارس الأهلية الابتدائية ، والوسطى في
دمشق وحماة وحمص وحلب وطرابلس فخرّجت هذه المدارس مئات من المتأدبين
كما خرّجت المدارس الطائفية مثل مدرسة البطريركية الكاثوليكية ومدرسة الحكمة
المارونية في بيروت ، فانها تخرّج بها أفراد في الآداب .

وكان الفضل في هذه النهضة الشامية لمدارس لبنان وبيروت وعناية بطارقة
الموارنة وبتاركتهم وأساقفتهم وقسيسهم بالعلم واللغة . اما العلوم الطبيعية والرياضية
والطبية فانبعثت جذوتها من الجامعة الاميركية أكثر من غيرها ، ولولم تبطل تدرّس
العلوم بالعربية وتجعله انكليزيا منذ أوائل هذا القرن لتضاعفت الفائدة التي نشأت

من هذه المدرسة العالية ، وكان من استاذين من اساتذتها الدكتور فاندريك الاميركاني والدكتور ورتبات الأرميني فضل على العربية بما كتبه في العلوم المختلفة باللغة العربية وكذلك كان شأن يوست الاميركاني فإنه ألف كتباً علمية نافعة بلغتنا فعدنا منا .

ان المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الاميركبين واليسوعيين والالمان والانكليز والطلينان واليونان والروس وغيرهم من الامم ذات المطامع في الارض المقدسة قد جعلت التربة متلونة في هذه الديار ، فأصبح كل متعلم يتخدم الغرض الذي أنشئت له مدرسته ، وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعلم أقساماً شتى ، وتباعدت مسافة الخلف بين أبناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له أثر يذكر في غير العصور ، ولأن معظم المدارس التي أنشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة ، فالانجيليون او البروتستانت ننشر دعوتهم كل يوم ، واليسوعيون يتزعمون منزعاً آخر في التربية الدينية والسياسة ، وهكذا لو أردنا ان نعدد اسماء الجمعيات الدينية التي تعلم المسيحيين في بر الشام لما رأيناها نقل عن ثمانين رسالة ، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده ، وكم رأينا رجالاً ونساءً درسوا في تلك المدارس فجأؤوا لاعرب ولا افرنج ، يتكلمون في بهوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون ثقاليديهم وتاريخهم ، وتسود بلادهم في عيونهم ، ولذلك صح ان يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بان هيأت لها في هذه الديار أنصاراً .

وبينا ترى بعض المسلمين يكتبون التركية كأهلها وشعورهم تركي صرف ولم ينفعوا بلاد الشام بشيء كثير من علمهم ، تشهد كثيرين ممن درسوا في مدارس الرهبان والقسيسين والحاخامين يكتبون الافرنسية او الانكليزية او الالمانية او الروسية او اليونانية أحسن من كتابتهم لغتهم بدرجات ، وكل هؤلاء لم يستحق أحدهم اسم العالم والأديب ، بل ان معظمهم قد اسودت الشام الجميلة في عينه ، وهجرها الى قارة أخرى . ان الشامي المتأدب في الجملة بأداب قومه يجب لغته وبقار عليها ، ولذلك أسس عدة صحف

ومجلات راقية في مصر وبلاد المهجر من اميركا الشمالية والجنوبية ، وحبب المطالعة بالعربية الى من نزل عليهم من اهل البلاد ، او الى من هاجروا من الشاميين بحيث لا تقل صحفنا ومجلاتنا العربية خارج البلاد الشامية عن خمسين جريدة ومجلة حية ، وما ندرى ان كانت هذه الهمة تظل على حالتها بعد انقراض هذا الجيل ، فان الجيل الجديد من الشاميين في اميركا الشمالية والجنوبية لا يعرف العربية الا قليلاً ، بل يتكلم بالانكليزية او الاسبانية او البرتغالية . وأعظم نقص في المدارس الأميركية والطائفية والاجنبية ان الاولى تصوغ موظفين والثانية والثالثة تهيئ المتخرجين على مملعيا الى الهجرة ، وتباعد بين أبناء الوطن الواحد وتبث مبادئ اجتماعية لا تنطبق على حالة البلاد .

نعم تمت بالشاميين كما قلنا مرة (المقتبس المجلد الخامس) دواعي التفريق في الوطنية وضعفت ملكتها فيهم بقوة المدارس الغير الوطنية في ديارهم . فان كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما أدخلته اليها من النور القليل ، فقد أضرتنا بالخلال عقدة الوطنية ، فمدارس الاميركان والروس واليونان والفرنسيس والانكليز والالمان قد أصححت وأفسدت . أصححت بتلقين من تخرجوا فيها شيئاً من معارف الغرب ، وأضعفت في نفوسهم حب الوطن بتحييها اليهم أوطاناً غير أوطانهم ، وتعرفهم الى رجال غير رجالهم ، ومساواتها في أعينهم الامم . والعاقلة من حرص على نفع أمته قبل كل نفع وانفع بما عنده قبل ان يتطال الى ما عند غيره . ومن زهد في لغة آبائه وجدوده كان حرياً بالزهد في وطنه ووطنيته . واللغة والوطن يصح ان يكونا اسمين لمسمى واحد . جنت مدارس الاجانب والحكومة على هذه البلاد أعظم جناية لان المتخرجين فيها او معظمهم من الذكاء على جانب عظيم ، لم ينفعوا الدولة حق النفع ولم ينفعوا البلاد التي ولدوا فيها . ان المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأغلاق ونفائس المتاع ، استغفر الله بل ان من يسرق فلذات الالكباد ، ليخرجها على ما أراد ، أشق على النفس وطأة ، وأعظم في المغبة أثراً . وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال ؟ أو ليست الأرواح أثمن من كل بضاعة ، وهل أعز من الولد على قلب أبويه . ان المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني

هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها ، وناهب الروح ماذا يدعى في الشرع والعقل . ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى نتساوى في عيونهم اللغات والعناصر كلها ، وننجر دامة فنفي لاجياء غيرها ، ونقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى ، ولا تهمها دارها وتزيد هدمها لتعمر بانقاضها دار جارها .

في نحو سنة ١٢٧٨ فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية وهي اول مدرسة اميرية أنشئت في حلب . وأنشأ^(١) مدحت باشا في دمشق سنة ١٢٩٥ هـ ثماني مدارس ابتدائية للذكور والاناث ودار صنائع ، وأسس مثل ذلك في أعمال ولايته الواسعة ، وما برحت المعارف منذ ذلك العهد تملأ قليلاً وتسلم كثيراً ، والحكومة لا تطلب من المدارس الابتدائية والثانوية الا ان تخرج لها طبقة من الموظفين ملكيين وعسكر بين يكونون أتراباً بالسنتهم لا بقلوبهم ، عثمانيين بتربيتهم لا باصولهم ، وقد أخذ دعاة تريك العناصر يقاومون لغة البلاد سراً ، فما هي الا بضعة سنين حتى أصبح معظم الدارسين في مدارس الحكومة يخرجون بعد درس عشر او خمس عشرة سنة ، وهم لا يحسنون لغتهم ولا لغة الدولة الرسمية ، فضلاً عن اللغة الافرنسية التي كان تعلمها اذ ذاك رسمياً في الظاهر صورياً في الحقيقة ، على مثل ما كانت اللغة العربية في مدارس الحكومة ، وكان بندر بين من تخرجوا في هذه المدارس من يعاني الصناعات الحرة ، بل ان معظم من أتموا الدروس في مدارس الحكومة العثمانية نشأوا اتكالين مغرمين بالوظائف فقط .

وما فتئت مدارس الحكومة بعد خمسين سنة من تأسيسها غير وافية بالغرض من بعض الوجوه ، بل ما برحت بعد ان جعل التعليم بالعربية عقبى خروج الدولة العثمانية من هذه البلاد ، وروحها تلك الروح التركية لان معظم المعلمين ممن تعلم بالتركية وتخلق بالأخلاق التركية ، وقد حاولت ادارات المعارف في فلسطين والشرق العربي وسائر البلاد الشامية نزع الروح القديم ونشئة المعلمين نشأة عربية ، وليس في الوسخ

(١) من تقرير لنا في إصلاح المعارف العمومية في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٣٩

ان يشيب المرء الا على ماشب عليه، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولم تهتد مدارس الحكومة حتى اليوم الى ايجاد مثال من التربية يلتئم مع ماضي الامة العربية وينفعها في حاضرها ومستقبلها، وتغذية العقول غذاءً كافياً ينفعها في استخراج ثمرات الارض وكنوزها والنفنن في صنعها ووضعها، وتجريد برامج التعليم من الزوائد التي يستغنى عنها في باب تربية الفتاة والصبي. اما التعليم الديني عند المسلمين فهو أحط تعليم، أُصيبوا بذلك بعد خراب المئذنة من المدارس الدينية في القطر وأكل اوقافها، وقد تغافلت الدولة التركية عن انبساطها، ولم ينهياً لها في الدور الحديث من يفكر حقيقة في اصلاحها، واذا درس المشايخ الدروس النظامية، وتأهلوا للقضاء والفتيا والتعليم أهلية حقيقية، على صورة تجمع بين النقل والعقل، نخل بتعليمهم التاريخ والرياضيات والطبيعات والاجتماعيات مشاكل كثيرة. ومن العجيب ان مدينة كدمشق مثلاً لا يقل سكانها عن ثلاثمائة الف نسمة كان فيها في الثالث الاول من القرن العاشر نحو ثلاثمائة مدرسة ومعهد مختلفة الشكل — عدا الكليات الملحقة بالجامع — تقرأ فيها دروس العلم والأدب والطب والهندسة، ليس فيها اليوم درس ديني واحد يقرأ بصورة مطردة، ولذلك بلغت العلوم الشرعية درجة من الضعف تفحك وتبكي، وبلغت اكثر وظائف الوعظ والتدريس والخطابة والامامة من السخف بما تسأل الله معه السلامة.

وقد جبرت حلب هذا النقص فتولى مفتيها السيد عبد الحميد الكيالي بمعاونة السيد يحيى الكيالي ناظر اوقافها كبر هذا الامر، فوضع برنامج لتدريس العلوم الآلية والدينية مدة اثنتي عشرة سنة، واتخذت من المدارس المدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والشعبانية والقرنافية والاسماعيلية لانزال الطلبة، وربطت لهم رواتب تعاونهم بعض الشيء على ما هم بسبيله، ينقاضونها من اوقاف تلك المدارس وعدد الطلبة اليوم في هذه المدارس مائة وخمسون يقرأون على اساتذة تلك المدينة على نظام في الجملة ويرجى ان يكون منهم علماء دينيون ومتأدبون.

اما علماء الدين عند المسيحيين والاسرائيليين فأخذوا يتعلمون في مدارس لهم نظامية في روسيا او ايطاليا او اميركا وغيرها فلا يرقى في الاغلب الى الرئاسة الدينية عندهم الا من توفرت فيه شروط العلم والنباهة، ويكون على الأغلب بانتخاب أقرانه، ولذلك جاء

بون شاسع بين عقلية علماء الدين من المسلمين وعقلية غيرهم من ارباب الأديان ، وغدا
 ارباب الانصاف يقولون بالرئاسة الدينية في الاسلام على النحو الذي هي في النصرانية ،
 لانه ثبتت فوائدها في تثقيف العامة وجمع كلمة خاصة ، ولان الحكومات ليس من
 شأنها ان تعلم الا البسائط العامة المشتركة ، والامور الأخرى من شأن زعمائها الذين
 تعتقد فيهم صلاحها . ومن أغرب الحالات ان مدارس الحكومة في جميع المقاطعات
 الشامية لا يتعلم فيها غير المسلمين ، اما سائر الطوائف فلا يعتمدون في تعليم ابنائهم على
 غير مدارسهم او من مدارس المبشرين . وبهذه الطرق المختلفة في مناهج التربية
 يستحيل ان يجتمع ابناء الوطن على مقصد واحد ، لان كل واحد يتعلم النقرة من
 مخالفه في معتقده ، وخصوصاً في مدارس بعض الرهبانات التي تهزأ بالاسلام والعرب ،
 وتحرف التاريخ الصحيح ولا تعلم منه الا ما ينطبق مع رغائبها ، ولا يفيد شيئاً في
 تكوين الوطنية والقومية ، ولو اتحدت التربية واشترك جميع ابناء الشام في المناهج بها
 والاعتماد عليها ، لا تلبث هذه الامة خمسين سنة حتى تخرج سماؤها سلسلة طويلة
 من الرجال يرفعون مستوى العقل فيها ، ارنفاعة عند أم الحضارة الحديثة في الغرب ،
 ويؤثرون فيها كما أثر اجدادنا في مجموع الحضارات القديمة . وعندنا ان البلاد
 لا تنهض من كبوتها وضعفها في الأخلاق والعلم والشؤون الاقتصادية والاجتماعية ،
 الا اذا تعلم المسلمون تعليماً صحيحاً ، لانهم ستة أسباع السكان ، والثروة الثابتة ملكهم ،
 وهذا لا يتم الا اذا تعلم ابناء غير المسلمين مع ابناء المسلمين تعليماً وطنياً واحداً .

* * *

الجامعات والكليات } احنفل الصهيونيون (سنة ١٣٤٣ هـ) بانشاء جامعتهم
 العبرية في القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية

ولا تمضي خمس عشرة سنة حتى تنبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مرافدها ،
 وفي فلسطين ٨٥ مدرسة ابتدائية ووسطى تعلم العبرية لاكثر من عشرين الف
 تلميذ وتلميذة ، كما انبعثت منذ القرن الماضي في بيروت شعلة المدنية الاميركية والمذهب
 الانجيلي من الجامعة الاميركية ، وانتشرت المدنية الافرنسية والكشاكسة من كلية
 القديس يوسف اليسوعية .

وفي ١٥ حزيران ١٩٢٣ أُسست في دمشق الجامعة السورية مؤلفة من المجمع العلمي العربي ومن مدرستي الطب والحقوق لتكون جامعة عربية للشام بالمعنى الذي يفهمه العلماء من الجامعات ، وما زالت اللغة العامية شائعة في مدرستي الطب والحقوق ، ولا شأن للفصحى فيهما الا قليلاً ، لان معظم المدرسين من الطبقة التي تخرجت في مدارس الترك متوسطة في معلوماتها لتكون في جملة الموظفين في الحكومة العثمانية ولم تُعرف بالمطالعة والبحث ولا بالتأليف والترجمة ، وفترت عن المطالعة منذ خرجت تحمل شهادتها ، وبعض الشهادات التي كان العثمانيون يعطونها من مدارسهم أمرها مشهور ، وهذه الطبقة لانقيم للعربية وزناً ، ولا تكتب جملة مسبوكة ، ولا تكاد تلفظ كلمة صحيحة . ومن الغريب ان توسد هذه الاعمال العلمية الجليلة الى أناس هم أترك في تربيتهم وافكارهم ومنازعتهم في صميم بلاد العرب وفي جامعة عربية يراد منها تكوين أمة عربية . ويرجى ادخال الاصلاح المشهود الى هاتين المدرستين العاليتين اذا وُسدت مناصب التعليم فيهما الى كفاة ، يحسنون العربية احسانهم العلم الذي يدرسونه ، وان تصقل أمالهم بايديهم صقلاً منقناً بحيث تصدر دروسهم عن علم أنفوه وتمثلوه وهضموه وصار لهم ملكة خاصة ، لا مترجمة في الاكثر عن التركية ترجمة جذماء عوجاء كما يفعلون الى اليوم ، ومتى كانت اللغة التركية لغة علم وعنها يؤخذ في مثل هذا العصر ، والمعلوم ان لغات العلم ثلاث الانكليزية والافرنسية والالمانية ليس الا ، ومتى كانت تربية الاعاجم تصلح للامة العربية التي يجب ان تكون بحسب تاريخها ونقاليدها ومنافعها الحاضرة والمقبلة .

ولا سبيل الى الانتفاع بالجامعة السورية نفعاً حقيقياً ينفق مع شهرة دمشق القديمة بالعلم — الا اذا تمت فروعها فأُنشئت فيها مدرسة للاداب وأخرى للعلوم الطبيعية والرياضية وثالثة اللاهيات ، وبذلك نتم فروعها وننبعث منها انوار الحكمة الشرقية والمغربية ، ولا غضاضة علينا اليوم اذا جئنا من مصر وبلاد الغرب بعلماء اخصائين في الفروع التي لا نحسنها من فروع العلم ، نتعلم منهم طريقهم في البحث والدرس والتحليل والتركيب ، فالقطر المصري وهو اسبق منا في العلوم ما زال الى اليوم يأتي من الغرب بعلماء يوسد اليهم الادارة والتعليم في جامعتهم . وعلى ذكر القطر

المصري لا بأس بان نشير الى ان المتعلمين من الشاميين ما يرحوا يفزعون الى مصر منذ أواخر القرن الماضي يخدمون الآداب و يرزقون منها ، فكان لمصر الفضل على الشام وبنيه لانها كانت منبعث قرائحهم . وكان في هذه المقايضة العلمية بين الشام ومصر من الفوائد ما لا يمكن احداً جهله .

وبعد ذلك يرجى ان لا يضيق كثيراً نطاق اللغة العربية في هذه الديار ، بعد ان رأى الناس امرها يضعف الحين بعد الآخر في الغرب والجنوب ، وهي الى ضوؤلة في الشرق والشمال والوسط على ما يبذله الجمع العلمي العربي منذ سنة ١٣٣٧ هـ من العناية بنشرها وتهذيب ألفاظ الكتاب و تراكمهم ، وإرشاد المؤلفين والمترجمين فيما يعوزهم والأخذ بأيديهم ، وتحبيب المطالعة الى الجمهور ، وتعليمه في محاضرات ودروس عامة ، وعرض آثار مدينة الأسلاف على أنظاره لبعث عقليته من رقدتها . واذا توفرت الجامعة السورية العربية على صياغة علماء الهبين وعلماء مدنين وأدباء ومهندسين وطبهميين وكيماءيين وأطباء وحقوقيين وأثر بين يعرفون كيف يبحثون ويعلمون ، يقل سواد الخائقين والعابثين ويزيد عدد العالمين والمنفتمين .

* * *

وبعد فان أهم ما ينبغي صرف العناية به اليوم نشر العلوم } الاخضاء
الانسيكلوبيدية اي المشاركة في العلوم المتعارفة ، ثم الانقطاع الى فرع واحد اي إلقاء النظر على المعارف التي تنير الفكر من العلوم اللسانية والطبيعية والرياضية والاجتماعية والتاريخية والادبية ثم معالجة موضوع واحد . فقد قال الافرنج : اذا كانت القرون الوسطى هي قرون التعميم في التعليم ، فان هذا العصر عصر الإخصاء فيه . ولقد اتسعت معارف البشر النظرية والعملية بعد استنقرار أمرها فاحتاج الناس ان يقسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم الى أقسام لا آخر لها ، ينقطع اليها أفراد ويبحثون في مضامينها . فالاصول من المعارف هي المعلومات العامة ونفرداتها هي الاخصائيات . كان باديء كل شيء مفهوماً في الفلسفة ، فكانت انظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم ، وتنتقسم الى قسمين : المحسوسات

والمعقولات ، ودعيتا علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة . اما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيمياً معقولاً ، ولا جارية على طريقة معقولة ، وكان ارباب الافكار يخفرونها فلا يمارسها الا الصعاليك ، ينصرفون اليها تقليداً ، ويخلفون في عملها آباءهم ، بدون وقوف على القوانين الميكانيكية او الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام .

ثم حسنت حال الانسان بالتدريج ودخلت الاعمال في طور نظام ، وانظمت العلوم الرئيسة ، لاسيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية ابي التجارة والصناعة والحرف ، ونشأ الاختصاص في كل فرع من فروع هذه الطبقات . فالطبيب مضطر الى تعلم امور كثيرة ، ولا يخفى في تعاطي فرع واحد الا في المدن ، اما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الامراض الباطنية والخارجية . وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فان كل حرفة او مهنة تنقسم الى أقسام تدعى تقسيم الأعمال .

وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الاختصاص حتى ما يلزم الطاهي والبائع والسوقي من المعارف ، فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر وانتشارها ، ان يزيد ابداً الاختصاص في كل علم وشأن . واذا نظرت الى الاختصاص من حيث العلم فانه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالم ، فان المبادي الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس حتى العامة ، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم السطحية ورأى ان يتبحر فيها يجب عليه تعين الموضوع الذي سينصرف اليه وبدون ذلك ينقدم المرء في عمله تقدماً بطيئاً ، ويخلط فيه ، ويبقى متوسطاً الى الضعف . والاختصاص ضروري ايضاً في العلم العملي اي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للاسراع فيها ، ويزى ارباب معامل الابر والخياطة في لندن ان في تقسيم الاعمال اقتصاداً كبيراً .

اذا قسمت الاعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها ، فالاختصاص يؤدي ولاجرم الى الضعف الأدبي ، وذلك ان الداملات مثلاً اذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر ، كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في إبرهن فانهم لا يفقدن شيئاً من حواسهن ، ولكنه ثبت بالاختصاص انهن يفقدن حاسة النظر في اقرب وقت . اما القوى العقلية والقوى المائلة لها فانها تنأذى ايضاً . ومن ينصرفون في العلم المحض الى الاختصاص ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين يعيشون في

العالم كأنهم ليسوا منه ، ويدهشون معاصريهم بغرابة أخلاقهم ، ونشتت افكارهم ، التي جرت مجرى الأمثال . وبالجملة فيقضى على كل مخلص في العلم او في الصناعة ان يبرز حظاً من المعارف لأول امره ، وان يخصص في علمين او ثلاثة ، فاذا مارس احدها أراح غيره اه .

نشأت الصحافة La Presse او Le Journalisme } الصحافة العربية
وهي نشر صحف الاخبار، بعد انتشار فن الطباعة الحديثة

عام ١٥٦٦ م في مدينة البندقية في ايطاليا الجنوبية ، ولم تلبث ان انتشرت في اوربا ، وكتبتها لم تُعرف في بلاد العرب الا في سنة ١٧٩٩ م أنشأها في مصر نابوليون بونابرت المنقلب على القطر المصري ، ولم تصل الى الشام الا في أوائل منتصف القرن التاسع عشر ، ففي بدء سنة ١٨٥١ أنشأ المرسلون الاميركان في بيروت اول مجلة عربية اسمها « مجموع فوائد » . وللشاميين الفضل الأول في إنشاء الجرائد جمع جريدة ، وهو الاسم الذي وضعه رجل لبناني للتعبير عن Journal او Gazette ثم وضع لبناني آخر اسم « مجلة » للتعبير عن Revue او Bulletin أطلقه على هذه الرسائل الدورية التي تضم بين صفحاتها مختلف الفوائد في مختلف الموضوعات . وما زال للشاميين الفضل الاكبر في إنشاء الجرائد والمجلات التي لم يكن لها أثر في الحضارة العربية ، بل هي في الحقيقة بنت الحضارات الغربية الحديثة . وقد أنشأ الشاميون في الاستانة ومصر ونونس واوربا صحفاً عربية كثيرة ، وأزروا في صحف كثيرة ، كما أنشأوا في بلاد الشام صحفاً كانت تملو وتسفل بحسب مقدرة القائمين بها واقبال الناس عليها ، ذلك لان الأمية كانت غالبية على البلاد ، ولم يكن الاقبال على مدارس المرسلين والمدارس الطائفية ، وهي التي سهلت درس العربية قبل غيرها ، هذا الاقبال الذي شوهد من بعد ، وخرج مئات من الطلاب الذين كان أقل ما ثقفوه فيها تعلم مباديء لغتهم ومباديء اللغات الأجنبية .

ولما احتل البريطانيون مصر وزاد الضغط على الصحافة العربية في الشام ، هبط مصر كثير من نهباء الكتاب الشاميين من أرباب الصحف ومن المترجمين وغيرهم ،

وأنشأوا جرائد ومجلات ومنها الى اليوم جريدتا الاهرام والمقطم ومجلات المقنظف والهلل والمنار والزهاء والإخاء ، فانها ابلت بلاءً حسنًا في خدمة الافكار ونشر الآراء العلمية والتهذيبية والأدبية والدينية . وقد نشرت في الشام وفي مصر باقلام الشاميين انفسهم صحف ومجلات كثيرة لم يكتب لها البقاء ، وان كان بعض القائمين بها على حصة موفورة من العلم والأدب ، ولكن قضي عليها لقلة القراء ، ولان القائمين بها استندوا على معارفهم وكفاءاتهم فقط ، ولم يكونوا يعرفون طرق جلب المال ، ولم تعضدهم في اعمالهم النافعة جمعيات ومجاميع علمية ولا التفتت الى اعمالهم الحكومات النفاثا الى الصحف السياسية .

ولما كانت الامة اعتادت الحياة الافرادية اكثر من الاجتماعية ، ظلت الصحف السياسية والمجلات العلمية مستندة الى قوى اصحابها فقط ، ولو كان في القوم أناس يحبون حقيقة معاضدة الآداب لآلّفوا شركات برؤوس اموال كبيرة لإنشاء بضع صحف ومجلات تخدم البلاد الخدمة اللازمة ، ولا تسفّ الى نناول ما يسد بعض عوزها من الحكومات او من أفراد او من ارباب المظاهر ، يعطون المجلات او الجرائد بعض الشيء حتى تسبح بحمدهم ونشر محامدهم وصورهم . وبذلك كادت تصبح الصحافة أشبه بشعراء عصور الانحطاط الذين يرزقون على نسبة تعلقهم بكبير يصوغون له عبارات التثناء ويطرونه إطاراً مخجلاً . فالجرائد والمجلات بذلت الجهد والحق يقال ، في نشر الافكار والتهذيب في الشام على قلة الوسائط ، وكان صوتها يسمع اكثر مما يسمع لو بذلت الامة العناية بتعديدها اكثر مما بذلت ، نعم كانت خير معلم وأجمل مدرسة للناس ، ترشدهم في جميع ما تشتم اليه حالة المجتمع الشامي من المعارف والافكار ، وتغرس في نفوسهم روحاً وطنياً لا تقوم الأمم بغيره ، وتلقين الجمهور على اختلاف نزعاته تربية سياسية صالحة لامة لم تسنقر حالتها السياسية ، والغريب يدخل الى العقول من طريق الصحافة للوصول الى مآربه . دخل منذ خمس وستين سنة كثير من النباه في الصحافة ، ولكن المتوسطين الذين خاضوا غمارها كانوا أوفر عدداً ، فنغص المتوسطون عمل الذين كان يرجي من أعلامهم رفع مستوى هذا المجتمع . ومع كل الضعف الذي تجلت أعراضه في

كل أدوار الصحافة الشامية كان منها ان علمت الناس ما لم يكونوا يعلمونه ، علمتهم ان وراء حياتهم المادية حياة معنوية ، لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين ، وان امتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى ، ولا حياة لأحفادها بدون الأخذ من سيرة الأجداد ، والاعتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم شخصاتهم ومقدساتهم ، حتى أصبح بعض العامة ممن اذمنوا تلاوة الصحف وتفهمها ، أرقى عقلاً من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة او مئتين من السنين . علمتهم ان لا قيام لامرهم الا بالقومية العربية ، وان نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لان التساهل بامور الدنيا يذهب بالدين والدنياً معاً . علمتهم ان الغرب لا يريد خيراً للشرق ، والشرق شرق والغرب غرب ، وان الأقليات التي كانت تصرفها اوربا بحسب أميالها السياسية لا تعيش الا بالاندماج في الاكثريات ، وتوحيد المقاصد وان كل أمة لا تحكّم الا برأي السواد الأعظم من أبنائها .

علم معظم الناس الا أناساً مأخوذين بتعصبات مذهبية ونعرات طائفية ، ان الغرب لتحقيق أغراضه يفادي بكل من يمتون اليه بصلة من صلوات القرى المذهبية ، وان الاعتبار عنده للمصلحة كيفما كانت وكان السبيل الى الحصول عليها ، وقاعدتهم كلهم الغاية تبرر الوسيلة . ولقد عرفت الحكومات التي استولت على هذه الديار منذ نشأة الصحافة الشامية كيف تستفيد من هذه القوة ، فكانت تحتال في اول دور ان تشرف صاحب الجريدة برتبة لها ووسام ، ومن خالف الصدد بامرها تكسر قلبه وتشرده وتبخره وتُنزل عليه غضبها ، وقد تجلّى ذلك في الثالث الأخير من الدور الحميدي ، فلما أعلن القانون الاساسي اخذ الاتراك الذين قبضوا بعده على زمام المملكة يتوسعون في هذا المبدأ مبدأ السير بقوة الصحافة الى الغرض الذي يرمون اليه ، فصانعوا بعض اربابها وضحكوا من بعضهم باكرامهم واعطائهم مالا . ولما جاءت الحكومات المنتدبة وهي من اعرف الأمم بتأثير الصحافة في الافكار لم تقصر في اتخاذ هذه النظرية على طريقة جمعت ايضاً بين الرغبة والرغبة والعطاء والمنع . ولم تخل الشام في كل دور من أناس باعوا في خدمة القوة ضمايرهم ، شأن كل أمة جديدة في الحياة السياسية ،

ولكن ظهر ذلك جلياً في صحافتنا لان الدعاة للقوة ضعاف ، حتى في فهم ما انندبوا اليه ، فكانت نتكشف أعمالهم منذ اول يوم يسبحون بحمد من استهووهم .
وبعد فالصحافة العربية في الشام تحتاج الى اربع صحف واربع مجلدات على النمط العالمي من نوعها في أم الحضارة ، تصدر في أمهات حواضر الشام (القدس وبيروت ودمشق وحلب) وترجع في شؤونها الى شركات منظمة تدير ماليتها ، وأحزاب سياسية دائمة تدير حركتها السياسية والعلمية ، ويوكل امرها الى كفاة من رجال البلاد بنسجون فيها على أحسن منوال نسجته صحافة اوربا واميركا ، ونحن لا ننتال الى ان يكون للشام اليوم صحافة كصحافة بريطانيا العظمى بوفرة مادتها وصدق لهجتها لامتها ، وسرعة تناوؤها الأخبار ، وتنوع أساليب التعليم والتفهيم ، بل نرجو ان تكون للبلاد صحافة مناسبة مع ماضيها وحاضرها ، بحيث لا تكون الشام أحط من مصر في هذا الشأن على الأقل . الصحافة عنوان ارتقاء الامة ، وليس ما يمنع من ابرازها في قوالب مقبولة لجميع الأذواق ، وهذا لا يتم الا اذا وسدت اعباء الصحافة لتبغاء البلاد ، دواء لا ثاني له ظالما وصفه العارفون .

قلنا في سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) من مقالة (المجلد السادس من مجلة المقتبس) وقد رأينا هذا التهالك على إنشاء الصحف والمجلات حتى كان لنا منها نحو مئة صحيفة في هذا القطر الصغير ، نأسف لاكثرها على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها ، وهي خلو من الفوائد اللازمة ، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها في الجملة ، لقلنا اننا بعد اشتغال ستين سنة في الصحافة لا نزال في حالة ابتدائية ، قلنا : للنجاح في الأعمال أسباب كثيرة ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي ، اذا اختل احدهما تعذر النهوض بالشق الآخر . وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر . وهل في الارض عمل لا يحتاج الى علم وتجارب ومال واستعداد ؟ ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة ، والشام في عهدها الدستوري الجديد وغيرهما من الأقطار والأمصار التي يتكلم اهلها بالعربية ، ننجراً على اصدار الصحف بدون حساب ولا روية ، وأدر كنا العامة اجراً من الخاصة على اقتحام هذا المكون الصعب ، وليس لديهم في الاغلب من وسائط النجاح كبير امر ، فلا يلبث ما ينشئ

ان يظهر الى الوجود حتى يخفي اضطراراً لا اختياراً . وهذا هو السبب في تعدد الجرائد وقصر أعمارها واشتمزاز الناس منها ، اذ توهموها بما تمثل لهم من حال بعض من أقدموا عليها آلة للتكسب والتدجيل لا أداة للوعظ والارشاد والتعليم .

« ما رأينا صناعة من الصناعات استسهل الناس امرها كالصحافة ، فلم يعهد معلم في التجارة او الحدادة او البناء او الهندسة يحترف هذه الحرف بدون سابق ممارسة ويتصدر للاعتياش منها وهو لا يعرف من اسرارها سرّاً ، ولكن فن الصحافة في هذه الديار الذي يتوقف النجاح فيه على اسباب كثيرة أهمها العلم والتجربة والمال ، قد رأينا أناساً من الأعمار يدعون به بدون خشية واكثرهم لا يعرفون قراءة الجرائد والمجلات دع تأليفها واصدارها .

« كان جمهور الناس الى عهد قريب يشارك الاطباء في طيهم قترى الكبير والصغير اذا عرض لها مريض من خاصتهما ومعارفهما لا يتوقفان في وصف علاج يشفيه ، مدعين ان ذلك من مجرباتنا او مجربات اصحابها ، ولما كثر الاطباء واستنارت الامة بعض الشيء خفت هذه العادة في التعدي على الاطباء في طيهم الا عند الطبقة الجاهلة . اما الصحافة فيدخل فيها بالفعل أناس ليسوا منها وليست منهم ، ويصفون للامة ادوية نقيها الاسواء والارزاء والادواء ، ويعترضون على العالمين والحاكمين والسلاطين بلا خشية ولاحياء ، كأن طب الارواح ليس أصعب من طب الاشباح ، او كأن الصحافة من العلوم الدنية لا الكسبية ، يتعلمها المرء بالذوق وتوحي اليه ايجاء .

« من اجل هذا احنقرت الامة الصحافة لما رأت من ضعف بعض ادعيائها في أخلاقهم ومعارفهم ، ممن شانوا اسمها وعشوا بجلالها ، نذرنا الى مطمع ينالونه ، وصيت بالباطل يحصلونه ، ومقام عال ينزلونه . نعم لم نشهد النظر ببطاراً ، ولا الايسكاف نجاراً ، ولا الخطاب رساماً ، ولا الفحام نظاماً ، ولا الجوهرى حجاماً . ولكن شهدنا الفلاح صحافياً ، والمتشدد مؤلفاً ، والثرثار محامياً ، والمكثار خطيباً . كما نشهد الاغنياء قد يجاولون بلوغ درجات الاذكياء ، والفقراء يقلدون الاغنياء .

« بيد ان سنن الفطرة التي لا تغالب ونظام هذا الكون البديع الذي قلما اخذل يعاقبان المعتدي على ما لا يعلم بما جنه يده ، كما قيل في الامثال الافرنجية كل خطأ

يحمل عقوبته فيه . وندر جداً في الناجحين من تيسر لهم الوصول الى ما وصلوا اليه الا بالتخاذ الذرائع المنجحة ، ونسج حل مجدهم بايديهم . رأينا كثيراً ولا سيما في مصر والشام النضيق بالصحافة وأنفقوا ثرواتهم في سبيلها فلم ينجحوا في مسعاهم ، ورجعوا بعد العناء الطويل وخسارة المال صفر الأيدي خائبين ، لان مائدة العلم لا يجلس اليها طفلي ، ولان التوبه ان صعب في عمل فهو في الاعمال العلمية أصعب .

الى ان قلنا ولقد شاهدنا عياناً ان معظم الصحف التي كتب لها البقاء في هذين القطرين الشقيقتين خاصة هي التي قام باعباؤها أناس متعلمون تخرجوا في الكتابة وتدرّبوا في السياسة وتذوقوا لماظة من العلوم التي لا يسع صاحب جريدة ومجلة جهلها . ومعظم من لا ينجحون التوفيق أخفقوا لاسباب ناشئة من ضعفهم وقلة معارفهم في صناعة يلزمها ما يلزم لكل صانع من الادوات ان لم نقل انها تنوقف على ادوات اكثر . ولو كان قومنا يبالغون في انتقاء الرجال للاعمال ، لوضع في قانوننا بند يلزم كل من تصدر له صناعة القلم ان يتحن في الفن الذي يخوض عبابه ، كما يتحن المتطببون والصيدالة ، فانشاء الصحف ان لم يكن أحق بالعناية من معرفة الامراض والعلل والعقاقير ، فلا اقل من ان يكون على مستواها ، فكم من جاهل قتل نفساً زكية ، ومن صحافي جرّع قراءه السم الزعاف على حين ينظر منه الترياق النافع .

هذا ما قلناه ونزيد عليه ان الاختصاص او الاختصاص العلة الاولى في نجاح اوربا في صحافتها يجب ان يكون له في صحفنا المقام المحمود ، وفي اليوم الذي أصبحت فيه توسد في مصر اعمال الصحافة الى امثال هؤلاء من الحقوقيين والكتاب والسياسيين دخلت مصر في حياة جديدة ، وهذا قريب المنال على الشام التي كان لبعض ابنائها خدمة تشكر في تاريخ الآداب والصحافة . ومن أهم مجلاتنا التي تصدر في الشام «المشرق» «الكلمة» «الحارس» «الخدر» «المرأة الجديدة» «العرفان» «مجلة المجمع العلمي العربي» «المجلة الطبية» «مجلة المعهد الطبي» ومن المجلات المحتجبة «الرئيس» «الطيب» «المقتبس» «الآثار» ومن صحفنا اليومية «لسان الحال» «الارز» «الاحرار» «المقتبس» «الفباء» «فتى العرب» «الرأي العام» «البلاغ» «الاستقلال» «الجوائب» «فلسطين» «العهد الجديد» «البرق» «الاحوال» .

الى ما هنالك من جرائد اسبوعية ومنها الجدي والهزلي المصور وغير ذلك .
يجب للصحافي قبل كل شيء ان يحسن الكتابة العربية كحسب منشئها ، ويكون قادراً
على النقل والاحتذاء من افكار الغربين ، اي عارفاً بلغة اولعتين من لغات السياسة
والعلم ، وان يكون ممن عانى البحث وعرف المصادر التي يعتمد عليها في التعليق والشرح ،
فالقوانين الدينية والزمنية وتاريخ الامة ولاسيما تاريخ هذا القطر والاقتصاد والاجتماع
وحياة الام وتاريخها وثوراتها ونهضاتها وتقاباتها والوان أحزابها وأوضاعها كل هذه
المسائل أقل ما يجب للصحافي المشاركة التامة فيه . وبعدئذ يستطيع ان يكتب
مقالاً نافعاً لجريدته . اما المباحث الاخصائية كالملبية والزراعة والتجارة والفنون
والأدب والشعر والآثار والتاريخ وغيرها مما هو بهجة الصحف ، يجعلها مدرسة تامة
الادوات لانارة الافكار وبث الصحيح منها ، فيجب ان يوكل شأنها لاهل الإخصاء
من العارفين بها . وبذلك يصبح ان يقال ان لنا صحافة رائية ، وما دامت الصحيفة
الواحدة ينشئها واحد او اثنان او ثلاثة على الاكثر ، تضطر الصحف الى ان تكون
مقلدة ناقلة ضعيفة في معظم مادتها وأخبارها وأفكارها ، واذا زاد عليها خدمة
غرض سيامي لا يحسن صاحبها التصرف فيه ، فهناك البلاء الذي يقف لاحتمال بالبلاد
عن الرقي الاجتماعي والعلمي .

الطباعة والكتب } ان فن الطباعة الحديث أفضل اختراع تم على يد
غوتنبرغ الالماني في أوائل النصف الثاني من القرن
الخامس عشر لميلاد ، فأفاد المدنية والانسانية فائدة دونها جماع الفوائد — لم يصل الى
بلادنا الا في القرن السابع عشر ، ومن اول الكتب العربية التي طبعت في رومية في
القرن الخامس عشر الانجيل الشريف وقانون ابن سينا ، وقام بتأسيس مطبعة سيف
الشوير من لبنان عبد الله زاخر الراهب الماروني سنة ١١٤٥ م وطبعت هذه المطبعة
٣٤ مؤلفاً خلال ستين سنة واكثرها ديني وهي مطبعة يدوية على الحجر ، وقد طبعت
مطبعة الشوير المزامير سنة ١٦١٠ م ، ودخلت الطباعة الاستانة سنة ١١٣٥ هـ
واول مطبعة أنشئت في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس في أواسط القرن الثامن

عشر ، بل ان فن الطباعة بهذه الحروف المتعارفة لم تثبت قدمه الا بمجى الارشادات والرهبنات الدينية من الغربيين ، والى اليوم لا تزال المطبعتان العظيمتان في بيروت بل في الشام كله هما لتلك الجمعيات (الأيركازية أسست سنة ١٨٣٤ م واليسوعية ١٨٤٨ م) التي كان الغرض الاول منها نشر الكتب المقدسة والدعاية الى انجيل المسيح في هذا الشرق القريب بين أبناء العرب ، ثم خدمة التهذيب والثقافة الانكليزية والفرنسية وبعد ذلك تعليم شيء من العربية . والكتب العلمية الحديثة التي ظهرت في هذه المطابع باللغة العربية شاهد عدل بان لا يتأتى نشر المبداء الذي يريدونه قبل ان يخدموا البلاد بلغتها .

ربما بلغ عدد المطابع في الشام ثمانين مطبعة من أهمها المطبعة الأدبية في بيروت ، وقلَّ جداً فيها المطابع التي طبعت الكتب النافعة ولاحظت نفع جمهور الناس قبل منفعتها الخاصة . طبعت قصصاً معربة وأشماراً ودواوين قديمة وحديثة وكتباً دينية ورسائل علمية في المعارف العامة وقليلاً من كتب العرب التي لا يزال الوف منها محفوظاً في خزائننا وخزائن الغرب مما يقبل الغريب على طبعه ويحود العناية به من التصحيح والتعليق . ونحن قلما كتب لمطابعنا ان نناسي بهم وننعم منهم . ولولا الوف من كتبنا طبعت في مصر والاسنانة والهند واوربا لما وجدنا بين أيدينا من تركة السلف الصالح ما فيه الغناء في تاريخ العلوم والآداب وبعث الأفكار من مراقدها واستخدام العلوم في رفاهية الناس ودفع بعضهم عن بعض . ذلك لان بعض من يرجى منهم خدمة الطباعة بنشر الكتب النافعة لا يجدون من يطبع لهم ما يريدون احياءه من كتب القدماء ، او ما يؤلفونه هم على النمط الحديث ، لان الطابعين ينظرون الى ارباحهم اولاً ، وارباحهم موقوفة على كثرة ما ينصرف من مطبوعاتهم ، والجمهور بالطبع كما هو في كل بلد لا يقبل على الجد اقباله على الهزل ، ولا يقدر ان المنفعة له في الصعب قبل السهل ، واكبر الظن ان كثيراً من ارباب المطابع هم من عامة الناس او يقربون منهم في الفكر والتعلم .

ولقد شاهدنا أناساً من الغبراء على العلم طبعوا مصنفاتهم بانفسهم فاففقروا اذ لم يعرفوا نصر بفها ، والمؤلف غير التاجر ، ثم هم لم يجدوا في اغنياء البلاد وحكوماتها من

يناصرهم على ما هم بسبيله ولو بائتياع نسخ معدودة من كتبهم . ورأينا أناساً طبعوا كتباً سخيفة من تأليفهم فروجوها هم أو أحبابهم بالتجيبه والتمجيد فدرت عليهم مالا ونوالاً . فلا عجب اذا أصبح الطابعون والمصنفون يهتمون لمنافعهم الخاصة ، ولو كان في الطابعين من يخطرون بطبع كتب العلم والأدب التي لها قراء مخصوصون لزيد عدد الراغبين في المسائل الجديدة اكثر من الآن ولا نرفع ميزان العقل اكثر مما ارتفع .

نعم لم يطبع كثير من الكتب الخالدة سواء كانت للمعاصرين او لمن بعدهم في عهد ارتقاء العلم في العرب ، وقل ان طبع كتاب بذلك الإلتفات الذي تطبع به الكتب في بلاد المدينة اللهم في بضع مطابع لا يهتم أهلها ربحت ام خسرت لانها لجماعات لا لافراد . وما عدا عشرات من الكتب العلمية والأدبية التي طبعها في بيروت خاصة علماء المشرقيات او من أخذوا عنهم طرائقهم في الطبع والنشر لم يكذب طبع في سائر مدن الشام كتاب يعد نموذجاً في اتقانته ووضعته وتأليفه . وغاية ما نشره كتب قصص وكتب مدارس ابتدائية او أشعار أناس تهجموا على التأليف تهجماً ولما استعدوا له الاستعداد الكافي ، ولم يجودوا مصنفاتهم بانضاجها بالبحث والتنقيب وايراد الطريف من المباحث .

فالشام مقصر في هذا الشأن من وجوه كثيرة ولولا مئات من المجلدات خلفها لنا أجدادنا ، وما زالت تطبعها مطبعة ليدن في هولاندة منذ اكثر من ثلاثة قرون بمعرفة أفاضل علماء المشرقيات في الغرب لفاننا الوقوف على امور كثيرة في مدينة العرب وتاريخهم ، والى اليوم لم تبلغ مصر على كثرة ما يطبع فيها من الكتب العربية وبعضها بائقان زائد في الطبع ، كطبوعات المطبعة الاميرية ودار الكتب المصرية ، مبلغ مطبعة ليدن في الاجادة ولا سيما في الفهارس والشروح والهوامش والامانة في النقل الذي أصبحوا به قدوتنا عنهم يجب أخذه .

تأملنا ملياً فيما تصدره المطابع من الكتب فرأيناها مصنفات هوائية موقفة الا قليلاً ، تخدم فكراً خاصاً ولا يتوقع منها الا الشهرة على الأغلب لا عموم الفائدة . ومعظم من بعدهم من المؤلفين هم في الحقيقة مترجمون ، ومنهم من لا يجيد الترجمة ، وكم من تأليف نظرت فيه فانقبضت نفسك مما في تضاعفه من ضعف التأليف

ورداءة الطبع . ومع هذا كان الناس يؤلفون على عهد النهضة الأدبية الاولى اية في أواخر القرن الماضي اكثر من اليوم ، ولقد تسربت روح التفرنج الى طائفة ممن تلقنوا اللغات الأجنبية ، وغدوا لا يهتمون الا بالأخذ من كتب اللغة التي يحسنونها من لغات الغرب ، وفي الغالب تكون الافرنسية او الانكليزية . وقلماً رأينا رجلاً كفوياً من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير كتب الافرنج ان نقل لمن حرموا معرفة اللغات الغربية من بني قومه موضوعاً نافعاً لهم في اجتماعهم وصناعتهم وتمدينهم ، لان الأناية زادت بزيادة المدنية .

وقد زاد في رداءة التأليف المطبوعة كوت المؤلفين ، ومنهم الوسط في علمه وتأليفه ، يخافون نقد الناقدن عليها ، وكوت بعض الصحف والمجلات تصانع في الاكثر هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم موضع المؤلفين ، وتدهن دهاناً عجيباً لمن كان من أهل دين صاحب الجريدة والمجلة او على مشر به السياسي ! . او يكون ممن يتوقع منه ان يكتب له ذات يوم مقالة او يعاونه أدنى معاونة مادية . ولذلك استشرى الفساد وظن كل من طبع شيئاً انه خدم الامة خدمة صالحة . والنقد الذي هو من أهم الذرائع في السير نحو الكمال الي بياج المدنية مما لا يؤبه له ، وربما تعرض صاحبه لقت هؤلاء الطابعين والمؤلفين . قسم السيد اسعد داغر من يعرضون في سوق الادب بضاعتهم من ترجمة وتأليف وتصنيف الى فريقين ، فريق المحترفين وفريق الهواة فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم لينقوا شر المتربة ، ويعيشوا من شق تلك القصة ، والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والأدب لان لهم فيهما حفاوة صحيحة مجردة عن المآرب ، ورغبة حقيقية منزهة عن حب الأرباح والمكاسب ، ومعظم هؤلاء هواة كانوا ام محترفين يشق عليهم ان نتمد كتبهم ومؤلفاتهم وينظرون الى الانتقاد والمنقذ بعين الشانيء الكاشح .

ليس في كل ما طبعته المطابع الشامية منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وهو عصر النهضة عندنا ، سوى كتب قليلة تستحق العناية وتستوقف القاريء للاخذ منها حاشا كتب محمد عابدين ، احمد فارس ، فاندك ، ورتبات ، پوست ، پورتر ، لامنس ، شينو ، مشاققة ، ابراهيم اليازجي ، ابراهيم الحوراني ، طاهر

الجزائري ، عبد الرحمن الكواكبي ، سعيد الشرتوني ، جمال الدين القاسمي ، رفيق
العظم ، شبلي شميل ، شكيب ارسلان ، نجيب الحداد ، يعقوب صروف ، عيسى
المعروف ، اسعاف النشاشيبي ، ابراهيم الاحدب ، يوسف الاسير ، بطرس وسليمان
وعبدالله البستاني ، امين الريحاني ، خليل معادة وأضربهم ممن أبرزوا تآليف منقحة ،
وفي بعضها ابداع وايجاد ، وذلك لانهم هضموا العلوم التي عُرفوا بها ، وجاؤا بالجديد
والمنسق ، وفيها افكار علمية او دينية صحيحة .



الفنون الجميلة

—>000<—

تعريف الفنون الجميلة } الفنون الجميلة او الصنائع النفيسة واسماها بعضهم نواصر
الجميلة } الفنون وقال آخر : ان العرب أطلقوا عليها اسم
« الآداب الرفيعة » وهي الصنائع التي من شأنها إدخال السرور بجمالها وجلالها على
النفوس البشرية ، وترتبة ملكة الذوق والشعور ، وهي سبعة أقسام : الموسيقى ،
الغناء ، التصوير ، النقش ، البناء ، الشعر والفصاحة ، الرقص . وارجعها بعضهم
الى ثلاثة فروع فقط التصوير والشعر والموسيقى .
ولقد كان لهذه الديار حظ كبير من هذه الفنون بقدر ما ساعدتها بقوتها وطاقاتها ،
وربما تم فيها اشياء لم تصلنا اخبارها ، وذلك لان الدول القديمة ضاعت أخبارها ، اما
الدول التي تعاقبت على الشام بعد الاسلام ، فان ما وصلنا من بعض انباء هذه الفنون
فيها قد نعرض له كاتبوه بالعرض ، كأن يكون المشتغل بالموسيقى او التصوير مثلاً
ذا مشاركة في فنون أخرى من أدب وشعر ، وطب وفلك ، وحدث وفقه ، او ان
القوم دونوا عامة سير الموسيقيين والمغنين والمصورين والنقاشين مثلاً فضاع مادونوه
في جملة ما ضاع من اخبار حضارتنا .

الموسيقى والغناء } نشأت الموسيقى مع البشر ولازمهم في جميع ما عرف
 من أدوارهم في حياتهم الخاصة والعامة ، وفي مظاهر
 سلمهم وحر بهم ، وسعادتهم وشقائهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، وسفرهم وحضرهم ، ونعيمهم
 وراحتهم ، ودينهم وديانهم . وكيف لا تلازمهم والمرء من طبعه ان لا يستغني عن رفع
 صوته ، ليضطرب نفسه وجليسه ، وقلبه يصبو بالفطرة الى سماع اوتار تهزبه وتطرب به .
 فالموسيقى تجمع الحواس وتنشطها النفوس ، وبها يجسر الجبان ، ويعطف اللئيم ، ويرق
 الكفيف ، ويلين القاسي ، ويقوى الضعيف ، ويكف الظالم ، ويعتدل المائل ، فهي
 مدعاة السرور ، مجلبة الطرب ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكرب ، مهوثة الخطوب ،
 عنوة الحياة الداخلية ، مظهر الأخلاق القومية ، مصورة الانفعالات النفسية ، أصدق
 عامل على التحمس ، أقوى دافع الى النهوض والتحمس ، معلمة أنفع الدروس الشريفة ،
 مذكرة بالمطالب العالية ، دافعة عن مزالي الشباب وطيش الأحلام ، فيها يتجلى العقل
 البشري بأشارات وحرركات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات .

ولقد ثبت ان العنصر السامي من أكثر العناصر ولوعاً بالطرب والخيال ، وقيل
 ان الحثيين وهم من عنصر آري على الأرجح ومن أقدم شعوب الشام ، كانوا أقل
 عناية بالموسيقى والغناء من جيرانهم السابليين والأشوريين والآراميين ، ومع هذا
 كان لهم من الغناء ما ابتدعوه بفطرتهم ، ومنه ما أخذوه من مجاورهم . وكان
 الآراميون مولعين بالغناء والضرب بالابواق على آلات لهم بهو قون بها ويزمرون ،
 ويضطربون بها في طربوب ، وهي بالطبع على حالة ابتدائية على مثال الشعوب التي
 سبقتهم الى سكنى هذا القطر الفتان بطبيعته ، المعشوق بأشجاره وازهاره واطيابه .
 ومثل هذا يقال في الفينيقيين الذين اقتبسوا مدينة الفراعنة ، وهم من أصل عربي سامي ،
 فانهم كانوا يعرفون الموسيقى ، ومنها ما نقلوه عن المصر بين التمازج بمدينة السلائل
 المصرية بمدينة فينيقية الصغيرة ، واذ كان للمصر بين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى
 على ما ظهر من تماثيلهم التي مثلت بها الضاربين والمغنين ، تعلم جيرانهم أهل فينيقية
 بعض هذه العناية ، ولكن على طريقة الاحتذاء لا إبداع فيها ، ويقال ذلك في
 الكنعانيين والاسرائيليين فقد أولعوا بها وظهرت آثارها في معابدهم وبيعهم ، وأمام

أربابهم ومعبوداتهم ، وفي حروبهم وغاراتهم ، وأعيادهم ومآتمهم واجتماعاتهم ، على ما فهم من نصوص التوراة . ومن امير داود مشهورة مذكورة ، والآلات التي اشتهرت عند الشعوب القديمة وعانت استعمالها ، ترجع في الاكثر الى شبابة وبوق وصنج وطبل ودف .

ولقد دلت بعض النقوش التي عثر عليها في البتراء وجرش وتدمر ان العاقلة والنبط والعرب لم يكونوا أقل من الشعوب التي سبقتهم الى نزول هذه الديار ولوعاً بالتمخين والايقاع والضرب على القيثارة والنفخ بالزمار ، وقد نقل اليونان والرومان الى هذه البلاد موسيقاهم واصول غنائهم على الارحج كما نقلوا أربابهم ، واقتبسوا أرباباً مع أربابهم ، واذ طال عهد دولتهم كثيراً تأصلت موسيقاهم ، وثبتت مصطلحاتهم ، وربما نقلوا بعض مصطلح الامة التي حكموا عليها في غنائها وموسيقاها . ولما انتشرت النصرانية في القرن الثالث للميلاد في الشام عني منتخولها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بيعهم ، واذ اقتبست النصرانية كثيراً من عادات الروم ومصطلحاتهم لم تقصر في اقتباس الموسيقى والتمخين والغناء لثبوت فوائدها الروحية .

ولما جلت بعض القبائل العربية الى الشام يوم سيل العرم وقبلة وبعده ، حملت معها ما ألفت ان تفرع اليه من اللحن ، وتضرب عليه من الآلات ، حتى اذا كان الاسلام ، وكانت مدينة الفاتحين الى السداجة والقطرة ، وكان غناؤهم لا يتعدى الحداء والائتشاد يوم الغارة والحقل ، وفي ظل الخيام والآطام ، أخذت موسيقاهم تقتبس من الموسيقى الشامية الرومية كما تقتبس من الموسيقى الفارسية . وقال بعض العارفين : كان اقتباسها من الموسيقى الفارسية فقط . وزعم بعضهم ان أخذها كان من الرومية اكثر . ولا يعقل ان يتأخر العرب في نقل الموسيقى الى القرن الاول للهجرة واستعدادهم لها كاستعدادهم لغيرها من الفنون ، ولم من فطرتهم ومناخ ارضهم أعظم دافع للولوع بها ، وهم المعروفون بحب الارتجال ، وكانت لهم صلوات مع جيرانهم من الأمم الاخرى منذ الزمن الأطول « ولم تكن أمة من الامم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب » .

ومع هذا فنحن مضطرون ان نشايح القائلين بان اول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ابن مسحج ، نقل غناء الفرس الى غناء العرب ، ثم كثر الموالي من الفرس فكانوا يتعلمون في مكة والمدينة ، ومنها ينتقلون الى الشام والعراق ومصر وغيرها من البلاد التي استظلت براية الاسلام . وعبارة ابي الفرج الاصبهاني في كتابه الاغانى - والاغاني معلنا في فن الموسيقى - « سعيد بن مسحج ابو عثمان مولى بني هاشم وقيل انه مولى بني نوفل بن الحرث بن عبدالمطلب ، مكى أسود مغنٍ متقدم ، من فحول المغنين وأكابرهم ، واول من وضع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس الى غناء العرب ، ثم رحل الى الشام ، وأخذ ألحان الروم والبريطية والاسطوخوسية ^(١) وانقلب الى فارس فأخذ بها غناءً كثيراً ، وتعلم الضرب ثم قدم الى الحجاز ، وقد اخذ محاسن تلك النغم وألقى منها ما استنقجه من النبرات ، والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب فكان اول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس فيه اه .

وقد ذكر ابو الفرج عشرات من المغنين والمخنيين والموسيقيين قاموا بعد ابن مسحج ومنهم نشيط وطويس وسائب خاثر ثم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وابن محرز والغريض . خدموا هذا الغناء المتعارف الذي مزج بالاصول الرومية والفارسية او بهما معاً . ونقل القلقشندي عن العسكري ان اول من أخرج الغناء العربي جرادة ، جارية ابن جدعان قال : وفيه نظر فان الغناء معهود من عهد عاد ، حتى كان من جملة مغنياهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال غننه الجرادتان . وكان

(١) زعم الاب شينجو الى ان الاسطوخوسية هي تقويم الاوزان وقال الاب انسطاس الكرملي ان الاسطوخوسية قوم من اسطوخوس او اسطوخاوس وهي جزيرة في جنوبي فرنسا وكان اهلها معروفين بالقصف والغناء والانس وقال : ان البيزنطية سكان مملكة الروم في القسطنطينية وقال بعضهم البريطانية الضرب بالبربط كجعفر وهو العود من آلات الملاهي واصله يربت فان الضارب به يضعه على صدره وهو فارسي . وهي تتلاحم مع تقويم الاوزان اكثر . اي تعلم تقويم الاوزان والضرب بالعود .

النضر بن الحرث بن كلدة اول من ضرب على العود أخذه عن الفرس وعلمه أهل مكة فانتشر في الحجاز وكان ينعى أيضاً .

وفي القصة التي ساقها صاحب الأغاني في الدعوة التي دعي اليها حسان بن ثابت في آل نُبَيْط وقد أتوا بجاريتين احدهما رائقة والأخرى عزة فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغننا بقول حسان :

انظر خليلي بيباب جلق هل تبصر دون البلقاء من أحد

ورواية حسان نفسه انه كان في الجاهلية مع جبلة بن الايهم وقد رأى عنده عشرين خمس يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء اهل الحيرة ، اهداهن اليه اياس بن قبيصة وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها — وفي ذلك كله إشارة الى ان الغناء العربي في الشام أقدم من الاسلام .

موسيقى كل أمة ملازمة لها كروحها ، وهي مظهر من مظاهر حياتها ومشخصاتها ، فلا يعقل ان تخلو أمة من روح حتى تحيي أمة أخرى فتقبسها روحها ، ولكن الأمة اذا اختلفت بأخرى ، وكان عند الثانية فضل على الاولى في شيء ، وفي الثانية طبيعة الاقتباس ومرونة على الاحتذاء والتشبه ، قد تحمل الاولى الى الثانية ما بني فيها ذاك الروح فتعدله على أسلوبها ومناحيها .

ولقد زعم بعضهم ان الاسلام لم يُجِلَّ الموسيقى محلها اللائق بها ، وادعى بعضهم انه حرما ، فكان الحظر أسهل من الاطلاق في نظرهم ، بيد ان الاسلام وهو دين الفطرة لا يخرج عن حد قيود العقل ، الا انه لا يقول بالافراط في شيء حتى ولا بالعبادة ، لانه يكون قد دعا اذ ذاك الى البطالة واللهو ، وهما مخالفات للشرع مقوّضان للعمران ، وبذلك تكون الموسيقى وبالآ على من يأخذ نفسه بها ، ومصيدة على المجتمع الذي ينصرف الى سماعها ، ولو صح ما قالوا فلما ذأ رأينا جلة من الصحابة والتابعين لحنوا وتغنوا ، وسمعوا الالحان وطربوا لها ، ولو لم يجزها الشارع الأعظم في أوقات معينة وحوادث وقعت ، هل كان يجزأ احد من أصحابه ومن بعدهم على الجلوس في مجالس الطرب ، والدين غض والعهد بصاحبه غير بعيد ، قال عبدالله بن قيس :

كنت فيمن بلقي عمر مع ابي عبدة مَدمه الشام ، فبينما عمر يسير اذ لقيه المقاسون من اهل اذرع بالسيوف والرماح فقال عمر : امنعوم فقال ابو عبدة : يا امير المؤمنين هذه سنتهم ، او كلمة نحوها ، واذك ان منعتم منها يروا ان في نفسك نقضاً لعهدهم فقال : دعوم . والنقليل الضرب بالدف والغناء واستقبال الولاة عند قدمهم بالمصر باصناف اللهو . وقيل المقلس هو الذي يلبس القالس او القلسوة وهي أشبه بقبعات الروم .

ولما استقر الملك لأمية في الشام ودخلت الحضارة كانت في جملة ما دخل اليه الغناء على صورة لا خنا فيها ولا تبذل ، ولقد روى المبرّد ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناءً أعجبه ، فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البسارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذا فأختر له من العطاء . وروى ايضاً ان معاوية قال لعمر بن العاص : امض بنا الى هذا الذي تشاغل بالهوسعى في هدم مروءته حتى ننعي عليه اي نعيب عليه فعله ، يريد عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، فدخلوا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبد الله فأمر عبد الله بتخيصة الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه ، ونحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمرأ فأجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله : أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسي فألقيت وأخرج الجوارى فنغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التي كادت ونحن على مني تحل بنا لولا نجاه الركائب
ومثلك قد اصببت ليست بكنة ولا جارة ولا حليلة صاحب (?)

ورده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم مدرجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : انشد يا امير المؤمنين فان الذي جئت لتلجأه احسن منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية : أسكت لا ابالك فان كل كريمة طروب .

وقالوا ان معاوية قال ذلك لما دخل على ابن جعفر يعود فوجده مُفياً وعنده جارية وفي حجرها عود فقال ما هذا يا ابن جعفر فقال هذه جارية أروها رقيق

الشعر فتزيده حسناً بحسن نعمتها قال فلنقل فحركت عودها وغنت وكان معاوية قد خضب .

أليس عندك شكر للذي جعلت ما يبض من قادات الريش كالحم
وجدت منك ما قد كان أحلقه ريب الزمان وصرف الدهر والقدم
فحرك معاوية رجله فقال له ابن جعفر : لم حركت رجلك يا أمير المؤمنين قال :
كل كريم طروب .

وإذا تسرب بعض الشك في هذه الرواية فإن الأصل فيها وهو وجود الغناء في دمشق أوائل الحكم العربي مما لا مجال للشك فيه . وقد روى الأصفهاني وتابعه على روايته كثير من مدوني السير ومنهم في المتأخرين النووي ان يزيد بن عبد الملك أغلى اثني في اثناء جارتين مشهورتين بالغناء وهما حبابة وسلامة وذكر له مجالس معهما ولا سيما مجلسه في بيت رأس (في الأردن او في حلب) . وكان سليمان بن عبد الملك شديد الغيرة لا يجوز الألحان خشية على الحرم ومع هذا فقد رأينا بعض خدباء بني أمية في دمشق وامراءهم وساداتهم يضعون ألحاناً ويسمعون الغناء ويولعون بالموسيقى ، ويجيزون أربابها ويواسونهم من غير تكبر : ومنهم عمر بن عبد العزيز ، وناهيك به من كامل ، في جميع الفضائل . فقد دوت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها ، وكان أحسن خلق الله صوتاً . قال ابو الفرج : واما الألحان التي صنعها فهي محكمة لا يقدر على مثلها الا من طالت دربته بالصنعة وحذق في الغناء . ومن صنع في شعره غناءً يزيد بن عبد الملك الأموي ومن غنى وله أصوات صنعها مشهور وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف على مذهب أهل الحجاز ، الوليد بن يزيد . وقد ذكروا انه كان للخلفاء من بني العباس غناء ، ومنهم من كان يضرب بالعود ، ومن خلفاء العباسيين السفاح والمنصور والواثق وابن المعتز والمعتضد وكثير غيرهم من ابناء الخلفاء دع سائر الطبقات من اهل الرفاهية والسعة ، ممن كانوا في كل زمان ينشطون الى سماع الاغاني ، و يهرون الرجال والنساء من ارباب الموسيقى والغناء ، ويقالون باتباع الجواري اللاتي حذقن الغناء وبرعن في الموسيقى وشدون شيئاً من الأدب .

وكانت تغلو في العادة قيمة مثل هذه الطبقة من الجوارى . والسواذج منهم
اي غير المثقفات دون من عني اولياؤهن بثقافتهم في الرتبة والقيمة مها بلغ من جاهلن ،
والموسيقى والشعر في مقدمة ما كان يطلب منهم .

وذكر المسعودي ان كثيراً من الجوارى اشتهرن بالغناء بالمدينة وكان يقصدهن
بعض الناس من بغداد وربما وافي الواحدة وجوه أهل المدينة من قریش والانصار
وغيرهما ومنهن القارئة القوالة ، ولم تكن محبة القوم اذ ذاك لرغبة ولا فاحشة .
وكان لبعض الموسيقيين والمغنيين والمغنيات من ارباب النباهة والفضل
يد في اصلاح بعض الأحوال وتخفيف النوازل عند العظاء ، ولطالما ارتجولوا أحياناً
وأحياناً ظاهرها طرب وغرام وسلوى ، وباطنها وعظ وعبرة وتعرض ، ذلك لان
الموسيقى عندهم كانت على الاغلب مرافقة للشعر والأدب وكم من شاعر تدفقت
الحكمة على قلبه ، وجاش بها صدره فهذب نفساً بل نفوساً بابيات يقولها .

ذكروا ان المأمون ركب يوماً بدمشق يتصيد حتى بلغ جبل الثلج ، فوقف في
بعض الطريق على بركة عظيمة في جوانبها اربع سروات لم ير أحسن منها ولا أعظم ،
فنزل المأمون وجعل ينظر الى آثار بني أمية ويعجب منها ويذكرهم ودعا بعلويه فغنى :
اولئك قومي بعد عز ومنعة نفاقوا فان لا تدرى العين اكد

فأخذ المأمون لذكره مواليه من بني أمية فقال : مولاكم زرياب عند موالي في
الاندلس يركب في مئة غلام وانا عندكم أموت من الجوع . وزرياب مولى المهدي
صار الى الشام ثم صار الى المغرب الى بني أمية في الاندلس ونشر الغناء هناك
وحظي عند الخلفاء .

جاء ابو النصر الفارابي الفيلسوف الى الشام على عهد سيف الدولة بن حمدان
فأدهشه ومن عنده من الموسيقيين على انقائهم لها ، وأقام في دمشق ومات فيها قال
ابن ابي أصيبعة : اب الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى
غاياتها ، وأنقنها انقائاً لا مز يد عليه ، وانه صنع آلة غريبة يسمع عنها أحياناً بديعة ،
يحرك بها الانفعالات ، ويحكى ان القانون الذي كان يضرب عليه للطرب هو من
وضعه ، وانه كان اول من ركب هذه الآلة تركبها المعهود اليوم . وقد ذكر

المؤرخون من ننافس سيف الدولة ابن حمدان مع الوزير المهلبى للاستئثار بمغنية أدبية مشهورة اسمها الجيداء ما يدل على ولوع القوم بالموسيقى ، وكانت جيداء في مجالس سيف الدولة من إرتجال الأَلْحَان والأدب البارِع ما اشتهر امره ، وفي عصره اشتهرت في انطاكية المغنية المشهورة « بنت يُحنا » .

ولم تبرح الشام تخرج من رجال الموسيقى والغناء رجالاً كانوا بهجة عصورهم ، ومنهم ابو المجد بن ابي الحكم من الحكماء المشهورين من اهل القرن السادس كانت يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويحيد الايقاع والغناء والزمر وسائر الآلات ، عمل ارغنا و بالغ في اتقانه^(١) وحاول ايضاً عمل الأُرغن واللعب به ابوزكريا يحيى البباسي من أطباء الملك الناصر صلاح الدين .

وكان من البارعين في هذا الفن من علماء هذه الديار قسطا بن لوقا البعلبكي وصفي الدين عبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة ونجر الدين الساعاتي . وكان رشيد الدين بن خليفة أعرف اهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود ، وأطهبهم صوتاً ونعمة حتى انه شوهد من تأثير الأُنفس عند سماعه مثل ما يحكى عن ابي نصر الفارابي ، فكثير إعجاب الملك المعظم به جداً وحظي عنده . ومنهم علم الدين قيصر أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين موسى بن يونس في الموصل .

وكان احمد بن صدقة طنبورياً مقدماً حاذقاً حسن الغناء وصحح الصنعة وكان ينزل في الشام فاستدعاه المتوكل الى بغداد وأجزل صلته . وكان خلفاء بني العباس كلما سمعوا بنايعة في هذا الفن حملوه من القاصية وأغدقوا عليه الهبات ذكراً كان ام أنثى ، ولهم في ذلك نوادر ان لم تصح كلها ففي بعضها اشارة الى ما كانوا فيه من حب هذا الفن .

(١) الغالب ان هذا الأُرغن غير الذي يعرفه الافرنج لعهدنا قال الخوارزمي : الأُرغانون آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها الى بعض ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صُفْر لها قصب على نسب معلومة يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجبة على ما يريد المستعمل .

ومنهم الجمال البستي كان يلعب بالجعانة (الاصل الصغانة وهي القيثارة) ولي
خطابة جامع التوبة بدمشق على عهد الملك الأشرف فلما توفي تولى موضعه العماد
الواسطي الواعظ وكان يتهم باستعمال الشراب وصاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين
اسماعيل بن الملك العادل بن أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابر
زو يثنية الرحبي ابناً يعرض بها بالرجلين ويرجو ان يعاد جامع التوبة الى ما كان
عليه محله من قبل وهو خان للفسق والفجور لان حظه حتى يد ان صار جامعاً ان
يتولاه موسيقار وشريب عقار فقال :

يا مليكاً اوضح الخلق لدينا واقامه جامع التوبة قد قلدي منه امانه
قال قل للملك الصالح اعلى الله شأنه يا عماد الدين ياسن حمد الناس زمانه
كم الى كم انا في ضر وبؤس وإهانته لي خطيب واسطي بعشق الشرب دبانه
والذي قد كان من قبل يغني بجمانته فكما نحن فما زلنا ولا ابرح حانه
ردني للنمط الا — ول واستبق ضمائه

وكان محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٣١ شاعراً موسيقياً ملحناً قانونياً دهاناً
وكان الكمال القانوني من المشهورين في عصره بقانونه ، وصفه عبد الرحمن بن
السيحفي (٦٣٥) الدمشقي فقال :

لو كنت عابنت الكمال وجسده اوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفة الـ يسرى وفي اليمنى حياة الأُنس
وذكر ابن حجر في أخبار سنة ٧٧٩ ان دنيا بنت الاقباعي المغنية الدمشقية
اشتهرت بالنقدم في صناعتها فاستدعاها الناصر حسن على البريد الى مصر فأكرمها ،
ثم وفدت على الملك الأشرف فخطبت عنده ، وهي كانت من أعظم الاسباب في
إسقاط مكس المغاني ، سألت السلطان في ذلك فأجابه اليه ، واستمر إبطاله في
الدولة . واشتهرت - في القرن الثامن بدمشق فرحة بنت المخابلة المغنية كما اشتهرت
المغنية المعروفة بالخرمية وهي التي كانت مع عرب آل مراد يوم وافوا دمشق
لحرب الثنار في زهاء اربعة آلاف فارس فكانت تغنيهم من المودج سافرة وكانوا
يرقصون بتراقص المهارى وتقول :

وكننا حسبنا كل بهضاء شحمة ليالي لاقينا جذاماً وحميرا
ولما لقينا عصبة نغليسة يقودون جرداً للنية نُضَمَّراً
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض ابت عيدانه ان تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ومنذ الزمن الأطول الى ايامنا ما خلت الشام من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة . وكان في القرن التاسع الحسن بن احمد الحصوني (٨٤٠) يعرف بعض الآلات المطربة . ولم يخل عصر بعد زهو الشام على عهد الأموين والعباسيين ومن بعدهم من الماليك وغيرهم من مبرزين في الغناء والموسيقى . واشتهر في دمشق بضرب القانون وكان استاذاً فيه احمد التلعفري (٨١٣) وكان كاتب المنسوب . ومن النابهين ابن القاطر الدمشقي من اهل القرن الحادي عشر كانت له شهرة عند أرباب هذا الفن فاذا حضروا معه مجلساً عظموه وتراخوا في العمل حتى يشير اليهم ، ذكر ذلك المحبي وترجم له ولرجب بن علوان الحموي وقال : ان هذا كان يعرف الموسيقى على اختلاف أنواعها وهو أعرف من أدركه وسمع به ، وله أغاني صنعها على طريقة أسانذة هذا الفن . ومنهم برسوم الحلبي رئيس اطباء الدولة العثمانية وندم السلطان محمد بن ابراهيم كان حسن الصوت عارفاً بالموسيقى . واشتهرت أسرة بني فرفور في القرنين الماضيين بدمشق بالشعر والآداب وقد أخرجت رجلين من أبنائها عارفين بالموسيقى وهما جمال الدين وعبد الرحمن .

وفي تراجم اهل الغناء الذي كتبه السكنجي المتوفى سنة ١١٥٠ هـ ترجمة سنة وعشرين مغنياً من معاصريه في دمشق وفيهم المؤذن والمشد في الازكار والمغني على الآلات الموسيقية ، مما يدل على الاقبال على الموسيقى حتى في عصر الظلمات ، فاذا كانوا في عصره على هذا القدر في دمشق فقط فكيف كان في حلب وغيرها من المدن ، وطلب مشهورة من القديم بغرام ابنائها بالموسيقى منذ عهد سيف الدولة بن حمدان ، دع الموسيقى والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهم أمثال علوة محبوبية البحتري في حلب التي ذكرها كثيراً في شعره الخالد .

ومن الموسيقيين من كانوا يمارسون الموسيقى للتكسب ، ومنهم من كان يخدم هذا

الفن المهم حياً به ، ومن مؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يُستهان بها ولكنها كانت ولا زالت متكئمة ، ومنهم من تستعمل من الموسيقى او تسمع منها ما لا يعبت بوقارها ان كانت من ارباب المظاهر الدينية او الدنيوية مخافة ان ترمى بما يثلم الشرف لان بعض الفقهاء شددوا على الغناء والموسيقى ، وكان بعضهم يعد ساقطاً من العدالة كل من يغني باجرة من الموسيقيين والمغنين ، ويتسامحون مع من يغني في جماعة من أصحابه ، ويعدون الغناء فناً يفقر صاحبه ، وجاء في الامة مثل شيخ الاسلام عبدالعزيز ابن عبد السلام (٦٦٠) وكان على نسكه وورعه يحضر السماع ويرقص ويتواجد والناس نقول في المثل « ما انت الا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام » . وصناعة الغناء كما قال ابن خلدون : آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كالية واول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

ولقد ادركنا وأدرك أجدادنا ان بلاد الشام كلها كانت لا تخلو معظم طبقاتها من موسيقيين ، وكل مجلس من مجالسهم او سهرة من سهراتهم ، اوتزهة من تزهاتهم ، كانت تضم أناساً أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة ، فكان السرور يملأ القصور والدور ، والموسيقى والانشاد من الامور المألوفة لا يُستغنى عنها بحال ، اما في القرى والبوادي فكانت لهم الغناء والحداء ، وضرب الرباب والقيشارة والمزمار والدف والكوبة ، اي ان لهم ما يطرب آذانهم وترتاح اليه ارواحهم وتسهل معاناته وممارسته ، ومن مشاهير الموسيقيين في النصف الاول من القرن الماضي محمد السؤالاتي الدمشقي اخذ عنه ارباب الموسيقى في عصره من المصريين والشاهيين ذكره في سفينة الملك . ومن اهل المظاهر الذين عرفوا بالموسيقى في أوائل هذا القرن ابو الهدى الصيادي من حلب والشيخ عبد الرزاق البطار من دمشق وكانا من أساتذة هذا الفن الجليل ، ومنهم من عُتقوا بالموسيقى فبرزوا فيها من أبناء هذه الديار مثل محمود الكحال . احمد السفرجلاني . علي حبيب . عمر الجراح . عبد القادر الحفني . ومحيي الدين كرد علي (توفوا) . وسامي الشوا . رحمون الحلبي . توفيق الصباغ . علي الدرويش . باسيل الحجار . محمد الشاويش . نجيب زين الدين . مصطفى سليمان بك . شفيق شبيب . محمد علي الاسطة . رضا الجوخدار . مصطفى الصواف . حمدي ملص . رجب

خلقي • يوسف الزركلي • محمد الانصاري • محمد محمود الاتامي • ميشل الله
 و بردي • مدحت الشربجي • اليكسي بطرس • اليان نعمة • اسكندر معلوف •
 بولس صلبان • نصح الكيلاني • تحسين يوقله جي • عباد الحلو • طلعت شيخ الارض •
 حسن التعلبي • جميل البربير • احمد النير • امين النقيب • محي الدين يعيون • ودبع
 صبرا • عزت الصلاح • قسطندي الخوري • احمد الشيخ • محمد الجراح • ابراهيم
 شامية • وغيرهم في ارجاء البلاد من جملة الموسيقي حرفة او للتسلية في خلواتهم
 ومنهم من كانوا صلة بين الموسيقي القديمة والموسيقي الجديدة • ومن المنشدات المطربات
 فريدة مخيش • رمزية جمعة • خيرية السقا • نادرة • سارينا • فيروز •

ولقد انبغت بيروت وحلب كثيرين من المعنين والغالب ان في هاتين المدينتين
 خاصة حسن الصوت • سألت صديقنا الشيخ كامل الغزي من أساتذة حلب عن
 المغنين والموسيقيين في بلده فكتب لي رسالة بديعة قال فيها :

ان حلب لا تخلوا في اكثر اوقاتها من الشداة والمترنين الذين يعدون بالآلات
 ويعرف عند الحلبيين من يأخذ على غنائه اجرة باسم ابن الفن ، ومن رجال اواسط
 القرن الماضي مصطفى يشبك ، فتح نادياً لممارسة الفنون الموسيقية دعاه بقاعة بيت
 مشمشان ، كان يختلف اليه في اوقات معينة كثير من المولعين بالموسيقي ليتلقوها عن
 استاذها • وما زال الحلبيون يضربون المثل بالمكان الذي تتوفر فيه دواعي الطرب
 فيقولون : (ولا قاعة بيت مشمشان) • ومن رجال اواسط القرن الماضي عبد الله
 البويضاتي ومن رجال القرن الماضي وأوائل القرن الحالي محمد بن عبده • اسماعيل
 السنج • جبرا الاكشر • آجق باش • طاهر النقش • محمد الوراق • الدرويش
 صالح قصير الذيل • محمد غزال • باسيل حجار • احمد سالم • احمد بن عقيل •
 وعن اخذ عن هذا بعض فصول الرقص المعروف بالسماح السيد احمد ابو خليل
 القباني الممثل الموسيقار الدمشقي والسيد عبده الحمولي المطرب المصري وهما من المشاهير •
 ومن تلامذته امرأة فنصل ايطاليا في حلب كانت تقول ان السيد احمد بن عقيل يقل
 نظيره في هذا الفن حتى في اوربا قال : ومن الاحياء في حلب عبده بن محمد عبده
 وشرف الدين المعري ومن قينات القرن الماضي واوائل القرن الحالي الحاجة عائشة المسلمينية •

وقال ان العود المعروف بالبربط لم يكن معروفاً في حلب في القرن الماضي حتى جاء حلب سنة ١٢٩٣ هـ رجل من اهل دمشق اسمه سعيد الشامي فأخذ الناس عنه . ومن العازفين في الكمنجة أوائل هذا القرن شعيا الكنجاتي واسحق عدس ونيقولا كي الحجر . ومن الاحياء سامي الشواء ووالده انطون موسيقار ايضاً . والعازفون بالناي المعروف عند العرب بالبراعة كان نابغة فيه أوائل القرن عبده زرزور وكل من في حلب اليوم خر يجهه وتلاميذه اه . ومن الموسيقيين الحلبين ايضاً عبد الكريم بلّة وحبیب العبديني واهمده مكانس وعمر البطش ومصطفى طمرق توفوا في أوائل هذا القرن . ولقد بدأت الموسيقى التركية تنازع الموسيقى العربية في أواخر القرن الماضي ، لانها خدمت اكثر من موسيقانا ، ثم جاءت الموسيقى الافرنجية ، فأصبحت الموسيقى الشامية مزيجاً لا يقام له وزن ، لم يحتفظ بالقديم وهو من روحه وعاداته ، ولم يحسن اقتباس الجديد لانه ايس من مصطلحه . ولا يفوتنا القول ان الموسيقى في العصور البعثة كان لها في اذكار بعض ارباب الطرق الصوفية مقام رفيع . ومنهم من اتبعها بالصنوج والأوتار ، ومنهم من شفعها برقص ، وقد قام منهم مبرزون في صنعتهم ، وماتت شهرتهم ، يوم سكنت نأمتهم ، والموسيقى في الكنائس على اختلاف الطوائف المسيحية وتباين العصور ، ما زالت شائعة معتبرة وكم من موسيقار عديم تقابلت به الحال حتى رقي بفضلها الى أرقى درجات الكهنوت .

* * *

أخذ الحثيون التصوير على الاغلب كما اخذوا النقش والبناء } التصوير
عن جيرانهم من البابليين والاشوريين وربما اخذوا عن
المصرين ايضاً ، لكنهم لم يجودوه كل الإجداد على ما رأينا من تصاويرهم المكتشفة ،
وخالفنا رأي بعض المشتغلين بآثار هذه المعجبين بمدنية الحثيين على علامتها ، فان
الآثار التي اكتشفت للحثيين في جرابلس منذ زهاء عشرين سنة تدل على مبلغ تلك
الامة من الاتقان في القش والتصوير . وقد قال لنا الاستاذ هرورني التشيكي
وهو إخصائي بآثار الحثيين : ان عادياتهم مما يعجب منه ، ولا نقلُ بجمالها عن بقية آثار
الأمم الاخرى ، وكذلك فعل الكنعانيون والفينيقيون والاسرائيليون ، اخذوا عن

أشور و بابل ومصر هذا الفن ، ولم يعرف انه كان لهم طرز خاص في التصوير ، وكانوا على ما ظهر دوت من اقتبسوا عنهم ، اما التدمريون فأجادوا في تصويرهم وكانوا ينقشون على القبور صور أخرى من دفن فيها من الرجال والنساء مثل اهل جنوة في ايطاليا في العصور الأخيرة ، ومنها صورة جاريثين رأهما اوس بن ثعلبة التيمي في القرن الاول وتال فيها أبياته المشهورة :

فتاتي أهل تدمر خبراني أمّا تسأما طول المقام

قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفي دار الآثار بدمشق مجموعة تماثيل من قبور تدمر كأنها نطق ، ومنها صورة فتاة مزينة الرأس يستدل منها على صورة تصيف الشعور في ذلك العصر وكيف كانت أزياء نساء تدمر و بهرجة رؤوسهن ووضع أقراطهن وعصباتهن ، وفيما ظهر مؤخرًا في مدينة تدمر من تماثيل صاحبها زينب ووصيفاتها وفي غير ذلك من الشخصيات دليل على تبرز التدمريين في هذا الشأن .

اما التصوير عند الروم واليونان في الشام فان منه نموذجات تأخذ بمجامع القلوب قال الثعالبي : لم يبدع التصوير إبداع الروم والرومان احد من الامم ، فقد كان لهم إغراب في حُرط التماثيل والإبداع في عمل النقوش والتصوير ، حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئًا الا الروح ، ثم لا يرضي بذلك حتى يصوره ضاحكًا ، ثم لا يرضي بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت ، وضحك النخيل ، وبين المتبسم والمستغرب ، وبين ضحك السرور وضحك الهمازي ، فيركب صورة في صورة ، وصورة في صورة .

والمصانع الشامية من العهد الروماني هي ذات أشكال معتادة في تلك الاعصر لها نقش ظاهر خاص بها من النقوش البنائية الكبيرة المنقولة عن نباتات البلاد ولا سيما في فلسطين في عصر الملوك والقضاة مثلاً ومنها ما يستعمل فيه صور الطيور . قال دوسو : ان في الكتابات التي وجدت في الصفا صورة فرسان مسلحين برماح طويلة على مثال بدو هذه الايام ، وحياناً تمثلهم وهم يطاردون غزالاً او وعلاً او بصطادون أسداً ، ومنهم الفرسان يحملون الرماح والمشاة مسلحون بالقوس

والنشاب . ولقد غصت فلسطين على عهد الامبراطور قسطنطين بالمصانع التي تذكر
بالحوادث الخطيرة التي وردت في الانجيل وقد زينت هذه المصانع بالفصوص التي
تمثل هذه المشاهد .

جاء الاسلام للقضاء على الوثنية وعبادة الاصنام ، فحاذر المسلمون اذا أجازوا
الرسم المجسم ان يكون في عملهم مدرجة للعرب الى الرجوع الى عبادة الاصنام ، فجعلوا
في التجويز بعض القيود الخفيفة ، ولما ذهبت تلك الخشية اخذت مسألة التصوير نحل
شيئاً فشيئاً ويُحمد الى ما فيه مصلحة منه . فقد رأينا زيد بن خالد الصحابي استعمل
الستر الذي فيه صور ولم ينكر الناس عمله . قال صديقنا المحقق السيد محمد رشيد رضا
في المنار : ومن الآثار في حكم التصوير وصنع الصور والتماثيل اتخاذ احد أعظم أئمة
التابعين القاسم بن محمد بن ابي بكر (رض) النخيلة التي فيها تصاوير القندس والعنقاء ،
وهو ربيب عمته عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقها ، ومنها استعمال يسار بن
نمير مولى عمر بن الخطاب (رض) وخازنه الصور في داره ومنها صنع الصور في دار
مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين
قال : وعمل مروان يدل على ان التصوير كان مستعملاً في عصر الصحابة ، فمن
عرض مسألة التصوير واتخاذ الصور على هذه القواعد الشرعية علم منها ان دين الفطرة
الذي قرن كتابه ووصف بالحكمة ورفع منه الحرج والعسر عن الامة لم يكن ليحرم
صناعة نافعة في كثير من العلوم والاعمال ويحتاج اليها في حفظ الامن وفنون القتال ،
وانما يحرم ما فيه مفسدة او ما كان ذريعة الى مفسدة اه .

وبعجبي ما كتبه استاذنا الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في وصف
رحلته الى صقلية عام ١٣٢٢ هـ (١٩٩٤ م) في مجلة المنار وقد ذكر تنافس الغربيين في
حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج فقال : « اذا كنت تدري السبب في حفظ
سلفك للشعر وضبطه في دواوين والمبالغه في تحريزه خصوصاً شعر الجاهلية ، وما عني
الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، امكنت ان تعرف السبب في محافظة القوم على
هذه المطبوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر يُرى ولا يُسمع ،
والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت

من أحوال الأشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . بصورون الانسان او الحيوان في حال الفرح والرضى ، والطمانينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ منقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك ننظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، بصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح والخوف والخشية . والجزع والفرح مختلفان في المعنى ولم أجمعهما هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لانهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الجزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال او تلك . اما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك .

قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية ، اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية وأوضاعهم الجثائية ، هل هذا حرام او جائز او مكروه او مندوب او واجب ؟ فأقول لك ان الرسام قدرسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال او الصورة قد محي من الأذهان ، فأما ان نفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، واما ان ترفع سؤالاً الى المفتي فهو يجيبك مشافهة فاذا أوردت عليه حديث : ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون او ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تُخذ في ذلك العهد لسبيين : الاول اللهو والثاني التبرك بتمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله او ممدد للآئشراك به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه احد من العلماء مع ان الفائدة في نقش المصحف موضع النزاع ، اما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه

الذي ذكر ٠٠٠٠ وبالجملة فانه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل اه .

لما جاء الفاتحون الى الشام كانت في تصويرها عالة على الروم والفرس وبقيت على ذلك مدة قليلة لان التصوير لم يكن يعرف انه كان في منفرد أقطار جزيرة العرب اللهم الا في اليمن ، برع فيه أهلها براءة أثبتتها الآثار والمصانع ، وكانت الأثواب اليمانية المزركشة المبرقشة المصورة مما يحمل الى الحجاز وسائر بلاد الجزيرة وما اليها منذ عهد الجاهلية ، وأول ما عرف التصوير في الشام على عهد المسلمين كان في زمن الوليد بافي الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى في القدس وغيرهما ، وما نظن ان جميع من صوروا له ما أراد من الحيوان والنبات والشجر والمدن والأصقاع كانوا من اصول عربية بل كان فيهم الفرس والروم الذين دخلوا في خدمة الدولة العربية ، ومنهم من بعثت به مملكة بيزنطية ليساعدوا الخليفة على عمله النافع ، وقد وجد الاثري موسى التشكي في قصر عمرة على سبعين كيلومتراً من قصر المشتى في البلقاء كتابات ونقوشاً تشير الى فتح الاندلس في أيام الوليد وفيه من النقوش الزاهية والتصاوير العجيبة ما يأخذ بالأبصار . قال صاحبنا شيخو : وفي هذه القصور من الآثار الهندسية ومن التصاوير ومن تمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والآداب والمصانع ما أذهل العلماء لوجوده في البراري . ويقول ريسون : ان العرب قد نهجوا في الفنون الجميلة نهج البيزنطيين ، ولم يخالفوهم الا بعدم تجسيم الحيوان ، ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبك اوراق وأقواس باهرة وفصفاة زاهرة وآكام ومعاهد ساحرة .

وفي التاريخ العام ان الاسلام حظر تمثيل الصور الآدمية ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من ان يكون في قصورهم صور وتمائيل ، ومع هذا لم يخلف العرب في النقش ولا في الرسم آثاراً خارقة للعادة ، وما بقي من آثارهم وعادياتهم الحجرية وأنواعهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستعدادهم الفني ، فانهم نقلوا عن غيرهم في هذا الشأن اولاً ثم أخذوا يبرنون أنفسهم على حسن الهندسة بالنقل عما عثروا

عليه باديء بدء ولا سيما عن الآثار البيزنطية ، فكانوا يخشون اول امرهم ثم أخذوا يجرأون فيعدلون ما يريدون احتذاه بل يخترعون ، وبدعون ، فظهر لهم علم جديد مسنقل على غير مثال ، قال : ولا نعلم هل كان للعرب قبل الاسلام طرز من البناء الخاص بهم ، لانه لم يبق من الزمن السابق للاسلام سوى خرائب مبعثرة ، ومن الهجرة الى القرن العاشر كان عهد الطرز اليوناني العربي ، وعلى مثاله جاء بناء المسجد الأقصى في القدس ، والجامع الأموي في دمشق ، والجامع الاعظم في قرطبة ، والتأثيرات اليونانية ظاهرة فيها اه .

وبعد ان ترجم العرب كتب الفنون والصناعات عن الروم والفرس والقبط والسريان والهند منذ اول النصف الثاني من القرن الاول أخذوا يزينون كتبهم ببعض الصور ، يصورونها لتمثيل المسائل العلمية للإبصار ، ولا سيما كتب النبات والبيطرة والحيوان والجراحة والهندسة والفلك والجغرافيا وبعض كتب الادب والمحاضرات والمقامات ، فاستعملوها بحسب الحاجة وأجادوا بالنسبة لعصورهم ، على ما ثبت ذلك بشهادة المحفوظ من مخطوطات العرب في متاحف الشرق والغرب ، واكثر من أثر عنهم التصوير والاعجاجة فيه وصنع التماثيل ووضعها في قصورهم خلفاء بني أمية في الاندلس ، ومن جاء بعدهم من الملوك ، والصور كما قال ابن أصيبعة : انما جعلت لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها ، والصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها ، وكذلك نقش اليهود هياكلها ، وصورت النصارى كنائسها وبيعها ، وزوق المسلمون مساجدهم .

نعم زوق المسلمون مساجدهم ، وكانوا أوائل الاسلام يكتفون بالصلاة في مساجد أشبه بالأرض القفراء ، ويفضلون السجود على الخصاء يعدون فرشها بالجواري بدعة ، وذلك لئلا تشغل العين بشيء بعد النفس من الخشوع لبارئها ، ثم أخذوا يتألقون في مساجدهم ، ويفرشونها بالطنافس والزراحي ، ويصورون حيطانها ، وينقشون فيها آيات ثم مشجرات وأماكن جميلة ، ومعظم ما انتهى اليها او بلغنا خبره في العصور العشرة الاخيرة في الشام تصوير المسائل العلمية ، والامصار والشجار ، والسفن تخز في البحار ، ثم تصوير الحيوان والانسان ولكن على قلة .

لا جرم ان التصوير في هذه الديار كان ضعيفاً بعض الشيء لان مسألته كان فيها نظر عند بعض الفقهاء الذين حمدوا على ما فهموه من الشريعة ، والتصوير عارض على الملة غير مغروس في فطرتها ، ولكن المسلمين تطوروا بطور الامصار التي نزلوها . ولم يتوقف ملوكهم وامراؤهم على فتاوى الفقهاء لاقامة المعالم واقتباس الحضارة ، فقد ذكر ابن بطريق ان بطريق الروم في تفسيرين طلب الى ابي عبيدة بن الجراح الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن أقام فيها فهو في ذمة و صلح ، فأجاب ابو عبيدة الى ذلك ، فسأله البطريق وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصور الزوم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي ابو عبيدة ، ومرراً بالصورة احد العرب ، ووضع زج رحمة في عين تلك الصورة فقفا عين التمثال عن غير قصد ، فأقبل البطريق وقال لابي عبيدة : غدرتمونا يا معشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة فقال ابو عبيدة : فمن نقضه فقال البطريق : الذي فقفا عين ملكنا فقال ابو عبيدة : فما تريدون ؟ فقال : لانرضى حتى نفقا عين ملككم . فقال ابو عبيدة : صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببتهم وما بدا لكم ، فقال : لانرضى الا بصورة ملككم الاكبر فأجابهم ابو عبيدة الى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود وأقبل رجل منهم فقفا عين الصورة برحمه فقال البطريق قد انصفتموتا .

وذكر المقرئ ان خمارويه بن احمد بن طولون امير مصر والشام المتوفى سنة ٢٨٢ هـ عمل في داره في القاهرة مجلساً برواقه ممام بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد ، المعمول في أحسن نقش وأظرف نفضيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياها ، والمغنيات اللاتي يغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الاكالييل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكوادن^(١) المرصعة باصناف الجواهر ، وفي آذانها الأجراس الثقيل الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسطرة في الحيطان

(١) الكدن ويكسر ثوب للخدر او ثوب توطي به المرأة لنفسها في الهودج ومركب النساء .

وأوت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة . فكانت هذا البيت من أعجب مباني الدنيا .

كانت هذه القاعة المصورة في القرن الثالث وظهر في عصر الايوبين والماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على الجدران وعلى الكتب ، ومنها ما كان الى القرن السابع في دير باعنزل على أقل من ميل من قرية جوسية قرب حمص ، كان فيه على روية ياقوت عجائب منها آرج (بيت مستطيل) أبواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وصوره مريم في حائط مننصبه كما ملت الى ناحية كانت عينها اليك . ومنها ما كان في هيكل دير مران في سفح قاسيون بدمشق من صورة عجيبة دقيقة المعاني . وذكر ابن جبيرانه كان في كنيسة مريم بدمشق في القرن السادس من التصاوير امر عجيب ، وكان مثل ذلك في كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين .

ومما ذكره عن الوزير اليازوري من وزراء الفاطميين في القرن الخامس انه كان يفضل كثيراً على المصورين الشرقيين وكانوا من المسلمين على ما اتصل بنا من أسمائهم مما ذكره المقرئ . وذكر أيضاً ما كان في قصور الفاطميين من صور الدول ورجالهم ، ولقد ذكر المقرئ أيضاً في رسالته النقود الاسلامية ان الرسول عليه السلام اقر نقود العرب في الجاهلية التي كانت ترد اليهم من الممالك الاخرى والدنانير قيصرية من قبل الروم مصورة وان عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها ، وضرب معاوية دنانير عليها تمثل منقلداً سيفاً ، وكان الذي ضرب الدراهم في عهد عبد الملك رجلاً يهودياً من تيماء نسبت الدراهم اذ ذلك اليه ، وقد جعل الظاهر بپرس رنكه اي شعاره الأسد وجعل دراهمه على صورته وجعل اقوش الافرم رنكه في غابة الظرف وهو دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر كأنه مسنن عليه سيف احمر يمر من البياض فوقاني الى البياض التحتاني وقال فيه نجم الدين هاشم البعلبكي :

سيوف سقاها من دماء عداته واقسم عن ورد الردي لا يردها
وأبرزها في ابيض مثل كفه على أخضر مثل المسنن بجدها

قالوا وقد كان الخواطيء ينقشون رنكه على معاصمهن وفي اماكن مستورة من
أجسامهن .

ومن أجل ما أثبتت الايام وان لم يتم لها الى الآن قرنان ، الصورة الباقية في
دار اسعد باشا العظم في حماة من ابداع ما حوت من النقوش العجيبة وغيرها ، وهي
صورة رسمت على قطعتين من الخشب جعلتا في حائط القاعة الكبرى ونقشت
عليها صورة حماة في ذلك العهد بجوامعها ومدارسها ، ونواعيرها وقصورها ، يظهر
منها ان حماة كانت اعمر مما هي عليه الآن عرفنا ذلك بفضل التصوير .

اخذت العرب نقوش الفسيفساء عن الروم وبالغت فيها ولا يزال الى اليوم قطع
في الدور وغيرها ، واهمها ما لا يزال في كنيسة مادبا في البلقاء من مصور بلاد
فلسطين ونهر الأردن يشقها من وسطها والأسماء تعوم فيه ، والبلاد التي كانت
عامرة لعهد واضعها ، ولا يزال القسم الاعظم منها بحاله لم يصب بأذى الايام .
وآثار الفسيفساء كثيرة مبعثرة في دور مادبا لم تزل على بريقها الى اليوم ، وفي دارسليم
الصناع في مادبا بركة ماء معمولة بالفسيفساء الملونة ايضا تحال ما فيها ماء حقيقيا وعلى
جوانبها الثلاثة الباقية رسوم بالفسيفساء تمثل الحيوانات والطيور البرية والداجنة
تسرح في جنينة زاهرة والطيور المائية واقفة في وسط الماء على آنية تشبه الزهرية
وفي كل زاوية من زواياها صورة انسان تخالف الاخرى وفي هذه البلدة عدة قاعات
فرشت ارضها بالفسيفساء يطلق الماء عليها لتغسل كما يغسل بلاط القاعات وافنية الدور .
قال في مسالك الامصار : والفسيفساء مصنوع من زجاج يذهب ثم يطبق عليه
زجاج رقيق ومن هذا النوع المسحور (المسجور) واما الملون فميجون وقد عمل منه في
هذا الزمان (٧٤٠ - ٧٥٠) شي كثير برسم الجامع الأموي وحصل منه عدة صناديق
وفسدت في الحريق الواقع سنة اربعمائة وسبعمائة وعمل منه قبيل للجامع المنكرية
ما على جهة الحراب غير انه لا يجي تماما مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة
المنظر والفرق بين الجديد والقديم ان القديم قطعه مناسقة على مقدار واحد والجديد
قطعه مختلفة وبهذا يعرف الجديد والقديم اه .

ووصف ابن فضل الله هذا يمكن ان يستنتج منه ان الفسيفساء كانت تعمل في الشام

وان هذه الصناعة اللطيفة وان اقتصت بها القسطنطينية باديء بدء فقد نقلت الى الشام وجود عملها . فان بعض المؤرخين قالوا ان الوليد بن عبد الملك كان يحمل الفسيفساء على البريد من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة والقدس الشريف .

وكانت الفسيفساء في الجامع الأموي قبل حريقه الاول في القرن الرابع ملونة مذهبة تحوي صور أشجار وأمصار وكتابات ، على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقل شجرة او بلد مذكور الا وقد مثل على تلك الحيطان قاله المقدسي . وقال غيره انه مثلت في صور الجامع صنات البلاد والقرى وما فيها من العجائب وان الكعبة المشرفة صورت فوق المحراب كما قال فيه بعض المحدثين :

اذا تفكرت في النصوص وما	فيها تيقنت حدق واضعها
أشجارها لا تزال مثمرة	لا ترهب الريح في مدافعها
كأنها من زمرد غرست	في ارض تبر يُغشى بفاقعها
فيها ثمار تخالها ينعت	وليس يجشى فساد يانعها
نقطف بالحظ لا بجراحة الاي	دي ولا تجني لبائعها
وتحتها من رخامه قطع	لا قطع الله كف قاطعها
احكم ترخيمها المرخم قد	بان عليها احكام صانعها

قال صديقنا البجائة احمد تيمور باشا في رسالته التصوير عند العرب بعد كلامه على محاسن الجامع الأموي وما فيه من التصاوير : « ولا نعلم ان كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، او من عمل صناع الروم الذين استعانت بهم الوليد بن عبد الملك عند بناء المسجد » وقد علل المقدسي البشاري زخرف الجامع الأموي فقال : قلت يوماً لعمي : يا عم لم يحسن الوليد حيث انفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو صرف ذلك في عمارة الطوق والمصانع ورم الحصون ، لكان أصوب وأفضل ، قال : لا تغفل بني ان الوليد وفق وكشف له عن امر جليل ، وذلك انه رأى الشام بلاد نصارى ، ورأى لهم فيها بهماً حسنة قد افن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لده والرثا فاتخذ للمسلمين مسجداً

شغلهم به عنهن ، وجعله احد عجائب الدنيا ، ألا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهياتها خشي ان نعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى . ولذلك حرص المسلمون في كل دور على السير على قدم الوليد في الاحتفاظ بنقوش الجامع وتجاسينه وتزائينه وتزويقه ، وما أبقته الايام من نقوش الفسيفساء او الفصوص حيطان قبة الملك الظاهر بپرس في دمشق فانها الاثر الباقي من هذه الصناعة في هذا الصقع ، بعد ان دثرت فسيفساء الجامع بما تعاقب عليه من الحريق في أدوار كثيرة . ومن القصور المصورة الجدران دار الملك رضوان بجلب وفيها بقول الرشيد النابلسي من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ و يذكر ما على جدران الدار من الصور :

دار حكمت دارين في طيب ولا	عطر بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها	قطب على فلك السعود بدار
وزهدت رياض نقوشها فبنفسج	غض وورد يانع وبهار
نور من الاصباغ مبهج ولا	نور وأزهار ولا أزهار
ومنها صور ترى ليث العرين تجاهه	فيها ولا يجشى سطاء صوار
وفوارساً شبت لظى حرب وما	دُعيت نزال ولم يُشَنَّ مغار
وموسدين على أسرة ملكهم	سكراً ولا خمر ولا خمار
هذا يعانق عوده طرباً وذا	ابداً يقبل ثغره المزمار

ثم لما تزوج بضيفه خاتون ابنة عمه الملك العادل واسكنها في هذه الدار وقعت نار عقب العرس فاحترق واحترق جميع ما فيها فجددها وسماها دار الشخصوس لكثرة ما كان من زخارفها .

ومن القصور المصورة القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بپرس في مرجة دمشق أوائل النصف الثاني من القرن السابع وعلى أنقاضه بنيت التكية السلمانية ، وكان على واجهته مائة اسد منزلة صورها بأسود في أبيض ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود ، وهذه الصور أجمل من صور الاسود والنمورة وغيرها من الحيوانات التي كانت في قلعة حلب ، ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين

بدمشق عثر حبيبنا احمد تيمور باشا على قصيدة في ديوان عمر بن مسعود الحلبي الشهير بالحجار المحفوظ في خزانة البلدية بالاسكندرية في وصف هذا الحمام جاء فيها :

وخطّ فيها كل شخص اذا لاحظته تحسبه ينطق
ومثل الأشجار في لونها ولينها لو انها تورق
اطيارها من فوق أغصانها بودها نطق او تزعق
وهيئة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحدق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ومن التصوير على النسيج على ما ذكره البصري من تصوير « الابيض القطبي المصور لأحياء القصور وأموات القبور » وكان يصنع في دمشق . ومن التصوير في الكتب ما ذكره ابو الفداء في حوادث سنة ٦٤٢ في ترجمة الملك المظفر صاحب حماة وكان يجب أهل الفضائل والعلوم قال : استيخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فعمل له كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة .

قال القاضي جمال الدين بن واصل : ساعدت الشيخ علم الدين على عملها وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضع دقيقة منها . وقد اطلع الشيخ الغزي مؤلف كتاب نهر الذهب على مخطوط فيه وصف شجرة الافادة التي كانت في الجامع الأموي بجلب وتعد من الذخائر النفيسة العلية قال : انها كانت عظيمة الرواء مصنوعة من حجر ونحاس وحديد ذات خطوط وجداول في اصول العلوم الرياضية شبيهة بشجرة ذات جذع وأغصان وأوراق عظيمة في كل ورقة منها اصل من اصول تلك العلوم . وكان الطلبة يقدمون حلب من القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية المرسومة في هذه الشجرة . واسم غارس شجرة الافادة خليل بن احمد غرس الدين علي ما في در الحبيب .

و يدخل في باب النقش والصنائع الغربية ما رواه المقدسي في حوادث سنة ٩٩٠ يوم عمل ختان ابن درويش باشا والي دمشق ، فانهم صنعوا شيئاً يسمى النقل بجامع المصلي و بجامع ايلخان خارج محلة القراونة و بجامع التوبة وهو يشتمل على اربع عشرة

قلعة من الورق المحشو بالبارود واربعة عشرة فرساً واربعة عشر عفر يتساً كذلك وعلى صور وطيور ووحوش وكلاب وغير ذلك وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطيوار وغيرها كل ذلك من الشموع المصبغة والتذهيب والنفضيض ، وكان ارتفاعه على علو الجملون الذي يجامع المصلى بحيث لم يتأت ثقلة منه واخرجه الابد فبك الجملون المذكور ، وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور وهدم مواضع متعددة في طريقه الى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقي من باب دار السعادة ايضاً حتى أدخل وكان لهذا النقل يوم مشهود خرج للفرجة عليه جميع اهل دمشق رجالاً ونساءً لم يتخلف احد . ثم في اليوم الثاني منه نقل النقل الذي صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة وهو يشتمل على قصرين عظيمين من الشمع ايضاً احدهما أطول من القصر المقدم بنحو اربع اذرع والاخر دونه مشتملين على ما تقدم وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود وعلى النقول والملبسات بالسكر ايضاً . ومن غريب تدقيق العرب في رسم النبات ما ذكره في طبقات الاطباء في ترجمة رشيد الدين بن الصوري قال : كان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها ونوعها ، فكان يتوجه الى المواضع التي بهها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختلفت كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحتمته ويُر به للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ، و يصور بحسبها ويجهتد في محاكاتها . ثم انه سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك انه كان يُري النبات للمصور في ابان نباته وطرأوته فيصوره ، ثم يريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه اياه ايضاً في وقت ذواءه وبسبه فيصوره ، ومن ذلك نستدل انه كان في البلاد اكثر من مصور في ذاك العصر ، وان ذلك التصوير بالاصباغ كان مألوفاً ، وقد بلغ من حذق المصورين ان يصوروا النبات على انحاء شتى ، اما عنايتهم بالنبات نفسه فمسألة ينظر فيها علماء النبات يستخرجون منها ما يريدون ، وهذا كان في الثلث الاول من القرن السابع للهجرة اي في القرن الثالث عشر للميلاد فأين كانت اوربا وتصويرها اذ ذاك ؟

وذكر شيخ الربوة في نخبة الدهر المائدة العجيبة التي وجدت في القرن السابع بدمشق قال : ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنين وثمانين وستائة أحضر اليه من المدرسة الجوهريّة مائة ذهب وزنها ثمانية ارطال وربع بالدمشقي ، وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب وفي منقار كل واحدة لؤلؤة بقدر الحمصة وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندق ، وفي وسط المائدة سكرجة من زمرّد ، سعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم السوقي لا الكبير ، مملوءة حبات من الدر ، قيل ان الملك الناصر صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهري فأكثرها بدهليز مدرسته ، فوشى بها الى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري ، وكان على جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما في المائدة ولها ثمان قوائم .

وقال شيخ الربوة ايضاً : ان مقدم زاوية عكا اهدى الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه بيت مربع له اربعة خروق في أسفله يدخل منها دم الفصاد الى داخل البيت ، وفي البيت بسقفه تمثال انسان متوارٍ في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه ، وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم ارتفع ذلك التمثال بصدده وظهرت على صدره كفاية عشرة الدراهم ، ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية فيقف التمثال ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها ، حسبك حسبك .

ويعد في باب التصوير ما رواه ابن ابي أصيبعة في ترجمة سديد الدين بن رقيقة قال : ومما كتبه على كأس في وسطه طائر على قبة مخزومة ، اذا قلب في الكأس ماء دار دوراناً سريعاً وصفر صغيراً قوياً ومن وقف بازاء الطائر حكم عليه بالشرب ، فاذا شربه وترك فيه شيئاً من الشراب صفر الطائر وكذلك لو شربه في مائة مرة فمضى شرب جميع ما فيه ولم يبق فيه درهم واحد فان صفيّره ينقطع . وهذه هي الايات :

انا طائر في هيئة الزرزور	مستحسن التكوين والتصوير
فاشرب على نغمي سلاف مدامة	صرفاً نثير حنادس الديجور
صفراء تلعب في الكؤوس كأنها	نار الكليم بدت بأعلى الطور
واذا تخلف من شرابك درهم	في الكأس نمّ به عليك صفيّري

وذكر احمد تيمور باشا تمثالاً على بركة وأبائناً للمخار فيه ورجح انه كان
باحدى دور الشام لان الناظم كان من المقيمين في هذه الديار فقال : « وفي احد هذه
التماثيل يقول عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمخار ، وكان التمثال من نحاس على
صورة شخص يخرج الماء من أعضائه .

مشير بساعده الأيمن	وشخص على ساقه قائم
على بدن صيغ من معدن	له صورة حسنت منظرأ
ولكن به خر من الألكن	بكاد يحدث جللاه
فتسبقه أدمع الأعين	اذا بث من صدره سره
ولم يصب شوقاً الى موطن	ولم يبك حزناً على نازح
ليسر بحال ولم يحزن	صبور على الحر والبرد لم

وبصح ان يعدد في باب التماثيل المتحركة والمصوتة بانواع الخيل الساعة التي كانت
بباب الساعات في الجامع الأموي وصفها ابن جبير قال : وعن يمين الخارج من باب
جبرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان
صفر قد فتحت أبواباً صفراء على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند
انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من في باز بين من صفر قائم على
طاستين من صفر تحت كل واحد منها . احدهما تحت اول باب من تلك الأبواب
والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقيتين فيهما تعودان داخل
الجدار الى الغرفة وتبصر الباز بين يمدان أعناقها بالبندقيتين الى الطاستين ويقذفانها
بسرعة ، بتدبير عجيب لتخيله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقيتين في الطاستين
يسمع لها دوي وينغلاق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصخر لا يزال
كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار ، حتى تغلق الأبواب كلها وتنفضي الساعات
ثم تعود الى حالها الاول ، ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في القوس المنعطفة على
تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعرض في كل دائرة
زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة
وخلف الزجاجه مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت به عم

الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محجرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنتضي ساعات الليل وتحمور الدوائر كلها ، وقد وكل بها في الغرفة من يدبر شأنها فيعيد فتح الأبواب ويسرح الصبح الى موضعه وهي التي تسمى الميقاتة .

وشبهه بهذه الساعة كان على احد أبواب كنيسة انطاكية وصفها ابن بطالان سنة نيف واربعين واربعمائة وقال انها فنجان ساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة ، ولا شك ان كل هذه البدائع كانت من صنع صُنع الأيدي من الشاميين ، فمن المصورين على الخزف ومن المصورين على الخشب ومن المصورين على النسيج ومن المصورين على النحاس والحديد ، فمن المصورين على الخزف « الغبي » قال تيمور باشا : ان له قطعاً بدار الآثار العربية بمصر ، عثروا عليها باطلال القسطنطينية وقد كتب عليها اسمه فكتب على بعضها « الغبي » فقط وعلى بعضها « الغبي » الشامي وان في دار الآثار العربية ايضاً لوحاً من القاشاني « لمحمد الدمشقي » عليه صورة مكة المكرمة والكعبة المعظمة صورها سنة ١١٣٩ هـ وكتب عليها اسمه ، ويعد في جملة المصورين فاضل بن علي بن عمر الظاهر الزيداني الصفدي ولد كما قال السكال الغزي سنة اربع وسبعين ومائة والف وتعلم في القسطنطينية وكان يحمل مع اخوته وبني عمه اليها فصارت له مهارة كلية في التصوير والنقش وتجسيم البلاد والعباد وله في ذلك العجب العجيب .

وبعد فهذا القليل الذي قرأناه واستأنسنا به بدل على ذوق وإبداع ، وان مشاركة الامة في هذا الفن كانت على حصة موفورة ، وفي هذا العصر نبع في الشام مصورون لا بأس بهم اخذوا عن ايطاليا وفرنسا وغيرهما وكادوا يجارون مصوري الغرب بابداعهم ، ومنهم من يصور بالأصباغ ، ومنهم بدونها اي بالسواد ، ومنهم من يصور التماثيل من المرمر والرخام والصفير ، ومنهم من ينقش فيبديع على الخشب والنحاس ، ومن المصورين باليد علي رضا معين ، نديم بخاش ، مصطفى الحمصاني ، مصطفى فروخ ، توفيق طارق ، عبد الحميد عبد ربه ، عبد الوهاب ابو السعود ،

بشارة السمرة ، داود القريم ، حبيب سرور ، خليل صليبي ، سليم عورا ، جبران خليل جبران ، خليل الغريب ، نقولا الصانع .

* * *

النقش } و يصح ان يعد في باب التصوير نقش البهوت والتماثيل فان
 المعروف من ايام الناس انه كان للشام حظ منه ، ولم نر للنقش
 على الحجر براءة وإبداعاً عند الامم القديمة بقدر ما رأينا عند اليونان والرومان ،
 فان النقوش التي عثر عليها في شمالي الشام من اصل حثي مثل الأسود التي كانوا
 يرسمونها على أبواب مصانعهم وجدرانها وابي الهول المخبأ برأس انسان او ثور وهو
 من نقوش الاشوريين ، والنقوش التي عثر عليها في الجنوب من اصل سامي كالكنعانيين
 والاسرائيليين وما عثر عليه في الساحل من نقوش الفينيقيين وأربابهم وكلها منقولة
 عن المصريين الفراعنة الا قليلاً — كل هذه النقوش ليست من جمال الوضع وحسن
 الذوق بحيث يرتاح اليها النظر مثل نقوش الرومان واليونان ، ومثال منها الناوس
 الذي عثر عليه في صيدا من القرن الرابع للميلاد وجعل في دار الآثار في الاستانة
 وهو يمثل نساء باقيات تمثيلاً كأنك تراهن .

اين جمال نقوش بعلبك من نقوش جبيل ، اين نقش الناوس البديع المنسوب
 للاسكندر المقدوني او لاحد قواده ، وهو مما كان عثر عليه في صيدا ايضاً وحفظ
 في دار الآثار بالاستانة ، من نقوش قبر احيرام الذي عثر عليه في جبيل وجعل
 في دار الآثار في بيروت او قبر حيرام الذي عثر عليه قرب صور ونقل الى متحف
 اللوفر في باريس سنة ١٨٦٠ م .

آثار تدمر وتماثيلها تنم عن ذوق وفضل صناعة اكثر من ارباب الفينيقيين
 والحثيين ، والغالب ان تماثيل الشبه كانت تعمل في قبرس والروم وتحمل الى تدمر لتزين
 بها رحباتها وساحاتها ، وصناعات جرش ومادبا أجمل من نقوش السهول في حوران
 والصفاء . كأن للاقليم وللعنصر الذي ينزله دخلاً كبيراً في إجادة النقش والتصوير .
 ومعظم العناصر التي نزلت بالشام منذ عهد التاريخ من العناصر السامية ، والساميون
 كما قال بعض علماء الافرنج مازالوا ينفرون من الرسم والنقش والتصوير . ولا غضاضة

إذا قلنا ان الآر بين أفرطوا في الاشتغال بالرسم والنقش إفراطاً شوهدت آثاره في امم اوربا التي خلفتهم ، فكل شيء اذا لم يرسم الآن عندهم لا يفهم ولا يدرك ، فأضعفوا بذلك قوة التخيل وقوا الباصرة ، قال سنيوبوس : يعجب المرء من نقش الصور الاشورية خاصة ، ومن المحقق ان التماثيل نادرة ولا انقان فيها لان النحاتين كانوا يؤثرون نحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش نائفة تشبه الصور ، ويرسمون مشاهد لا نظام فيها أحياناً وحروباً وصيوداً وحصارات مدن واحفالات يخرج الملك بها في موكب حفل ، وتشاهد فيها بنات الخدم الموكلين بطعام الملك وزمراً العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكنائسها او نطائر من شجرة الى أخرى ، وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان اهل الصناعة ما عرفوا تصوورها من الامام ، ولكنك نقرأ في سخناتهم الحياة والشرف ، وكان الاشوريون يتأملون الطبيعة ويرسمونها أصح رسم ، وبهذا تعرف قيمة صنائعهم ، حتى ان اليونان اقتدوا بمذاهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم . فليس في الامم حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشور بين .

ومما يستدل به على ان التماثيل قبل الاسلام كانت تعمل ونقش في الشمام وان العرب نقلوا عنها في جزيرتهم مارواه ابن الكلبى من انه كان لقضاء ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام يقال له الاقيصر كانوا يحجونه ويحلقون رؤسهم عنده . وقال ربيعة بن صبيغ الفزاري :

واني والذي نغم الأنام له حول الاقيصر تسبيح وتهليل

قال ووجد عمرو بن لحي أهل البلقاء يعبدون الاصنام فقال : ماهذه فقالوا: نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ولا شك ان هذه الاصنام تعد من الصناعات الشامية . وقد انكر بعض الباحثين في هذا العصر إدخال عمرو بن لحي هذه الاصنام وعبادتها الى بلاد العرب . ولم يخل عصر من عصور الاسلام في الشام من نقاشين أبدعوا النقش على الحجر ، والنقش بالاصباغ على الجدران وعلى الخشب يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف ، والنقش

بالجس على الجدران ومنها مقرنصات جميلة ذات تعاريف وكتابات حفظت في مدفن احد الوزراء من القرون الوسطى في صالحيه دمشق أمام دار الحديث الاشرفية البرانية وبينهما الطريق وتسمى هذه المدرسة التكريتية . وفي بعض الدور القديمة الباقية من القرن العاشر وبعده في حلب ودمشق كثير من القاعات تدل على ذوق . وفي در الحلب ان ابا بكر بن احمد النقاش الجلومي الحلبي خدم أساتذة النقاشين من الأعاجم واستفاد منهم ومهر في نقوش البهوت وكتابات الطرازات على طريقة القاطع والمقطوع ، وفي نقوشه ما كان لكفة آل حلب وغيرهم من الرماح والسروج بالذهب واللازود مع معرفة طريقة حله وصنعة التراكش وضعاً ونقشاً وصنعة اللوح الذي يكتب فيه وصنائع أخرى ثم عشرين صنعة . ولا يعقل ان يعمل ذلك مثل هذا الفن ولا يكون حوالبه عشرات من المتعلمين والناقلين .

ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب انطاكية وباب النصر وعلى هذا قطعة من افريز تمثل كرة معرشة يركض الي جانبها أرنب . ومن أجمل آثار قلعتها المحراب المنقوش على الخشب من عمل نور الدين زنكي والجزء الثاني الذي أنشأه الظاهر غازي يدل على صورة الهندسة المألوفة في عصر الأمويين : مثلت قائم الزوايا تعلوه قبة بين حنايا واسعة .

ومن المنابر العجيبة الصنع ما عمله نور الدين محمود بن زنكي في حلب برسم المسجد الأقصى عمله حميد بن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي من خشب مرصع بالعاج والآبنوس وعليه الى اليوم تاريخ سنة ٥٦٤ هـ وقد وضعه صلاح الدين في محله عند فتح القدس وقد عمل في حلب ايضاً محراب الجامع الكبير بحجة صنعه ذلك الفنان الحلبي . ومن أجمل المنابر منبر الحرم في الخليل من صناعة الفاطميين ومنبر جامع الخنابلة بدمشق من الخشب . ومن المحاريب محراب جامع الحلاوية بحلب من الخشب ومحراب الاقصى من الرخام . ومن المحاريب الجميلة محراب جامع الفردوس بحلب الذي أنشأته ضيفة خاتون بنت الملك العادل والدة السلطان الملك العزيز ابن الملك الظاهر وهو من عمل حسان بن عناق . وجامع الظاهر غازي في قلعة حلب الذي بناه سنة ٦١٠ فيه أجمل ضروب الهندسة من النقوش المعروفة في المصانع الجميلة . ومن أهم الآثار

العربية تابوت من الخشب وضع على قبر السيدة سكيمة بنت الحسين في مقبرة باب الصغير بدمشق عمله احمد بن محمد بن عبد الله سنة ٥٦٠ هـ وقد نقش بخطوط كوفية وجعل داخل الحروف نقوش وحروف صغيرة أخرى بالكوفية ايضاً . وتابوت ومحراب ومنبر جامع خالد بن الوليد بمحصر من أجمل الآثار العربية . وكذلك تابوت مدفون ابي الفداء صاحب حماة . ومن الآثار العربية مانقش بالحروف الكوفية على تابوت من الحجر دفنت تحتها السيدة فاطمة الصغرى بنت الحسين من القرن الرابع . ومن التوابيت المهمة تابوت سيدي صهيب في حي الميدان بدمشق (من القرن السادس) ومنها تابوت بخت خاتون المعروفة عند العوام بالسيدة حفيظة في طريق عين الكرش المؤدي الى حي الاكراد بدمشق .

وذكر القزويني سوق المزوقين في حلب وقال ان فيه آلات عجيبة مزوقة ، وذكر ابن جبير ان اكثر حوانيت حلب خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتحملت شرف خشبية بديعة النقش . ولا عجب فقد عرف الحلبيون من القديم بحسن الذوق في هذه الصناعة كما عرفوا بحسن الذوق في الخطوط العربية المنوعة الاشكال . وكلها نقوش معرشة تأخذ بمجامع الأبصار ، وتعد في باب النقش ، وقد كان عدد الخطاطين الذين أنبغتهم حلب على اختلاف العصور اكثر من غيرها من مدن الشام على ما علم .

ذكر الشيخ الغزي ان النقاشين في حلب أصناف منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراءة البنائين الحلبيين في القرون الماضية وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصناعة النقش ، من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي احد أبواب قلعة حلب لا يفرق الناظر اليهما ، في اول وهلة بين ملامحهما فاذا أمعن النظر فيهما تبين له ان وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي مما دل على براءة النقاش .

وقال ان من النقاشين من يعاني النقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالمدهنين ينقشون صور اشخاص وازهار وطيور وأشجار وان هذه الصناعة انحطت في حلب أواخر القرن الماضي حتى سافر جماعة من

اهلها الى اميركا وتلقوا هذه الحرفة من اربابها وعادوا فنشروها بين الناس . ومن أشهر النقاشين يوسف سعدالله الحويك ، ومن الحقارين والنقاشين يوسف الزغبى وبشارة عيسى الزغبى وهذا حفر صورة آل رومانوف في قطعة صدف من أنفس الخنف . واشتهر في دمشق وحلب وبيروت خطاطون كثيرون في العهد الاخير ومنهم امين زهدي . مصطفى السباعي . مراد الشطي . مصطفى القباني . محمد علي الحكيم . نجيب هواويني . حسين البنجاتي . ممدوح الشريف . سليم الخنفي . محمد علي الخطيب . زكي المولوي . حنا علام . يوسف علام . نسيب مكارم . مشكين قلم . محمد يحيى . صادق الطرزي . موسى الشلي .

وكان فن الخط الى عهد بعيد صناعة يتنافس بها ، وكثير من البارعين فيها كانت مدار معاشهم ينسخون الكتب وغيرها فلما جاءت الطباعة ثم الآلات الطابعة بطل التنافس بالخط العربي الجميل الا قليلاً .

* * *

البناء } قالوا ان علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها ، اذا
 } قارنا بينه وبين الموسيقى نجد ان كليهما مطرب للانسان ،
 فالأول مكون من نغمت غير متنافرة منتظمة الاوقات ، والثاني مكون من تراكيب
 وأوضاع غير متنافرة الاجزاء ، يظهر الاول مذيبات العدد والأوتار يجمها الهواء
 الى الأذان فيطرب بها الانسان ، ويظهر الثاني الظل والضوء والالوان فتراها العين
 في أتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة
 والراحة فتشتاق اليها النفس ، فكلا الفنين جميل غير ان الأول تذهب محاسنه في
 الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها ، وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل .

مواد البناء الحجر والتراب والخشب والحديد قد توجد كلها في قطر ولا يوجد
 الا بعضها في آخر ، فصانع بابل تداعت لان معول البانين كان على الأجر لا الحجر ،
 ومصانع الشام بقيت لان الحجر فيه كثير مبذول ، وان كان أقدم ما عرف من
 آثارنا يُرد الى زهاء الف سنة ، وأقدم ما عرف في بابل واشور ونيوى من

الآجر المكتوب يرجع الى اربعة آلاف سنة . وما عمل عندنا من الخشب والتراب
دثر بعد مدة ليست بطويلة من عهد بانيه .

ولقد ظهر ان الشام في القديم لم يكن له طراز خاص في البناء . وكان بناؤه
بحسب روح الدولة التي تحكم فيه والامة التي تغلب عليه : مصرياً ايام الفراعنة ،
اشورياً على عهد الاشوريين ، بابلياً في ايام بابل ، فارسياً في دور الفرس ، رومياً
في دولة الروم ، رومانياً في عهد الرومان . ولم يكن للحثيين والاسرائيليين هندسة
خاصة بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم ، وليس مما
اكتشف منه حتى الآن ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه بل هو محرف عن
الطراز الاشوري تحرفاً كثيراً ، وما اكتشف من الصور النصفية وغيرها من عهد
الحثيين لا ينم عن ذوق وإبداع على الاكثر . ومصانع الحثيين في الجملة مقتبسة من
مصانع الاشوريين والبابليين اقتباساً رديئاً لا يخرج من جفاء وسذاجة على ما قال
الباحثون . وسار الاسرائيليون في صنع مصانعهم على تقليد الاشوريين والمصريين
وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، ولاستيلاء المصريين زمنياً
على فلسطين . وكذلك فعل الفينيقيون والكنعانيون . وعلى عهد الاسكندر دخل
الشام طرز جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

غصت جبال الشام بالمغاور الطبيعية والصناعية ، ومنها ما كان لسكنى اهلهما قبل
ان عرف التاريخ ، ومنها ما جعلوه قبوراً لموتاهم في الامم التي عرف بعضها التاريخ ،
وقد ثبت بهذه المغاور ان الشاميين استعملوا منذ الزمن الاطول آلات من
المعادن لقطع الحجر ونحته . ولا يمكن تحديد العصر الحجري في الشام ، ويمكن ان
يرد العصر المعدني الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . وفي غربي الأردن آثار كثيرة
من ذلك ، وكلها ذات صلة بعبادات الاقدمين ، واحترام الاحجار المقدسة كان
قديماً منتشراً في جميع أرجاء الشام . ومن المغاور مغاور عدلون بين صيدا وصور ،
ومغاور نهر ابراهيم في لبنان ، ومغاور بيروت وجبيل وانطلياس ، ومن مصانع
فلسطين الصهاريح ومعاصر الزيت والنخمر . وبناء الفينيقيين من هذا النوع أجمل
من بناء العبرانيين .

وقد اقتبس العبرانيون في اصول مبانيهم مباني الفينيقيين ، وهؤلاء اخذوا على ما يظهر من المصريين ، وقد قيل ان بنائين فينيقيين هندسوا معبدي داود وسليمان . ويقول سنيوبوس ان القدس كانت بالنسبة لبابل وثيبة عاصمة بلاد فقيرة ، وما كان العبرانيون بتعاطون البناء ويميلون الى العمران ، بل كانت ديانتهم تحظر عليهم اقامة المعابد ، ولم يكن في القدس الا قصر سليمان وهو اول معبد عبراني .

واخذت الشام اصول الهندسة اليونانية وناغت بها قبل ان يفقها الاسكندر . ولم يبق من الآثار اليونانية على كثرتها في الشام بقدر ما بقي من الآثار الرومانية . فان الرومان أنشأوا مدناً برمتها خططوها على اصولهم . وكان من هذه المدن ما بني على نفقة امبراطرة رومية . ومعلوم ان الرومان نفنوا في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليه آثار الهندسة من طرق وقنوات وأسوار ومسارح (مرايح) وملاعب وحمامات مما شهد لهم باتساع الفكر ومعرفه الهندسة والمتانة في العمل وجمال الأسلوب والوضع . لا جرم ان علاقة الشام بايطاليا أقدم من الاسلام ، علاقتها ببلادنا مذكنا ولاية رومانية تحكمتا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

وقد اخذ النصارى في بناء كنائسهم عن فارس والشرق ، ثم اقتبس منهم الرومان اصولهم في البيع ، وما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية . وأجمل هذه الصناعات على ما قال هوار الجوامع والقصور ، والنقليد محسوس ولكنه تقليد غير أعمى ، لان تأثيرات الاساتذة الأقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث ، كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يجولان دون التنن ولطافة الإبداع والإختراع . قال وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدي مراكزها .

وقال جلابرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة الشامية شيئان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح . وكان المهندسون الشاميون فيها عالة على الشرق يسترشدون بأراء مهندسي فارس . وقد أثرت الهندسة الشامية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولاسيما في بيزنطية ، وأخذت بيزنطية عن الشام او من طريق

مصر عن الشام ، اصول كثير من الابنية ، وقال لامنس : ان الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طريق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة . وأنشأ المهندس الشامي يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحمه بين اجزائها ، واستعاض عن الآخر المألوف على عهد الرومان واليونان بالسكر الخيمت ، وبني الكنائس ذات القباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب الأثريون بجزائرها العظيمة اليوم وعنها أخذ بُناة الكنائس الرومانية اه .

كان أسانذة العرب في البناء لأول أمرهم أناساً من الروم ، فكان بين أبنيتهم الاولى وأبنية النصارى وجه شبه ، فقد بني المسجد الأقصى على مثال كنيسة القبر المقدس ، ونقل استعمال القباب من الشرق الى الغرب ، ولم تكن معروفة الا في هذا الشرق ، وقد أفرط العرب كالروم في استخدام الفيسفاس في الجدران والقباب ، وزادوا في هذه الفصوص ما ابتدعوه من عندهم ، وكان محبباً الى نفوسهم ، جميلاً في عيونهم . ويقول بعض العارفين ان الشام لا يحوي كثيراً من المصانع الخارقة للعادة من صنع العرب لانهم اکتفوا بما وجدوه في البلاد من المباني القديمة فاستعملوها على ما يشاؤون ، ولطالما بنوا بمواد أخذوها من ابنية قديمة .

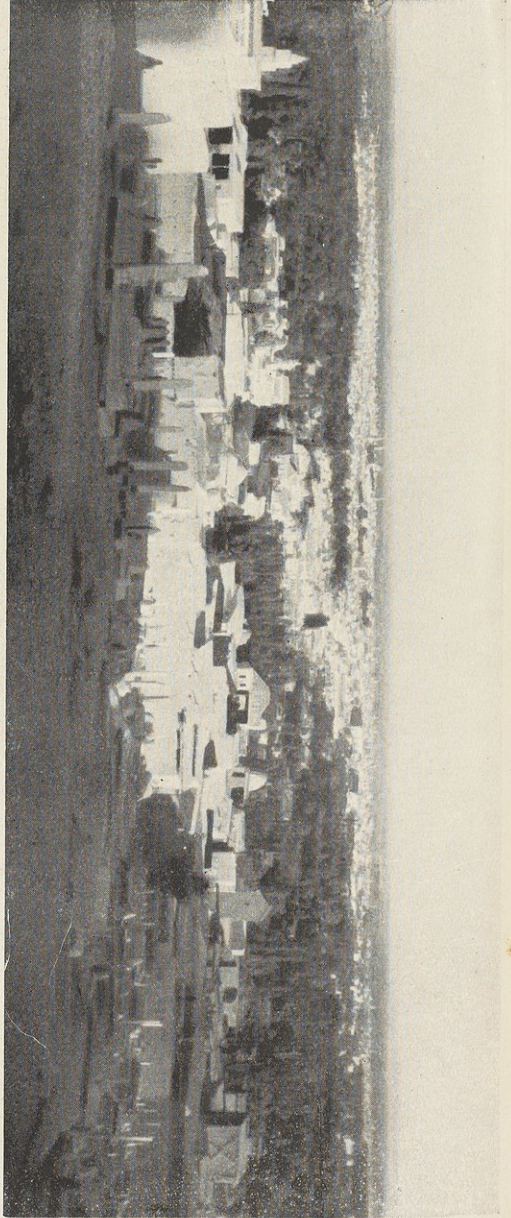
اما هندسة الصليبيين فأكثرها حصون وقلاع ، ولا يعرف اذا كانت في الاصل من بناء العرب او الافرنج ، لكن المرجح ان هؤلاء طبعوها بطابعهم ، وقال آخر : لم يخترع العرب ابنية خاصة بهم بل تجلى في هندستهم حبهم للزخرف والالطف ، واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين ، وكان فننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إغالمهم في حب النقوش والزينة ، كأن أبنيتهم ومصانعهم قماش من أقمشة الشرق فنن حائكها في رقشها ونقشها ،

نعم ان العرب لم يخترعوا ولكنهم اقتبسوا بادي بدء ، فان ابن الزبير لما عمر الكعبة دعا اليها بنائين من الفرس والروم ، والوليد لما بنى أموي دمشق وأقصى القدس دعا اليها بنائين من الفرس والروم والهند . ولا جرم فقد برع مهندسو العرب

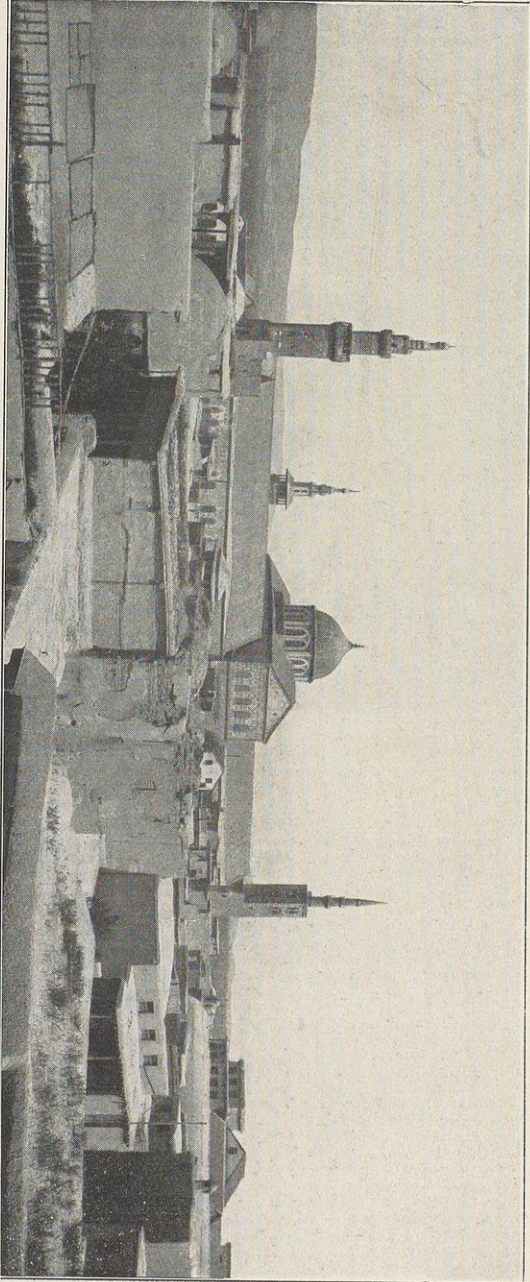
في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه أحوال أوضاع الابنية وكيفية شق الأنهار وتقنية القنيّ وسدالبثوق ونضيد المساكن . ولو لم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة الرافعة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والأسوار والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهرنا اليوم أثره . ومالت الهندسة الشامية الى السداجة لأول انتشار النصرانية ، فكانوا يجنبون كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة ، وجمال الحجم وترتيب الأجسام . ونشأت بين القرن الرابع والسادس للميلاد هندسة متينة تختلف عن الهندسات الأخرى ، منها بعض أمثلة في الشام العليا وهوران . ويقول جلابرت : انه كان لأهالي الشام الوسطى هندسة قائمة بذاتها مابينة لفن البناء الذي أشاعه الرومان في الشام وهو بناء قديم يدعى بالطراز الشامي لا أثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة ، لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية نشأ عنه طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . وطرق البناء في حوران تختلف عن الهندسة الشامية فتألف طرز وطني مبين للطرز اليوناني الذي أدخله السلوقيون .

ومن أهم أبنية القرون الوسطى في الشام وهي تدل على ذوق جميل في البناء ، المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدس وغيرها من البلدان ، والقليل الباقي منها الى الآن شاهد على وجه الأيام بما صار للمهندس الشامي من حسن الذوق ، ومنها في دمشق مدخل المدرستين العادلية الكبرى والظاهرية ، والمستشفى القييري ، وفي حلب مستشفى أرغون شاه ومدرسة الفردوس الى غيرها من الابنية الكثيرة في القرون المتأخرة .

ومن أهم أبنية القرون الاسلامية بدمشق مأذنة الغربية في الجامع الأموي المعروفة بمأذنة قايتباي وهي من أهم المآذن العربية من حيث الهندسة والنقش والاصول المعمارية قامت على قصبتين من الأرض (٤٨ متراً مربعاً) بارئفاع ٦٦ متراً مندهسها معمار عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة ٨٨٥ هـ وبانيها السلطان الملك الأشرف قايتباي كتب اسمه في جهاتها الاربع . وقد جرى ترميمها وارجاعها الى اصلها واكمال

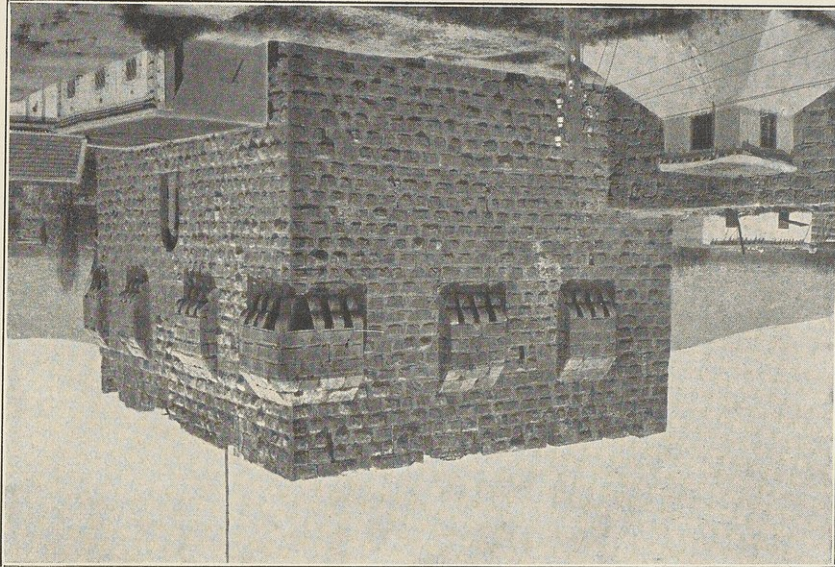


منظر دمشق من الصالحية

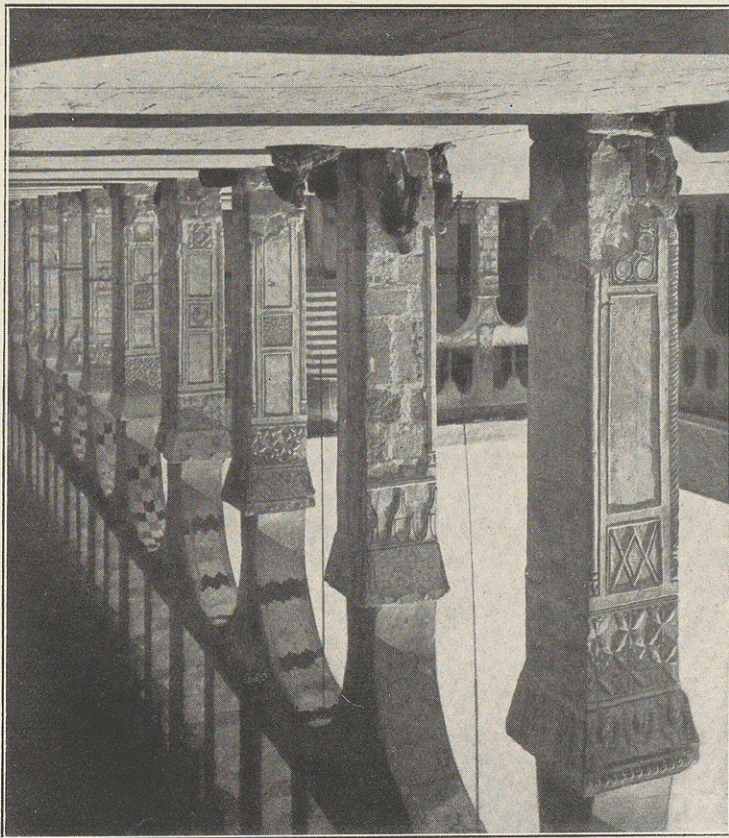


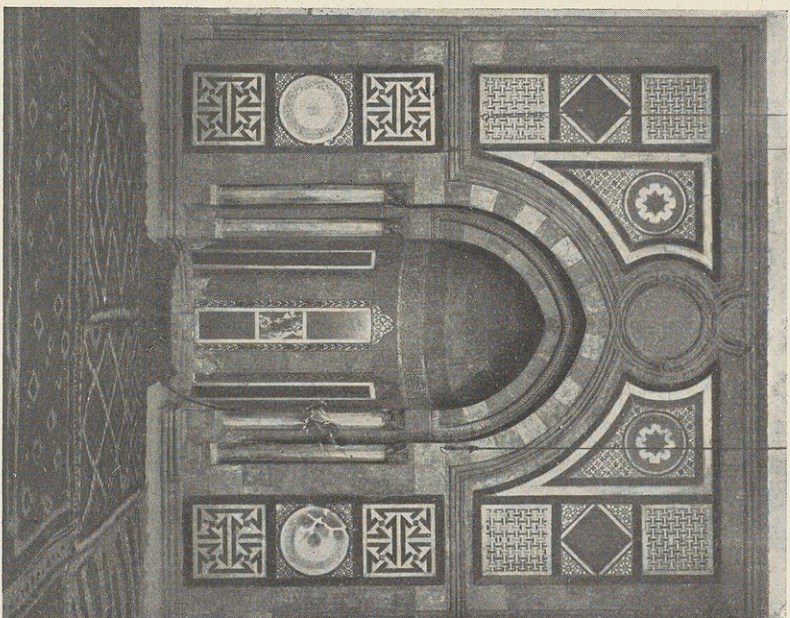
الجهة الجنوبية من الجامع الأموي

احمدی خانہ کا مینار

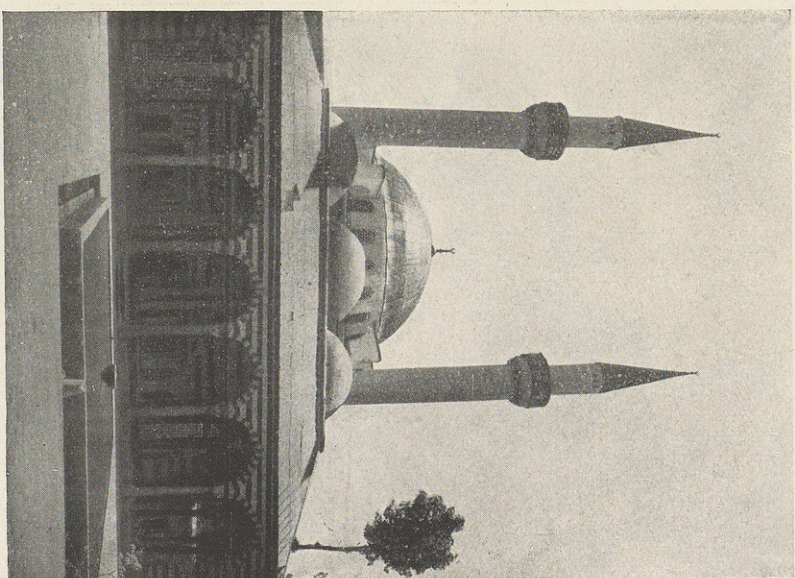


پہلے کی تصویر ۱۲۰۰ء میں لیا گیا تھا۔ اس کی کاپی ۱۱۱۱ء میں لیا گیا۔

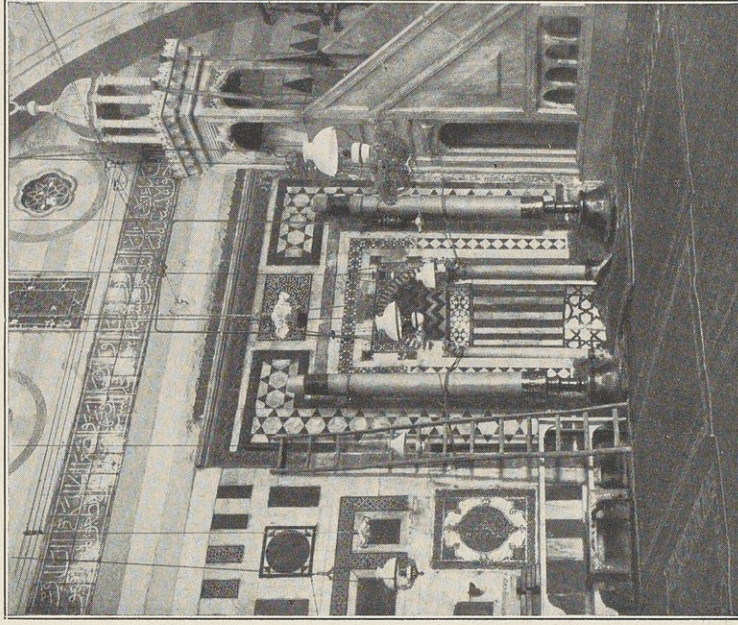




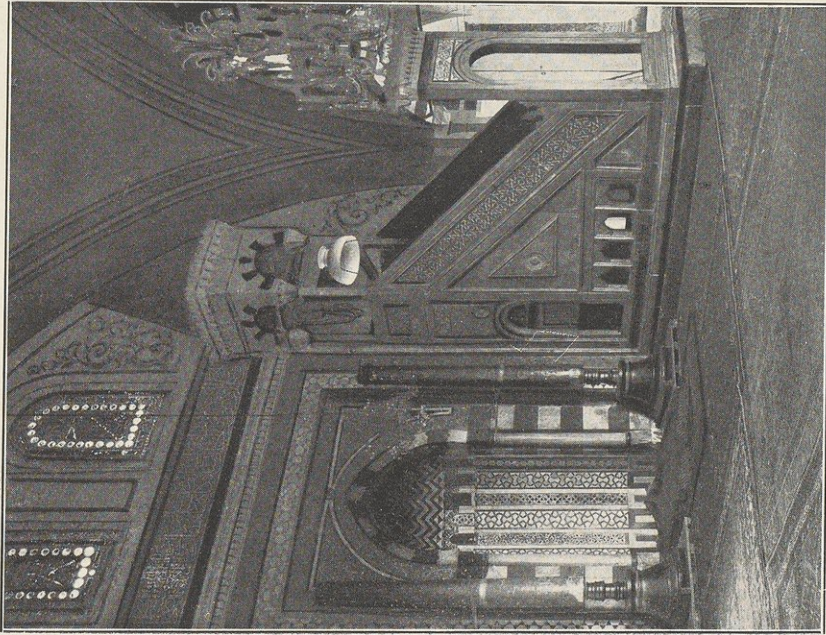
محراب جامع السادات في الزنبيية بدمشق
أُنشئ في سنة ٨١١ هـ



البيكبة السعيدانية بدمشق
أُنشئت في سنة ٩١٢ هـ



محراب جامع درویش باشا ومنبره في دمشق
أُنشئ في سنة ٩٧٦ و٩٨٣ هـ



محراب جامع السنانية ومنبره في دمشق
أُنشئ في سنة ٩٩٩ هـ

نواقصها المهندس الرسام المعمار السيد توفيق طارق سنة ١٣٤٢ هـ وكان على رفرف شرفتها الاولى آية (انا فتحنا لك فتحاً الاية) وكتبها السيد موسى شلي وبقي قسم من الحروف القديمة .

وقد دخلت الى الساحل منذ عهد الحروب الصليبية اصول الهندسة الطليانية في الدور والقصور ، وما برحت ترسخ مع الزمن ، ولا سيما في طرابلس وبيروت ، بحيث ان جميع ما نراه في مدن الساحل من الدور هو مما أنشئ في القرن الاخير وفي هذا القرن ، هو طلياني الصبغة ، وهندسته عارضة على البلاد . هذا في الساحل ، ا. ا. هندسة البيوت في الداخلية فانها قديمة لا يعرف زمن الاصطلاح عليها ، فقد نقل الرومان هندسة بيوت دمشق القديمة الى شمالي افريقية ، ثم نقلها العرب بعد قرون الى الاندلس ، ولا تزال هناك الى اليوم يفاخر بطرازها ويطرس على آثارها ، كأن تكون الدار ذات مدخل او دهليز يؤدي الى فناء واسع فيه حوض ماء وإيوان ، وعلى جوانبه أماكن لتربية بعض الأشجار والزهور ، والدار ذات طبقتين فقط : السفلى للصيف والعليا للشتاء .

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في طرابلس كانت ذات اربع وخمس وأحياناً ست طبقات . وكثرة الطبقات في الدور لم تعهد الا في الغرب ، وما نظن البلاد زادت طبقات بيوتها على ثلاث في معظم ادوار التاريخ .

الشعر والفصاحة } ظهر كثير من الشعراء والبلغاء في هذه الديار ولا سيما من السريان واللاتين والروم ، اشتهروا في العالم وخلدوا آثار نبوغهم ، ولطالما أخرجت مدرسة نصيبين والرثا ومدرسة الفقه في بيروت ومدرسة انطاكية خطباء هن والنفوس وعلوها بخطيبهم وأشعارهم ومجادلاتهم ، وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد الدول العربية الاسلامية ايضاً . والشعر والخطابة مما امتازت به العرب في الجاهلية والاسلام وغالت في الولوج بها ، ولقد أثر القرآن في هداية العرب ببلاغته وفصاحته ، تأثيره بحكمه وهدايته . ولطالما كان شعراء العرب يصفون هذه البلاد ويتغزلون بها منذ اول يوم عرفوها ، حتى اذا كان الاسلام

وتبسطوا في أرجائها ، أوحى الى قرائحهم من أساليب الشعر ما يتألف من مجموعته
أعظم ديوان بل خزانة عظيمة في الأدب تدل على فضل قرائح ، ونبوغ في فنون
القول ، وتوسع في مجال الخيال ، وما هم الا مبدعون وضعوا ما وضعوه من بنات
افكارهم على غير مثال .

لا جرم ان الشام كانت اول البلاد التي اخذت الفصاحة عن العرب في
جزيرتهم ، وبقيت فيها على اختلاف العصور وتعاقب الدول محفوظة في الجملة فما
انقطع منها من ينظمون ويجدون حواليتهم من يطرب لنغماتهم ويصفق لنبراتهم ، وان
لم يعرفوا صحاحها من زيوفها . كان الشعر مبدأ دخول العرب في الحضارة ، والأدب
مقدمة النهوض في العلوم ، ولذلك رأيناهم لم يحرصوا على شيء حرصهم على روايته
ودرايته . واكثر ما يجيد الشعراء في ارض صح اقليمها ، واعتدل نسيمها ، وطابت
تربتها واديمها ، وصفت امواها ، وساغ نهرها ، وكثرت ظلالها باشجارها ، وغردت
اطيارها في اشجارها ، وفغم اريج نوارها وازهارها . وهذا على حصة موفورة في القطر
الذي يتاخم جزيرة العرب من شمالها . وقد انعم عليه الخالق بكل البدائم والروائع ،
فكان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في
الجاهلية والاسلام كما قال الثعالبي . وما زالت بعض قصائد شعراء ذلك الدور
مضرب الأمثال في البلاغة وما يروح عرب المدن يتغنون بشعرهم ويعجبون به ويتنمنون
ويتوفرون على حل ما استعجم عليهم من الفاظه ومعانيه . قال والسبب في تبرز القوم
قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما اهل الحجاز
وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق
بجواررة الفرس والنبط ومدخلتهم اياهم ، ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين
فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وامراءً من آل حمدان وبني ورقاء
هم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب
السيف والقلم ، وما منهم الا اديب جواد يحب الشعر وينقده ، ويثيب على الجيد منه
فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الاجادة ، فقادوا محاسن الكلام ، بالبن زمام
وأحسنوا وأبدعوا ما شاؤوا . وكان ابو بكر الخوارزمي قد دوخ بلاد الشام في

صباه ولطالما قال وهو احد افراد الدهر وامراء النظم والنثر : ما فتق قلبي ، وشخذ فهبي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطوائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التي علقّت بحفظي ، وامتزجت باجزاء نفسي .

حكى المازني المتوفى سنة ٢٤٩ قال : دخلت دير بصري فرأيت في رهبانه فصاحة وهم منصرفه من بني الصادر وهم أفصح من رأيت فقلت : مالي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ؟ فقالوا والله ما فينا أحد ينطق بالشعر الا أمة لنا كبيرة السن فقلت جيئوني بها فجاءت فاستشدها فأشددني لنفسها :

ايا رفقّة من دير بُصرى تحملت نوّم الحمى أقيت من رفقّة رشدا
اذا ما بلغتم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن ان لا يرى نجداً
وقولوا تركنا الصادريّ مكبلاً بكل هوى من جبكم مضمرّاً وجدا
فياليت شعري هل ارى جانب الحمى وقد أنبتت أجراءه بقللاً جعداً
وهل اردن الدهر يوماً وقبعةً كأن الصبا يسدي على مننه برداً

وما برحت الديارات - في الشام نقدر الفصاحة كما نقام فيها للموسيقى أسواق .
قال معاوية بن فرمّيل : كنت مع خالد بن الوليد حين غزا الشام فخرجنا فرفع لنا دير فأتيناه فقلنا : السلام عليكم فخرج الينا قس فقال : من أصحاب هذه الكلمة الطيبة ؟

وظهر الضعف في الشعر خلال القرون الاخيرة ، ونسبت عليه القرون الى ان خاع في أوائل هذا القرن الثوب البالي القديم ولبس ثوباً جديداً فيه من جلال الحديث وعز القديم ما جمع فيه الجسم والروح . بدأ هذا من لبنان وبيروت ثم تناول عامة مدن الشام . اما القرى والبوادي فقد اكتفت بالأزجال ، والزجل نوع من الشعر يحدث يصفون فيه ايامهم ومفاخرهم وهو أشبه بالرجز الذي كانت العرب تترنم به في عملها وسوقها وتحذو به في بواديه . وكان للرجالين في القرن الماضي وفي هذا القرن منزلة عند اهل الزرع والضرع ، يدعون الزجال الى الأفراح ليحمل البهجة اليها ، والى الأتراح ليسري عن النفوس ما نزل بها ، ولهم ضروب من المواليا يسمونها العتابي والابراهيمي بطربون بها ولا تخلو من معانٍ شعرية . قال صديقنا الشيخ ابراهيم

الخوراني وكان شاعراً مجيداً بالفصحى والعامية : والنصاري واليهود يعتقدون ان بعض الشعر إلهام الآهي ووحى حق كشعر أيوب وداود وسليمان واشعيا وعدة من كتبة الأسفار الآهية والشعر بقسميه الفصحى والعامي المعروف عند العامة بالمعنى يعمل على ثلاثة أجزء الرجز والوافر والسريع اما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات وهو اسم خشن سميت مؤخرأً بالعدديات وبالقوليات كما يقولون لمن يعانيتها (القوآل) فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف ووزن بعضها المتسدرار مع تغيرات أيضاً . وجاءت أغانيهم المعروفة بالموالات البغدادية والمصرية والزلاغيط على بحر البسيط اه .

ولا يزال الى اليوم لكل قبيلة في الشام شاعرها ينشدهم من حفظه او نظمه من شعر شعراء البادية على نغمات الرباب قصائد يسلمهم بها ، ولشعر البادية عندهم اوزان خاصة واذا قيس على علات لفظه على أجزء الشعر يرى بعضه موزوناً وفي بعضه عيوب بسيطة ومن أشعر شعراء البادية نمر بن عدوان في عبر الأردن كانت له امرأة اسمها وضياء نتميم بها كما نتميم قيس بليلاه فرثاها بعد موثها بعشرات من القصائد ومنها ما فيه معانٍ جميلة — قاله السيد أديب وهبة .

واذا انتشرت المدارس في المدن والقرى على حد سوى ، وجعل التعليم في كل درجاته باللغة الفصحى يتأصل الغرام في الناس أكثر مما نراه بالفصاحة والشعر فلا تلبث الشام ان تحسدها جاراتها كما كانت في القديم على اختصاصها بذلك ، وكما تحسد هي مصر اليوم على تفنن شعرائها وخطبائها وسريان الفصاحة الى الألسن من ليسوا من الأدب العربي في العير ولا في التنفير .

ربما ينفر بعضهم من سماع هذا اللفظ ونحن لم نعرض له هنا
 الرقص }
 الا مجازاة للفرنج في إدماجهم له في الفنون الجميلة . عدّ
 « طاشكبري » الرقص من أنواع العلوم فقال : انه علم باحث عن كيفية صدور
 الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهده ، وهذا من

العلوم التي يرغب فيها اصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجري مجرى هؤلاء من اصحاب الملاهي اه .

وذكروا ان الرقص قديم كقدم العالم وان اقدم شعوب الارض كان لها رقص على اوزان معلومة . فالرقص مرتبط بالموسيقى والايقاع وكثيراً ما كانوا يتبعون الرقص بالتصديده والضرب بالايدي ثم عرفوا الشبابه حتى جاءت المزاهر والمعازف وكان الرقص على نوعين رقص مقدس من توابع الحفلات الدينية ورقص عالمي لتسلية العامة اي ان الرقص رقصان رقص ديني او رقص المآتم ورقص الجبور والابتهاج . وفي التوراة ان الرقص كان شائعاً عند العبرانيين ، وقد رقص داود أمام تابوت العهد ولما خرج بنو اسرائيل من مصر كان لهم نوعان من الرقص ، الرقص المقدس المنظم ورقص سرّي له اتصال بالتعبده على نحو ما كانوا يرقصون في التيه حول عجل الذهب . وكان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف يرقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاءً بذكرى حوادث سعيدة من مثل انتصار على عدو او تكريم مجده ابطال الوطن . وهكذا كان الرقص شائعاً عند المصريين ثم شاع عند اليونان وهم المشهورون بنفنتهم فبلغ عندهم أقصى درجات رقيه وانتقل الى الرومان ، واذ كانوا شعباً قاسياً غليظاً فقد عندهم بهاء ورواه ، وما يقصده منه . ولكل شعب رقصه الخاص به ، عليه صبغة اخلافه القومية الثابتة . ولجميع شعوب الغرب والشرق رقصهم الخاص او رقصات عرفت بهم وأثرت عنهم . والانكليزا اكثر الأمم انحطاطاً في الرقص لم يبرزوا فيه تميزهم في معظم مظاهر الحياة القومية القوية .

وكان الرقص عند العرب كالغناء من الفنون الطبيعية استعملوه في كل دور عرف من ادوارهم . والرقص او الزفن كان عند العرب على ما يظهر على الطراز الذي هو عليه اليوم عند العرب سكان القرى والعرب الرحالة ومنه ما يعرف بالدبكة ، فان وفد الحبشة لما قدم الى الحجاز جعلوا يزنون اي يرقصون . وفي حديث فاطمة انها كانت تزفن للحسن اي ترقص له وفي رواية ترقصه . ومن غريب نفن العرب في مسائل الظرف والذوق انهم عرفوا علماً سموه « علم الغنج » عده صاحب الموضوعات من فروع علم الموسيقى وقال : هو علم باحث عن كيفية صدور الافعال التي تصدر

عن العذارى والنسوان الفائقات الجمال والمتصفات بالظرف والكجال الى آخر ما نقله صاحب كشف الظنون .

والغالب ان رقص الشام اقتبس مع الزمن من أوضاع كثيرة ، والأهم نقتبس عن غيرها ما يتلاءم مع مزاجها . وكذلك نقتبس غيرها بعض ما ألقته في هذا الشأن . من ذلك ان الرقص الاسباني الى اليوم لم يبرح بعد خمسة قرون من مغادرة العرب ارض الاندلس على الطراز العربي وكذلك موسيقاهم الا قليلاً . وقد اصبح الرقص في الغرب علماً بذاته ولكن العرب لم يقصروا فيه ، ولا سيما في عصور البذخ والرفاهية . وبعض المحققين من علماء المشرقيات من الاسبان والبرتغال (مجلة الزهراء) يبرهنون الان على ان موسيقى الاوربيين وشعرهم انتقلوا من فارس الى اوربا بواسطة العرب ، ومنهم من ينشر منذ سنين قطعاً قديمة و يبين ما فيها من آثار الروح الشرقية . وكان لنا في الشام نوع من الرقص يسمونه بالسماح (ولعله السماع) يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من الموشحات فقط ، وهو أشبه بالابراوالاوبريت (Opéra, Opérette) عند الافرنج اى القصائد المخنعة التي تمثل على نغمات الموسيقى فقط ، ويزيد رقص السماح على الاوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بانغام مألوقة .

وفي كتاب مفرح النفس : واعلم ان من الرياضيات البدنية التي تختص بالنفس اختصاصاً كثيراً الى الغاية الرقص ، وهو عبارة عن حركة مناسبة من اليدين والرجلين بضرب من الضروب المعروفة في الموسيقى بارادة النفس وشوقاً الى محل طلبها الاصيلي وقال : ان الرقص مندوب اليه في ترويح الأرواح ونفي كدورة النفس وحصول الاشراق لها ، ويجب ان يكون مع سكون وتجمع من الذهن والعقل فتحصل اللذة والبهجة ، فالرقص له في إحداث راحة النفس وسرورها قوة عظيمة يعجز اللسان عن وصفها والذهن والعقل عن تصورها اه .

ويدخل في باب الرقص او في باب الموسيقى (فن التمثيل) وهو وان كان مشهوراً في الشام على عهد الرومان واليونان ، بدليل ما نراه من الملاعب الخاصة به وبعرض الحيوانات والصراع في البتراء وعمان وبلبك وأفامية ولدّ وقيسارية وغيرها من المدن القديمة . الا انه لم يعهد على الصورة المعروفة حديثاً ، اللهم الا على الندره عند عرب

الاندلس ، وهذا في بعض الروايات . ولقد قالوا ان انطاكية ايام عزها ارتقى فن التمثيل فيها حتى كانت تجلب الممثلين من صور وبيروت والمغنين من بعلبك . وقال بعضهم : ان السبب في عدم العناية بالتمثيل في الاسلام حجاب النساء . والتمثيل لا يتم بدون مشاركة الجنس اللطيف . ولما لم يعهد التمثيل عند الجنس السامي لم تخرج العرب عن هدي جنسها والتمثيل ما عرف الا عند الجنس الآري فقط . ومن ذلك الفرس وهم آريون خلفوا للعرب كتاب الف ليلة وليلة وهو اختراع آري فيه شيء من التمثيل .

وكان العرب في الجاهلية والاسلام يرون من سقوط المروءة ان يمثل مجلس الامير او الوزير وان كان لا يخلو تمثيله من حكمة ، فكيف بمجلس صباية ومعظم التمثيل يدور عليها . لا جرم انهم قصروا في التمثيل ، ونفاسوا عن اقتباسه عن الامم الآرية ، وان عرف من حالهم انهم لم يأخذوا عن الامم الأخرى الا ما اشتدت حاجتهم اليه من أنواع العلوم ، أدجموه في حضارتهم ومزجوه باجزاء نفوسهم . واذ كان التمثيل لا ينطبق مع عادات العرب ولا عرف به مجتمعهم أعرضوا عنه ، وجاء الاسلام موافقاً لمصطلحهم وعاداتهم واخلاقهم في كثير من الاحوال البشرية .

بعد ان العصر الاخير لم يرض على الشام بتجلي الآداب الرفيعة فيه ، فقام فيها سنة ١٢٨٢ هـ وفي دمشق ايضاً رجل من ابناءها هو السيد احمد ابو خليل القباني من المبرزين في الموسيقى المشهود لهم بالاجادة فأنشأ داراً للتمثيل ، وبدأ يضع روايات تمثيلية وطنية ، من تأليفه ونظمه وتلحينه ، ويمثلها ففجئاً دهشة الاسماع والابصار ، لا نقل في الاجادة من حيث موضوعها وأزايؤها ونغائتها ومناظرها عن التمثيل الجميل في الغرب . واعتاض لاول مرة عن النساء بالمرء ، ولما انتقل الى مصر لنشر فن التمثيل العربي هناك ، عاد الى الطبعة واستخدم في كل دور من يصلح له من الجنسين ، ووجه الفخر في ابي خليل انه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية ، ولم يذهب الى الغرب لغرض اقتباسه ، بل قيل له ان في الغرب فناً هذه صورته فقلده ، وقيل انه شهد رواية واحدة مثلت أمامه ، ولما كانت عنده أهم ادوات التمثيل وهو الشعر والموسيقى والغناء ورأى انه لا ينقصه الا المظاهر والقوال ، أوجدها وأجاد في إيجادها ،

ولذلك كان ابو خليل مؤسس التمثيل العربي ، وناطقة العرب في الموسيقى والتمثيل ، ورواياته التي ألفها مازالت منذ زهاء خمسين سنة والى يوم الناس هذا ، موضع إعجاب الامة ، تمثل في دور التمثيل وتلذ الجمهور مثل رواية انيس الجليس وغيرها .

هذا وان سبق للسيد مارون النقاش في بيروت فعرب في سنة ١٨٤٨ من احدى اللغات الاوربية بعض الروايات التمثيلية ومثلها بالفعل . والابداع في التأليف والوضع ، لا في النقل والاحتذاء وان كان الناقل يعد صاحب فضل ايضاً .

ولما كان التمثيل كما قلنا عارضاً على مديننا رجع القهقري بعد ابي خليل . وظل الى يومنا هذا يمشي مشياً ضعيفاً بالنسبة لسائر مشخصاتنا ، فلم نرقم الى الآن جوقة تمثيل وطنية تبث في الامة روح الفضائل والآداب ، وتأخذ من الناس بعض أوقاتهم تصرفه فيما يفيدهم فيلبون بما يجلب السرور الى قلوبهم ، والنور الى عقولهم ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، ونتمهذب في مدرسة التمثيل اليومية عقول الكبار ، كما نتمهذب في الكليات عقول الصغار . فقد قال فولتير : ان المرء يتعلم بالتمثيل أحسن مما يعلمه اياه كتاب ضخيم .

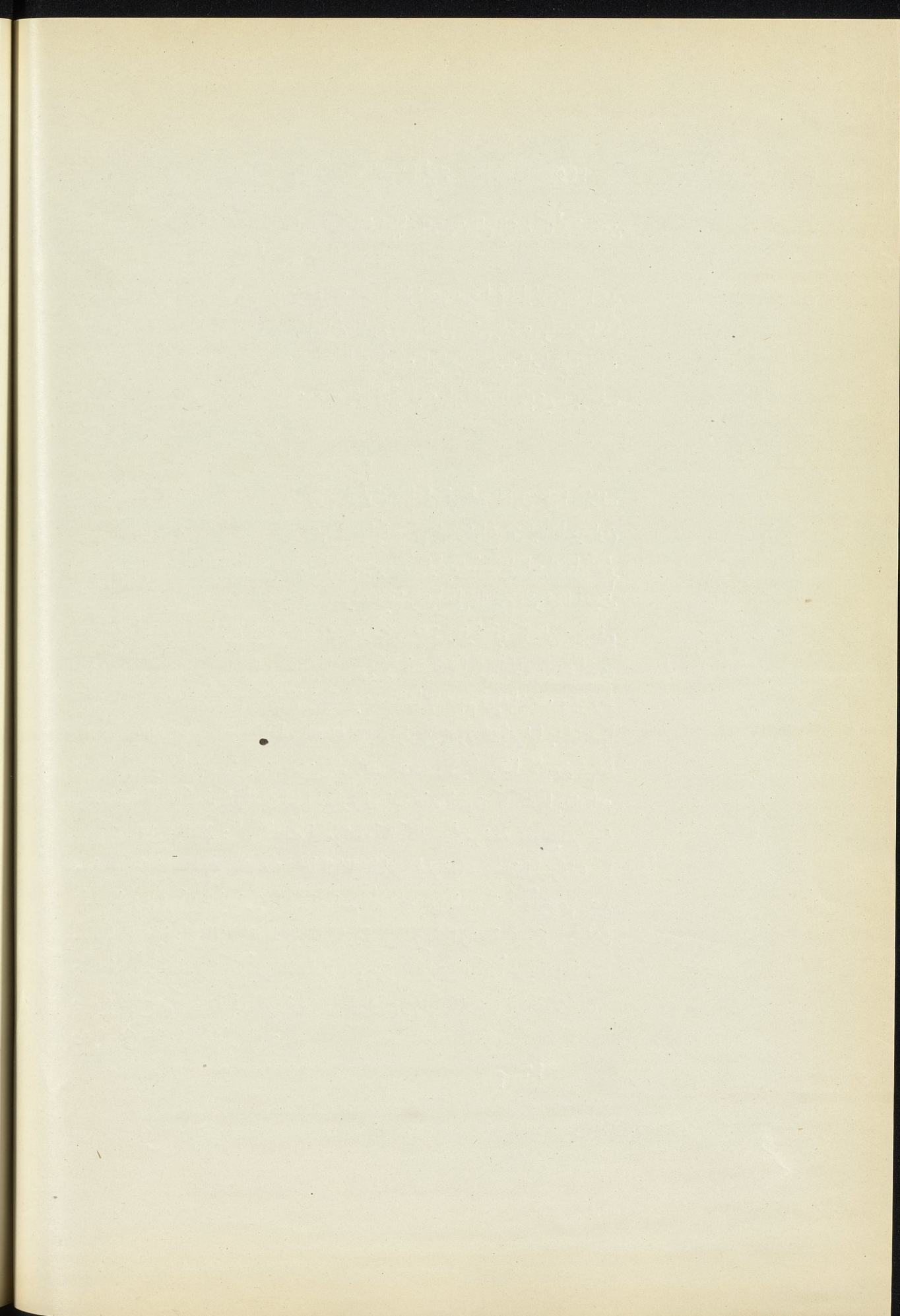
ولعل ابناء الشام اذا قويت فيهم أساليب الثقافة الحديثة ، ترنق فيهم سائر الفنون التي انحطت ولا تزال منحطة ، فتكون من العوامل في نهوضها الى المستوي اللائق بها في سلم الحضارة والهناء . والتمثيل الراقى أنفع لمجتمعنا من ذاك التمثيل الساذج الذي ما زال في اكثر مدن الشام مألوفاً للعامة ، ونعني به خيال الظل او الخيال الراقص المعروف اهله بالمخاييلية وعرف هذا الضرب من التمثيل عند الترك ، وان لم يكن من اختراعهم باسم (قره كوز) . والتمثيل اجدى على أبنائنا وبنائنا من القصصين اي الحكوية (الحكواتية) او (الادبائية) على لغة مصر الذين يلهون العامة بغرائب الوقائع في المقاهي وبيتون فيهم سخائف وخرافات .

ومن غريب شأن هذه الامة اننا رأينا كثيراً من نجباء ابنائها برعوا في التمثيل ، ومنهم من يعرف الأدب وما ينبغي له ، قد زهدوا في فنهم ، وأسبلوا ذيل الستر على نبوغهم فيه ، شأن كثير من ارباب الصوت الرخيم والغرام بالموسيقى ، والضرب

على آلات الطرب المتعارفة ، يخافون ان يعرفوا بها ويعمدون الى النقية كأن من العار التلبس بهذه الفنون الجميلة .

ومن عرفنا منهم نور الدين حقي . حكمة المرادي . صالح الحيلاني . احمد عبيد . سليم عطاء الله . امين عطاء الله المعروف بكش كش بك . واشتهر ايضاً حمزة الاصيل . صالح شهبندر . حسن الساعاتي . ابراهيم المنجد . ابراهيم نقش . راغب السمسمية . جرجي نقش . درويش البنجائي . ابوالخير الغلابيني . يوسف مردم بك . خالد السمسمية .

مضى ترقي الفنون الجميلة } لا جرم ان ارتقاء الشام في هذه الفنون على اختلاف فروعها ، موقوف على ظهور نوابغ من ابنائنا يرحلون الى بلاد الغرب لنقلها والتشبع بأدابها ، ثم يعودون فيلجئون على احياء ما اندثر او كاد من هذه الصناعات النفيسة في القطر ، وينشرونها على النظام الغربي الحديث على صورة مقبولة ، واذا نشأت بعد ذلك مدرسة واحدة راقية في كل فن من هذه الفنون لا يقوم جيل ثانٍ بعد جيلنا هذا حتى يكون عند اهل البلاد العدد الذي يحتاجون اليه من الأعيان الذين لا غنية للمجتمع الشامي عنهم في إنهاضه . ويشترط في من يريدون الاختصاص في هذه الفنون ان يكونوا ممن يحبون ان يعرفوا بما اختصوا به ، او يسعوا طاقتهم لنشره ، ومن لا يجب صنعته ولا يفاخر بها لا يبرز فيها ، وعندئذ نعد شيئاً مذكوراً بين أم الحضارة في باب هذه الفنون كما كان اجدادنا . فقد قال الجاحظ : ان الضحك في موضعه كاللبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وانما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزوا ، وكدوا ليستريحوا ، وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الامور الى غاية المصلحة ، وقسط اجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الاعلان والنقية ، فأمر بالمداراة كما أمر بالمباداة ، وجوز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوغ المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جماماً للقلوب ، وراحة للابدان وعوناً على معاودة الاعمال اه .



الزراعة الشامية

—>000<—

العامر والغامر } حياة الشام بزراعته ثم بصناعته وتجارته ، والقروى
والبوادي أوسع بقعة وأوفر سكاناً من المدن والحواضر ،
ولانعلم مقدار سكان الشام في القرون التي سبقت الاسلام ولا في القرون التالية ، وقال
بعضهم ان سكان الشام عند دخول العرب كانوا ستة ملايين على وجه التخمين ، ولكن
الظاهر من مصانع أهلها وطرقهم القديمة التي كانت تربط البلاد كالشبكة وآثار
عمرانهم مثل حنايا بعض الجسور الكبرى ، وخرائب القصور الفخمة ، والد من التي
تشاهد الآن في أواسط الفلوات الخالية ، والعاديات والآثار الجملة ، يدل على ارتفاع
زراعتهم وكثرة ثروتهم ونفوسهم . فقد كانت حوران انبار الشام على عهد الرومان
لوفرة حبوبها ولا تزال هي والبلقاء على كثرة ما تعاقب عليهما من الأيدي الظالمة
الغاشمة في الاكثر ، معروفة بهذه الصفة وجودة حنطتهما التي لا مثيل لها ، وما يقال
عنها يقال عن جميع الأصقاع الشامية . ولا سيما ما كان بقرب المياه والاوودية
فانه عامر بطبيعته لا يحتاج الا لامن ونظام حتى يفيض لبناً وعسلاً .

ومغل حوران كسيل دافق يأتي من ارجاء جلق موجلا

ومما أقامه الرومان لحفظ زراعة البلقاء وحوران وما كان على سيف البادية من
مرج الغوطة وأداني جبل قلمون وتدمر فحلب فما وراءها مخافر مجهزة أحسن جهاز
لمنع البادية من التسلل الى ارجاء البلاد ، لان داء الغارات على الزروع والعيث في

العاصر من الأدواء القديمة جداً . واعتداء الرحالة من أهل الظعن ، على المقيمين من أهل الدساكر والمزارع ، النازلين في الدور والمسكن ، داء قديم عظيم على ما يظهر . وما اتخذ الروم من الغسانيين في الجنوب ، والننوخيين في الشمال عمالاً لهم الا ليقموا نائفاً هذا الغرض وبأمنوا بسلاطنتهم عيث البادية على بلاد الشام الجميلة .

وليست البادية التي تحد أكثر هذا القطر من الشرق كما قال الدكتور پوست بادية حقيقية لأنه يقع فيها بعض المطر في فصل الشتاء ، وينبت فيها عشب ترعاه المواشي ، وتسكنها قبائل شتى من العرب ، وتندرج هذه البادية الى جهة شمالي الشام في السهل المتسع الممتد من نواحي حلب الى ما بين النهرين ، وكان هذا السهل مسكوناً في قديم الزمان ولم تزل فيه آثار عظيمة تدل على كثرة الذين سكنوه ووفرة ثروتهم ، الا انه امسى الآن قليل السكان تجول فيه العرب والاكراد . وقد أكد الدكتور موسيل ان البلاد الواقعة في شرقي الأردن كانت قبل مئة وعشرين سنة عامرة بالسكان وهي اليوم تكاد تكون خالية لعيث البادية .

وأهل الوبر الذين يشتون منذ القديم بمواشيهم فيما وراء بادية الشام من الفلوات ، تشتد حاجتهم في الربيع الى ان يدخلوا المعمور ، فاذا حصدت الزروع يضطرون الى رعي انعامهم واغنامهم في ارض الحصيد . ومراعي دير الزور والجولان طلباً للماء والتماساً لبيع حاصلاتهم واستبضاع ما يلزمهم . واذا كانت ارض السقي أكثر من ارض العذي بالشام ، ومعظم الانهار لا يسنفاد من سقيها اليوم كما كانت الحال عند الأقدمين ، زاد اعتداء البادية على مهاجمة البلدان الحصبة .

قلة العناية بالانهار } نقول هذا وأهم أنهارنا الفرات وهو نهر يتاخمنا
من الشرق ، ولا نسفيد منه الا سنفادة المطلوبة

لأنه منخط عن مستوى ارضنا ، ولم يكن كذلك في الدهر السالف بما كان يتعمده به من السدود والسكرور التي كانت سبب غنى العراق ، وبالطبع غنى الأقاليم المتاخمة له من ارض الشام . ولا يسنفاد من الانهار التي تشق قلب البلاد الفائدة المطلوبة في الري . فالأردن مثلاً يشق بلاد فلسطين الا قليلاً ، والعاصي الذي يجري

من سفوح لبنان ماراً بجمص فأنطاكية حتى السويدية لا ينفع بها على ما كان الحال قديماً . فقد انتهى الينا من عمل القدماء سد قدس بالقرب من قرية قطينة بجوار ارض حمص ، وكان اعلى مما هو الآن بحيث يتأتى ان يسقي العاصي بواسطته وما اخترع له من النواعير ، جميع الارض العالية في وادي نهر المقلوب كما كانت العرب تسمي العاصي . ولا تزال الى الآن آثار السدود والقني في غور الفارعة بادية للعيان ، تدل على ان القدماء كانوا ينفعون من مياه نهر الأردن اكثر منا اليوم . ويقول صديقنا العلامة الامير شكيب أرسلان : ان الأراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران (جمع غور) انما تبقى من أودية جاربة من الجبال مثل سميل الزرقاء ، والسائل من جهة عجلون الى الغرب ، ومثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر الى الشرق ، ومثل ماء الفارعة النازل من الغرب الى الشرق ، ومثل عين السلطان التي تسقي جنات اريحا ، ومثل غور نمرين المنحدر من وادي شميب أسفل الصلت الى الغرب ، وماء حساب وغيرها من المياه ، وهذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الأردن الذي أصبح عاطلاً من كل عمل اه .

وحالة الإرواء في اكثر الأنحاء البعيدة ما زالت على الفطرة القديمة فالقريب من الماء يروي ارضه او بستانه بانزربة او المدار كأهل الزور وجزيرة ابن عمر في أقصى الشام فان هذه الانحاء في وسط المياه كالفرات والخابور وغيرها من كبار الأنهار وقلمنا تسفيد منه ، وقد خربت السدود القديمة ولم يعمل غيرها ، ذلك لان مجرى الأنهار الكبيرة ولا سيما الفرات قد يتحول عن مجراه في معظم السنين لانه خالٍ من الجوانب المتينة المحددة ، وهو يسير في ارض رخوة خبار فاذا فاض طغى على الارض اللينة .

وكان نهر بردى ونهر الأعوج يستفاد منها اكثر من جميع الأنهار التي تعطش الاراضي التي حفافها ، وهي من مجراه على قيد أشبار ، او يترك للبحر يصب فيه على هينته وهواه ، كنهري عفرين والأسود وقاديشا والأولي والازرق والعوجا وبرايم والمقطع والقاسمية وغيرها . وكم في البلاد من آثار القنوات المعجبة مثل قناة بسيمة في سنير وربما كان ماء عين الفيحة يسيل منها الى بلد بعيد كما هو المأثور ومثل قناة

متمين التي جرها المأمون الى معسكره في اعلى قاسيون بدمشق . وكم من قنساء طمت
بمهاون الفلاح فهلك معارضه عطشاً ، لان الحكومات قلما التفقت في الادوار الاخيرة
الى العناية بامرها ، والاعمال المشتركة قلما تجد لها نصيراً في هذه الارض ، ولو كانت
مياه الشفة فكيف بمياه الري ري الارض .

خراب الزراعة } ويمكن ان يقال ان البلاد خربت بنزول الفاتحين
والمزارع } والمخربين والعاهاط الطبيعية ، ثم من فساد النظام في
الدولتين الجر كسية والتركية في القرون الوسطى الى هذا العهد ، وقد كانت قروناً
مسرحة ظلم ، وميدان حروب وغارات ، يهلك الفلاح فيها كما يهلك النمل تحت
الاقدام ، قبل ان يهلك ابن المدن الذي له من اجتماعه باخيه ، واعتصامه وراء
حصنه وسوره بعض الوقاية ، وكانت القرى التي على جوانب الطرق تخرب قبل
غيرها ، وعلى نسبة قرب القرية من المدينة او من الطرق الموصلة بين البلاد
او طرق الغزاة والفاحين ، كان الخراب اليها أسرع من الماء الى الحدور . وكان
من دلائل القوة في تلك الأعصر ان تخرب القرى وتلقى النار فيها اذا غضب الملك
او الامير او المقدم او صاحب الاقطاع على ذلك الاقليم او تلك القرية . وكان قطع
الأشجار من أبلغ أنواع النكابة في الخضم ولذلك أمثلة كثيرة في القديم والحديث
الى زمن كتابة هذا الفصل . وما أصيبت به الأشجار في غوطة دمشق خلال الثورة
الشامية الاخيرة مثال مما تعمله الحكومات حتى باسم الحضارة . فسكأن طبائع
الحكومات واحدة يوم تغضب من شعب او تريد ان تكره البناء على النزول
على إرادتها .

وأهم ما أثر في حالة الفلاح نظام الحكومات ، لان اصول الإدارة لم تؤسس
في هذه البلاد على ما يجب ، وكانت المظالم الأرضية والمفاسد البشرية أشد تأثيراً
في اهل الفلح والكرث والقائمين على تربية الماشية والضرع ، من الآفات السماوية ،
كالزلازل والابوثة والقحط من قلة أمطار او فيضان او انتشار جراد او ديدان
وجرد وفيران .

هذه العوامل هي جماع الخراب الذي أصاب العامر فدمر القرى والاقاليم ، ومنها ما لا تزال دمنه ومياهه شاهدة على ماضيه الزاهر ، فقد ذكر خليل الظاهري من اهل المئة التاسعة للهجرة انه كان على عهده نيف والف قرية ومدن صغار في حوران ، وانه كان في اقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية وبه مدن صغار وبلدان تشابه المدن ، وانه كان في وادي التيم وما اليه ثلاثمائة وستون قرية . واذا احصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لا تجدها في حوران تزيد على اربعمائة قرية ومنها الخرب وفي الغوطة على خمسين وفي وادي التيم على ثلاثين الى اربعين . وهكذا سائر بلاد الشام . فان حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر ، ومنها ما ظل خراباً الى النصف الاخير من القرن الماضي لان معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم ، وكان من جندها ولا سيما الانكشارية في آخر عهدهم أدوات تخريب لم يشهد الناس أقطع منها ، لذلك خربت حتى الضواحي والأرباض من المدن الحافلة أمثال حلب ودمشق وحماة وحمص وما شاكلها . وكانت رجل الانكشاري بل الجندي التركي على الإطلاق حيث دبت يدب الدمار والبوار .

ولذلك لا نكاد نرى عمراناً الا على طول الطرق العامة الكبرى وما اليها من اليمين والشمال ، ونشاهد المدينين العظيمنتين حلب ودمشق مثلاً ينقطع في الحال او على ساعات قليلة عمرانها الذي كان وارف الظلال الى القاصية . وكل هذا بفعل البادية وفعل الجيوش المدمرة .

عوامل الخراب } ولولا ذلك الظلم المتسلسل قروناً في أعقاب الفلاحين
المساكين ، وأسواط النعمة التي انتهت على رقابهم
الجيل بعد الجيل ، لما تيسر اليوم لاحد ان يملك المزرعة والمزرعتين بل ربما العشر
والعشرين قرية ، بل ان بعض الأسر الحديثة تملك الخمسين والثمانين ، والانسان
قد تكفيه المئة دونم او جريب اذا أحسن تعهدها ، فكيف له ان يعمر الوفاً من
الأفدنة ويتسع وقته وماله لحمايتها وترقيتها ؟

نقول حمايتها لان كثيراً من القرى تنازل عنها ملاكها لارباب النفوذ ليجمهم من ظلم الحكام والمرابين ، وأخذوا ثمنها بضع عبات وغلابين ، أو قفة من البن او رطلاً من الدخان او اقة من الخلاء المعروفة بالبقلاوة ، ومن الاراضي ما توسل اهلها الى ارباب المكائنة في البلاد ان يسجلوها في دائرة التملك باسمائهم لما شرعت الدولة العثمانية ١٨٨٢ م بتسجيل الاملاك على اصحابها ، وذلك فراراً من ظلم عمال تلك الحكومة ومن وضع الرسم المعتاد ، ومنهم من تخلوا للأعيان عن اراض عانوا مع آباءهم زراعتها زمنًا طويلاً تخلصاً من تسجيل نفوسهم لما حررت النفوس ، ومن اهل القرى من خرجوا عن ملك اراضيهم لانه وجد فيها قتيل ، وكانت العادة ولا تزال الى اليوم ان يلزم اهل الارض بدية من يقتل فيها او نفرض غرامة ثقيلة عليهم ، فمنهم من تركوا ارضهم مخافة ان يلزموا بمال لا يقبل لهم بأدائه . ومن القرى ما خرج عن ملك اهله كما وقع لأهل مرج ابن عامر في القرن الماضي لما عجزوا عن دفع الأموال الأميرية فباعته الحكومة التركية بالثمن الجنس صفقة واحدة لرجل واحد مقابل رشوة قبضها الوالي .

ومن المرابين من أخذوا قرى كثيرة في الديار الشامية لانهم كانوا لا يشفقون على الفلاح باشتطاطهم عليه باخذ الربا الفاحش . وما زلنا في كل دور نرى الفلاح في اكثر أقاليم الشام يقترض المئة بمئة وثلاثين وأحياناً بمئة وخمسين من الخريف الى البيدر فاذا أضيف الى ذلك ظلم الأعراس^(١) وتعدد الضرائب على الفلاح حتى كاد يهلك بسببها لا نستعظم اذا رأينا خراباً ، بل نقول لماذا نرى هذه الرشاشة من العمران قرب المدن والثغور وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات .

ولقد كانت الأوقاف من جملة ما أضر الزراعة ذلك لان الاراضي الموقوفة تجمد على حالة واحدة في أشجارها وغللاتها ومجاريها وسكورها وزرائبها وكل جسم لا ينمو بصيبه

(١) جربت الحكومة في الشام في سنة (١٩٢٥ م) طريقة التبريع فجمعت مقدار اعشار سنين قبل الحرب وسننين بعدها وأخذت ربعها وأنشأت نفاضي مالا مقطوعاً . والغت بذلك الاعشار فألغت بالغائه نظاماً سيئاً من نظم القرون الوسطى .

الفناء . وعلى كثرة ما وقف المسلمون على أعمال البر وغيرها لا يمضي القرن والقرنان حتى يعود الوقف ملكاً صرفاً ، ولولا ذلك لكثير الخراب اكثر مما هو الآن في القرى والحدائق .

لودام حكم ابراهيم باشا المصري في القرن الماضي الى اليوم لا أصبحت بلادنا عامرة كمصر لانه نشط الزراعة وامر بنشر دود الحري وودود القرمز وعلم الاهالي كيفية قطف الزيتون بالايدي حتى صار شجره يعطي ثمرأ في كل سنة فاستعادت بعمله اكثر القرى عمرانها القديم .

كتب قنصل بريطانيا في دمشق سنة ١٨٥٩ م بمناسبة زيادة الضرائب على الاهلين وتوكيل الجنود بجبايتها بالعنف : ان الحكومة تأخذ مال الشعب ظلماً وعنفاً ولا تحميهم من البدو الذين يزدادون جرأة واعتداءً ، وعملها قائم باحتياز أموال الفلاحين التمساء لما فيه مصلحتها ، على حين لا تأتي بدليل على إدراكها وجوب حماية الذين يجب عليهم ان يدفعوا الاموال اللازمة لتحسين حال الولاية ، وسد حاجات الحكومة المركزية ، وانما تهمل الاحتياط للامر . وقال ايضاً : « ان جو الشام صاف وهواءها جيد وارضها خصبة حسنة الري ففي مكنتها ان تصبر على هذه الحالة اكثر من غيرها من الولايات الاقل خصباً ولكن لا بد في آخر الامر من ان تفرغ هذه الموارد » .

آفة الهجرة على الزراعة } ومما أصيبت به الزراعة من الآفات آفة دونها الآفات
كلها ، بدأت تدب في جسمها او اخر القرن الماضي

بركوب الفلاحين غوارب الاغتراب عن الوطن في التماس ذرائع الرزق وطرق الغنى . وذلك منذ دهش الناس لأرباح المهاجرة الأول من الشاميين الى اميركا . ارباح لم يكن لابن هذه الارض عهد بها وكان ثلاثة وعشرون قيراطاً من اربعة وعشرين قيراطاً منهم يعيش ، ولا سيما في الارض القاحلة ، عيش القلة الشديدة . فلم يلبث الناس في الجبال ان حذوا حذو اولئك المهاجرين ، فأخذ الناس ينزحون الى اميركا

الجنوبية والشمالية والى اوستراليا وجنوبي افريقية وغيرها من البلاد المفتحة حديثاً .
 حيث يسهل سجنى المائل وتزيد اجرة العامل على نفقته كثيراً .
 وهاجر الوف ايضاً الى مصر والسودان عقبى الاحتلال الانكليزي سنة ١٨٨٢ م
 فخرمت الشام في اربعين سنة نحو سبعمائة الف يد عاملة ، كان ثلثهم يستوطن في
 البلاد التي نزلها تمسك بتلابيبه لكثرة علاقته وطيب العيش في البلاد التي نزلها ،
 والثلث الثاني يهلك ، والثلث الثالث يرجع . ولم تلبث الهجرة ان عمت جميع السكان ،
 واقتصرت على ابناء الجبال اولاً ثم تناولت بعد ذلك ابن السهول ، وانتقل الغرام
 بها من ابن القرية الى ابن المدينة . ومن جملة ما زاد في عدد المهاجرين سهولة
 السفر وتأليف شركات للتسفير تسلف المهاجر اجرة طريقه ونفقته الاولى ريثما يجد
 عملاً حيث ينزل .

وهذه الهجرة من اعظم ما اخر حال الزراعة في هذا القطر ، فأصبحت بضربة
 مهمة اهمها ارتفاع اجور العملة فيها لان من عاد منهم يحمل مالاً ولو قليلاً استنكف
 عن العمل في الزراعة كما كان هو وابوه ، ومنهم من بنوا القصور الغنماء والدور القوراء
 في مزارعهم ، واخذوا ينعمون بطيب العيش ، ويبحثون في سمرهم في امور ما كانت
 لهم ولا كانوا لها ، ويلهون ويلعبون على الطرق التي اقتبسوها في مهاجرهم . وقد كانت
 جبال لبنان وعامل والعلوبين وقلمون والخليل والسامرة من اشد الاصقاع التي تأزت
 بالهجرة فتأخرت زراعتها فوق تأخرها . ولقلة اليد العاملة رأينا بعضهم في البقاع
 يقرن الى ثوره امرأته تعمل مع فدانها ، ورأينا الحوارة يستكثرون من الازواج
 يتخذونهن اجيرات في اعمال الحقل وعلف الدواب واستخراج الدر وعمل السمن
 والجنين . ولئن دخلت البلاد اموال طائلة بسبب الهجرة فثروةامة لانعد بكثرة نقدها
 بل بكثرة ما يعمل ابناؤها في اساليب الرزق المختلفة وقل ان انفق مال يذكر على
 تحسين الزراعة واقامة الشركات النافعة . ونحن لم نبرح ننشد مع حافظ ابراهيم
 ايشكي الفقر غاديننا ورائحنا ونحن نمشي على ارض من الذهب

خصب الاراضي و، المجتمها } وما برحت الشام بضرب المثل بزكاء منابتها ،
وما يزرع فيها } واعتدال أهويتها ، وجودة مناخها ،
وكثرة مياهها ، على كثرة حزونها وجبالها ، وان بلاداً تعطي حبتها في بعض الجهات
مئة حبة ، كأرض الرحبة بالقرب من جبال الصفا ، لتعد من أخصب بقاع الارض ،
وذلك لان أرضها مستريحة منذ العصور المتطاولة . فاذا كان بنو اسرائيل قد جعلوا
عادة لهم ان يريجوا أرضهم مرة كل سبع سنين ، فاننا قد أرخناها منذ قرون ،
ولذلك لا نضن علينا بافلاذ كبدها وخيرات سطحها كما حرثناها وزرعناها .

وما زالت زراعتها كما عرفها الأجداد بل كما عرفها الانسان منذ آلاف من
السنين ، ليس فيها شيء من العلم الا التجارب ، ولا من النغير الا ما تضطر اليه الاحوال
وتهدى اليه الفطرة ، ولذلك يعوزها كثير مما يوجد في غيرها من النباتات والأشجار
قال الرحالة فولني في كلامه على مناخ الشام : ان الارز يوجد زرعه على شواطئ بحيرة
الحولة ، والنيلة نبت بلا عمل على ضفاف نهر الأردن في يديسان وهي لا تحتاج
الا الى قليل من العناية حتى تستوفي الشروط المطلوبة . وبعد ان أفاض القول على
مدن الشام قال : ان دمشق تفاخر وحق لها الفخر بان فيها كل الثمار التي تحصل في
ولايات فرنسا . ثم ذكر ان ابن الذي يزرع في تهامة اليمن نلائم زراعته ارض الشام ،
ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت النخل كما ينبت الصنوبر والسرو .

وقال «هوار» : لأن كان القطن زرع في اوربا فان ضواحي هاتين المدينتين
(دمشق وحلب) كانت خاصة بزراعة شجرة القطن ، وهذه الحقول البديعة توجب
حيرة السياح ، والقطن الصغير الطول ينبت في ضواحي دمشق وكانت عكا واللاذقية
وقبرس تعطي صنفاً ثالثاً من القطن ، وكانت بلاد نابلس الى عهد قريب تصدر من
القطن ما قيمته مئات الالوف من الدينارين .

وقال الدكتور پوست : تقسم فلسطين باعتبار الفلاحة الى اربعة أقسام :
السواحل كساحل غزة ويافا وشارون وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة
ووادي الأردن (العربة) وهي تناسب مزروعات المنطقة الحارة والجبال وفيها
أودية كثيرة مخصبة كمرج ابن عامر «يزرعيل» والودية المجاورة كالناصره ونابلس

والخليل «حبرون» وهي تناسب مزروعات المنطقة الممتدلة، والسهول الداخلية وهي تناسب في الاكثر الحنطة والشعير والسمسم . قال : ولا شك بان هذه البلاد كانت ذات أشجار برية وبستانية اكثر مما هي الآن . وكان التراب على جوانب الجبال اكثر مما هو اليوم، وكذلك العيون فانها كانت اكثر عدداً وماءً فضلاً عن ان مياه الشتاء كانت تجمع في مساقى وصهاريج . قال ورن : ان فلسطين «شرقي الأردن وغربيه» كافية لسكنى خمسة عشر مليوناً من الجنس البشري اذا اعثني بها الاعناء الواجب . قلنا اذا كانت الشام على هذه الصفة من الخصب والسعة فكيف لا تسمع العشرين مليوناً من الناس وكل اقليم من اقليمها كاللقاء او الجولان مثلاً بعد الصالح من تربته اكثر من مملكة من الممالك الصغرى في اوربا، ولكن السر بالسكان لا بالمكان .

* * *

تقسيم السهول } قسم صاحب كتاب الزراعة العملية الحديثة أقاليم الشام
والجبال } الزراعية الى خمسة أقاليم يتركب كل منها من عدة مناطق تكاد تكون واحدة في درجة الارتفاع عن سطح البحر وهي : (١) أقاليم الغور اي شواطئ الأردن وهو يمتد من بحيرة الحولة شمالاً الى بحيرة لوط جنوباً اي اراضي جنوب بحيرة الحولة وارااضي البطيخة والغوير وسمخ والقسم الشرقي من بحيرة طبرية وارااضي جسر الجمامع وبيسان وجنوب بيسان وغور الصلت ومنطقة اريحا وشواطئ بحيرة لوط ومن جملة نباتات هذا الاقليم البردي والاسل والقصب الفارسي والاكاسيا الشوكي والسوسن وزنبق الماء على شواطئ بحيرة الحولة والسدر الكثير في الاراضي المجاورة لبحيرة طبرية كما راضي الغوير والمجدل والبطيخة وغيرها والنار والطرفاء والقصب وأنواع النخيل وسفط السيل والرتم والبان والصلة والغرند والعوسج والعشر وغيرها على شواطئ الأردن في منطقة بيسان وشرق الشريعة والصلت واريحا .

(٢) اقليم السواحل التي تمتد من شبه جزيرة العقبة الى خليج الاسكندرونة ويشتمل على السهول الساحلية من غزة ويافا وحيفا وعكا وصور وبيروت وطرابلس

واللاذقية والاسكندرونة ويدخل فيه مرج ابن عامر واراخي جنين وشمال بحيرة الحولة ويوجد فيه الليمون والبرتقال والموز والرمان . ومن جملة نباتات هذا الاقليم الطبيعية البقان والصنوبر البحري والقندول والوزال والطرفاء وأنواع البرسيم والشقائق والدفلى والأقحوان والقصب الفارسي وأنواع مختلفة من البلوط .

(٣) إقليم السهول وتدخل في هذا الاقليم سهول الكرك والبلقاء وحوران ووادي العجم والبقاع والجولان والغوطة والسهول المرتفعة في فلسطين وحمص وحماة وحلب وما شاكلها من السهول المنقاربة في اقليمها وتوجد في هذا الاقليم الاشجار المثمرة والخضر والتوت واللوز في الاراضي البعلية والحور والصفصاف والداب في شواطئ الانهار .

(٤) إقليم الجبال ويدخل فيه جبال الكرك والصلت وعجلون وقلون وجبل الشيخ ولبنان ولبنان الشرقي والنصيرية والأقرع ويجرد فيه الزيتون والكرم والتين واللوز والصنوبر والسرو والفسطق البري والميس والحبوب وكثير من الاشجار المثمرة وفيه من النباتات الطبيعية البطم والقيثوب والجنستا والخرنوب والزعرور والعليق والشنداب والدردار والزيتون والسنديان والدلب والصنوبر والديشار والآس والسرخس وفي أقسام الجبال المرتفعة بعض أنواع البلوط ثم الارز والدفنان .

(٥) إقليم الصحراء وتتناول ما نسميه بادية الشام اي الاراضي الواقعة شرق المعمور من الشام نبت فيه بعض النباتات والاعشاب منها ما يزول في الربيع ومنها ما يبقى في الصيف . وليس في هذا الاقليم سكان الا البدو الضاربون في ارجائه .

من الذين أدخلوا } ادخل ثلاثة اصناف من النابض في الشام روحاً
الطرق الجديدة } جديداً في زراعتها ، ومنهم مهاجرو قافقاسيا
وغيرهم ممن سكنوا قرى كثيرة في عمل حلب ودمشق وعمان ، فان هؤلاء ادخلوا
اصول الزراعة على طريقتهم في بلادهم وهي ارقى من طريقة البلاد التي نزلوها في
حمص والبلقاء والجولان مثلاً . ثم ان الالمان الذين أقاموا لهم مستعمرات في حيفا
وبافا منذ ١٨٦٨ م قد كانوا امثال الفلاح الشيط ، وكان علي فلاحنا المجاور لهم ان

يتعلم منهم. ويعتبر بما يأخذه الفلاح الجرمانى من وافر الغلات ويطرس على آثاره في تنظيم داره واصطبله وحديقته ومزرعته وتعليم اولاده وغير ذلك مما يعود عليه بالنفع والراحة . وأهم من أدخلوا التجدد في الزراعة في ربوع الشام الصهيونيون من مهاجرة رومانيا وروسيا وبولونيا وغيرهم فانهم والحق يقال قد أنشأوا باموال روتشلد وبركم وفيرو وفيثيفيوري وغيرهم من أغنياء الاسرائيليين الذين ابتاعوا الاراضي في فلسطين لانباء نحتهم وأمدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها ، مزارع حرية بان تكون نموذجات الحقول ، وقد قامت الجمعيات الصهيونية مثل الجمعيات الصهيونية اليهودية وجمعيات ايكا وفاعوليم والاليانس وغيرها باعمال مهمة انشأوا فيها دينهم من سقطتهم وانشأوا لهم قرى كسارونا وزمارين والخضيرة وملبس والجاغونة والشجرة وغيرها هي كالقرى الاوربية بانقاف أعمالها الزراعية . وتبلغ مستعمرات الصهيونيين اربعين مستعمرة منتشرة في فلسطين وبعض عمل الشام . ومن ساعد على إنجاح الزراعة بعض مهاجري اللبنانيين الشرقي والغربي فان منهم من وضع مما اقتصد من المال أمواله في الزراعة وأدخل طريقة الاميركان في أرضه .

* * *

درس الزراعة } وكان من اثر مدرسة الزراعة العملية في نيتر قرب يافا التي أسست منذ نحو ثلاثين سنة وكان يتخرج فيها في السنة على الاقل عشرون تليداً يستطيع تطبيق عمله الزراعي على العمل — ان نشرت اصول الزراعة الحديثة بين ابناء اسرائيل ، وغدا فيهم الكفاة للقيام على الحرث والتسميد والبذر والغرس والتعمد والتقليم والتطعيم ، واصبحت مستعمراتهم تخرج اصنافاً جيدة من الخمور واللوز وغيرها لا تخرجها القرى المجاورة لها .

ومن مدارس الزراعة التي نفعت بعض أبناء سورية وفلسطين مدرسة اللاطرون بين يافا والقدس التي أنشأها الآباء البيض . ومدرسة تعنايل بين بيروت ودمشق التي أنشأها الآباء اليسوعيون . وقد انشأت الحكومة السابقة مدرسة زراعية في سلمية لكنها ضعيفة في تلقين العمليات والنظريات ، او يرحى اصلاحها ونقلها الى بيئة أنسب من بيئتها الحاضرة تكون أشد ملاءمة للزراعة بجوها وتربتها .

ومن الغريب ان الزراعة وهي تكاد تكون في هذا القطر المحبوب مورد عيشه الاول لم يدرسها الى اليوم سوى أفراد قلائل ، ولا أذكر سوى بضعة شبان ممن يملك أبؤهم مزارع واسعة تعلموا فن الزراعة على الاصول في مدارس فرنسا وانكلترا وتونس ومصر والاستانة ، وجاءوا فعنوا بتطبيق ما تعلموه وكان الواجب ان يكون لكل مدرسة صغرى مهندس زراعي ، يعلمها من علمه ويمدها بتجاربه ويدير شؤونها كما يدير اهل البصر في الغرب مزارعهم .

* * *

نقص كبير } الى اليوم لم تدخل على ما يجب أرضنا الأدوات الزراعية
الحديثة التي تقلل عمل الأيدي وتزيد النماء كآلة الحرث

والبذر والدرس والتذرية دع غيرها ، وما ابقاه لنا بعض علماء العرب من الكتب الزراعية التي طبع بعضها بلغتنا في اوربا دلائل كبيرة على ترقى هذا الفن ايام لم يكن في الارض من يحسنه . سبق العرب الغرب في كل شيء وسبقهم هو اليوم وبالاسف في كل شيء ، والدهر دول يوم لك ويوم عليك .

سبق الأجداد في كل شيء وتأخر الأحفاد في كل شيء ، والفلاحة التي هي أشرف الأعمال وضيفة في نظر كثيرين حتى ان بعضهم قال ، وقد رأى السكة في دار ما دخلت هذه السكة دار قوم الا ذلوا ولو قال ما خلت هذه السكة من دار قوم الا ذلوا لكان أقرب الى الصواب . شعاع الغرب اليوم « الارض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » واذا كانت الفلاحة عندنا ينظر اليها نظر احتقار فمن باب اولى ان ينظر الى الفلاح كذلك وهو خادم الوطن الحقيقي . واذا كان الفلاح كالسلطان في مزرعته عند الامم الممدنة ، فهو هنا عبد رقيق لصاحب الارض وللحكومة والمرايبي .

وبينا ترى ارباب المزارع في البلاد الراقية ومصر منها يعنون براحة فلاحهم وتعليم ابنائهم وبناتهم ، وتوفير قسطهم من الصحة والهناء ، ويجعل لهم حتى في قراهم مدارس ومعابد ودور تمثيل وصور متحركة للتسلية ، نجد اكثر المزارعين هنا يجردون في ان يبقوا فلاحهم جهلاء أغبياء حتى يخضعوا لهم بزعمهم ابد الدهر خضوعاً اعمى ،

وقلّ ان سمعت بان مزارعاً أنشأ لفلاحيه عندنا مدرسة بسيطة او مسجداً واتاهم بخطيب يعلمهم او بطبيب يطبهم ، ولذلك تجد القرى التي يملكها أفراد صفرًا من هذه الوجهة لان صاحب القرية لا يهتم الا لتكثير الدخل السنوي وارماق فلاحه ، وابن البادية والقائمون على الزرع والضرع أقل الامة ويا للأسف حظًا من التفكير بسعادتهم ، كأنهم ليسوا مادة ثروة البلاد ، اذا اختل نظامهم تطرق الخلل الى سائر مذاهب المعاش ، ومقومات الحضارة ومظاهر الرخاء والهناء .

ولا يزال يدور على الألسن في وصف الفلاحين انهم « غير الوجوه اذا لم يُظلموا ظلموا » ولكن تثقيف أودهم بالتربة قلما يخطر ببال ، وقطع الجرثومة من أساسها لا نراه دواءً عاجلاً .

* * *

التحسين الاخير
 ا على ان من الواجب ان يقال ايضاً انه استنفادت كثير
 من قرى الغوطة والمرجين ووادي العجم والبقاع
 وبمليك والحولة وجبال عامل وعكار والحصن ونابلس وعكا والخليل وغزة وسهول
 حمص وحماة وحلب وانطاكية واسكندرونة عمراناً منذستين سنة بفضل بعض طبقة
 الاعيان ، لانهم استطاعوا ان يجموها من عيث البادية وعبث الظلمة من العمال ،
 وان يمدوها بالمال وقت العسرة . فغرموا على تحسينها أموالاً ، وصرفوا قواهم الى
 الانتفاع بها ما امكن . وكان العربان يداهمون حتى القرى القريبة جداً من الحواضر ،
 ويطلبون منها « الخوة او الخاوة » وهي مبلغ من المال يتقاضونه من الفلاحين البائسين
 يؤديونه لصعايك البدو صاغرين ، واذا استنكفوا عن أداء ما يطلب منهم محتجين
 بضيق ذات اليد او رداءة الموسم — نهبوا دورهم وحرقوا عر وضهم وغلاتهم واعتدوا
 على أرواحهم . وقد كانت معظم الأرياف مأوى الاشقياء وعصابات قطاع الطرق ،
 فما كان الفلاح يجسر ان ينقل من قرية الى أخرى او يحمل محاصيله الى المدن
 ولا ان يعمل في حقله البعيد قليلاً عن القرية او المزرعة .

فلما طبق قانون الولايات سنة ١٢٨١ هـ ثم أنشئت المحاكم النظامية كان من اثر
 ذلك القضاء على عصابات كثيرة من ارباب الدعارة ، وقتل الشقاوة في البلاد

فانصرف الفلاحون كلهم الى العمل ، لان الاسعار بدت بالارتفاع ، فبعد ان كان الحوراني ينقل غلاته على الجمال الى بيروت او عكا فلا يتحصل منها غير اجرة النقل ، أصبح الفلاح يحمل غلاته الى المواشي البحرية ولا سيما غزوة ويافا وعكا وبيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة فتأتيه بارباح طائلة ، لان الحبوب كالثار أصبحت تسافر في البهار و يدفع في ثمنها النصار .

وانتبه الفلاح لحاله بكثرة اختلاطه بابن المدن فعرف بؤسه فلم يكن على ما كان منذ خمسين سنة مملوكاً لجهله الطبيعي ولظالميه من المرابين وغيرهم من ادوات التخريب . فان تأسيس المصارف الزراعية وان كانت قليلة رؤوس الاموال ويجب ان يكون فيها التسهيل كثيراً ، قد انزلت معدل الربا الى ثمانية في المئة وخفف من غلواء المرابين والصارفة . ولوزيد في ترقية المصارف الزراعية وأنشئت مصارف عقارية تقرض ارباب المقارات ايضاً بفائض معتدل لزادت الفائدة المطلوبة للزراعة .

ولقد صادف ان قلت آفات الزراعة في العهد الأخير ، فأصبحت الاوبئة في البشر والبقر لا تفعل فعلها الشديد كما كانت في الأديوار السالفة ، وردمت بعض المستنقعات الصغيرة التي كانت بجوار بعض القرى ، فتحسنت الصحة بعض الشيء ، وأصبح الفلاح يدرك فائدة التطب ، وان اعوزه الطبيب على الاغلب ، فجدت الصحة بعض الشيء ، وزادت النفوس زيادة محسوسة وربما زادت عما كانت عليه منذ خمسين سنة خمسة أضعاف . وهذه الزيادة أفادت الزراعة ايضاً . ولم تصب بعض الاصقاع الزراعية بالضعف الا مدة الحرب الاخيرة وقد كلب عمال الترك فاستلبوا من الفلاح ابنه وبقره وغنمه وخيله وحميره وبناره وحطبه وقطنه وصوفه وقشره ، ولو طالت الحرب سنة أخرى لحصد الوباء البقري الأبقار من اكثر النحاء الشام لان ما بقي سالماً منها كانت الحكومة تأخذه للنقل او للذبح فتعطل بعضهم عن الحرث ، ولكن من نجوا من هذه الغوائل ولو قليلاً استفادوا من ارتفاع الاسعار ارباحاً طائلة فوفوا ديونهم وخرجوا وقد أغنتهم الحرب ولم تفقرهم .

وما زلت اعتمد ان أصحاب الحوانيت مقصرون جداً في تعليم الفلاح وتحسين حالته المعاشية والمنزلية والصحية ، حتى كاد يصبح بطول الزمن شقيق البهائم لا يفرق

عنها الا انه ناطق ، وهذا النقص يحمل عليهم وعلى الحكومة . فقد تجتاز الى اليوم القرية والقريتين في البلاد البعيدة ولا تجد رجلين او ثلاثة من اهلها يقرؤون ويكتبون على ما يجب فكيف لم ان يعرفوا ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات . ولا يستقيم للزراعة حال فيما أرى الا اذا علمت كل أسرة يأتيها رزقها من الزراعة احد أبنائها هذا الفن الجليل ، فانه يداوي هذه العلة بل العلل ، ولا تمضي بضع سنين حتى تدخل الشام في طور الأقطار الزراعية الراقية ، وعندها ننضع الثروة مرتين او ثلاثاً ، وينقطع دابر الهجرة ويعمر الغامر كما يزيد عمران العامر . ويعتقد الناس ان العز والغني معقود بالارض ، وان الشرف يستمد من عمله الحر الحلال .

* * *

عناية الاقدمين } ان ما انتهى اليها من الكلام القليل على الزراعة
بالزراعة } الشامية لا يشفي غلة الباحثين اليوم ، لانه يحمل
يحتاج الى تفصيل كثير . واذا عرضنا له هنا فللاستئناس به في تاريخ الزراعة في
الجملة . فقد علمنا ان الاسرائيليين كانوا يريجون الارض سبع سنين ثم يزرعونها
فتأتي غلاتهم مخصبة نامية . وعلمنا ان النبطيين وهم العرب الرحل في أرجاء البتراء
في الجنوب كان من المحظور عليهم ان يزرعوا الحنطة ويغرسوا الاشجار المثمرة وبنوا
البيوت اذ كانوا يعتبرون ان الاحتفاظ بهذه الخيرات يحتاج الى ان يفادي المرء
بحرته . وعرفنا ان الفينيقيين كانوا لا يُعنون بالزراعة عنايتهم بالتجارة فكانوا
يجلبون من داخل البلاد ومن السواحل القريبة منهم ما يلزمهم في غذائهم . حتى اذا
جاء العرب وأبدوا ما أبدوا من حب التحضر كان قانونهم من أحياء أرضاً مواتاً فهي
له وأطرد ذلك منذ الفتح . واغتبط العرب بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع
بعد تحولة الحجاز وبواديه المحرقة حتى قال زياد بن حنظلة في فتح عمر مدينة ايليا
من قصيدة :

وألقت اليه الشام أفلاذ بطنها وعيشاً خصباً ما تعد ما كله
حتى اذا تربعت أمية في دست الخلافة وأخذ آلهم ورجلهم يقننون المزارع ،
ويبالغون في اتخاذ الغروس والزرع المثمرة المغلة ، جعلوا القرى مستغلات لم ونزلوها

وعُنوا بعمرانها ، ونافسوا في ذلك . فقد ذكر المنجي ان هشام بن عبد الملك اتخذ المستغلات الكبيرة في اكثر المدن التي في سلطانه ، والخانات والحوانيت والحجر والضياع والمزارع ، وهو اول من اتخذ الضياع لنفسه من العرب واشتق أنهاراً كثيرة غزيرة وهو الذي استخرج النهر الذي فوق الرقة وغرس غرساً كثيراً بالجزيرة والشامات فبلغت غلته اكثر من خراج مملكته .

ولطالما عني الخلفاء باب لا تبقى ارض شاغرة لا تسغل ، فقد أنزل معاوية قوماً من الفرس في طرابلس ، وكان الرشيد لما انتشر ذاك الطاعون الجارف في فلسطين على عهده وكان ربما اتى على جميع اهل البيت فتحرب ارضهم وتعطل — قد وكل بهذه الارضين من عمرها فكان يتألف الأكرة والمزارعين اليها فصارت ضياعاً للخلافة .

وما زالت العناية بتعهد الارض متوفرة حتى اغتني العرب الذين استغلوا هذه الديار بذكائهم وبعد نظرهم . قال احد علماء الافرنج : العرب عمال زراعة ورجال براعة ، برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير المحيطة بل ووطنوا النباتات والاشجار الافريقية والآسيوية في اوربا كالنخل والبرنقال والتوت والقطن وقصب السكر والذرة والارز والحنطة السوداء والزعفران والهندباء والخرشوف والسبانخ والباذنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ وينسب اليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء . وقال ميشو : ما من دار في اوربا الا وتعرف اليوم البصل (Echalote) الذي جاء اسمه واصله من عسقلان . ومعلوم ان الاندلس ابنة الشام فتحها الشاميون ونقلوا اليها مدينتهم . وهذه الصنوف من الزراعة التي انتشرت في الاندلس ثم في سائر اوربا تكاد تكون خاصة بارض الشام في تلك القرون .

لا جرم ان الحضارة التي أوجدها العرب كان من اول دعائها الزراعة فاحتاجت الدولة والامة الى الاستكثار من الغروس واستجداء الزروع من وراء الغاية . قيل لاسحق بن يحيى الختلي من ولاة دمشق (٢٣٥) لم سكنت دمشق وفتح ارضها وأكثرت فيها من الغروس من أصناف الفاكهة وأجريت المياه الى الضياع وغيرها فقال : لا يطيق نزولها الا الملوكة قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : ما ظنكم ببلدة

يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار! • وإظلالا دهش العرب بغوطة دمشق لأنها كانت أول ما يقع عليه نظرهم من عمران الشام فيعجبون للأشجار والزرع المتنوعة التي لا يُعرف أكثرها في شبه جزيرة العرب ، ويدهشون للخصب والمياه الدافقة من كل جهة •

أصناف الزروع } ذكر المهلبى انه تجلب من كور حلب وضياعها ما يجمع
والأشجار } جميع الغلات النفيسة فان بلدة معرة مصرين وجبل
السماق بلد التين والزيتون والزبيب والفسنق والسماق والحبة الخضراء • وقال ابن
شداد: وفي بعض ضياع حلب ما يجمع عشرين صنفاً من الغلات • وقال ياقوت:
ويزرع في أراضيها القطن والسهم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش
والتين والنفاح عذياً لا يسقى إلا بماء المطر ويجيئ مع ذلك رخصاً غصاً رويماً يفوق
ما يسقى بالمياه والسيح ، وقال ان أكثر مستغل ضياع الغور السكر ومنها يحمل الى
الآفاق ، وفي عسقلان نخل كثير وصنوف من التمر والرمان يحمل الى كل بلد
بحسبه وانها معدن الجميز كثيرة الحارس والفواكه • واشتهرت نواز في جبل السماق
بنفاحها الكبير المليح • وتل اعرن في حلب بعنيتها الأحمر المدور • وقال ابن جبير:
في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسنق وأنواع الفواكه ويتصل
النفاف بساينها وانتظام قراها مسيرة يومين • وقال ابن حوقل: وما حول معرة
نسرين من القرى أعداء ليس يجمع نواحيها ماء جار ولا عين وكذلك أكثر ما يجمع
جند قنسرين أعداء ومياهم من السماء • وقالوا اشتهرت الفرزل في البقاع بزبيبها
الجوزاني وكان يعمل به الملبن المسمى بجلد الفرس وهو من خصائصها وان بعلبك
معدن الاعناب والحولة معدن الأقطان والأزهار واشتهرت بيسان بالنخيل الكثير
كما اشتهرت بيروت وأبل بقصب السكر بطبخ بها السكر الفائق وعراق الامير
بسفرجلها والناعمة بخرنوبها الفائق وقال المقدسي ان عسقلان معدن الجميز وأريحا
معدن النيل والنخيل كثيرة الموز والأرطاب والريحان • ومعان معدن الحبوب
والانعام • وبني معدن التين الفائق الدمشقي • وان أشجار جبال فلسطين زيتون

وتين وحميز وسائر الفواكه أقل من ذلك . وقال خير العسل مارعى السعتر بايليا وجبل عاملة وأجود المري ماعمل باريجا . وان عنب القدس خطير وليس لمعنتها نظير . وذكر ابن حوقل ان اهل زُغر يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخل بالطلع الذكر . وكما يلقح أهل المغرب تينهم باذكارهم . وقالوا ان لبنان كثير الأشجار والثمار المباحة يتعبد فيه أقوام قد بنوا لانفسهم بهوتاً من القش بأكلوف من تلك المباحات و يرتفقون بما يحملون منها الى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك . وقال شيخ الربوة ولجبل لبنان ولا سيما بقضيبه وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن وله قيمة جيدة و ثمن يكتفي به الجابي الجامع طول سنه وله ولاهله ومن ذلك الكثيراء والربياس والبرباريس والقاونيا وهو عود الصليب والقيسه والبقس والقيقب الذي يعملون منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة ويحمل الى سائر البلاد والأقاليم وليس عملاً اللطف منه ولا أحسن ، ومن النباتات ايضاً شجر المحموده والاشنوائ والزراوند والحماما التي لا توجد الا في اقليم دمشق وهو معلق في شقيف عالٍ ما يقدرون على جنبه الا ان يدلوا جانبيه بجبال من رأس جبل عالٍ ، كما يدل الدلو في البئر وهي لاجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والابهل والقراصيا والزيزفون واما الفواكه فكثيرة جداً بلبنان اه .

وذكر الثعالبى ان النفاح اللبناني موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة ولذاذة الطعم يحمل منه في القرابات الى الآفاق وكان يحمل الى الخلفاء في بغداد منه من خراج أجناد الشام ثلاثون الف نفاحة . وقال المقدسي في الرملة انه ليس أطيب من حوارى الرملة ولا ألد من فواكهها . أظعمة نظيفة وادمات كثيرة وانها جمعت التين والنخل وأنبتت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل . وقال ابن ماء فلسطين من الامطار والطل وأشجارها اعداء وزروعها كذلك لا تسقى الا نابلس فان فيها مياهاً جارية . وقال ياقوت : ان ياسوف من قرى تابلس توصف بكثرة الرمان .

وقال ابو الفدا : ان جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب وسائر الفواكه أقل من ذلك . وذكر المقدسي ان على نحو نصف مرحلة من كل جانب من حبرون

قري وكروم وأعناب ونفاح يسمى جيل نضرة لا يرى مثله ولا أحسن من فواكه
عامتها تحمل الى مصر وننشر . وقال ابن حوقل في زغر : ان بها بسراً يقال له
الانقلاب لم ير بالعراق ولا بمكان أغرب ولا أحسن منظرأ منه لونه كالزعفران ولم
يفادر منه شيئاً ويكون في اربع منه رطل وبها النيل الكثير المقصر عن صباغ نيل
كابل وفيه لم تجارة كبيرة واسعة ومقصد كبير . وقال الظاهري : ان غزاة كثيرة
الفواكه . وقال ابن بطلان في انطاكية : ان أرضها تزرع الحنطة والشعير تحت
شجر الزيتون . وقال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل الى جميع
ما حولها من البلاد من مصر الى حران وما يقارب ذلك فتعم الكل . ولقد ذكروا
في باب خصب أريحا ان الجفنة التي عمرها ٤٢ سنة تكون استدارتها على سطح الارض
مترين وثلاثين سنينتراً وتحمل في السنة ١٥٠٠ كيلو من العنب وانه يضرب المثل
بورودها وأزاهيرها ويخرج منها الزقوم والسدر وهو أشبه بالزيتون الكبير يستخرجون
منه زيتاً للجروح . وكذلك النبق وهو بمقام الصبار والزيفون في بلاد أخرى
يستعمل حيطاناً للحوائط .

وذكر الثعالبي ان زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة وانما قيل له
الزيت الركابي لانه كان يحمل على الابل من الشام وهي اكثر بلاد الله زيتوناً وفيه
ما فيه من البركة والمنفعة . وقال شيخ الربوة في نابلس : وقد خصها الله تبارك وتعالى
بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها الى الديار المصرية والشامية والى الحجاز
والبراري مع العربان ويحمل الى جامع بني أمية منه في كل سنة الف قنطار
بالدمشقي ويعمل منه الصابون الرقي يحمل الى سائر البلاد التي ذكرناها والى جزائر
المجر الرومي وبها البطيخ الاصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الارض . والظاهر ان
هذه الشجرة المباركة شجرة الزيتون آخذة بالاضمحلال قياساً مع حالها في القديم فقد
قل عدده في فلسطين بعد الحرب العامة واستعويض عن بعضه بما بذلته الحكومة هنا
من الجهد لغرس الزيتون والكرمة اما في أرياح دمشق فهو آخذ بالقلّة منذاشتهرت
الفواكه وهي هينة العمل سريعة الغلة وكان في حمص على ما تبين من الحفريات التي
أجريت زيتون كثير بدليل ما وجد من معاصره التي لم يبق لها زيتون تعصر منه

ولا تجد الزيتون اليوم في ارجاء حمص الا في بقعة او بقعتين . واشتهر في القديم زيتون الطفيلة والشوبك اشتهاهما بمشمشها وكثرهما ورماتها . سألنا احد شيوخ الصلت عن السبب في إجماع القوم هناك عن غرس شجر الزيتون مع انه يوجد كل الجودة فقال : لا تذكرنا بغبائنا فقد حملنا سعيد باشا شمدن احد متصرفي البلقاء على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مئة الف زيتونة فوقع في أنفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل أراضينا على صورة لا نعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر بالظاهر وغرسنا أولفأ من شجر الزيتون ولكن أتدري كيف تخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء الى الغرسة فيحرقها حتى لا يطلع جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الاشجار ويزينون لهم افناء الاراضي للزراعة ، واليوم يطالب الاهلون في هذا العمل وفي غيره الاراضي الموات ليحيوها ولا يعطون طلبتهم ! هكذا رأينا أهل الشراة والطفيلة ومعان على حين يقضي قانون الاراضي بان كل من يجيء أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والساكر مقدار ما يسمع الصوت فيها من اقصى العامر فهي له . ولقد رأينا كثيراً من أهل القرى استأصلت أشجار التين والكرمة وغيرها لان العشارين كانوا ينقاصون منهم عشرين فاحشاً أثرت ام لم تثمر فعدمت بعض الاشجار شجرها المثمر بهذا الظلم !

وما قيل في كثرة الزيتون يقال في كثرة الأعناب واشتهرت بلدان كثيرة بذلك ، وقد أكثر شعراء العرب من ذكر خمر بيت رأس ولبنان وغزة وجدر وصرخد وأذرعات والأندرين وبنات مشيع وبيسان ولداً وماب والتمر المقدية وخمر الاحص وقاصر بن (في ارجاء حمص وحلب) وكان يقال لجبل بيت المقدس جبل الخمر لكثرة كرومه . واشتهرت حلبون في جبل سنير بخمرها وكثرة كرومها . ويظهر ان الزعفران كان كثيراً ما يوجد في الشام لانه كان يدخل في الأظمة والأشربة كثيراً ، ومزارع الزعفران التي كان يطل عليها من دير مران في السفح الغربي من قاسيون جبل دمشق مشهورة والغالب انها كانت في ارض النيرب ، وكان الزعفران

يجود في جادبة في قرى البلقاء والجادي هو الزعفران . ولم تكن عنايتهم بالتخيل أقل من عنايتهم بالزيتون والكرم مثلاً ولا سيما في جنوب الشام وشرقه .
ولا أثر اليوم لبعض الثمار مثل القراصيا (الفرصاد) والكستانة والبندق والبسيم (المشمولة) وكانت كثيرة مبدولة هي والكراز في القرن الحادي عشر وكان القطن يجود في ضواحي دمشق وحماة وحلب .

ذكر القلقشندي في زروع الشام وفواكهه ورياحينه فقال ان غالب زروعه على المطر قال في مسالك الابصار ومنها ما هو على سقي الانهار وهو قليل وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البُرِّ . السمير . الذرة . الارز . الباقلاء . البسامة . الجلبان . اللوباء . الحلبة . السمسم . القرطم . ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم . وبه من أنواع البطيخ والقثاء ما يستطاب ويستحسن . وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس . الملوخيا . الباذنجان . اللفت . الجزر . الهليون . القنب . الرجلة . البقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المائية كولة ، وقصب السكر في أعواره الا انه لم يبلغ في الكثرة حد مصر .

واما فواكهه ففيه من كل ما يوجد في مصر كالتين . العنب . الرمان . القراصيا . البرقوق . المشمش . الخوخ — وهو المسمى بالدراقف — والتوت والفرصاد ، ويكثر بها التفاح والكهثري والسفرجل مع كونها اكثر أنواعاً وأبهج منظراً ، ويزيد عليه فواكه أخر لا توجد بمصر ، وربما وجد بعضها في مصر على الدور الذي لا يعتد به كالجوز . البندق . الأجاجاص . العنَّاب . الزعرور ، والزيتون فيه الغاية في الكثرة ، ومنه يعتمد الزيت وينقل الى اكثر البلدان وغير ذلك . وباغوارها أنواع الحمضات كالأترج . الأيِّمون . الكباد . النارنج . ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر . وكذلك الموز ولا يوجد البلح والرطب فيه اصلاً . قال في مسالك الابصار وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى الى الربيع كالسفرجل والتفاح والعنب .

واما رياحينه ففيه كل ما في مصر من الآس والورد والزرعسج والبنفسج والياسمين والنسرين ، وتريد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى انه يستقطر منه ماء الورد

و ينقل منه الى سائر البلدان . قال في مسالك الأَبصار : وقد نسي به ما كان
يذكر من ماء ورد جُور ونصيين اه .

وبعد فقد دخلت الشام في العهد الحديث عدة ضروب من الزروع والغراس لم
تكن له فيه من قبل مثل الشوح . الاوكالبتس . الاكاسيا . المشمش الهندي .
البندورة (الطماطم او القوطة) والبطاطا فكانت منها فائدة جلي واصححت
البندورة والبطاطا من أهم انواع التغذية وسرعان ما انتشر الغرام بهما وعمت القاصية
والدانية زراعتهما .

الاشجار غير المثمرة } كانت الشام مشهورة بسرورها وضنوبرها وأرزها ،
ويقول الشجارون انه كان في غوطة دمشق الوف
من أشجار السرو انقرضت ، وأدرك الغزي في حلب من شجر السرو الهرمي والسيواني
أشجاراً قليلة ثم فقد عن آخره ، وكان يوجد منها بكثرة ، وأحسن الجبال في الشام
التي احفظت بغاباتها بعض الشيء جبل لبنان فان الضنوبر والأرز فيه كثير . وقد
اكثر القدماء والمحدثون من الكلام على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس
مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في
ايام زر بابل وسقف الهيكل الجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف
الكنيسة في بيت لحم ، وقالوا ان الاشور بين والبابليين والفرس والمصر بين استعملوه
في قصورهم وبناء هياكلهم واستعمله الاسكندر المقدوني في السد الذي أقامه بين
الجزيرة والشاطي من مدينة صور وكذلك السلاسة أدخلوه في بناء دورهم . وكانت
أخشابه تحمل الى طرابلس وصيدا وصور وبيروت وتعمل منها السفن وفيها عمل
معاوية الاول أساطيله لغزو الروم . وما برح كثير من المتدينين بالنصرانية
يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة
الى أخرى . وهو عطر الرائحة اذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته يهدك ،
ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرض ولا يفعل فيه السوس .
والغالب ان الحكومات السالفة في لبنان كانت تحتمل اربعة اشكال من الشجر تستثمرها

لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح باحتكار غيره ، وبدأ النقص في هذه الأشجار منذ خمسة قرون وقد احتاج اللبنانيون الى الإحتطاب للدفع والعمارة وكانوا يسمون رزق الرجل أشجاره واذا غضب الحاكم على احدهم يقطع شجره فيقولون في أمثالهم الدارجة (الله يقطع رزقه) اي شجره كما يقولون (الله يخرب زوقه) اي بيته وربما اسرع اللبنانيون في احتطاب شجر الارز وغيره لثلاث تصدعهم الدولة العثمانية كما ان كثيراً من القرى في البلاد النائية كانت ايام الاعشار تقطع التين والكرم وغيره من ثمر الشجر لتخلص من ظلم العشارين الذين يتقاضون العشر من الشجر أثمرام لم يثمر .

ولم يبرح شجر الأرز موجوداً في عدة اماكن من لبنان على كثرة ما اثنابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأبهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملثفة وضعيفة النمو ، ومنها المحدث غرسه ، لكثرة الامطار والتلوج والعواصف في تلك الارزاء ، وثالثة فوق قرية عين زحلنا ، وكان أحرق اكثرها لاستخراج القطران منه ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من جبل كسروان وخامسة بين قرية ثورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتهما نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز وبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى واكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع طولها خمسة وعشرون متراً وقد روا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . وفي تسريح الأبخار انه لا أثر اليوم في الشام لشجر الأرز الا في أعالي سير ببلاد الضنية في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر . وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند اهله ثوب (Sapin) على ان في جبال قوه مورط احدى شعاب جبل اللكام من عمل انطاكية غابات من الأرز وغيره من فصيلته . ولو توفرت العناية بامثال هذه الاشجار وقضت الحكومة على كل فلاح ان يفرس ويتعهد عشر شجرات منها اذا لما مضى خمسون سنة حتى تصبح الشام كسويسرا باشجارها الغضة الملثفة تحسن المناظر والمناخ

ويكون منها عموم النفع كما وقع القطع منها في ثلاثين سنة كما تجري فرنسا في غابة فونتينبلو وغيرها من غاباتها البديعة المشهورة . ولا تكون في جمالها أقل من شجر الارز الذي يكسو نجد جبال طوروس (الدروب) ووهادها قري فيها تلة مستطيلة الى جانبها تلة هرمية وأخرى ذات شكل بيضوي وغيرها المحدودب والمربع اوقائم الزوايا ومنفرجها وكلها مزينة بالاشجار .

ويقول كاتب جلبي من أهل القرن الحادي عشر ان غابات الشام كثيرة اشهرها غابة عسقلان وهو حرج كبير يمتد الى نواحي الرملة . ومن الغابات غابة أرسوف بالقرب من نهر العوجا يمتد الى عكا وكان يقال له غاب فلسوة وهذا الحرج يمتد من قاقون الى عيون التجار ، ومن الحراج حرج القنيطرة ، وفي أطراف حلب عدة غابات وخصوصاً الغاب الكبير ويقال له الزور واكثر شجره التوت اه . ولقد ثبت ان الغابات كانت في بلادنا في القرون السالفة اكثر من اليوم وان معظم جبالنا التي نراها اليوم جرداء كانت خضراء غضراء وان التجريد من الغابات وقع في أدوار مختلفة فقد ذكر ابن حوقل ان جبل قلون وجبل المانع وجبل الشيخ المحيطة بدمشق كانت منذ القرن الرابع مجردة من اشجارها قال انك اذا كنت في دمشق تري بعينك على فرسخ وأقل جبلاً قرعاء من النبات والشجر وامكنة خالية من العماره .

وتجريد الشام من غاباته دعا الى زيادة مساحة عدد البطائح والمستنقعات وتأليف صحار من الرمال فقد قالوا ان الظلال كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة او ثمانية كيلو مترات فأصبحت اليوم عبارة عن كثبان من الرمل . وهكذا سواحل فلسطين بل معظم سواحل الشام طمت عليها مياه البحر فأبقت فيها الرمال وألّفت منها بطائح ومغايض وأفسدت الاراضي العاصرة . ولهذا النظر قل ولا شك مساحة المزرع من اراضي الشام سنة عن سنة والمستنقعات معروف ضررها بحياة الفلاح وان كانت أقل من الكثبان والحراء . وضرر المستنقعات يتناول الانفس لما ينبعث عنها من الحميات التي كثيراً ما رأيناها تقفر قري برمتها من سكانها . وقد قال الزراعي ارزون : ان اهم الآفات التي ابتليت بها الغابات ثلاث : الرعي المتبادل وحق المرعى في الاراضي الخالية والحيوانات الصغيرة ولا سيما الماعز وفأس الخطابين . ونسب

خراب الغابات في فلسطين — وسائر الشام ننصرف عليها — الى إصدار الخشب والتبن والسماد الى خارج البلاد ، وقال ابن الربيع من إصدارها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبنار الاراضي بقلة السماد والسباح .

الاشجار المثمرة } وكانوا ينفنون بتسمية الفواكه والبقول والورود
 وغيرها } قال البدرى والعنب في دمشق فقط أصناف :
 البلدي • خناصرى • عاصمى • زينى • بيمونى • قنادبلى • افرنجى • مكاحلى •
 بيض الحمام • حلوانى • بوارشى • جبلى • قصيف • ابراز الكلبه • قشلىش •
 كوتانى • عبيدى • شحمانى • جوزانى • درافى • مخ العصفور • عرايشى •
 رومى • شبهى • ينطانى • عصيرى • رناطى • ورق الطير • سماقى •
 حرصى • مجزع • شعراوى • دربلى • قارى • علوى • عينونى • مورق •
 مشعر • مسيط • مرصص • محضر • مقوس • حمادى • ثفاحى • رهبانى •
 زردى • مبرد • مخصل • مغاربنى • شحمة القرط • وقسم المشمش الى احد
 وعشرين صنفاً وهي : حموى • سنديانى • اويسى • عرببلى • خراسانى •
 كافورى • بعلبكي • لقيس • لوزى • دغمشى • وزيرى • كلابى • سلطانى •
 حازمى • ايدمرى • سيني • بردى • ملوح • قرط البخاقي • جلاجل القلوع •
 الخ • ووصف العماد الكاتب المشمش الدمشقي فقال : طلعت في أبراج الأطناب كأنها
 كرات من التبر مصوغة ، وبالورس مصبوغة ، صفر كأنها ثمر الرايات الناصرية ،
 حلا منظرًا وذوقاً ، ولونظم جوهره لكان طوقاً ، كأنما خرط من الصندل ، وخط
 بالبنديل ، وجمد من الثلج والعسل ، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس ،
 والناجى بما في النفوس .

وقال البدرى ومن خصوصيات دمشق «الطرخون» من بقول المائدة وكان
 يخرج فيها السذاب والرشاد وبقلة الحمقاء والمماش والمهندباء والكراوى والتوت الاسود
 والشامى • وكان يكثر فيها الكراز والوشنة وهو فيها سبعة أنواع • وذكر ان الورد
 جنس تحته ستة أنواع بدمشق ومنه الجورى والنسرينى • والترجس جنس تحته

أنواع منها اليعقوري والبري ، والمضعف وذكر منشورها وزنبقها وأذريونها وآسها وحبه وريحانها ونيلوفرها وبنها وحيالنها وزنزلختها وتمر حنائها وقراصياها وكثيراها (ثلاثة وعشرون صنفاً) ونفاحها ودرافها (ستة عشر صنفاً) وخوخها (ثلاثة عشر صنفاً) الى غير ذلك مما كان في القرن التاسع .

* * *

الصناعات الزراعية } وكانت الزهور والورود من أهم فروع الزراعة ،
القديمة } وللطيب والعطور ومسقطرات الزهور شأن
واي شأن منذ الازمان المتطاولة . وكان للأقدمين على ما يظهر غرام شديد بالملاب
العطر المائع والكبكباد اليابس ، ويستعملون المسك والعنبر والزعفران كثيراً ، ويولعون
بالعرف والاريجية ، وكان لهم طيب يقال له الغالية وهي مسك وعنبر يُجَمَانُ بالبان
قال ابن سيده ويقال ان الذي سماها غالية معاوية بن ابي سفيان وذلك انه شتمها من
عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فاستطابها فسأله عنها فوصفها له فقال هذه غالية .
وقد حفظ لنا شيخ الربوة من اهل القرن الثامن شيئاً من الإشارة الى كثرة الورد والزهر
في دمشق فقال ان العطر وغيره كان يستخرج في المزة من ضواحي دمشق من زهورها
وورودها ، حتى ان حرقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالزابل فلا يكون
لرائحته نظير ويكون اللد من المسك الى مدة انقضاء الورد . وذكر صفة اخراجه في
الكركات والأنايق ورسم صورها — والقرع والأنايق آلتان لصنع ماء الورد السنلي
هي القرع والعليا على هيئة المحجمة هي الأنايق — قال وغير هذه الكرككة كرككة
أخرى يستخرج منها الماورد وغيره من المياه بلا ماء بوقود الحطب وذلك بعد حشو
القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النوفر او البان او زهر النارج والشقيق والهندباء
او بورق القرنفل المزروع بدمشق .

الى ان قال ويحمل الورد المستخرج بالزرة الى سائر البلاد الجنوبية كالبحجاز
وما وراء ذلك وكذلك يحمل زهر الورد المزي الى الهند والى بلاد السند والى الصين
والى ما وراء ذلك ويسمى هناك الزهر . ومما أروخه انه كان لقاضي القضاة الحنفية
ولأخيه الحريري قطعة بارض تسمى شور الزهر طولها مائة وعشر خطوات وعمها

خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً بائنين وعشرين الف درهم وذلك سنة
خمس وستين وستائة وهذا لم يسمع بمثله اه .

وكانت حلب في القديم محتصة بماء الورد النصبي الذي يستخرج بالباب من اعمالها
قال ابن الشحنة انه لا يقاربه شيء مما يجلب الى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه
مع ان الجلوب من دمشق عند المصر بين في غاية العظمة بحيث يصفه اطباؤهم للرضى
فيقولون ماء ورد شامي . وينبت في ارض حلب زهر القرنفل وكان يسقطر ماؤه .
واشتهرت في القديم زهور لبنان وما اليه من الجبال كجبل الشيخ فانها كثيرة مبدولة
في الربيع شأنها في مراعي الجولان والعمق والبقاع والبقية كما اشتهرت طيوب
البلقاء وسموذه وكانت تحمل الى مصر . وقل اليوم من بلنفت الى هذه
الصناعات الزراعية .

ومن صناعاتهم الزراعية في القديم السكر وكان يعمل في القديم على ضفاف
الأردن ولا تزال معاملته في جنوبي الغور تدعى الى اليوم مطاحن السكر ، وكان
السكر اكثر مستغل تلك البلاد يحمل الى الشرق والغرب . وكان يصنع السكر في
انطاكية وطرابلس وعمكا ويافا ويحمل منها الى الآفاق . قال القلقشندي من اهل
القرن التاسع: في الشام يعمل السكر الوسط والمكرر . وكانت زيوت الشام كحمورها
تصدر الى القاصية . ويعصر السليط اي دهن السمسم في دياف من حوران وبه
اشتهرت . وكان الصابون الحلبي والنايلسي وغيره مما يبيض عن حاجة البلاد بساع
منه في الأقطار الاخرى . وكان الجبن الكركي مشهوراً يصدر الى مصر .

وقد قامت الحكومة العثمانية ابان الحرب العامة بعمل بعض المحفوظات والمربيات
في دمشق فتعمل الحساء ذروباً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي كأنه
طبخ الساعة واستخرجوا من العظام مرقاً معقماً . وأخذوا يعملون من الثار والبقول
محفظات ومحضرات على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها
طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة او المسكبة . وبلغ عدد البقول المربعة عشرة
أنواع كانت يتناولها الجندي في كل وقت كأنه على مقربة من الحدائق والمباقل
والمقاي . واستخرجوا في معامل الفيلىق بدمشق أشربة كثيرة من ماء الزهر وماء

الورد وشراب قشر الليمون وقشر البرتقال تجعل أرواحها في زجاجات وتكفي القطرة منها كأس ماء لتكون حلوة ذات نكهة تستعمل في اشربة الجيش ولا سيما في مستشفيات البادية . وبالجملة فقد كان لتعقيم السوائل واستخراج الأشربة وتجفيف الثمار والبقول وخبز الاخياز بالآلات الكهر بائية الصحة شأن لم يعهد في الشام ثم ننوسي بعدهم .

ومن صناعاتهم العسل وكانوا يغالون بأكله كثيراً واشتهر عسل سنير وجبل الثلج كما اشتهر دبس بعلبك وجبنها وزيتها ولبنها قال ياقوت : ليس في الدنيا مثلهما بضرب بها المثل . وكانت يبسان توصف بكثرة النخل ، والنخيل مما يجود في الأغوار وكان كثيراً في القديم والشاميون يعنون بتعهده من وراء الغاية .

ويظهر ان العسل والزعفران والدبس والقنود والتمور كانت مما يعول عليه في الاطعمة والحلواء اكثر من اليوم . ولدينا وثيقة في بعض المأكولات لابي القاسم الواساني من شعراء اليتيمة الدمشقيين نظمها منذ نحو الف سنة في وصف جماعة من أصحابه زاروه في قرية حمرايا على مقربة من الهامة في غربي دمشق وذكر فيها ما لقي منهم على طريقة غريبة في النيكيت والنبكيت ومما جاء فيها ما أكلوه من الاطعمة وفيه إشارة الى كثرة أنواع التمر :

أكلوا لي من الجرادق الفيد	ن بين ^(١) تشتاقه العارضان ^(٢)
أكلوا لي اضعافها غير مشطو ^(٣)	ر ومالوا الى سميذ ^(٤) الفران
أكلوا لي من الجداء ثلاثية	ن قريصاً بالخلل والزعفران
أكلوا لي ضعفها شواءً وضعيف	ها طيخاً من سائر الألوان
أكلوا لي تبالة ^(٥) تبت عق	لي بعشر من الدجاج السمان
أكلوا لي مضيرة ^(٦) ضاعفت ض	ري بروس الجداء والعقبان

(١) البن ضرب من الكوامخ وهي المخللات تستعمل لتشهيه الطعام (٢) العارضان شقا الفم (٣) المشطور الخبز المطلي بالكامخ (٤) السميذ باعجام الدال وإهمالها هو الحواري اي الدقيق الابيض (٥) التبالة ضرب من أطعمتهم والتابل ج التوابل ابزار الطعام . وتبت عقلي أسقمته (٦) المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير اي الحامض وهي أشبه باللبنية او لبن امه او الشاكرية اليوم .

اكلوا لي كشكية^(١) قرحت قبا بي وهاجت لفقدھا أشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر ر طرياً من أعظم الحيات
اكلوا لي عدلاً من المالح المشوي ماتي في الخل والانجدان^(٢)
اكلوا لي من القرشاء^(٣) والبرني والمعقلي والصرقان^(٤)
الفعدل سوى المصتمر^(٥) والبردي واللوء لوء يي والصيجاني
اكلوا لي من الكوامخ^(٦) والجوز معاً والخلاط^(٧) والاجبان
ومن البيض والخلل ما تع جز عن جمعه قرى حوران

ومن صناعاتهم الزراعية صناعة الصابون وكانت من أنجح الصناعات القديمة ومصابنه في حلب وكاز وادلب وانطاكية ودمشق وناپلس وطرابلس واللاذقية وحيفا ورام الله وبعض قرى لبنان . وخير الصابون وأشهره اليوم الصابون النابلسي فيه على ما يظهر خاصية ليست بغيره او ان السر في جودته انقائه بدون غش . ومنذ افلتت الصناعات من رؤساء لها تشرف على أعمال اهلها . انحطت في دمشق صناعة الصابون فقد كانت له أما كن خاصة لتجفيفه وكانوا لا يبيعونه الا بعد ثلاث سنين من صنعه ويصدر الي أقطار العالم وثمنه يزيد خمسين في المئة على سائر أنواع الصابون وكنت

(١) الكشكية طعام يعمل من الكشك (بفتح الكاف) والعامه تكسر كانه يعمل من جريش الخنطة واللبن الحليب وبترك اياماً حتى يختمر فيكون منه ذرور يعمل كالحساء ويطبخ باللحم او بالزيت وقالوا فيه :

الكشك شي خبيث محرك للسواكن
الاصل درّ وبرّ نعم الجدود ولكن

(٢) الانجدان (باعجام الدال واهمالها) ورق شجرة الخلتيت (٣) الجبن القريش كمايراي اليابس الشديد كما في التاج والذي نعرفه ان القرشاء والقريش يعمل من الدرّ ويختمر ويبقى طرياً كالزبد والقشدة (٤) البرني والمعقلي والصرقان واللؤلؤي والبردي والصيجاني ضرور من التمر (٥) المصقر المدبس (٦) الكوامخ الخمللات (٧) الخلاط ضرب من المشبهات والمخلوطة طعام من أنواع شتى .

إذا غسلت به الثياب تجد من رائحتها ما بنعش قلبك من الروائح الذكية والآت
 يبيعون الصابون الدمشقي أخضر بدون تجفيف ويزاحمه في عقر داره الصابون الغربي
 لخصه وهو مركب من زيوت صناعية على الغالب ليس من الزيت الخالص وعسى ان
 يرسل صناع الصابون في نابلس وطرابلس ودمشق وحلب وعكا وجيفا الى اوربا
 من يدرسون المادة التي تدخل الصابون الغربي فتزيد رغوته أخضر كأن او يابساً
 فبذلك يمدون الى الصابون البلدي رونقه السالف ويخلصون من النكهة الخبيثة
 في الصابون الغربي .

* * *

معادن الشام } وخليق بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ما حوى سطح
 وحمااتها } الارض من الخيرات الطبيعية الى هذا الحد ، ان لانغفل
 الكلام على ما حوى بطنها من المعادن والأمواء النافعة . فقد اجمع المتقدمون
 انه كان فيها معادن حديد في لبنان كانت قديماً المصريين يحملونها الى بلادهم ،
 وأجمع المحدثون الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها على ان الشام
 خالية من الفحم الحجري الا قليلاً ، وفي لبنان طبقات القضة (Grès) فيها فحم خشبي
 متحجر (لنبت) يمكن استئجارها وفي قرطبا وميروا والمنيطرة مناجم من هذا الحجر
 الخشبي وأشهر طبقاتها الفحم الخشبي المتحجر في قرنايل ، وقد صار الاعضاء باستخراج
 من سنة ١٨٣٥ م الى ١٨٣٨ ، ومن مناجم هذا الحجر منجم مارشينا وفالوفا ويزيد
 وجزين وزحلنا وعين التفر وحيطورة ، وصاحب امتياز هذا المنجم المركيزدي فريج .
 ويجوز استخدام هذه المناجم للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيتية للوقود .
 والفحم الحجري ونظنه من نوع الفحم الخشبي في جبل البشر وابي فياض شرقي
 حلب وذكر ياقوت ان في جبل البشر ويمتد الى الفرات من ارض الشام من جهة
 البادية اربعة معادن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه بوائق لسبك الحديد والرمل
 الذي يعمل منه في حلب الزجاج وهو رمل ابيض كالاسفيداج .
 وللحجر مناجم في عينبل وحريقة في جبل عامل وفي أرجاء مرجعيون ، واشهرها
 منجم حاصبيا ، كان يستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً ووزن كل واحد منها ١٠٠

كيلو وكان السلطان عبد الحميد الثاني يستثمره لنفسه ، وبعد انحلال دولته أهملته الحكومة لقلة اليد العاملة واضطرت ان تهمل معدن سحمر في البقاع وغيره من المعادن في الشام . فأضر اهمال الحجر بارباب الكروم فتصاعدت اثمانه وهو يستعمل كل سنة عند تأبيرها فتحقته الدودة من أجل ذلك وقلت مداخيله . وفي الناس بين حمص وتدمر معدن للحجر يكاد يوازي معدن حاصبيا بصفائه . وفي المقارب بين درعا وسمخ مناجم كلس ممزوج بحجر ، وكذلك في ارباض تدمر وفي الصلت ووادي اليرموك . قال المقدسي : ان في الشام جبال حمر يسمى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه ادنى صلابة بيض به السقوف ويطين به السطوح . ومعدن الحديد كثير في قضض لبنان وارتبته ، وعلى سطح الجبال وبطون الاودية ، لاسيا في أرجاء البترون وكسروان والمثن وفي قرية دومة وبيت شباب وفي عكار والمشغرة والفرزل ومجاري الأنهار مثل نهر الكلب ونهر ابراهيم . ومن هنا كانت تؤخذ مواد المسابك لمعامل الحديد التي كانت في تلك الارحاء ، والمانع من استثمارها اليوم قلة الوقود اي الفحم الحجري ، والحطب لا يفي بهذا الغرض على نحو ما كان الحال الى عهد قريب .

وأهم مناجم الحديد في برمانا ومحمدون ووادي النهر الكبير حجر الصفار (الكروم) وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فخمي ونيكل وكان في القديم في ناحيتي باير وبوجاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر ، ويوجد حجر الصفار على شواطئ بحيرة طبرية ومن نوع البيريت والليمونيت في برقي وكفرسلوان ومرجبا من لبنان وفي راشيا وسفح جبل الشيخ الغربي وجنوبي حاصبيا وفي عين اللبوة وعين عطا وشوايا وعين قني والروج والكفير . والنحاس في قرية اهمج في كسروان وفي الجنوب الغربي من حلب وكان منه في عين جر فاكدي لكثرة ما استخراج منه وكان النحاس الاحمر يحمل من جبل جوشن على قيد غلوة من مدينة حلب . وذكر كاتب چلي ان في بيت حبرون معدن زجاج يستخرج منه فيحمل الى الأطراف فيباع ويحمل الى السودان والحبشة من أسورته ويقاىض عليها بالتبر .

واستثمر معدن الفحم الحجري في مرجيليا في لبنان اثناء الحرب الكبرى لوقود السكك الحديدية واستخرج منه ١٩١٦ ما يقارب ١٣٠٠ طن . وذكروا ان الطبقات الفحمية في لبنان وجدت في نيجا ، المراح ، كركبا ، زحلتا ، عبيه ، عرمون ، جمهور ، عين تراز ، بمحمدون ، القرية ، رأس الحرف ، مرجيليا ، بنبيات ، مارحنا ، الكنيسة ، عين موفقي ، قرنايل ، جورة ارضون ، بزبدين ، رأس المتن ، ترشيش ، جوار الجوز ، حيطورا ، عين تدجورا ، عين زحلتا ، صدنايا ، قيتولة ، بكاسين ، جزين ، حمصية ، مشغرة ، قرطبا ، حدث الجبة ، مزرعة بيت ابن صعب ، الديمان ، القنيت ، ومنه الرديء الذي لا بال له .

وفي جهات ابو فياض على ٨٠ كيلو متراً من حلب فحم حجري رديء من الليث كما ان منه في جهات حوران وفي قرية عرنة من إقليم البلان معدن الفحم الحجري قيل انه لم ينضج نال امتيازه احد اهالي دمشق وفي حضر من اقليم البلان معادن أخرى برافقة . وفي جبال الكرك كثير من أنواع المعادن قصدتها مؤخراً كثير من معدني الانكليز لتحليلها ومعرفة أنواعها . والبترول (زيت الكاز) حول البحر الميت وتباشر شركة اميركانية استخراجها قرب قرية خرنوب . وفي أرسوس على عشرين كيلو متراً من الاسكندرونة وفي وادي صقلاب من أعمال الكورة في شرقي الأردن وفي المزيريب من عمل حوران وفي أرجاء الاسكندرونة معدن غاز سائل جرى تعدينه فلم يأت بفائدة . وفي أرجاء طرابلس معدن المغرة ونوع من الصبغ الاصفر (Ocre jaune) .

و يوجد الكبريت بكثرة في جهات الباروك في لبنان وفي قرية عنجرة من جبل عجلون وفي أرجاء البحر الميت و بالقرب من حمة عفرة في الطفيلة معادن الكبريت والقصدير والبترول والنحاس وفي رأس العين من عمل الزور وفي أماكن جبلية عديدة ولا يصلح للاستعمال لامتزاجه بمواد خريبة لحمية وحديدية . و يوجد الزاج في حارم . والنيكل ومنه الفاخر في جبل الاقرع . والفوسفات في شمالي الصلت في جبال السرو بينها وبين عمان نال امتيازه - في آخر العهد العثماني المهندس نظيف الخالدي على ان ينشيء فرعاً يتصل بالسكة الحديدية الحجازية من الصلت الى عمان ويشيد مرفأ في

حيثما تحسبت نفقات استثماره فأرأوا أنها لا نفي بها وارداته فترك وشأنه . والفوسفات موجود في شمالي ببرد من جبل قلمون وبعض جهات فلسطين . والبوتاس حول البحر الميت والاسفلت في جبل الاكراد على ثلاثين كيلومتراً من اللاذقية (في قرى كفرية وقصاب وخربة السولاس) نالت امتيازها سنة ١٣٤٤ هـ شركة مصرية ويقال انه اغنى منجم عرف من نوعه . وكان في مقاطعة جرش في ارض تسمى تلول الذهب معدن ذهب جاء في الكتاب المقدس ان سليمان عليه السلام كان يستخرج الذهب منها . وفي الجنوب الشرقي من تدمر وفي ارجاء انطاكية معادن ذهب ولكنها شحيحة . وتكثر الفضة في جبال اللاذقية وشمالي بعلبك ومصيف في بلاد العلويين وعلى ضفاف العاصي فيما يلي انطاكية معدن ذهب ومعدن رصاص فضي ومعدن انثيمون وحجر الكحل ومعدن فحم حجري ومعدن الطفال المعروف بالبيلون في ارجاء كلز وانطاكية . وفي جبال قره موط احدى نواحي انطاكية عدة معادن تستعمل للصنع وفي جبل بارسال من اعمال كلز معدن مرمر اصفر (قاله في نهر الذهب) .

وكان في قرية يعفور من عمل دمشق معدن فضة قاله شيخ الربوة . قال وبارض حدث من جبل لبنان جوسية فوق كرك نوح عليه السلام بلنقط حجارة زلظية تكسر مرقيشيا وكل معدن مائل باللونية الى لون ما هو قسمه ، وعد الخوارزمي المار قشيشا من عقايرهم فقال : ومنها مربع ومدور وقطع كبيرة غير محدودة الشكل وهي ضروب فمنها اصفر يسمى الذهبي وابيض يسمى الفضي وآخر يسمى النحاسي .

ويوجد الملح في مواضع كثيرة من بلاد الشام ولا سيما في جهات تدمر وجبرود وحماة والخليل وحوالي البحر الميت وسبخة الجبول جنوبي شرقي حلب . وملح جبرود فيه مرارة وأجوده ملح الجبول . وفي حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان في جوار قرية جبول على شكل مخروطي عظيم لا تطاف أطرافها في أقل من ثماني عشرة ساعة يجعد ماؤها في شهر أيار الى تشرين الثاني فيكون في هذه الفترة ملحاً ، ويسمى هذا النهر نهر الذهب يجري من ناحية باب بزاعا الى ان ينهي الى سبخة الجبول في مساكب يعملها اهل الجبول والقرى المجاورة لها ، وكانوا يقولون ان هذا النهر سمي نهر الذهب لان

اوله بالقبان وآخره بالكيل ، اي انه يزرع على اوله الحبوب كالحبية السوداء والانيسون والكرويا وأنواع الفواكه مما يباع بالرطل ، وآخره الملح الذي يباع بالكيل .

ويوجد الزئبق في ارض انطاكية وغيرها ، قال شيخ الزبوة ان معدن الملح الاندراي كان يستخرج من ارض سدوم عند بحيرة لوط ، وكيف ما تكسرت حجراته ما تكسرت الا فصوصاً مربعات الزوايا . ويوجد النحاس في ناحية الصور على نهر الخابور ومعدن السودان في البصرة والصور والشداي والقصي ويعرف باسم بارود القصي . والرصاص في انطاكية والمغرة في جهات حلب وعمان والجبص (الجبسين) في جهات جبرود وصافيتا وعكار وطرابلس . والرخام الاصفر في جبل الجرمق من عمل صغد وعلى ساعتين من مادبا في البلقاء جبلان اصفر واحمر والحجارة الكلسية على كثرة في جميع الارحاء ، واهم انواع الحجارة الكلسية الرملية الحواري والرخام السماقي والجنس المدعو « شحم بلحم » وأجمل المقالع ما كان في جوار حلب وفي جبل باريشا من عمل حارم وهو رخام اصفر ومن أجملها الحجر المزي وهو يضرب الى الصفرة يستخرج من مقلع المزة قرب دمشق والحجر المرابي وهو احمر يستخرج من مقلع معربا في قلمون وتكثر مقالع الحجر الرملي في مخدرات لبنان السفلي وعلى الشواطئ البحرية ولونه اصفر . وجميع البنيان من صور الى طرابلس مبنية بحجره وهو سريع التفتت سهل التخت لدى خروجه من المقلع ويتصلب في الهواء ويصلح للملاط اكثر من الحجارة الكلسية الجميلة . والحجارة الكلسية ذات نقاط زجاجية في المواضع المنخوتة حديثاً ولونها ابيض كامد تتحول بهرور الزمان بفعل أشعة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبية . ولذلك كانت أبنية حلب وبهت بهذا الحجر الجميل من أجمل أبنية الشام ، واشتهرت الداروم في تقديم برخامها قال الرحالة ناصر خسرو : « والرخام كثير جداً في الرملة وجدران معظم الابنية والدور مغطاة بصفائح من الرخام مرصعة بانقان ومغشاة بنقوش ورسوم ويقطع الرخام بنشار لا أستان له ويرمل تلك البلاد ، وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السواري والعمد كما تقطع الدفوف من شجرة . ولقد رأيت في الرملة رخاماً من كل جنس ومنه الحزق (المبقع) والأخضر والأحمر والأسود والأبيض

وبالجملة من مختلف الألوان اهـ . وبالقرب من زرقامعين على ساعتين من مادبا جبال ملونة فيها جبل اصفر وآخر احمر .

هذا اهم ما في بطن الشام من المعادن ومهما كانت حالها فهي وافية بحاجة اهلها ولكنها لا تمون أتمماً غيرنا كالمعادن المشهورة في العالم بذهبها ونحمةا وغير ذلك ، ومعادننا تكفيها اذا استثمرناها ولكنها لا تسد المطامع الكبيرة .

الحمة (يفتح الحاء وتشديد الميم) العين الحارة يستشفى
الحمات الشامية } بها الاعلاء والمرضى ، وفي الحديث العالم كالحمة يأتينا

البعداء ويتركها القرباء ، فينما هي كذلك اذ غار ماؤها ، وقد انتفع بها قوم وبقي اقوام يتفككون اي يتندمون . فالحمة هي ما يعرف اليوم بالحمات الممدنية تكثري أرض الشام البعيدة عن الساحل ، واهمها حمامات طبرية على شاطئ البحيرة ، نفع النساء في الأمراض التناسلية وتشفي الأوجاع الحادة المزمنة وامراض الرثية والنقرس والبول السكري وامراض اعضاء التناسل والمرارة السوداء والتهاب قصبه الرئة المزمع وبعض الامراض الجلدية وغيرها .

قال ابو القاسم في وصف حمة طبرية وفيها عيون ملحة حارة وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج الى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبقرها حمة يعتمس فيها الجرب اهـ . ويجري الماء الى الحمامات من اربع عيون حارة واهمها ما بناه ابراهيم باشا المصري وهو في الشمال ويعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وعليه قبة عظيمة ، وهي مثقوبة بثقوب اسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالمليزان المئوي وهو صاف براق في الجملة ملح الطعام مرّ مهوَّع وتنبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت اورائحة يبيض فاسداً ، وهذه الحمامات ملك الحكومة تؤجرها ولكن شروط الصحة في الحمامات الجديدة مفقودة منها وموسم الاستحمام فيها من اول كانون الثاني الى آخر حزيران .

ومنها « الحمة » حمة جد ر في وادي اليرموك على الخط الحديدي عند الكيلومتر ٩٣ و ٩٥ نفع في امراض الجلد وغيرها وهي مياه معدنية حارة نقيس غزيرة وتجري

الى نهر الشريعة وهي ثلاث حمات يبعد بعضها عن بعض بضعة دقائق يدعى احدها «المقلي» او «حمام سليم» درجة حرارته ١١٩ ، والاخران «حمام الجرب» وحرارته ١٠٨ ، او «حمام الريح» وحرارته ٨٢ بميزان فارنهایت وعندنا آثار الحمامات الرومانية وبقرها ملعب عظيم وهو ملعب جدر المشهورة في الجامعة والاسلام قال احد واصفها : «ولا أبلغ اذا قلت ان معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن عشرين الفاً يقيمون اياماً تحت حر الشمس وهبوب الريح لا يبت يؤويهم ولا نزل يكنهم ، فان كان قاصدوها يبلغون هذا العدد وهي قراء خربة في شهر واحد فكيف يكون عددهم لو تهيأت لهم حمامات منتظمة وأبنية وفنادق ومابه تستنب لهم الراحة فيه أبلغ اذا قلت انهم يزيدون عن المائتي الف ؟ » .

وحمة ابي رباح من عمل ناحية القريتين في حمص نافع في الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج خاصة . وحمة ضمير في جبل قلمون كبريتية . وحمة ارك في جهات تدمر . وحمة انطاكية وهي كبريتية وفيها مغنيزيا ايضاً . وحمة اسكندرونة بين حلب واسكندرونة على الطريق . وحمة جسر الشغور وحمة زرفا معين في الكرك وهي ثلاثة حمامات يستحم المستحمون ببخارها ويقصدها السياح من الفرنج كما يقصدون حمة عفرة من بحيرة لوط . وحمام النبي داود في وادي الحسا . وذكر ابن السخنة ان في السخنة من أعمال قنسرين خمسة حمامات ينفعون بها من البلغم والريح والجرب . وبناحية العمق حمة أخرى . وبكورة الجومة من أعمال قنسرين عيون كبريتية تجري الى الحمة والحمة قرية يقال لها جندراس يأتيها الناس من الآفاق فيسبحون بها للعلل التي تصيبهم . قال الغزي : ان في أطراف حمام العمق عدة عيون كبريتية حارة لو جمعت الى حوض لكانت حماماً عظيماً وفي سنة ١٣٠٠ بنت بلدية حلب على بعض هذه العيون خلوة وصارت تؤجرها .

وذكر شيخ الربوة ان بين حمص وسليمة كهفاً في جبل يخرج منه بخار أشد من الضباب المتراكم فاذا دخل الانسان ذلك الكهف خُيِّل اليه انه في الحمام لشدة الوهج وكثرة قطر الماء من البخار المتصاعد من البئر الذي في وسط الكهف ويسمع غليان الماء بقعر البئر ولا يمكن النظر فيه لشدة البخار الصاعد من البئر ومن نظر فيه يشيط

من الحرارة . ولعله يقصد بذلك حمام ابي رباح . وظهر مؤخراً على كيلو مترين من قرقحان من عمل اسكندرونة نبع ماء معدني درجة حرارته ٤٣ فتهافت الناس على الاستحمام به .

هذه أهم حمّات او حمامات الشام المعدنية واكثرها كما رأيت لا ينفع بها الانفعال المطلوب ، وحالتها كما عرفت منذ القديم لا نظام فيها ولا ابنية للمستحمين حواليها . وقد عرف من تاريخ الرومان انهم كانوا يُعنون من وراء الغاية بالحمامات المعدنية ، فكانوا يبنون عليها ابنية بحسب مصطلحهم ، ولكن لم تر ان العرب في هذه الديار عنوا بشيء من هذا القبيل اللهم الا اذا كان ضاع عنا خبره لقلة التدوين . ولو انها وقعت العناية اليوم بجاننا على النحو الذي ننتفع به بعض البلاد التي ننبجس فيها مياه معدنية من إقامة المستحمات والمنازل لنزول طلاب الاستحمام وتديبها تدبيراً جديداً صرفها صحياً لكان منها منافع كثيرة لابناء البلاد ومورد ارباح لها تأتي من الوف من الغرباء والقرباء يقصدونها للانفعال بها ويصرفون في جوارها اياماً وشهوراً يجملون عليها مقاصير للتغميز والتسيد ، وأخرى للتعريق ، وغيرها للتبريد ، وفنادق فيها شروط المدنية الحديثة ، وحدائق وغابات تغرس بالقرب منها تحسن المناخ وتجميل المناظر الطبيعية .



✽ نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة (١) ✽

أقاليم الشام } اولا — لا تقل حرارة غور الأردن عن مثلها في بعض
البلاد العربية الحارة كالعراق ومصر . في احدى السنين
كان معدل الحرارة السنوي في طبرية ٢١/٧٠ درجة وهو لا ينقص عن ٢١/٥ درجة
وقد يبلغ أكثر من ٣٢ درجة لا سيما في مناطق الغور الجنوبية . ولما كانوا يحسبون
معدل الحرارة السنوي في القاهرة ٢١/٥ درجة وفي بغداد ٢٢/٨ درجة كانت

(١) كتب هذا الفصل التالي صدقي الاستاذ الزراعي الجاثمة الامير مصطفي

الشهابي الخزومي .

حرارة الغور كافية لنمو كثير من الزروع والأشجار التي أغنت مصر وستغني العراق واعظمها شأنًا القطن . وفضل اقليم الغور اقليم مصر والعراق في ان امطاره قلما ينقص ارتفاعها في السنة عن ٣٠٠ ميليمتر ولهذا يمكن زرع الحبوب الشتوية فيه عذياً ، على حين لا يستطيع ذلك في مصر وفي معظم العراق لقلة الامطار فيها .

ثانياً — ليست سواحل الشام أنقص شأنًا من الغور من الوجهة المذكورة فمعدل الحرارة في حيفا ويافا وبيروت قلما يقل عن ٢٠٦٥٠ درجة ولهذا يوجد في الساحل كثير من النباتات التي تتطلب حرارة عظيمة كالقطن مثلاً لكنه لا بد من إسقائه في كلا الاقليمين .

اما السهول ففي بعضها من الحرارة ما يكفي لنجاح القطن وهي التي لا تعلق كثيراً عن سطح البحر مثل مرج ابن عامر وسهل الغاب شمالي حماة وسهل العمق وادلب ، ويجب الري الا في ادلب والعمق . اما في السهول المرتفعة كالغوطة وهوران والبقاع فالقطن ينتج محصولاً متوسطاً الا انه لا يجد من الحرارة ما يكفي لنتيج كل ثماره . ولهذا قد لا يأتي زرعه فيها بفائدة من الوجهة الاقتصادية . ومن رأيي انه يجب ان لا يجل القطن مكان القنب في الغوطة مطلقاً . هذا ومن العبث البحث في زرع الأقطان في اقليم الجبال كسهل الزبداني وسفوح سنير وغيرها لان نصف ثماره لا ينتج هنالك لقلة الحرارة . ومن العبث ايضاً البحث في تميم زرعه في سهول البلقاء وهوران ووادي العجم وحمص وحماة وحلب الشرقية في البعل من الارض ، لقلة الأمطار السنوية واختلاف مجموعها بين سنة وأخرى ، وان نجحت زراعته بلاري في بعض قرى حوران كقرية الحراك في وادي الزبيدي ، ضربت مثلاً بها لانها مجتمع مياه أرضية وحالة كهذه لا تصلح للقياس .

ثالثاً — ليست مقادير الأمطار واحدة في مختلف مناطق الشام . فأغزرها في السواحل دائماً . فقد دلنا قوائم رصد الجو في مرصد الجامعة الاميركية في بيروت على ان ارتفاع الأمطار السنوية فيها لا يقل عن ٧٠٠ ميليمتر في اكثر السنين وانه يبلغ ٩٠٠ ميليمتر احياناً وهو رقم كبير . وثبتت الإحصاءات التي لدي ان ارتفاع الأمطار في حيفا ويافا يزيد على ٥٥٠ ميليمتر في اكثر السنين . وهكذا في باقي

سواحل الشام ، وفي المناطق القريبة من الساحل . اما السهول الداخلية وهي أعظم المناطق شأنًا وأغناها تربة وأوسعها مساحة ، فارتفاع أمطارها يختلف بين ٢٠٠ و ٥٠٠ ميليمتر في السنين العادية . ولما كان ارتفاع المطر الضروري لتكوين محصول متوسط من الحبوب الشتوية لا يقل عن ٢٥٠ ميليمترًا اتضح ان منوجات الحبوب في تلك السهول تختلف اختلافًا كبيراً من سنة الى أخرى ، تبعاً لمقادير المطر المنهمر وتتوارى هطله في خلال السنة . وامطار غوطة دمشق قليلة ، فقد قستها بنفسها خلال عشر سنين متتابعة فرأيت انها لا يبلغ ارتفاعها ٢٥٠ ميليمترًا في اكثر هذه السنين ، وكان ارتفاعها دون مائتي ميليمتر في ثلاث سنين . فالغوطة اذن كالواحة كانت تكون صحراء لا تصلح للزرع ، لولا بردي والأعوج ومشتقاتها التي قلبتها جنة ناضرة .

رابعاً — لا يسقط الثلج في اقليم الغور ولا تهبط الحرارة الى الصفر . ويندر هبوطها الى الصفر في السواحل . اما في السهول الداخلية فلا تهبط لأوطاً من عشر درجات تحت الصفر في السنين الاعتيادية ويندر هبوطها الى هذا الحد . لكن لكل قاعدة شواذ ففي شتاء سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ وكانت سنة قريّة شديدة هبطت الحرارة الى ١٥ درجة تحت الصفر في دمشق و ٢٠ درجة تحت الصفر في سلمية . ودام الصقيع عدة ايام فآتلف الاسباناخ والملفوف والسلق والمقدونس والبيقية والحلبة والفول وغيرها من البقول كما آتلف براعم التين والرمان وأغصان الليمون والبرنقال وبعض ورق الزيتون . وباد كثير من الزهور والرياحين وأشجار التزيين كالمشور والكافور والسنط والفلفل الكاذب والخروع والكزورينا وغيرها . اما الخنطة والشعير والمشمش والنفاح والكمثرى والدراق والخواخ والسنوبر والسرو والازدارخت والصفصاف والزيزفون والورد فقد قاومت فلم يمسهما الصقيع باذاه .

وأضر مما ذكر هبوط درجة الحرارة الى ما تحت الصفر بضعة ايام في اوائل نيسان من سنة ١٩٢٥ فتلف اكثر من نصف محصول المشمش في الغوطة ، واسودت افنان الجوز ، وبادت نباتات الخيار والكوسى والبنادورى البكيرة ، فعاد الزراع الى بذر بذورها ثانية . ولقد ذكرت هذه الأحداث لان الطاعنين في السن من أرباب الفلاحة لم يزوا شبيهاً لها منذ ثلاثين سنة ونيف .

خامساً — وهي أهم ملحوظة بحثت عنها في (كتاب الاشجار والانجم المثمرة) فقلت انه ليس لبناء التربة في الشام كبير تأثير في إمكان غرس الشجر او عدمه في احدى المناطق ، بل العامل الاقوى هو الاقليم . وذلك ان الامطار تهطل في الشام خلال شهور معلومة ثم يعقب المطر ببوسة تدوم بضعة شهور . وتكون الرياح شديدة ، والحرارة زائدة ، في شهور البوسة ، ومهما كان ارتفاع المطر السنوي كبيراً حتى في سواحل الشام فكثير من أشجار الفاكهة لا يعيش بهنالك عذياً ، بل لا بد من إسقائه كالبرنقال والليمون والنفاح والكشري والمشمش والخواخ . وليس السبب في ذلك قلة مجموع الامطار السنوية بل انجاسها منذ أواخر الربيع وطول فصل الصيف وأوائل الخريف . فأمطار باريز مثلاً لا تزيد في السنة على أمطار بيروت او امطار طرابلس لكن المطر في باريز يهطل في كل شهور السنة نقر بياً فنمو الأشجار المذكورة دون ري على العكس من حالتها في الشام .

ومن الشجر ما يعيش بلا اسقاء في جميع مناطق الشام الغربية كالزيتون والكرمة واللوز والتين والمان والفسق والاس والزعرور والعباب . اما مناطقها الشرقية فنما ما يصلح دون ري للكرمة واللوز والزيتون كشرقي العاصي الى جبال الشومرية وكالجولان وحوران وجبل حوران وعجلون والبلقاء . ومنها ما أمطاره من القلة بحيث ان الاشجار عموماً لا تنجب فيه بلا ري ، كالغوطة والمرج وشرقي سنير (منطقة القريتين) وبادية الشام . وينمو الكرم واللوز بلا ري بعد ان يكبر في القرى الشرقية من منطقة سلمية والحراء . اي ان المطر في تلك المنطقة وحالة المياه الأرضية هما بحيث لو سقي الكرم سنين او ثلاثاً حتى تضرب جذوره في التراب ، لا يمكن بعدها ان يعيش بلا ري .

واختلاف الأقاليم في الشام يجعل هذا القطر صالحاً لزرع زروع متنوعة ، وغرس أشجار شتى ، فالغور والساحل للقطن والنخل والموز والقشطة والبرنقال والليمون والزيتون . والسهول للحبوب والزيتون واللوز والمشمش والخواخ والكرمة . والجبال للنفاح والكشري والكرز . وثقل البلاد التي تحوي كالشام أقاليم عديدة في مساحات ضيقة . وليس في العالم بلاد غيرها يستطيع فيها الانسان ان يصعد الى ارتفاع ٢٨٠٠

متر فوق سطح البحر بعد ان يكون في أعمتي من مائتي متر من هذه السوية وذلك بقطع مسافة لا تزيد على ٦٥ كيلو متراً هذا شأن الذي يكون في البطيخة او التابعة على شواطئ بحيرة طبرية مثلاً ويريد الصعود الى قمة جبل الشيخ فهو يعتلي ثلاثة آلاف متر بقطع تلك المسافة الصغيرة .

أتربة الشام } كثيراً ما نسمع ان الشام محض بلاد زراعية وان تربتها من أخصب الأتربة ، فما معنى ذلك وما هو مبلغه من الصحة ؟ اما كون الشام محض بلاد زراعية فلائها لا كبير ممنوع فيها سوى ممنوجات الارض فهي اذا لم نقس بغيرها تعد بلاداً زراعية ذات شأن كبير . اما اذا قسناها ببعض البلاد الاوربية حيث الارض خضراء دائماً ، والمحاصيل كبيرة بسبب كثرة الأمطار في كل فصول السنة ، او لو قايستنا بينها وبين بعض الأقطار التي فيها أنهار عظيمة تسقي بمياهها ملايين من الهكتارات كمصر اليوم وعراق الغد ، إذن لوجدنا ان الشام ليس لها شأن عظيم حتى من وجهة الزراعة لانها ما برحت ولن تبرح بلاد حبوب شتوية كالحنطة والشعير تنتج بالقليل من المطر الذي يهطل فيها . اما الأشجار المثمرة والأقطان والخضر فقامها في الدرجة الثانية لما تنطلبه من الري على حين لا تروي أنهار الشام مساحات واسعة على ما سيخبره ذكره . ونقول ان جعلوا ديدنهم التنويه بان الشام من أعظم البلاد التي تنتج أقطاناً أنهم مدفوعون الى دعايتهم هذه بعوامل سياسية ، لان القطن في الشام لا يمكن ان يكون له المقام الاول بين الزروع ما دامت معظم سهول هذا القطر لا تروى الا بما تجود به السماء من المطر القليل الذي يكاد لا يكفي لحياة الحنطة والشعير . ويجب ان لا يتخذ القطن الادبي مثلاً لان صنفه من أردنا الاصناف ، ولأن منطقة ادلب وأشباهاها ليست سوى جزء صغير من سهول الشام الواسعة الارجاء . وقولي هذا لا يعني كون زرع القطن مفيداً اقتصادياً في كل مكان يستطيع ان ينجب فيه . فما تعيننا معرفته ان الأمكنة التي يستطيع ان ينجب فيها صغيرة اذا قيست بمجموع اراضي الشام الزراعية . ولئن لم تجعل الطبيعة للشام حظاً كبيراً من المطر والأشجار التي تستطيع ان

تروي مساحات واسعة ، فلقد جادت عليه بتربة من أجود الأتربة . اتضح لي ذلك بعد ان حلت بيدي عندما كنت تليذاً وبعد ان بعثت للتحليل عندما كنت مديراً للزراعة في دمشق عشرات من نماذج الأتربة أخذت من مختلف مناطق الشام . وقد دونتُ نتائج التحليل في كتابي (الزراعة العملية الحديثة) و (الأشجار والأشجار المثمرة) وهما خلاصة ما تجب معرفته :

اولاً — تراب أهم سهول الشام طيني كلسي (اكثر قرى حوران والغوطة وسهول سلمية وحمص وحمما ولساتين حارم الخ . . .) وتراب بعضها طيني رملي (بعض قرى الغور والبقاع الخ) . وتراب بعض آخر رملي طيني (بعض قرى الساحل والسهول الشرقية القريبة من البادية) . ومن المعلوم ان بناء هذه الأنواع الثلاثة يعد جيداً لا سيما الاول منها .

اما من حيث غنى أتربة الشام بالعناصر الغذائية . فقد كشف لنا التحليل عن ان معظمها غني بالحمض الفسفوريك والبوتاس . اما الآزوت (نيتروجين) فمقداره كبير في بعض المناطق كالغور مثلاً ، وكاف في اكثرها ، وقليل في بعض المناطق التي أنهبها الزرع المتتابع دون مدد الأض بالسماد .

ويفيد ان أذكر للقراء بهذه العجالة كلمتين في الطبقات والأدوار الجيولوجية التي ننسب اليها أهم المناطق الزراعية فأقول :

الارض البركانية : ان أتربة حوران وجبل حوران والحجاز والجولان والبطيحة وجبل المانع والصفاء وغربي العاصي بين حمص وحمما الخ . هي ارض بركانية (بزالتية) متكوّنة من اندفاعات البراكين .

الارض الطباشيرية : هي أوسع الارضين في الشام راليها ننسب معظم جبال لبنان وسنير وحرمون وعجلون والكرك والصلت وسهول البلقاء وجبل نابلس وتدمر الخ .

الاراضي المنسوبة للدور الثلاثي : منها معظم جبل العلاء الواقع بين حمما وسلمية ، ومنها جنوب البقاع بدءاً من مجدل عنجر وسهل متسم حوالى حلب وسواحل فلسطين وقمة جبل قاسيون في دمشق مع امتداده نحو قرية القطيفة ، وقسم كبير

من قلمون وقسم من الجبل الأبيض بالقرب من تدمر ، ومساحة واسعة حول شاطيء
الفرات بعد الراسبات الرباعية الخ .

الاراضي المنسونة للدور الرباعي : في الشام كثير من الطبقات الاساسية
سترت براسبات من الدور الرباعي واكثر ما تكون الرواسب في السهول كالبقاع
والغوطة والمرج ومرج ابن عامر وسهل الرملة ولد سهل عكار وعلى طول الفرات الخ .

اذا رجع المرء الى كتب الاقدمين يرى انه كان للحراج
حراج الشام } في الشام شأن واي شأن . وقد ذكر الاستاذ صاحب
الخطط صفحات قيمة فيما انشاب غابات هذه البلاد من العبت والتجريب فلم يبق علي
سوى البحث بايجاز اولاً في أهم أشجار هذه الحراج وثانياً في مواقع هذه الحراج على
عهدنا هذا ، ومساحتها على وجه التقريب فأقول :

أشجار الحراج : اعظمها شأنًا أشجار البلوط وهي على قسمين قسم يظل مكتسبًا
اوراقه في الشتاء وآخر تسقط اوراقه فيه . فمن الاول (السنديان)
(*Quercus coccifera*) . والبلوط الأخضر (*Quercus ilex*) وهي اشجار
صعبة المراس جبارة تعيش في الساحل وتلومع مختلف المناطق الى الف متر عن
سطح البحر . ومن الثاني الملول (*Quercus lusitanica*) والبلوط المسمي
عفصاً (*Quercus cægilops*) .

ولأشجار الصنوبر شأن لا يفوقه سوى شأن البلوط . وأهمها الصنوبر المتمر
(*Pinus pinea*) وهو يشاهد في الساحل وفي المناطق التي لا يزيد علوها على
الف متر عن سطح البحر . ويغرس في لبنان (حمانا ، برمانا ، بيت مري ، بكفيا
الخ) لان خشبه وثماره مرغوب فيها . ويليه الصنوبر الحلبي (*Pinus Halepensis*)
وهو الأكثر شيوعاً يعيش في كل الاقاليم الزراعية حتى في ارتفاع ١٥٠٠ متر عن
سطح البحر . ومنه حراج ملنفة في عكار والضنية وقزل طاغ ويستخرج منه القطران
ويستعمل في الدباغة .

ومن أشجار الفصيلة الصنوبرية التي تشاهد في غابات الشام السرو والتنوب

او الشوح (*Abies cilicica*) وهو يكثر في الجبال الشاخنة حيث يختلط بالأرز
ثم العرعر (*Juniperus oxicedrus*) والدفران (*Juniperus drupacea*)
والأرز (*Cedrus libani*) وجميعها تعيش في الجبال العالية .
وكثيراً ما يعثر المرء في غابات الشام على أشجار مثمرة برية مثل الكهشري
والزعور والخلوخ والسدر والزيتون والخروب وغيرها . كما يشاهد أشجاراً مختلفة
كالبطم (*Pistacia terebinthus*) في البلعاس والذلب على شواطئ الأنهار
واللبنة او الأبهر (*Styrax officinalis*) في لبنان ووادي التيم والعجرم
(*Rhamnus punctata*) وهو مبذول والغار (*Laurus nobilis*) في
غور الأردن الخ .

مواقع الحراج : اذا سرنا اليوم من شمال الشام الى جنوبها نرى الغابات الآتية :
(ا) حراج السفح الممتد بين سلسلتي جبال اللكام مساحتها نحو ١٠٠٠٠ هكتار
(المهكتار عشرة آلاف متر مربع) وأهم أشجارها البلوط والصنوبر الحلبي ويليها
الأبهر والأشجار المثمرة البرية . وفي منحدرات الجبال مثل هذه المساحة نقر بياً
مكسوة بالشجر لكن حالة شجرها سيئة .

(ب) حراج كرد طاغ وتمتد من راجو الى الحمام ، ومساحة الشجر المثلث فيها
الف هكتار نقر بياً وأشجارها السنديان والصنوبر الحلبي . ويلاحظ ان فأس المحتطبين
لا تكف عن العمل بها . وان اضعاف هذه المساحة كانت فيما مضى حراجاً جميلة .
(ج) حراج رأس الخنزير (قزل طاغ) . أهم شجرها الصنوبر الحلبي وانواع
البلوط . تبلغ مساحة ما تلتف أشجاره منها نحو ١٥٠٠٠ هكتار الا ان ضعف هذه
المساحة كانت غابات ملتفة فاذا هي اليوم جرداء او فيها أشجار حقيرة منفرقة .
ويضع القطران من صنوبر هذه الحراج في ارسوس وانطاكية .

(د) حراج الاروو والبساير والبسيط : مساحة القسم المكتسب بالشجر اليوم
١٠٠٠٠ هكتار نقر بياً . وأهم شجرها الصنوبر الحلبي وانواع البلوط ويليها الذلب
فيما انخفض من الارض . ويجب الاحتفاظ بهذه الغابات من عيث الماشية . لان بعض
اشجارها بدأت تلتف .

(هـ) حراج العمرانية : شجرها السنديان والملول وقليل من الصنوبر الحلبي ومساحتها ٢٠٠٠٠ هكتار نقر بياً ، و يلاحظ ان اكثر أشجارها الباسقة قطعت الا في المواقع الكبيرة الانحدار التي يشق الوصول اليها ، فان أشجارها لا تزال باسقة . ومن المؤسف ان القطع لا يزال متواصلاً في هذه الحراج لنقل الحطب او لصنع الفحم ونقله الى حماة وحمص .

(و) حراج عكار والضنية : هي أجمل الغابات شمالي لبنان واهم شجرها السنديان والملول ويليها الصنوبر الحلبي والسرو والعرعر والأرز . ومساحتها ١٠٠٠٠ هكتار على وجه التقريب .

(ز) حراج الهرمل واهدن ونورين : تبلغ مساحتها عموماً نحو ٥٠٠٠ هكتار . (ح) حراج الصنوبر في لبنان : زرع اللبنانيون كثيراً من بزور الصنوبر المثمر (*Pinus pinea*) وغرسوا كثيراً من غراسه فتكوّن منها حراج جميلة تشاهد في كثير من قرى لبنان . اما حراج الأرز القديمة فقد انت عليها ايدي الجهل وبعض بقاياها في الباروك .

(ط) حراج البلعاس : يقع جبل البلعاس على نحو خمسين كيلو متراً شرقي سلمية وفيه اشجار قديمة من البطم . تجولت في بعض مواقعه الغربية فوجدت كثيراً من أشجاره قد لعبت بها أيدي البدو والمحتطبين الذين يأتون بركابهم كل يوم من سلمية الى البلعاس فيقطعون الشجر وبيعون الحطب في سلمية وحمص وحماة على بعد المسافة . وقد اكد لي بعض المواطنين من بدو وحضر وبعض الضباط الذين اخترقوا البلعاس مراراً ان مساحته تبلغ ٣٠٠٠٠ هكتار نقر بياً ، وان الشجر منفرد في اكثر أقسامه لكنه يلف في بعض المواقع .

(ي) حراج عجلون : هي من أوسع حراج الشام وأجملها . أشجارها السنديان والملول والصنوبر الحلبي وغيرها . وفيها مواضع أشجارها ملثفة وأخرى انهمك القطع . هذه هي أهم غابات الشام وثمة غابات ومحتطبات لا كبير شأن لها اليوم لما لحقها من الأذى بسبب انكباب الانسان على قطعها او عيث الماشية بها ، مثل غابات بعلبك وسنير وجبل الشيخ والقنيطرة وصفد والناصره والكرمل والصلت وغزة . وغيرها .

ويجب ان نذكر ان الحكومة التركية كانت خلال الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) تأمر بقطع الشجر بلا روية لاستعماله بدلاً من الفحم الحجري الذي كان يعوزها حتى ان هذه الحكومة أتلقت خلال هذه السنين الاربع ما لم يُقدم جهالك الشعب على اتلافه في بضعة قرون .

الري في الشام } يروي اليوم في الشام (عدا فلسطين وشرقي الأردن)
مساحة تقدر بنحو ٧٧٠٠٠ هكتار على وجه التقريب

وأهم المناطق التي تروى هي الغوطة والمرج اللذان يسقيان من بردى والفيحة والأعوج ومشتقاتها ثم ومن قتي موضعية . وتقدر المساحة التي تروى من هذا السهل الواسع بنحو ٢٥٠٠٠ هكتار ويسقى في وادي العجم من نهر الأعوج بنحو ٥٠٠٠ هكتار . ويسقى في حمص بمياه القناة التي تشق من بحيرة حمص بساتين واسعة . وفي الزبداني سهل يبلغ ١٢٠٠ هكتار يروي من أنهار صغيرة وينابيع . ويسقى في القنيطرة والزوية نحو ٢٠٠٠ هكتار لا سيما في البطيحة وشمالى بحيرة الحولة الى الشرق . وفي حماة نواعير شهيرة لا يقل عددها اليوم عن ثمانين ناعورة تبدأ بين حمص وحماة وتمتد شمالاً الى العشارنة وتسقى نحو ١٥٠٠ هكتار . وفي سلمية والقرى التي في تلك المنطقة قنوات عديدة قديمة دائرة أخذت الاكاروب منذ بضع سنوات يكرونها ويعيدونها الى سالف عهدها . وشجعتهم على هذا العمل عندما كنت مديراً للزراعة فنحتهم بضعة آلاف من الليرات حتى صار يُسقى اليوم بمائها ما لا يقل عن الف هكتار . وفي حيرود والنبك وبيزود وديرعطية والقرى المجاورة لما قنوات وينابيع تسقى ٢٥٠٠ هكتار تقريبا .

وفي جزء الشام الذي يسمونه اليوم لبنان الكبير نحو عشرة آلاف هكتار من الارض التي تروى أهمها ١٢٠٠ هكتار تقريبا فيها من شجر الليمون والبرتقال في طرابلس الشام . ويتلوها بساتين واسعة حول بيروت وصيدا وصور ورأس العين والمهمل وبعلبك وبعض قرى البقاع الخ .

ومما يسقى شمال الشام سهل عكار والبقية وحول اللاذقية وبعض اراضي العمق وأرباض انطاكية ومدينة حلب والاسكندرونة .
 اما في جنوب الشام (فلسطين) فأعظم الأرض شأناً ما يسقى شمالي بحيرة الحولة حيث النهر الحاصباني والبناسي والأدان اي اصل الأردن . ثم الغوير ومجدل طبرية ثم بيسان وما حولها مما يسقى من نهر الجالوت ثم سهل عكا ثم ضواحي مدينة يافا حيث يسقى نحو ٢٠٠٠ هكتار من شجر البرتقال والليمون بواسطة آبار ترفع مياهها بالمحركات .

هذه صورة صغيرة لأهم ما يسقى من الارض في الشام في ايامنا هذه . ويجب ان لا ننهي هذا البحث قبل ذكر كلمتين فيما يستطاع اسقاؤه من الارض في المستقبل اذا وجد رأس المال الكافي للقيام باعمال عظيمة للري . انني على اعتقاد بأنه يمكن في المستقبل اسقاء ضغفي المساحة التي تسقى اليوم الى ثلاثة أضعافها . والمناطق القابلة للري هي من الشمال الى الجنوب حول النهر الأسود عند مصبه وحول نهر عفرين وسهل العمق (نحو ٢٠٠٠٠٠ هكتار) وسهل الغاب الممتد شمالي قلعة شيزر (سيجر) (نحو ٦٠٠٠٠ هكتار) والسهل الواقع شرقي جسر الشغرة ، والسهل الممتد بين صيدا وصور وحول بحيرة الحولة وارض واسعة في الغور بين بحيرة طبرية وبحيرة لوط الخ .

نذكر هنا بإيجاز أهم ما يزرع في الشام من
 الحبوب والبقول والنباتات الصناعية وما يغرس } زروع الشام وأشجارها

من الشجر المثمر ، ثم ما ينبت لنفسه من النباتات الطبيعية المفيدة .
 الحبوب : أهمها الحنطة والشعير فالذرة الصفراء فالبيضاء فالأرز فذرة المكائس .
 الحنطة : أعظم زروع الشام شأناً وأغزرها محصولاً وأعمها انتشاراً . يقدر ما تنتج منها في سنة ٩٢٢ بـ ٣٤٥٨٠٠ طن (الطن اربعة قناطير) في الشام عدا فلسطين وشرقي الاردن وأشهر أصنافها الحورانية والبياضية والبهرودية والبقاعية والحمازية والنورسية وحنطة عين غرة والدوشانية والسلمونية والهيتية . فالحورانية تعرف بساق متوسطة الطول وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفالونها الى سمرة وحب

سمين قاس الى حمرة . وهي أجود الأصناف وأعمها . تزرع في حوران ووادي العجم وفلسطين والبلقاء وحلب ، وبالإختصار في كل انحاء الشام على درجات متفاوتة . اما موطنها الأصلي فحوران . وللحنطة البياضية سنبلة بيضاء طويلة وبرة نصف فرقة ذات سفا ، وحب ابيض سمين مكسره نصف دقيق . وهذا الصنف يزرع في الغوطة والمرج ودومة ووادي العجم خاصة .

وللقمح البرودي ساق طويلة صلبة ثخينة نصف فارغة ، وسنبلة مستطيلة كثيفة ذات سفا ، وحبات ضاربة الى بياض مكسرها قروني . وهذا الصنف يزرع في دومة وقلون .

والحنطة البقاعية سنبلة دكناء الى سواد ، وحب الى سمرة وهي تزرع في البقاع . اما القمح الحماري فهو يزرع في حمص وحماة وما جاورهما . واما النورسي فيزرع في فلسطين وهو يعرف بسنبلة مستطيلة ذات سفا ، وحبات مستطيلة حنطية الى حمرة . وفتح عين غرة أشهر الأنواع في الغوطة ، وله ساق طويلة فارغة ، وسنبلة سمراء متوسطة الكثافة ذات سفا الى سواد ، وحب سمين طحيني اللون . اما الدوشاني فله سنبلة فرقة طويلة لا سفا لها ، وحب ابيض ثخين ، وهو يزرع في البقاع وبعليك وفي الغوطة على الندور . ويزرع السلوني في الأمكنة الجبلية ويعرف بسنبلة مستطيلة فرقة ذات سفا ، وحب مستطيل ذي مكسر دقيق . والقمح الهيتي من الأصناف التي تزرع في الكرك والبلقاء ، وسنبلته ذات سفا ، وحب حنطي الى حمرة . الشعير : هو في الشام أشهر الزروع بعد الحنطة واكثرها منوجاً ، وقد قدرت غلاته في سنة ١٩٢٢ بنحو ١٨٢٥٠٠ طن في الشام عدا فلسطين وعبر الأردن . وهو على صنفين العربي والرومي . فالعربي ساقه قصيرة فارغة وسنبلته على صنفين وهي مستطيلة ذات سفا طويل . وحباته أقل غلظة من حبات الشعير الرومي . ينضج هذا الصنف قبل الصنف الرومي وهو أشهر منه ولا يتطلب مثله ارضاً غنية . اما الشعير الرومي فسوقه غليظة فارغة يتخللها عقد ملائنة وسنبلته على ستة صفوف ، وهي متوسطة الطول كثيفة ذات سفا . يكثر هذا الصنف في الغوطة والمرج وهو يتطلب ارضاً غنية مسمدة .

وتزرع الذرة الصفراء في أنحاء الشام في الأرض التي تسمى . اما الذرة البيضاء فتزرع عذياً في أنحاء فلسطين وفي عجلون لا سيما في مرج ابن عامر . واما الأرز فيزرع في الحولة وهو قليل الشأن .

ومن حبوب الفصيلة القرنية الشائعة في الشام ما تعلفه الماشية كالبيقية والجلبان والكرسنة والحلبة . ومن الكلاء الفصفصة وهي ذائعة في الاماكن التي تسقى .
البقول : لا تعيش اكثر الخضر والابازير بلاري في أقاليم الشام كافة .
ولهذا يستدل من وجودها في ارض على كونها مما يمكن استقاؤه . وأنواع الخضر التي تزرع كثيرة جداً وكلها تستهلك في البلاد .

الزروع الصناعية : أشهرها القنب والقطن والسهم . اما البواقي مثل الكتان والنيلة والحناء والخشخاش والخروع الخ فليست ذات بال في الشام . فالقنب يزرع في الغوطة وفي حلب ، لكنه في الغوطة أعظم شأنًا ، اذ تقدر فيها مساحة الارض التي تزرع قنبًا بنحو الف هكتار في كل سنة ، اما في حلب فقلما تزيد على مائتي هكتار . وزراعة القنب رابحة لاسباب شتى أهمها كون هذا النبات لا يتطلب عنايات غير التعطين بعد قلعها ، وكونه في مأمن من الأمراض والحشرات حتى ان الماشية لا تأكل ورقه . وقد أرف اقليم الغوطة الوسطى وصار من زروعها الاساسية التي لا يرجح عليها سوى اشجار الفواكه . ومن الغلط الفاحش ان يقوم بعضهم ببحث في استبدال القطن به ، لان للقطن اقليم غير اقليم الغوطة ، ولانه تصيبه عاهات لا تصيب القنب . هذا عدا العنايات التي تستلزمها زراعة القطن مما لا لزوم له في زرع القنب . والبحث في هذا الموضوع يملأ عدة صفحات فنكتفي بما ذكر .

القطن . : يمكن زرع القطن بلاري في شمال الشام كمنطقة ادلب ودانة وريحا حيث قدر ما ينتج منه سنة ١٩٢٣ بنحو ١٣٠٠٠ بالة . وقد علمت انه نتج هنالك وفي باقي المناطق التي يزرع القطن فيها نحو ١٥٠٠٠ بالة في سنة ١٩٢٥ . ولكن للقطن الذي ينتج في البعل من ارض منطقة ادلب شعر غليظ مجعد وهو لا يصلح الا للنسوجات الغليظة ، ولهذا لا يباع الا بنحو نصف ثمن القطن المصري عادة . اما الأقطان المصرية فلا تنجب الا في الأرض التي تسقى .

ولقد ذكرت في بدء هذا المقال مافيه كفاية عن القطن ، ومن أراد استيعاب هذا الموضوع اي معرفة مايمكن ان يكون مبلغ الأقطان من المكانة في الشام فعليه بمراجعة مقالتي في هذا الصدد في المجلدين ٦٤ و٦٥ من مجلة المقنطف .

السمسم : زرع السمسم شائع في فلسطين ومجلون ولا سيما في مرج ابن عامر حيث ينجب في الأرض البعل كالذرة البيضاء . ويزرع منه قليل في الغوطة ووادي العجم وهنالك يكون زرعاً مسقياً . والغاية من زرعه استخراج زيت الشيرج المعروف من بزوره وتكون اثناء عصر هذه البزور مادة الطحينة المعلومه .

المنوجات الطبيعية : تُنبت الطبيعة في بعض انحاء الشام نباتات طبيعية ذات مكانة اقتصادية مثل السوس والكماة . فالسوس ينبت في سهل العمق وجسر الشجر حيث أجود عروقه ، ثم في انطاكية والباب ومنبج ودير الزور والسويدية وكلها في شمال الشام . وينبت ايضاً في الغوطة والمرج . ويقدر ما يقتلع من عروق السوس شمالي الشام بنحو عشرة آلاف طن في كل سنة ، وكلها تنقل الى اسكندرونه حيث تسحق وتسخن الى اميركا خاصة . اما في الغوطة والمرج فيقتلع نحو الف طن سنوياً وهي تسخن عن طريق حيفا . وفي شمال الشام شركة اميركية شهيرة لقلع عروق السوس وسخنها تسمى شركة (فوربس) . وفوائد عرق السوس عظيمة وهو يضاف الى عدد كبير من الأدوية . ويصنعون منه في دمشق شراباً سكرياً لذيذاً يزيد الادرار .

وليس للكماة مكانة السوس وهي لا تكثر الا في السنين الغزيرة الامطار . وتنبت في قلمون وجبرود وكثير من القرى الشرقية القريبة من البادية . ويختلف مقدار ما يرد منها الى المدن باختلاف السنين .

* * *

الاشجار المثمرة } أسماءها مكانة الزيتون فالكرم فالبرنقال فالليمون
فالشمس فالتين فالفسنق فالجوز . اما باقي الاشجار
فمقامها بعد ماذكر وانواعها كثيرة مثل النفاح والكمثرى والوخ واللوز والرومان
والدراق والسفرجل والموز والنخل والاس والصبار والتوت والعناب والخروب الخ .

الزيتون : أفضل الشجر وأعمه في مختلف مناطق الشام . وهو يكثر في جزين
والخنتارة والشويفات في لبنان الجنوبي ، وزغرتة والكورة في لبنان الشمالي ، وفي
الغوطة والمرج ، وضواحي طرابلس وفي طرطوس وصافيتا وجبلة واللاذقية والباير
وفي ارباض انطاكية ، وفي السويدية القصير وكردطاخ ، ويقل حول حلب والباب
وسلقين وادلب . وقد اشتهر في جنوب الشام زيت الرامة من قرى عكا كما اشتهر
زيتون جبال نابلس والقدس وسهول لدا والرملة . وينجب الزيتون في البعل من
الارض ولا يسقى الا في الغوطة والمرج وفي القرى القريبة من البادية . واصنافه كثار
أشهرها في دمشق الدان والأخضر (او المصعب) والجلط والنفاحي . وأشهرها في
لبنان السوري والشامي والمصري والشتوي والعيروني وبض الحمام والبلدي . وأعمها
في اللاذقية الخضيري والطمراني وقلب الطير . وفي الاسكندرونة القرماني
والخلخالي والرماني والنفاحي الخ .

فالدان أنفع الأصناف بدمشق وأغناها زيتاً (١٨ - ٢٠ في المئة) يستخرج
الزيت منه وقلما يؤكل أخضر او مكبوساً . يبلغ طول ثمرته ٢٠ ميليمتراً وعرضها
١٣ ميليمتراً وهي تسود بعد ان ننضج . وشجرة الزيتون الأخضر او المصعب كبيرة
احد طرفيها حاد يبلغ طولها ٣٢ ميليمتراً وعرضها ٢٤ ميليمتراً ، وهي تقطف خضراء
وتكبس ولا تعصر للحصول على زيتها . وثمره الجلط كبيرة مستطيلة سوداء تشبه ثمرة
الباح شكلاً طولها ٣٥ ميليمتراً وعرضها ٢٥ ميليمتراً وهذا الصنف اغلى الأصناف
وأجودها مكبوساً ويندر عصره لاستخراج زيت منه .

الكروم : الكروم شائع في كل انحاء الشام ، وتقدر مساحته بنحو ستمين الف
هكتار (عدا فلسطين وشرقي الأردن) . وأوسع الكروم اليوم في الصلت ودومة
وداريا بالقرب من دمشق وفي زحلة وبجهدون وحمص وتليسة بالقرب من حمص
وفي حلب الخ . ولا تخلو قرية من قرى لبنان ووادي التيم وجبال النصيرية وقلون
من قليل من الكروم . وقد حملت زراع أملاك الدولة على غرسها في القرى الواقعة
شرقي العاصي على مقربة من البادية مثل قرى النخيلة والمنزول والسنكري وعقارب
وجدوة الخ . والكروم تعيش في البعل من الارض ولم أر كروماً تسقى سوى التي

في الغوطة والمرج وفي منطقة سلمية . وتؤكل الأعناب او تصنع زبيباً او دبساً او خلاً او عرقاً او نبيذاً . وللكرم في الشام أصناف عديدة ، أشهرها الزيني والبلدي والأحمر والأحمر الداراني والدربلي والحلواني والأسود في دمشق والغوطة ، والفضي والقاصوفي والشقفي والقحطاني والمريبي والخانقي وبهض الحمام والزحلاوي في وادي التيمم والبقاع ، والجحافي والبياضي في سلمية . وعنب الشيخ واصبع الست في الاسكندرونة الخ . فالزيني قضبانه طوال سلامياتها متوسطة وعناقيده ضخمة نصف كثيفة وورقه كبار مشرحة بشقوق عميقة حافظتها مسننة وثمرته مستطيلة قشرتها بيضاء غليظة ولها مائع . تؤكل ثمار هذا الصنف ولا يصنع منها زبيب او خمر وهي من أجود الأعناب . وعناقيد البلدي رهلة وثمرته اسطوانية طويلة بيضاء الى خضرة ، ذات قشرة ملتصقة بالللب ، اما اللب فهو لحمي قاس لذيذ . وثمار هذا الصنف كالسابق تؤكل ولا يصنع منها شيء . وليس العنب الأحمر من الأعناب اللذيذة . و يصنع منه زبيب ودبس وخمر وعرق . اما الأحمر الداراني فثمرته قليلة الحمرة مستديرة مع شيء من الاستطالة لها نصف لحمي لذيذ وهي تؤكل و يصنع منها زبيب ومسكرات وبعادل ثمن هذا الصنف ثمن العنب الزيني .

والفضي من أجود أعناب وادي التيمم ثمرته مستديرة متوسطة الجرم قشرتها رقيقة صفراء ولها يكاد يكون مائياً ويزورها متوسطة . اما القاصوفي فثمرته اسطوانية مننخحة قليلاً في وسطها نصف لحمية بيضاء الى خضرة وهي أصغر قليلاً من ثمرة العنب الزيني .

البرنقال والليمون الحامض : ذكر علماء النبات ان بلاد هاتين الشجرتين الاصلية في شرق آسيا ، وان الفضل يعود على العرب في نقلها الى سواحل بحر الروم . وهما بنجبان في الغور وسواحل الشام ولا بد من إسقائها . اما في مناطق السهول المرتفعة والجبال كالغوطة وحوران وحلب والنزبداني مثلاً فان هبوط الحرارة في الشتاء الى بضع درجات تحت الصفر يودي بحياتها ، ولهذا لا يزرعان في تلك المناطق الا في حدائق البيوت حيث يكونان بين جدران نقيهما تأثير الرياح الباردة فيهما . وأوسع بساتين البرنقال والليمون اليوم في يافا (نحو ٢٠٠٠ هكتار) ثم في

طرابلس (نحو ١٢٠٠ هكتار) ويليها منطمة الاسكندرونة (درت يول وباس) وبيروت وصيدا وصور وعكا الخ .

وأجود أصناف البرتقال اليافاوي (شموطي) ثمرته ضخمة بيضية ذات قشرة غليظة ولب قاسٍ لذيذ ، لكنه قليل العصارة لاسيما بعد تمام نضجه . وهو ينقل بسهولة الى بلاد بعيدة مثل انكلترا حيث يرجح على كثير من الأصناف . ومما يستلج فيه سهولة نقشيره دون تلويث اليدين .

ومن اكثر الأصناف انتشاراً البرتقال البلدي وهو ذو ثمرة كروية أصغر من ثمرة اليافاوي قشرتها رقيقة ولبها كثير العصارة . وهذا الصنف لا يصلح للأسفار مثل اليافاوي . ومن أصناف البرتقال المأرددي وهو يعرف بقشرة رقيقة حمراء ملتصقة باللب ولب احمر كثير العصارة . وهذا الصنف لا يألف الاسفار الطويلة ونقشيره صعب .

كان يقدر محصول البرتقال في يافا في سنة ١٩١٤ اي في بدء الحرب الكبرى بنحو ١٨٥٠٠٠٠ صندوق ، اما بعد الحرب فقد هبط المحصول الى ٤٠٠٠٠٠ صندوق نقر بيا . وكان محصول طرابلس قبل الحرب ٨٠٠٠٠٠٠ صندوق من البرتقال و ٢٤٠٠٠٠٠٠ صندوق من الليمون الحامض على وجه التقريب (يحتوي الصندوق على ١٥٠ برنقالة او ٣٠٠ ليمونة) . اما بعد الحرب فهبطت هذه المقادير الى نصفها . ويشحن معظم محصول يافا الى انكلترا ومصر ، اما محصول طرابلس فالى اوديسا وبلغاريا والقسطنطينية ومصر . وكذا محاصيل صيدا والاسكندرونة .

المشمش : يمكن غرس المشمش في جميع اقاليم الشام الزراعية وليس فيها ما لا يصلح له سوى منطقة الجبال العالية حيث يخشى على أزهاره وفراخه من تأثير الصقيع فيها في الربيع . وهو لا ينجب في غير الارض التي يمكن إسقاؤها . واعظم مغروساته واقعة في الغوطة والمرج ووادي العجم ووادي بردى وحول صيدا وبيروت وبعلمك وانطاكية وارسوس . ومنه قليل في كثير من البلدان التي يمكن فيها اسقاؤه . وأشهر أصنافه اليوم الحموي والبلدي والسندياني والوزري والعجمي والكلابي في دمشق ثم اللوزي في الساحل .

فالحموي له ثمرة متوسطة الحجم صفراء ذهبية لامعة تذوب في الفم وتهضم بسهولة ودخلها بزره حلوة . وهي اجمل ثمار المشمش منظرأً وألذها طعمأً وأعطرها رائحةً وأغلاها ثمنأً تؤكل رخصة ولا يصنع منها قمر الدين . اما ثمار المشمش البلدي فكبيرة ضاربة الى حمرة ضمنها بزور حاوة وتجيء في اللذة بعد الحموي ، تؤكل رخصة ويصنع منها اللذات المفلقات (النقوع) . وتبلغ أشجار هذا الصنف عشرين في المائة من مجموع شجر المشمش في الغوطة والمرج . اما الحموي فلا يزيد على خمسة في المائة . والمشمش السندياني يشبه الحموي بشكل ثماره لكنه شتات بين الثمرتين في اللذة لان السندياني هو (تقليد الحموي) كما يقول الدمشقيون . ونسبة البلدي الى الوزري من هذه الوجهة كنسبة السندياني الى الحموي . اما المشمش العجمي فثماره كبيرة جميلة المنظر صفراء الى خضرة لهما قاس وطعمها سكري لكنه مجرد عن طعم المشمش الخصوصي بل هو يشبه طعم الدراق ، ولهذا لا نستمتع هذا الصنف وهو غير شائع . وثمار المشمش الكلاي اصغر الثمار حجماً وأردأها طعمأً وهي صفراء الى حمرة محتوية على بزور مرة ، وهذا الصنف أشهر الأصناف في الغوطين اذ تبلغ نسبته نحو ٧٠ في المائة من مجموع شجر المشمش ، ومنه يصنع قمر الدين المشهور . وهو يولد من بزوره ولا يطعم ، فهو اذنب أقرب الأصناف الى المشمش البري . وثمرة المشمش اللوزي في الساحل شبيهة بثمرة الحموي بدمشق ولعلها صنف واحد .

دمشق مركز تجارة المشمش وما يصنع منه ، ومنها يصدر قمر الدين والنقوع وبزر المشمش الى مصر والاناصول وحتى الى اميركة الشمالية ويقدر اليوم متوسط حاصلات المشمش في بساتين الغوطة والمرج بنحو اثني عشر مليوناً من الكيلو غرامات سنوياً منها نحو ٨٠ في المائة من المشمش الكلاي الذي يصنع منه قمر الدين ، ويظهر ان مستغلاته قبل الحرب الكبرى كانت أعظم منها اليوم .

الفسنق : ان غابات البطم التي شاهدها في البعاس وبقية أشجار الفسنق الهرمة التي زرتها في قرية عين التينة في جبل قلمون تجعلني ابت في ان الشام هو من البلاد التي تعد بلاد الفسنق الأصلية . وتكاد زراعة الفسنق لا تتجاوز اليوم حلب حيث تأتي أجود ثماره وألذها وأغلاها . ومن أصنافه في تلك المدينة الابيض المراويحي

والعاشوري والعلمي والباتوري وناب الجمل والعينثاني ، ويقدر ما ينتج من ثماره حوالي حلب بنيف ومائة الف كيلو في السنة .

* * *

الحيوانات الدواجن } سنأتي في هذا البحث على ذكر خيل الشام وحمورها
في الشام } وبغالها وبقرها وضأنها ومعزها وابلها بايجاز تام وفقاً
للخطة التي أخذنا على انفسنا العمل بها .

الخيل — خيل الشام على ثلاثة أصناف العراب والاصيلة ، والبرازين او ما تعرف اليوم بالكدش ، والمولدة وهي التي تولد من أم عربية واب أعجمي او على العكس من ذلك . ففي الحالة الاولى يسمى المولد هجيناً ، وفي الثانية مقرفاً .

تجلب الكدش من الاناضول خاصة وهي بشعة المنظر اذا قيست بالخيل العراب ، ولذا فهي لا تتركب بل تصلح لحمل الاثقال او جرها او درس الحصائد وعددها عظيم يبلغ نحو سبعين في المئة من مجموع خيل الشام . اما الخيل المولدة فأجمل من البرازين وأقوى وهي تتركب لكنها اكثر ما تستعمل في جر المركبات في المدن ونسبتها للمجموع نحو ٢٠ في المئة .

وأجمل الخيل في العالم هي العراب وتجليتها علمياً كما يلي : خيل مستقيمة الرأس (Rectilignes) متوسطة الجثة (Eumétriques) طول اعضائها متوسط (Médiolignes) لها رأس مربع وجهية مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول ، وفكان مبعدتان ومنخران جامدان ومرنان معاً ، وأذنان حساستان وعينان كبيرتان نمان عن ذكاء ، وعنق رشيق شديد العضل ، وظهر مستقيم وردف أفقي مكتنز ، وعجزان مستديران وصدر واسع وبطن صغير ، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها ، وأوتار جليلة ومفاصل عريضة ، وجلد رقيق مرن وشعر لامع قصير وعرف وسيب طويلان ناعمان متموجان . ومجموع الجواد العربي آية في انتظام تكوينه فهو جميل قوي شهيم ، ولا ريب انه اكمل جواد على وجه الارض . ويختلف لون الخيل العراب واسنفاضت شهرة الشهب والشقر والكحمت .

وأجملها بنظري الشهب المدنرة^(١) اي التي يخالط الشبهة فيها نكت سود^(٢) (ابيض مبقج او أزرق مبقج) .

ولقد وزنت بضعة جيساد عراب فككاف وزنها بين ٤٠٠ و ٤٥٠ كيلو غراماً وقست ارتفاعها فبلغ ١٦٤٢ الى ١٦٥٥ متر ودورة صدرها ١٦٧٢ الى ١٦٧٨ متر . ولا يجهل احد ان الخليل العربية تصلح للركب والسباق خاصة وان من إسفاد ذكورها على إناث انكليزية غير كريمة منذ بضعة قرون تولدت الجياد الانكليزية الصافية السباق الشهبيرة التي بقصر اليوم عن إدراكها كل جواد في حلبة السباق .

وأجمل الخليل العراب هو ما كان في دمشق وحمص وحمما ولدى بعض الأسر والعشائر القديمة كالدنادشة في تل كلخ والموالي في شمال الشام . ولا تزيد نسبتها على عشرة في المائة من مجموع عدد الخليل لدى اهل الحضرم من الشاميين .

الحمير — في الشام ثلاثة عروق من الحمير الأسيوي والمصري والقبرسي او الاوربي . فالصنف الأسيوي هو الاشهر (تبلغ نسبته ٩٥ في المئة من مجموع حمير الشام) لونه الى سواد وارتفاعه متر الى متر وربع ، وهو حيوان الفقراء ، يصلح للركب والحمل ولا يوازيه حيوان بصره وقناعته وفوائده الجمّة اذا قيست بالعلف القليل الذي يُعلفه . اما الحمير المصرية فيبيض اللون ارتفاعها اكبر من ارتفاع الحمير الأسيوية ولا تستخدم الا للركب وهي جميلة المنظر سباق في نوعها وثمن الجيد منها غال لا سيما في المدن . اما الحمير القبرسية فتعرف من كبر قدها اذ يبلغ ارتفاعها ١٦٣٠ الى ١٦٤٠ متر وهي تستعمل في سفاد إناث الخليل للحصول على بغال عظيمة القد قوية البنية .

البغال — تحصل من إسفاد الحمير القبرسية على البرازين (كدش) وهي ذات قد يقرب من قد البرازين فهي إذن صغيرة القد وفائدتها بقناعتها وقوتها وتحملها الاتعاب وقيامها باعمال تشق على كل حيوان غيرها . فهي تستخدم مثلاً في الحرث

(١) أنظر مقالاً في ألوان الخليل وحياتها نشرته في المجلد الخامس من مجلة المجمع

العلمي العربي بدمشق .

بمخاربت حديثة لان بقر الشام صغير الجثة لا يقوى على إثارة الارض بها . وتحمل
 اثقالاً في المناطق الجبلية الوعرة المسالك كوادي التيم والقرى الجبلية من اقليم البلان .
 وتجر المركبات الضخمة المحملة بضاعات وموثناً على الطرقات المعبدة في لبنان وحتى
 بين دمشق وبيروت . ومن منا لم يري في لبنان وبيروت المركبات الشهيرة التي تسمى
 (كارات) يجرها اربعة بغال مصفوفة بعضها أمام بعض على سطر واحد . ولقد ترك
 الجيش الانكليزي في الشام عقب الحرب الكبرى عدداً عظيماً من البغال الكبيرة القد
 لا تبرح بقاياها في دمشق الى يومنا هذا . وهي تطلب عنايات كثيرة وعلفاً زائداً
 ولا تخمل المشاق بقدر البغال الشامية .

البقر — بقر الشام من العرق الآسيوي القصير الرأس ذي الجبهة المستقيمة
 العريضة وهو على ثلاثة اصناف البلدي والعكش والجولاني (او الخميسي) فالبقر
 البلدي شائع في غوطة دمشق وفي ارجاء العاصي ويسميه الحمصيون البقر الحلي
 والحمويون البقر الشامي وهو كبير طويل القامة (متر وربع الى متر ونصف) صلب
 العود قصير الرأس والثرون ناعم الجلد تغلب الشقرة على لونه وقد يكون كميئاً او الى
 سواد أحياناً . ووزنه ٣٠٠ — ٥٠٠ كيلو غرام وهو بالنظر الى كبر قدره أقرب
 الاصناف الى البقر الاوربية ولذا يصلح للحرث حراثاً عميقاً عدا ان أثنائه اذا علفت
 علفاً غزيراً تحلب في الغوطة طول السنة نقر بياً . ويحسب انها تدر عندئذ
 ١٢ — ١٥ كيلو غراماً في اليوم خلال سمة أشهر عقب الوضع و ٨ — ١٠
 كيلو غرامات في اليوم في الثلاثة الاشهر التي تليها ثم ٤ — ٥ كيلو غرامات في
 اليوم خلال شهرين آخرين . فيكون الوزن المتوسط لما تدره من اللبن في السنة
 ٢٥٠٠ — ٢٧٠٠ كيلو غرام .

ولا يألف البقر البلدي كل اقليم الشام بل يتطلب اقلية معتدلاً ورطباً ، ولهذا
 يندر ان تراه في غير البساتين وهو لا يقاوم الحر فيسهول الشام التي لا ماء للري
 فيها كحوران والبلقاء وسهول حمص وحماة وغيرها . وعدده ليس عظيماً ولا يزيد
 على ١٠ او ١٢ في المائة من مجموع بقر الشام .
 ويسمى البقر الجولاني باسماء مختلفة فيقال له الخميسي في النبك والزبداني والبزري

في حماة . ويغلب على الظن انه حصل من إسفاد الثور البلدي على البقرة العكش ولذا جاء قده ووزنه وتكوينه وطباعه بين بين . فان له رأساً قصيراً وجبهة عريضة وقرنين متجهين الى الأمام وثوباً أسود في الغالب وقد يكون أشقر أحياناً . اما طوله فنحو ١٦١٥ الى ١٦٣٠ متر واما وزنه فنحو ٢٥٠ كيلوغراماً . وهو يعد في العوامل وتعطي أثنائه قليلاً من اللبن . وليس له رقة البقر البلدي وهو أكثر منه تحملاً للحر والقر والجوع والتعب . ونسبته للمجموع ١٥ في المئة نقر بياً .

وأشهر البقر اليوم هو الذي يدعى (البقر العكش) في أكثر أنحاء الشام . ويسميه الحمويون (القليطي) والحمصيون (الاناضولي) . ولا تختلف تحليته من حيث تكوينه عما ذكر . وهو له جرم صغير حتى ان ارتفاعه لا يزيد على متر وعشرة سنتيمترات الى متر وربع ووزنه نحو ٢٠٠ كيلوغرام وقد يكون أقل من ذلك فهو إذن لا يصلح للحرث بمحارث حديثة نعور في التراب كثيراً . ويغلب عليه اللون الاسود وقليلاً ما يكون أبرش أو أشقر . ويحتمل هذا الصنف من البقر الجوع والتعب والحرب والبوسة ولهذا تبلغ نسبته نحو ٧٥ في المئة من مجموع بقر الشام . ودرء أثنائه قليل ويسهل علفه وتسمينه بالغذاء .

الضأن — ينسب الضأن في الشام الى العرق الشامي او الآسيوي وهاك تحليته فنياً : رأسه طويل قليلاً وجبهته تكاد تكون مستقيمة ، وقرناه معقوفان متجهان الى الوراء ، وقد ينفرعان ، ووجهه مستطيل ، وعظام مخزه طويلة ، ومنظر رأسه ووجهه يتم عن احدياد قليل ، وذنبه عظيم فيه مقدار كبير من الدهن . ووزنه المتوسط نحو ٤٠ كيلوغراماً وطوله ٦٥ — ٧٥ سنتيمتراً . وهو يسهن بسهولة . اما مقدار الدر في النعاج فمتوسط .

وفي الشام أصناف للضأن أشهرها المسمى (عواس) او ضأن الموصل وهو شائع في حمص وحماة والبقاع ودمشق ولبنان وغيرها من أنحاء الشام . صوفه أبيض يبلغ كيلوغراماً ونصفاً الى كيلوغرامين وقد يزيد على ذلك . وينقص نحو نصفه اذا غسل . ويبلغ وزن إيتيه ٥ الى ٦ كيلوغرامات وطول الشعرة من صوفه ١٥ — ١٨ سنتيمتراً .

وجميع ما ذكرته من الارقام هو الحد الأوسط ورب كيش سمن في لبنات بورق التوت والكرمة فبلغ وزنه ضعفي ما ذكر ، وبلغ طول الشعرة من صوفه ٣٠ سنميتراً وزاد وزن اليته على ثمانية كيلو غرامات ، ورق صوفه و سمرن . ويرد الى الشام أصناف أخرى للضأن كالحمراء والبرازية والشقراء والنجدية ، ثم ضأن أرزنجان او المور في حلب وهو ذو صوف أحمر او الى سواد . وتدر النجعة لبنا ٤ - ٥ اشهر فتعطي في اليوم نحو ٥٠٠ غرام . لكنها اذا علفت كما في حمص والبقاع فقد تعطي ٧٥٠ غراماً الى كيلو غرام من الحليب في كل يوم . واعلم ان جز الصوف يبدأ في آذار وينتهي في أيار في المناطق الباردة ، واكثر ما يكون في نيسان . ويستعملون للجز مقصاً طويلاً معروفاً .

ويزيد عدد الضأن في الشام على مليوني رأس ، وتربته شائعة لدى العشائر البدوية الضاربة شرقي الشام ومنها الجزيرة . وقد اشتهرت عشيرة الحدبدين بحسن تربية وانتخاب الكباش والنعاج الصالحة للسفاد . واشتهر السمن الحديدي نسبة الى تلك العشيرة التي تقطن منطقة الحمراء ومعرة النعمان في الصيف . وينقل في كل سنة قطعان عظيمة من الغنم من الروم والعراق الى الشام حيث يستهلك بعضها ويرسل الآخر الى مصر وجزر يونان وغيرها .

المعز - معز الشام من العرق الافريقي وتحت العرق النوبي (نسبة الى النوبة) وهي تعرف برأس طويل ووجه قصير على شكل مثلث قاعدته ضيقة ، وجهته محدبة كثيراً . وهي على صنفين البلدية والجبليية ، فالمعز البلدية يبلغ ارتفاعها ٧٠ - ٧٥ سنميتراً ووزنها ٣٠ - ٣٥ كيلو غراماً ، ولها ثوب احمر او احمر ملبع ببياض . وقد تكون شهباء او سوداء احياناً وقد تجمع ثلاثة ألوان منفردة بياض وحمرة وسواد . واذا كان لونها احمر وجهتها بياض سميت صبحاء بدمشق ، اما اذا جمعت البياض والحمرة فتسمى عجمية ، وهي جماء في الغالب . واذا نجحت لها قرون تظل صغيرة وكثيراً ما تقطع ، وينمو لكل منها زئمان طويلتان فتسمى الشاة قرطاء وهي شية حسنة تزيد ثمنها ، وأذناها طويلتان متديلتان وكثيراً ما ينيف طول واحدتهما على شبر و يقطعها الاكارون اذا أفرطتا في الطول . والبلدية من أجود المعزى

الحلوبة فهي اذا صادفت عناية تدر في اليوم ليتين الى ثلاثة من الحليب مدة ستة أشهر وتدر نصف هذا المقدار نقر بياً خلال شهرين آخرين . وهي ترعى في الغوطة العشب النامي حول القتي ومجاري الماء وترعى ايضاً الفصفصة والبيقة الخضراء ، وكثيراً ما تملف نحو كيلوغرام من حب الجلبان صباح كل يوم قبل تسريحها وهذا خاص بالحلوبة منها . والماعز الجبلية تشبه البلدية بصفاتهما الفنية لكنها أقصر منها ، ولها ثوب اكثر ما يكون أسود ، وهي ليست دروراً بقدر البلدية . والمعزى الجبلية متمحمة في كل انحاء الشام فلا تخلو منها قرية على العكس من البلدية التي تكاد لا تخرج عن المدن والمناطق التي يكثر فيها الكلاً في كل فصول السنة .

الإبل -- إبل الشام من ذوات السنام الواحد . اما ذوات السنامين فتوجد في جبال فارس والاناضول وبلاد الكرد وتنتقل اليها من آسيا الوسطى . ولما كانت تحتمل البرد والسير في المسالك الوعرة فقد فكر الشاميون في إسناد فخولها على النوق الشامية فحصلوا على هجن لها سنام واحد كأهانتها وذات جلد على السير في الجبال والاوزار كأبائها . وهذه الهجن شائعة في الجزيرة ولبنان وعجلون وغيرها وهي تعرف بقصر القامة وصغر الرأس .

والركائب من إبل الشام أصناف وأشهرها اليوم إبل الحرة لدى عشيرتي بني صخر والشرايات وغيرهما في البلقاء . وينتقي الجيش ركائبه من هذه الإبل غالباً . ومنها الإبل العُمانية أصلها من عُمان وهي ذات رأس نحيف وقد أهيف ومزاج عصبي . وجيش الهند يتناع منها ما يلزمه من الإبل ، ومنها الإبل التيبية أصلها من السودان وترد الى فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر . وقد كانت إبل الجيش الانكليزي من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى .

ويطلق الاوربيون كلمة (Mehari) على الإبل السبابة عموماً او على عرق معلوم منها . وأظن ان هذا الاسم مشتق من الإبل المَهْرِيَّة المنسوبة الى مَهْرَةَ ابن حيدان وهي مشهورة بالسبق .

والبعير صديق البدوي الحميم ولولاه لزال البداءة ، فهو يحمل الخيام والماء في المراحل الخالية من الماء ومؤناً تكفي لسته أشهر بقضيها البدوي مع عشيرته في صحراء

الشام • ويحمل البدوي نفسه وعياله وسلاحه • وتُحلب الناقة بعد الوضع في كل يوم خمسة ليترات الى عشرة في مدة سنة او اكثر ، وحليب النوق لذيذ ملين ، وليس لحم الجمل أردأ من لحم البقر الذي يأكله الاوربيون جميعاً ، ووبر الجمل ألين من صوف الضأن ومنه تصنع عباءات الوبر العراقية الشهيرة ، وتصنع من جلده قرب عظام منها ما يسع ٢٠٠ ليتر من الماء و يصنع ايضاً نعال قوية لا تنفي من جلد ركبتيه وغيرهما من أعضائه التي تحتمك بالارض بينما يكون الجمل جالساً •

* * *

الصناعات الزراعية ١ ليس في الشام اليوم معامل عظيمة للمصنوعات في الشام ٢ الزراعة كما في اوربا ، لكن لبعض هذه المصنوعات (وان كانت تصنع على الطرائق القديمة) شأناً كبيراً في حياة البلاد الاقتصادية • وأهم هذه المصنوعات قمرالدين والنقوع والزبيب والدبس والصابون والزيت والسمن والعرق والخمر والجبن والطحين والنشاء •

قمرالدين — يصنع أشهر قمرالدين في الغوطة والمرج وقليلاً في وادي العجم والزبداني وبعبك وفي كل مكان فيه مقدار من شجر الشمس • ويلزم اربعة ارطال الى اربعة ونصف من الشمس للحصول على رطل من قمرالدين ، وهو يصنع من الشمس الكلاي وبندر صنعه من الشمس البلدي ، واشتهر منه بدمشق ما يرد من قرية زمكا وعربل من قرى الغوطة ، وليس صنعه امراً عسراً فالشمس يسحق بالايدي في غربال موضوع فوق بناء يسمى تيفاراً مفروشة ارضه بالشممنو ثم يعترف العصير بكيلة من خشب ويفرش بمهارة على لوح من خشب بعد ان يطلى اللوح بقليل من الزيت ، وبعدها يوضع اللوح في الشمس يوماً ونصف يوم فيجف العصير و يصير شرائح وزن كل منها رطل ثقباً وهي « لفات » قمرالدين المعلومة •

أعظم تجارة قمرالدين هي في خان الباشا بدمشق ، ومعظم قمرالدين الذي يصنع حوالى دمشق يتسجن اليوم الى مصر وشمال الشام ، ويقدر ما يصنع منه سنوياً بنحو ٤٠٠٠٠ قنطار دمشقي وهو المقدار المتوسط ، (يساوي القنطار الدمشقي ٢٥٦ كيلو غراماً) •

النقوع — هي ثمار الشمس المجففة وتسمى بالعربية المُنْفَاقُ ، تصنع من الشمس البلدي وذلك بان يوضع الشمس - في الشمس على مسطح من القش مدة اربعة ايام ، ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين ، ثم ترقق أطرافها بالاصابع ثم تترك يومين او اكثر فيجف ، ويلزم خمسة أرطال من الشمس للحصول على رطل من النقوع ، تجارة النقوع شهيرة في خان الباشا ، ويدل إحصاء المكس في بيروت على انه صدر منها وحدها سنة ١٩١١ ميلادية ٦٨٠,٠٠٠ كيلو غرام من النقوع ومليون ونيّف كيلو غرام من بزور الشمس وهي تصلح لاستخراج زيت منها .

الزيب والدبس — أجود زيب عرفناه في الشام ما يحصل من زيب العنب الدريلي في جيروود والرحبة والريحان ودومة ، ويليه زيب الصلت . ويصنع الزيب في كل القرى التي فيها أعتاب ، وليس في صنعه صعوبة ، فالعنب يغطس بماء فيه شيء من القلي والزيت ثم يفرش على مسطح مدة ثمانية ايام فيجف . ويجسب ان كل اربعة ارطال من العنب ينج من رطل من الزيب . وللثمار المجففة في الشام شأن كبير في المستقبل اذا صحت العزيمة على الاعناء بصفها وبقطرها وشحنها الى البلاد الأجنبية كما يفعل الزراع حول مدينة ازمير بزيبهم وتينهم المجفف .

ويصنع الدبس اما من الزيب او العنب ، ففي الحالة الاولى يدرس الزيب في المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة ، ثم يوضع في قدر كبيرة ويغمر بالماء مدة ٢٤ ساعة ، ثم يؤخذ ماء الزيب (جلاب او صلبة) ويوضع في مرجل وتضرم النار تحته حتى يتحصل الدبس . ويلزم مائة رطل من الزيب للحصول على ٦٠ الى ٨٠ رطلاً من الدبس . واشتهر دباسو قرى معربا ودومة وعربيل بصنع دبس لذيذ بمطروونه بعطر الورد أحيانا .

الصابون — أشهر مصابن الشام في طرابلس ونابلس ودمشق وحلب وكرز ، و يبلغ المقدار المتوسط للصابون الذي يصنع سنويا في الشام نحو ١٣٠٠٠ طن . وصناعته على الاصول القديمة .

الزيت — أشهر الزيوت ما يصنع في معاصر لبنان وفلسطين وأشهرها جميعا زيت الزامة وهي قرية قريبة من عكا ، اما في دمشق فقد اعتاد أرباب الزيتون

ان يتركه مدة طويلة في المعصرة ، فيختم ويتعفن ويحصل له طعم كريه ، حتى انه ليشق نصره خارج الشام . والداعي الى ذلك قلة المعاصر بدمشق وخصوصاً اعتقاد الزراع بانه بقدر ما تطول المدة بين قطف الزيتون وعصره تزداد نسبة الزيت المتحصل بالعصر . واعتقادهم هذا صحيح الا ان زيادة نسبة الزيت لا توازي هبوط سعره المنبعث عن رداءة طعمه .

ويتوقف استخراج الزيت على الأعمال الآتية : (اولاً) سحق الزيتون ويكون بواسطة اسطوانة من حجر يديرها بغل داخل وعاءٍ مستدير من حجر . (ثانياً) كبس الزيتون المسحق لفريق الزيت عن الثفل ويكون بمكبس عادي او مكبس مائي . (ثالثاً) تفريق الزيت عن الماء والعناصر الاجنبية المختلطة به وذلك بترك العصير يروق فيفترق الزيت الصافي لانه يطفو على وجه العصير . اما الثفل فهو يسحق ويكبس فيخرج منه زيت أسود يسميه الدمشقيون (زيت الجفت) يستعمل في صنع الصابون . وفي الشام اليوم أكثر من ٤٠٠ مكبس منها نحو ٢٠٠ مكبس مائي ، ويستدل من عدد المكابس على عدد المعاصر ، واذا استثنينا فلسطين وشرقي الأردن فان متوسط ما يستخرج من الزيت في باقي أنحاء الشام يقدر بنحو ١٠٥٠٠ طن نصفها اليوم في لبنان . السمن — هو المادة التي يطبخ بها الشاميون أكثر أغذيتهم على العكس من الفرنج فهم يطبخونها بالزبدة ولا يعرفون السمن ، ويصنع السمن بمخض اللبن في مماخض من جلد الغنم ، تعلق بمجلىين يُشداً الى دعائم ، ويدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل المخضة ويقشط بعد تفريغ اللبن . ويقدر انه يحصل اربعة أرتال من السمن من مائة رطل من اللبن . والسمن من صناعات البدو المختصة بهم ، وأجود السمن تلك التي تصنعها عشيرة الحديدبين شمالي الشام بلبن الضأن .

العرق والخمر — العرق الذي المسكرات وأرجحها لدى الشاميين ، ويصنع منه ما لا يقل عن ١٥٠٠٠ هيكوليتير في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنان ووادي التيم . يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى اذا اختم يضاف اليه الأيسون بحيث يكون حظ كل مائة كيلو غرام من العصير ثلاثمائة غرام من الأيسون ، وبعدها يقطر العرق بالانبيق فيكون مقداره ربع

العصير نقر بياً ، واذا أريد الحصول على عرق نسبة الكحول فيه أكبر (عرق مثلث) يعمد الى العرق الاول فيضاف اليه مقدار من الأينسون ويقطر منه عرق ثقيل .
 وليس شرب الخمر شائعاً في الشام شيوعه في اوربا حيث يقوم مقام الماء اثناء الطعام . واكبر المعامل لصنع الخمر هو معمل ريشون في عيون قارة في فلسطين وهو معدود من اكبر معامل العالم ويشحن نبيذه الى مصر والعراق وحتى الى اوربا ولا يستهلك من نبيذه في الشام الا مقدار قليل ، ويليهِ معمل كسارة ومعمل شتورة في البقاع .
 النشاء — يصنع في الشام لاسيما في دمشق وحلب مقدار من النشاء لاستهلاكه في البلاد ، وقاعات النشاء في دمشق معروفة ، وهو يستخرج فيها من الخنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها . ننقع الخنطة في الماء نحو عشرة ايام ثم تسحق بجحر الرحي وتمرس بالماء بضع مرات حتى يخالط النشاء الماء وبعدها يترك المائع فيرسب النشاء في قعر الوعاء ، ويحسب ان القنطار من الخنطة يعطي ٦٥ — ٧٠ رطلاً من النشاء بهذه الطريقة ، اما النفل فتعلمه الجمال .

المطاحن — كانت كل مطاحن الشام الى عهد قريب عبارة عن احجار رحي يديرها الماء بقوة انحداره ، اما اليوم فيشاهد المرء عشرات من المطاحن البخارية في الاماكن التي لا ماء فيها عدا بضع مطاحن على آخر طراز من الفن اي ان ارحيتها اسطوانات تدار بالكهرباء وهي في دمشق وحمص ويافا .

الجبن والقشطة — تعزل القشطة عن الحليب فتؤكل وحدها وتضاف الى بعض الحلواء ، وتصنع جبنة لاذة لها بالحليب الذي فرزت قشطته ، واشهر انواع الجبن المصنوع في الشام الأبيض والحلوم الحلبي ، وقد أخذ الشاميون يصنعون جبن البلقان المسعى قشقوان ولم يتوصلوا الى تخميره كما في بلاده الاصلية ، وجميع انواع الجبن المذكورة بعيدة عن ان تساوي انواع الجبن الاوربية بلذتها وتعدد انواعها .

نذكر في هذا البحث أقسام الارض والضرائب	}	زراعة الشام من الوجهتين
الزراعية وطرائق استثمار الارض وإقراض		المالية والاقتصادية

• الزراعة

أقسام الارض — تقسم الارض في الشام من الوجهة القانونية الى خمسة اقسام وهي الارض المملوكة والاميرية والموقوفة والمتروكة والموات ، ولكل قسم من هذه الاقسام نظام خاص في دفع الضرائب الزراعية كما سيبي ذكره .

فالارض المملوكة هي التي يملكها صاحبها ملكاً صحيحاً تاماً بحيث يستطيع وقفها وعدم زرعها مدة طويلة ، ومشالها الحدائق المتصلة بالبيوت وما يسمى الارض العشرية واخراجية (بعض بساتين محيطه بمدينة دمشق الخ) . والارض الاميرية هي التي يعود تملكها (رقيبتها) لبيت المال ، وهو يخول الاهلين استثمارها اي حق التصرف بها بصك يسمى « سند التصرف » . ومعظم الارض في الشام من هذا القسم . وليس من فرق كبير في الامور الجوهرية بين المتصرف بالارض الاميرية وبين مالك الارض المملوكة ، لان الاول وان كان لا يملك الارض قانونياً فان له سلطة كافية في استثمارها و فراغها على حسب ارادته ، وهي تنتقل لورثته بعد وفاته ، لكنه لا يستطيع وقفها الا باذن وهو ان لم يستثمرها ثلاث سنين بلا عذر مقبول يضطر الى دفع قيمتها على شكل معلوم ، حتى اذا استنكف من الدفع عدت الارض محولة ووجب بيعها بالمزاد العلني . وثمة فرق بين الارض المملوكة والارض الاميرية ، وهو ان للورثاء من الدرجة الواحدة حصصاً يتساوى فيها الذكر والانثى في الارض الاميرية ، اما في الارض المملوكة فللذكر مثل حظ الانثيين . ولا يسمح للمتصرف بالارض الاميرية ان يوصي بها بعد مماته وعلى العكس في رب الارض المملوكة . والارض الموقوفة هي التي حبست في سبيل البر وليس من شأننا البحث فيها . والارض المتروكة هي التي تركت للنفع العام كالطرق والساحات والبيادر والمحتطبات ومراعي القرى . وهي لا يملكها احد بل تظل رقيبتها لبيت المال واتصرف بها للجموع . والارض الموات هي الارض البعيدة عن العمران التي لا يتصرف بها احد . والحكومة تعطي رخصاً باحياء الارض الموات فبالصرف بها على شروط موضحة في قانون الارض .

* * *

على الارض الاميرية في يومنا هذا نوعان من }
الضرائب الزراعية }
الضرائب ، ضريبة تابعة لقانون ٧ رمضان

سنة ١٢٧٤ هـ وقدرها ٤ في الالف من ثمن الارض ، وضر بية أعظم شأنًا واكبر تأثيراً في زراعة البلاد وهي العشري اي استيفاء عشرة في المائة من محاصيل الارض غير الصافية يضاف اليها اثنان ونصف باسم المعارف والمصرف الزراعي . اما الارض المملوكة (وهي كما قلنا قليلة في الشام الا في لبنان الصغير حيث كل الارض تعد مملوكة) فصاحبها لا يدفع العشر من غلاتها بل يدفع عشرة في الالف من ثمنها في كل سنة . والعشر من مصائب هذه البلاد المزمنة لان ١٢٦٥٠ في المئة من المنوجات غير الصافية هي نسبة كبيرة في ذاتها ، ولانه يصعب جداً تخمين الغلات على وجه الضبط لآخذ هذا المقدار منها . فقد حارت حكومات الشام في طريقة استيفاء العشر او ثمنه ولا تزال حائرة ، لانها اذا خمنت الغلات تخميناً فقد يضل الخنون او يتعمدون الخطأ أحياناً فيُظلم الفلاح اذا جاء التخمين زائداً عن الحقيقة ، والا فيخسر بيت المال . واذا باعت العشر بالمزاودة العلنية من ملتزمين فهم لا يُقدمون على سوى قري الفلاحين فيظلمونهم بطرق شتى دون ان يجسروا على المزاودة في عشر قري الوجهاء ، فيكون الضرر مزدوجاً على الفلاح وعلى بيت المال معاً . وقد رأيت الحكومة اخيراً ان تعمد الى معدل عشر اربع سنين ماضية فنقره وتستوفي ضريبة محدودة مساوية له سواء زرع الفلاحون الارض او لم يزرعوها . وهذه الطريقة في استيفاء العشر وان كانت أصلح من الطريقة السالفتين الا انها ليست عادلة اذا قلَّ المطر في احدى المناطق بعض السنين هذا عدا ان أساسها فاسد ، لان متوسط عشر سنين اربع في قري الفلاحين يكون قريباً من العشر الحقيقي غالباً . اما في قري الوجهاء فيكون أنقص لان الاعيان لا يدعون الحكومة تصل الى حقها كما بينا .

والخلاصة ان مسألة العشر في الشام من أعقد المسائل وكثيراً ما اقترح ارباب الفلاحة على الحكومة ان تسمح الارض كما في بلاد الفرنج (كاداسترو) وتضع على الارض وما تنتجه ضريبة واحدة لا تتبدل تخلصاً من العشر كما عليه العمل في ارض مصر . وارى ان هذا الاقتراح في غير محله او هو مما يتعذر اتباعه في كل أنحاء الشام على السواء . لان الامطار في الشام متفاوتة التهطل . فقد يهطل في سنة ثلاثة أضعاف ما يهطل في السنة التالية ، لا سيما في سهول الشام الشرقية ، ولهذا

يختلف محصول الارض اختلافاً عظيماً كل سنة . وقد تحل منطقة واسعة في احدى السنين ولذلك لا يجوز ان يستوفى منها في تلك السنة ضريبة كالتي نستوفى في سني الخصب . اما اذا كانت الارض تسقى بماء نهر او قناة فعندها يمكن وضع ضريبة ثابتة عليها كما في الغوطة مثلاً .

طرائق استئجار الارض } اذا قلنا ان اكثر من ستين في المائة من سكان الشام يعملون في الفلاحة رأساً او بالواسطة فلا نكون مغالين في قولنا لان سكان المدن الكبيرة والمتوسطة وان كان عددهم يقرب من نصف مجموع السكان في الشام فكثير منهم لا عمل له غير الفلاحة . ويتصرف الشاميون اليوم بالارض على نسبة غير عادلة ، ومعنى هذا ان ارباب الوجاهة والثروة على قلتهم يتصرفون بمساحات واسعة جداً في كثير من المناطق ، بينما الفلاح يعمل في الارض دون ان يكون له في تملكها نصيب . ففي أطراف حماة مثلاً ١٢٤ قرية منها ثمانون في المائة لأرباب الوجاهة من عيال لا يتجاوز عدد الاصابع ، والباقي وهو عشرون في المائة يتصرف به الفلاحون ورجال الطبقة المتوسطة من الشعب . وفي أطراف حمص ١٢٦ قرية منها ثمانون في المائة للوجهاء دون غيرهم وعشرون في المائة مشاع بين هؤلاء الوجهاء والفلاحين الا بضع قرى لم تمتد اليها أيدي المتغلبين فلبثت للفلاحين وحدهم . وهكذا قل عن كثير من مناطق الشام كقرى معرة النعمان وغيرها في حلب . وليست الحالة كذلك في حوران حيث ترى ٩٥ في المائة من الارض موزعة بين سكانه على نسبة عادلة ، وكلهم أرباب فلاحة وكذا في جبل حوران وعجلون والبلقاء والكرك ووادي التيم واقليم البلان ، وما من بيت من بيوت دمشق الكبيرة الا ويملك مساحات واسعة في الغوطة بل نصف الارض فيها بيد متوسطي الزراع والربع بيد صغارهم والربع الاخير يخص أرباب الوجاهة بدمشق .

و يفيد في هذا المقام ان اذكر كلمة عن الاملاك الواسعة التي تخص اليوم بيت المال والتي أدير شؤونها باسم حكومة الشام فأقول : كان السلطان عبد الحميد العثماني من أقدر السلاطين على تملك الأرضين وجمع الثروة ، فقد تملك لشخصه شرقي حمص

وسلمية نحو مليون هكتار من الارض تشتمل على جبل البلعاس والشومرية وتمتد الى
مقربة من تدمر ، وعمّر فيها نحو مائة وعشرين قرية ومزرعة تستثمر نحو مائة
الف هكتار . وتملك في انحاء حلب نحو ٥٠٠,٠٠٠ هكتار فيها اليوم ٥٦٧ قرية
ومزرعة عامرة حوالى منبج والباب وعلى الشاطيء الغربي من الفرات من مصب الساجور
الى مسكنة ويشتمل معظم جبل الحاص ومساحات واسعة جنوبي حلب عند مصب نهر
قويق . واقفنى ايضاً سبع قرى في حوران منها قرية المسيمية كما اقفنى بيسان وبضع
قرى بالقرب منها . وكان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعني الزراع
المستأجرين من الهندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلا ربا
حتى عمرت تلك الانحاء بعد ان كانت منازل للهربان يعيثون فيها فساداً . ولما حصل
الانقلاب الشهير في طرز الحكم العثماني سنة ١٩٠٨ اضطر السلطان المشار اليه الى
النسازل عن هذه المعمورات الى بيت المال ، فأصبحت ملكاً له واصبح فلاحوها
مستأجرين لدى المالك الجديد ، وهو بيت المال او الحكومة . ويدفع الفلاحون
الى الحكومة عشرين في المائة من المستغلات في بعض الاماكن و٢٦٦٥٠ في المائة
في أماكن أخرى (عشر واجرة ارض معاً) . وهم وان كانوا مستأجرين لا يملكون
الارض رسمياً فهم يتوارثونها كما لو كانوا مالكيها والحكومة لا تُخرج فلاحاً من
قريته الا اذا أتى عملاً منكرًا من أحداث فتنّة او التمادي على الاضرار بالناس .
ولما كانت الحكومة تسلف هؤلاء الفلاحين اموالاً بلا ربا وكانت تستوفي من غلات
الارض نسبة أقل منها في قرى الوجهاء ، رجحت حالة الفلاح في املاك الدولة من
كل وجه على حالة الفلاح المسكين الذي يستعبده المنغلبون في قراهم . ومع هذا فقد
اقترحت على الحكومة منذ نحو سنين ان تبيع هذه الأملاك من الفلاحين نفسهم
دون سواهم على ان يدفعوا الثمن أقساطاً خلال خمس عشرة سنة ، وعلى ان يضمن
عدم مد المنغلبة أيديهم لهذه الارضين . وقد أقرت الحكومة البيع مبدئياً فاذا
استطعت السير فيه بنجاح حسبت نفسي سعيداً لأنني أعدت هذه المسألة من أفيد
المسائل العمرانية والاقتصادية لبلاد الشام . فقد أثبتت لنا الايام انه لا يستطيع
ان يزيد في غلات الارض سوى الذين يملكون فيها مساحات متوسطة او صغيرة .

ولنرجع الى طرق استثمار الارض المتبعة اليوم في الشام فنقول : اذا استثنينا الغوطة والمرج وبعض ارضين تسقى وما حوالى المدن من المزارع ، حيث يستغل بعض أرباب الزراعة ارضهم مباشرة ويدفعون الى الفلاحين المشغولين بها اجوراً مقطوعة سنوية او شهرية ، فان الارض في سائر انحاء الشام تستغل على طريق المزارعة بشرائط مختلفة (بالقسم) . ففي حمص وحماة يأخذ صاحب الارض ربع المحصول فيدفع منه العشر وتبقى الثلاثة الأرباع للفلاح . وفي هذه الحال يلزم الفلاح بجميع النفقات والاعمال ، ولكن صاحب الارض قد يقرضه البذار بر با في الغالب على ان يستوفيهما من البدر . و يأخذ اصحاب الارض ربع المحاصيل في بعض قرى حوران ويدفعون منه العشر وضريبة الارض ويكون الباقي للفلاح لقاء النفقات والأتعاب . لكن الطريقة الشائعة في حوران هي ايجار الارض بمقدار معلوم من الحب كأن تؤجر (الربعة) بنحو ٥٠ - ٦٠ مداً من الخنطة ، ولما كان يزرع في الربعة ارض تستوعب ٥٠ - ٦٠ مداً من البذار ، فاذا أغل المداربعة أمثاله او خمسة أمثاله تكون الاجرة التي استوفها صاحب الارض معادلة لربع المحصول او خمسة . وكما كانت القرية في منطقة سكانها كثار وأرضها ضيقة ، يزداد المقدار الذي يستوفيه صاحب الارض من المحصول والعكس بالعكس . ففي البقاع مثلاً يأخذ صاحب الارض نصف المحصول ويؤدي العشر منه الى الحكومة . وفي الحولة حيث الارض تروي تكون حصة صاحب الارض ثلث المحصول ويكون عشر المحصول عليه . اما في الغوطة والمرج فحصة صاحب الارض الثلث لكنه لا يدفع الى الحكومة سوى عشر هذا الثلث ، وعلى الفلاح ان يدفع العشر عن ثلثيه .

هذه بعض طرائق استثمار الارض وتعود فيها جميع النفقات والأتعاب على الفلاح . اما اذا أحب صاحب الارض ان يكون رأس مال الاستثمار منه فالفلاح الذي يشتغل في ارضه يسمى (مرابعاً) وهو مطالب باعمال فدان من البقر (زرع نحو ثمانية هكتارات حبوباً وتجهيز مثلها للسنة القادمة) . و يأخذ ربع المحصول او خمسة بعد رفع العشر من المجموع في الغالب .

إقراض الزراع } يعوز الفلاحين في الشام النقود الكافية لاستثمار
 أرضهم على مقتضى قواعد الفن . وهم كثيراً ما يستدينون المال من المرابين بفوائد فاحشة لا يبعد ان تبلغ ١٠٠ في المئة أحياناً .
 ولهذا ترى ان غلة أرضهم تكاد لا تكفيهم للاتفاق على حاجياتهم الضرورية وقلماترى
 فلاحاً في سعة . وكلهم يكدح طول السنة لتحصيل بلغة من القوت . وسبب ذلك
 ضيق ذات يد الفلاح . فهو لا يستطيع ان يحرق الارض حرثاً عميقاً بأبقاره الصغيرة
 المهزولة التي لا تملف غير التبن . ولا يستطيع ان يبتاع آلات زراعية حديثة
 او سمدة معدنية . ويستحيل عليه ان يخزن محصوله بقصد بيعه عندما يغلو ثمنه ، لأنه
 في حاجة دائمة الى المال . والسعيد من الفلاحين من لم يتقل الدين كاهله ومن كان
 مفلتاً من براثن المنغلبين والمرابين .

اتضح للحكومة العثمانية ان الأكارين وأصحاب الارض هم في حاجة كبيرة الى مصرف
 زراعي يقرضهم المال بفائدة محدودة الى مدة طويلة فأستت المصرف الزراعي وجمعت
 له رأس مال صغير بان أضافت الى العشر الذي تستوفيه من حاصلات الارض ٠١٥٠
 في المئة من الربع باسم هذا المصرف ، وأوجدت له فروعاً في الأطراف وسنت له
 قانوناً محكماً بعد درس واختبار فأقبل الفلاحون عليه ايماً إقبال . ولما كان رأس
 ماله قليلاً فقد لبثت فائدته محدودة ، فعسى ان تهتم الحكومة الخاضرة بتزويد رأس
 ماله وهو من أنفع أعمالها ولعلها لا تسمح لبرائن الأجنبي ان يناله أذاها .

الخلاصة } مها كتب الكتاب ونقل المحدثون عن المعادن في الشام
 وغناها فقد دلتني الإختبار على أثر تجولي في أنحاء هذه البلاد
 ودلنتني أحاديثي مع بعض كبار المهندسين الجيولوجيين الذين لم يتركوا مكاناً يمكن ان
 يكون فيه معدن الا رحلوا اليه ، ان الشام فقير جداً بالمعادن المفيدة من الوجهة
 الاقتصادية . ومعناه ان عدد هذه المعادن وان كان عظيماً وكذا أنواعها فهي لا كبير
 فائدة منها اللهم إلا معدن الحمر في حاصبيا .
 والبلاد التي ليس فيها معادن ذات شأن (لاسيما الفحم الحجري الخالص لا اللينيت)

لا يمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة . ولهذا لا نرى في الشام الا صناعات بدوية
 كنسج الملابس الأهلية في دمشق وحمص وحمّة وكالمصنوعات الخشبية والنحاسية
 وغيرها . فالشام إذن لا يمكن ان يكون له عظيم شأن في المعادن والصناعة ، وليس
 له اليوم شأن يذكر في التجارة لكن له مستقبل حسن في قضية الاتجار بالسيارات مع العراق
 وبلاد العجم عن طريق بادية الشام . ونستنتج من بحثنا عن الفلاحة ان لها في الشام
 شأنًا غير شأن الصناعة والتجارة . فاذا أحصينا بالنكس مثلاً أنواع الاشياء الأهلية
 التي تصدر من الشام الى البلدان الأجنبية نجد ان أكثر من ٩٠ في المئة من هذه
 الصادرات هي غلات او مصنوعات زراعية نباتية او حيوانية . ثم اذا أمعنا النظر في
 أنواع واردات الحكومة في الشام نرى ان نحو ٥٠ في المئة منها هي واردات زراعية
 مثل عشر المستغلات والضريبة على الارض والماشية وواردات أملاك الدولة وواردات
 الحراج وغيرها . فزراعة القطر الشامي إذن وإن كانت لاتساوي زراعة البلاد الغزيرة
 الامطار او التي منحتها الطبيعة أنهاراً كبيرة فهي الركن الأعظم في حياة هذا القطر
 الاقتصادية . انتهى ما كتبه الصديق الامير مصطفى الشهابي .



الصناعات الشامية

— ٣٥٥ —

مواد الصناعات } تنوقف الصناعات في بلد على وجود المواد الأولية فيه ،
وكان ذلك في القديم أقوى عامل في قيام امر الصناعات ،
والمواد الأولية في الشام على حصة موفورة لا ينقصها اليوم الا الفحم الحجري وبعض
الأصباغ . وكانت الشام منذ عرف تاريخها مشهورة بصناعاتها لتوفر موادها المستخرجة
من سطح أرضها وبطنها . وتسلسلت الثقافة بها تسلسلاً عجيباً في البهوت الصناعية ،
وكانت الامة الخالفة تأخذ عن الامة السالفة هذه الثقافة والدربة على نحو ما يعلم
الصناع ابناءهم . والصنائع كما قال ابن خلدون لا بدّ فيها من العلم ، وانك لتجدها
في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها
ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل ، وعلى
رسوخ الحضارة وطول أمدتها تكون جودة الصنائع في الامصار .
ان بلاداً هي معدن الحرير والصوف والوبر والمرّ عرّبي والقطن والكتان
والقنب يفيض عن حاجياتها وكلياتها . وفيها الحديد والنحاس والقصدير وغيرها من
المعادن ، وتجد في سهولها وجبالها الأخشاب على أنواعها ، وتكثر في ارجائها الحيوانات
الداجنة والمفترسة ، وفيها المياه الدافقة والشلالات البديعة . ان بلاداً تحوي هذه
الخبرات لتحتاج الا الى أبدّ صناع لصنعها ، وعميون عوّدت النظر الى الجميل واقتباس

النافع منه ، ونفوس طبعت على حب التقليد والاحتذاء ، حتى تخرج ما به نفاخر ،
وتعيش من عملها عيشاً غصاً نضراً .

الغزل والحياكة } كانت النساجة والحياكة والغزل راقية في معظم ما عرف
والنساجة } من أدوار الارتقاء ، وقلماً أخرجت الشام رذالة المتاع
ورديته ، بل جيده ونفيسه ، وكان أهلها ولا يزالون يحسنون غسلها ونفشها ومشطها
وحلجها وفتلها ومشقتها وحياكتها ونسجها . واشتهر القطر منذ القديم ببزّه وقماشه
ودباجه وخزه وبروده . وكان للدباجين صناع الدباج والاكسية والمسوح صناعة
راجحة ، والى اليوم لم يبرح حلاجو القطن ، ومنهم من يستعمل لها الآلات الأفرنجية
الحديثة ، ومنهم من اقتصر على القوس والنداف على الطريقة القديمة في الحلج والغزل
في مغازل أولية تدار بالأيدي يخرجون بها كل ما يقوم بحاجة البلاد الا قليلاً .

أخذت معظم المدن والبلدان حظها من هذه الصناعات ، فاشتهرت في غابر الدهر
مدينة أعناك في حوران بأكسيتهما الجميدة اشتهاردا ببسطها ، وعرفت بعلبك بتيابها
المنسوبة اليها من الاحرام والمشدّات وثوبها المعروف بالبلعبيكي . وتآقت شهرة
التياب البلعسية نسبة الى كورة البلماس من عمل حمص على الأرجح . وعرفت
منبج بالاكسية التي كانت تعمل فيها ونسب اليها فيقال « الانبجاني » والانبجاني كساء
صوف له خمل ولا علم له وهي من أدون الثياب . ومن ثيابهم الخميصة الشامية وهي
برنكان أسود معلّم من المرعزي والصوف ونجوه او كساء أسود مربع له علمان ،
وقد تكرر في الحديث الشريف ذكر الانبجاني والخميصة . والخميصة قد تكون من
الحرير والبرنكان والبركان والبركاني والبرنكاني الكساء الاسود وجمعه برانك .
وكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال له الصفدية . وتعمل الثياب الخفية
نسبة لكورة الحفة غربي حلب . وكان لاهل رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة
حذق في عمل الاكسية وكل رجل فيها غنيمهم وفقيرهم يغزل الصوف والنساء يلبسن .
وكانت تعمل في الشام الاكسية المرنبانية قال ابن سيده : يقال كساء مرنباني ومؤرنب

فالمرنباني لانه لون الأرنب والمؤرنب ما قد خلط في غزله وبر الأرناب ، ويقال بل هو كل مرنباني . وكانت تصنع فيها القטיפفة المخملة اي ذات الخمل وهي المخمل . واشتهرت حمص بمصنوعاتها من أمشة وفوط وغيرها وقيل ان حمص نثلو اسكندرية مصر فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع ، وحسن الأوضاع ، لولا قلة مائه ، وقحولة جسمه ، مع انه يبلغ الغاية في الثمن ، وان لم تلحق بالاسكندرية فانها تفوق صنعاً اليمن . وقال الادريسي في صور : انه يعمل فيها من الثياب البيض المحمولة الى الآفاق ، كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ، ثمين القيمة ، وقليل ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها . وكذلك حماة وطرابلس وحلب . ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة تبرع فيها ، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق .

فقد ذكر الادريسي انها كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن « وضرروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والدباج النفيس الثمن العجيب الصنعة ، والعمد المثل ، الذي يحمل منها الى كل بلد ، ويخيز به منها الى كل الآفاق والأمصار المصاغبة لها ، والمتباعدة عنها . ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، تضاهي دباجتها بدباجة الروم ، وتقارب ثياب دستوا ، ونافس أعمال اصبهان ، وتشف على اعمال طرز نيسابور ، من جليل ثياب الحرير المصمتة ، وبدائع ثياب نيس ، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن حجة ، فلا يعادها جنس ولا يقاومها مثال اه » .

وقيل ان اسم «الدمقس» مشتق من اسم مدينة دمشق . ونقل الشاميون الى الاندلس صنعة الأقمشة المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان من دمشق فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها (Damasser) اي عمل ثياباً على النمط الدمشقي . قال البصري : ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش ، وهو النسج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ، ومنها عمل القماش الأطلس بكل جنسه وأنواعه ، ومنها عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه ، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله ، وتباين أوصاله ، ومنها عمل القماش الأبيض القطني .

وكان من أنواع الثياب في القديم ما أنسيناه وأنسينا أسماءه ومنها المنير والمعين
والمسير والمفوف والمسهم والمعمد والمعرج والمهلل والمكعب والمطير والنخيل . ولاشتمار
دمشق بالحرائر والمنسوجات الغزلية الفائقة بوشمها وحسن طرازها ، عرفت هذه الصناعات
باسم المدينة فيقال لها « الداماسكو » والداماسكو قماش غليظ برسوم جعلت في جسم
القماش وينقشون في ذلك نقشاً غريباً ويعملون كل ما يجمع الى المئات الإبداع في
الصناعة . قال ابن عربشاه : ان الحرير بين في دمشق نسجوا لتيجور لك قباء
بالحرير والذهب ليس له درز فاذا هو شي عجب .

ولما قام قائم الصنائع الافرنجية — وكانت صناعة الحرائر والطرائف تروج زمناً
ثم تخمق وتكسد — واخترع احد صناعات الانكاز نسج الشيت (اليني) كاد يقضى على
صناعاتنا هذه ، لولا رجل دمشقي اسمه عبد المجيد الأصفر من اهل هذه الصناعة ،
فاخترع القماش المعروف بالديما فخال دون النساجة والبوار دفعة واحدة . ثم ان
رجلاً اسمه الروماني من اهل دمشق ايضاً ، نقن في المنسوجات الحريرية نقشاً عجيباً ،
فلما مات كادت هذه الصناعة تموت معه ، وتغلبت المنسوجات الاوروبية على منسوجات
حلب وطرابلس وحماة وحمص ودمشق لرخص ثمنها ، وكثرة نقشهم في تلويها ، ونغير
أشكالها وطرازها ، وان كان البلي يسرع اليها ، وعلى الرغم مما تقدم لم تنفك هذه
الصناعة متمسكة أحوالها ، على ما أصاب البلاد من الأزمات الاقتصادية . ويزعمون
ان ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير أثواباً ، يقرب من سبعين صنعة .
تصرف مصنوعاتنا في الشام ومصر والجزيرة ، وكانت قبل الحرب العامة تصرف منها
كميات وافرة في آسيا الصغرى والروم اليلى فلما وضعت في العهد الأخير الحواجز
الجركية في وجهها في تركيا عادت الى الكساد .

ومع هذا لا يزال بعض اهل هذه الصناعة يصنعون الديما وأنواع الحرير والحبر
والشال البديع والاعبئة الحريرية للنساء ، ما ينفخر سياح الافرنج باقنائه في بيوثهم ،
والباس أسرهم منه في السهرات وأوقات السمر ، على حين كان الناس هنا ولا سيما
في المدن يزهدون فيها على متانتها وجمالها ، لانهم بلوا بداء التقليد يقبلونه على علاته
ولو كانت فيه بوارهم . وأهم معامل الحرير والقطن اليوم في الجدل من عمل غزاة

وببروت وبكفيا وزوق مكاييل ودير القهر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وانطاكية ودمشق ، تعمل فيها الاعبنة والكوفيات والزنانير والملاآت والشراشف والديما والالاجة والنارق والارائك والسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطياسة والميازير والبراقع والازر والجلابيب والقطائف (المخمل) .

ومن الصناعات ^(١) التي كانت الشام وما برحت تفخر بها صناعة الشقق الحريية والقطنية ، وهي عبارة عن قماش محوك طوله تسعة أذرع في عرض ذراع . ولصنائه فنن في نقشه وصبغه ، يدل على رسوخ قدم في الصناعة ، وذوق جميل فيها ، واشتهرت مدن الشام بانقاف تلك الصناعة ، ومنها دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس ، وأشهرها المسماة بالمصرية والحامدية والحومية والحمصية والحلبية . وتفصيل تلك الشقق على الطراز العربي وهي قطنيةا وحريريةا على غاية من المتانة والجمال . وكانت قديماً لباساً عاماً لاهالي البلاد فقيرهم وغنيهم رجالهم ونسائهم وقل المنفق منها الآن لاعتياد الناس اللباس الافرنجي ، ولا تزال مع هذا لباس أكثرية اهالي البلاد يعملون منها القفاطين (القنايز) وتدر تلك الصناعة على اهالي البلاد أرباحاً وفيرة ، وتصدر الى الاناضول ومصر والحجاز والعراق ، ويعد تجار تلك الصناعة من الاغنياء غالباً . ومن الصناعات الدقيقة الصنع ايضاً الشال القطني والحريري والزنانير والشملات ، وأنقنها ما عمل في طرابلس وبيروت وحلب ودمشق ، ومن صناعات الشام الكوفيات الحريية على اختلاف ألوانها ووشيتها بالقصب الفضي بنقوش ورسوم غاية في الإبداع بالصناعة وسلامة الذوق والمتانة ، وما فتئت هذه الصناعات الى الآن زاهرة رغم مزاحمة الاوربيين بكل ما عندهم من قوة تجارية وصناعية وفنن عصري .

ومن الصناعات التي كانت من مميزات اللباس لكنها ضعفت للغاية صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور ،

(١) استرشدت في بعض الصناعات الحديثة برأي صديقي السيدين الفاضلين

حسني العمري ومحمد شخاشيرو .

ولا تزال لباس الوطنيين الذين لم يتأوربوا اي لم يتشبهوا بالاوربيين فضعت صناعتها . وقد أحدثت السادة كسم وقباني معملاً لحياكة الحرير في دمشق ضاهيا به ما يصنع من نوعه في فرنسا ، وكذلك أحدثت السادة توفيق وكامل وسعيد الكحالة معملاً لصنع قماش الكتان والشراشف بنافس مصنوعات اوربا ، وأحدثت السيد انطون منزتر في دمشق معملاً لصنع الشال الحرير غاية الغايات انقاناً وجمالاً . وفي دمشق ثلاثون آلة لغسل الحرير على الطرز الحديث . ومما تمتاز به حماة عن سائر المدن الصناعية نسج المآزر للنساء مما يستعملنه في اللحم وتسمى المناشف ، وما تغطي به الفرش ويسمى الشراشف وينسج بالكتان ويوشى بالحرير من كل الألوان وهو غاية الغايات في دقة الصنعة والمتانة يصدر الى كثير من جهات العالم . وتصنع حلب من هذه المآزر أنواعاً كانت تضاهي بها المآزر التي ترد من العجم الى ان بزتها وقامت مقامها .

ومن المنسوجات الرائجة ايضاً صناعة الاعمشة فهي من أهم الصناعات على اختلاف أنواعها ومنها الخشنة التي يلبسها الفلاحون ، وحياكتها غاية في المتانة ولها الوف من الأنوال في دمشق وحمص وحلب وقرى القلمون ، وذلك لتوفر مادتها الاولية في البلاد ولانها لباس عامة الفلاحين ، ويوجد ايضاً الوف الأنوال في دمشق وقرية جرمانا وحمص وهي تصنع أعبئة من الصوف النخيف والوبر برسم الامراء والكبراء ويصدر منها الى خارج البلاد ولاسيما الى فارس وبتناع الحجاج ايام الموسم من دمشق خاصة من تلك الاعمشة الوفاً وهي مشهورة بحسن صناعتها وعلى غاية المتانة ، مع انها من القماش النخيف الناعم ، ومما يدل على ذوق صناعتها تفننهم في ألوانها على اختلاف ضروبها ، وفي دمشق وبيروت ولبنان وحمص وحلب من الأنوال لعمل الاعمشة من الحرير وهي على غاية الرواء والجمال والمتانة وفي النهاية من سلامة الذوق بوشيتها وألوانها . وتصدر الى اوربا واميركا ومصر وايران . ومما يؤسف له الآن دخول الحرير النبطي الى البلاد الشامية وصنع العباءة منه مؤثرين له لوخص ثمنه مما يكون منه بعد بضع سنوات القضاء على صناعة العباءة الحريرية في بلاد الشام ان لم نندرك بما يحفظ رواءها

واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصبة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملًا كما فيها ١٢٤ الخيام و٢٤٧ لمنسوجات الغزل و١٥٩ للحريز و١١٧ للاغباني اونقليد الزنار الهندي ، وصناعة الاغباني في دمشق رابحة كل الرواج وهي عبارة عن قطعة قماش مربعة طولها ذراعان في مثلها ، تعمل من الحرير الدقيق ، لونها أبيض وادكن ، وتطرز بألوان الحرير الجميلة ، وبأنواع الزسوم التي قد تعجز عنها ريشة المنفنين من المصورين ، وكانت تلك الصنعة محتصة اولاً بالهند تصدر منها الى أطراف العالم ، وكان قليل منها يطرز في حلب ويستعمل للعمائم فقط على قياس قطبي وبعض الحرير . واما الآن فقد نازلتها أيدي جميع الشاميين الاذكياء واكثر من يصنعها النساء يطرزن منها أثواباً طول الثوب تسعة أذرع وعرضه ذراع واحد ، وتعمل منها القفاطين ، وهي الألبسة الوطنية في الشام ، وفيه اليوم الوف من الآلات تصنع هذا النوع من القماش ، وتسمى القطعة منه اي ما طوله ذراعان وعرضه كذلك «سلك أغباني» وهو يستعمل في الشام غطاءً للرأس اي كوفية ، وزناراً ، وملفلاً للاولاد الرضع ، وعمامة ، ويصدر منه الى الخارج كميات وافرة ، وله تجار كثر اخصائون في دمشق وحلب وبيروت وحماة وحمص وطرابلس وفلسطين وجميع المدن الصغيرة ويصدر الى الهند وفارس وتركيا والسجاز والعراق ومصر والسودان وبلاد الصين .

واشتهرت الشهباء بصناعة الأشغال الحريرية المعمولة بالقصب وأقمشة الجوخ المعمولة بالسليم والثياب المفصصة بالجوهري والزبرج اي الزينة من وشي وذهب ويقال لهذه الصناعة صنعة القصبيية والألتونية فهي ممتازة بعمل الفضي ومشورة بالزر كشة والتطريز ، وعرفت زوق مكابيل بصناعة الوشي وزر كشة القصب والنسيج ايضاً ، واهتدى صناعتها منذ سبعين سنة الى رسم الاشكال التي يريدونها على المنوال بالحواك ، واصطنعوا من الاثاث والاكسية والطنافس ما يأخذ بمجامع القلوب انقائاً ، وعملوا نسيج هذا الفن فأبدعوا فيه واظهروا الصور الشمسية على النسيج فجاءت كأنها لم تمس بيد ، صنعوا بها صور العظاء والملوك والامراء مجسمة ، فكانت من أنفس أعلام القصور . وصناعة زر كشة القصب هذه كانت راقية جداً في دمشق ، وصفها احد سياح القرن الحادي عشر بقوله : وباب جيرون على يسار الخارج منه

حارة الذهبين ، وهي اماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظاً اولاً ، ثم لا يزالون يعالجونها بالإدخال خرقاً بعد خرق ، وكل ثان اضيق من قبله ، حتى تنتهي الى الرقة ، الى ان تبصر كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم للفضة اه . وسمى هذه الصناعة البدرى « صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجروح والمرفوع والممدود والمرصوع » وكان القوم يغالون في لبس الاردية والاكسية والمعاطف والسراويلات التي تعمل من هذا القصب على الجوخ ولبسه المترفون والعُرُس وارباب النعيم ، وبقاياها اليوم يلبسها الآذنون عند قناصل الدول والرؤساء الروحانيين .

* * *

الدباغة وصناعات الجلود } كانت للدباغة شأن مهم في هذا القطر تعمل من الجلود الاحذية والسروج والمطارج والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمطاهر والركوات والادوات وما أشبهها ، وكانت اهم معاملها في حلب وفيها اليوم ٤٠ مدبغة على الطريقة القديمة وفي حماة ودمشق وزحلة ومشغرة والخليل . وتدبغ جلود الثعلب وبنات آوى التي تصلح للفراء في جوار طرابلس وبيروت . ويقدر عدد ما يدبغ من الجلود في الشام بمليون ومائتي الف جلد منها مليون من المعزى والغنم . وقد أنشأ في دمشق السيدان حسني وحسام الدين العمري معملًا لدبغ الجلود وعمل الشراك والشسوع للاحذية ، فجاءت مصنوعات كصنوعات اوربا من كل وجه وزادت عليها رخص أثمانها ، فأصبحت تباع حتى في بلاد الغرب ، ومعظم معدات هذا المعمل الكبير من صنع صاحبيه في دمشق ولم يجلبا غير ادوات قليلة ، والصناع كلهم من ارباب هذه الصناعة القدماء ، وفي دمشق نحو ٣٠ دباغة على الطراز القديم ودباغات الخليل مشهورة واشهر منها صناعة القرب في تلك المدينة ، تعمل من جلد الماعز ، وهي صناعة خاصة بها منذ القرون الوسطى . وفي عكا معمل جيد للدباغة *

وصناعة الأحذية والسروج والكنائيش والبرادع والرباطات والرشمات من اهم

صناعات دمشق وحلب . وصناعة السروج من الصنائع المشتركة في الشام ، وما يعد في جملتها لوازم الحيوانات كالعذر والهمابين « الخراج » والبرادع « المراشح » ويعمل كل ذلك على غاية من الإتقان . ومن السروج ما يصنع وجهه من الجوخ ، ويطرز أحسن تظر يز بالحري والقصب . والجلد الذي تعمل منه السروج هو غالباً من دباغة الشام . ومن صناعة السروجيين أيضاً أحزمة الجلد ويسمونه « قشاطاً » وجمعها رصاص البنادق ويسمونها « جناداً » ، وارساناً للخيل ، وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من الحاجيات المحلية ، ويصدر ذلك الى داخلية البلاد فقط وهو بضاهي أعمال الأوربيين أنفسهم من ذلك النوع .

وتعمل الاحذية في جميع المدن والبلاد ومنها ما تستخدم فيه الجلود الافرنجية المعروفة بلعائنها ومتانيتها وحداؤها الشام مشهورون منذ القدم ، وأهل الرفاهية والبذخ اليوم يأتون باحذيتهم من الغرب جاهزة وخصوصاً النساء يرينها الطف شكلاً وأدق صنعة ويقبلن عليها وان كانت أعلى قيمة وأقل متانة مما يعمل هنا . ويلقى بصناعة الدباغة او القرظية صناعة عمل الأوتار من المصير والمري وهي نافعة ببعثون بها بعد تحضير قليل الى معامل الغرب فتعمل منها أوتار الأعواد والقيثارات وغيرها .

تربية دود الحرير } ومن أهم الصناعات تربية دود الحرير (الفيالج
او الشرائق) وهو عمل خاص باللبنانيين كلهم

وبسكان أرجاء انطاكية . وكانت مساحة الاراضي التي تغرس التوت الصالح لتربية دود الحرير واسعة اكثر من الآن في ارجائنا . فقد ثبت ان عمالتي وادي التيم والبقاع كاننا كلتاهما مغروستين بشجر التوت فقطع بايدي الخربين في حكومات القرن الماضي والذي قبله . واقتبس أصحاب تربية الدود في العهد الأخير طريقة باستور في تربية دود القز فزادوه إنقائاً . وتصدر منه كميات وافرة الى معامل ليون في فرنسا وهناك يصلح الاصلاح المطلوب حتى يكون منه الحرير المعهود في نسج الثياب والطرائف . ومن تربية دود الحرير يعيش عشرات الالوف من الناس في هذه الديار . والغالب ان مناخ لبنان وانطاكية وما اليها وبعض الارحاء المعتدلة القربة

من الساحل تصلح فقط لتربيته ومنذ القديم لم يحظَّ الحظ سائر الأرجاء ان تشترك في صنعه . وقد أسس في الزبداني في العهد الأخير معمل لحل الحرير على الطرز الحديث وتصدر مصنوعاته الى ايطاليا وفرنسا .

* * *

لم يكتف الصناع في منجوراتهم باخشاب الشام على كثرتها ، بل أخذوا يجلبونها من قلبية ورومانيا وغيرها ، ومنهم من يجلبونه من اميركا وهو الجوز الاميركاني . يعتمدون عليه وعلى خشب الحور والجوز والزيتون والشربين والثوب والميس والعرعر والدردار ، وكان اعتمادهم يكثر في القديم على الصندل والصنوبر والسرو . وخشب السرو والصنوبر كما قال قسطا بن لوقا من أشرف الاشجار التي تستعمل أخشابها في البناء يتخذ منها مصاريع الأبواب والدعائم والسفن ويستعان بها في كثير من الامور .

ينشرون الخشب اليوم بمناشير ميكانيكية تدار بالبخار او بالكهرباء او بالطرق القديمة فيعمدون الى ايدي العملة في إحضارها ، يصنعون منها مناخذ وأصونة للثياب واطارات ومقاعد وكرامي ومغاسل وصناديق وتوابيت ورحالاً وأواحاً لدرس الغلة واعواد الطرب . وهذه الصناعة صناعة الأعواد قديمة جداً في دمشق ودخلت حلب منذ نحو خمسين سنة . وقد اشتهرت دمشق بصناديقها التي كانت تعمل من خشب الجوز وتبقى القرون لا تنتشق ولا يسرع اليها البلي ولا نثناً كل ، وعليها من القشوش ما يدل على ذوق جميل . كما اشتهرت الى اليوم بمصنوعاتها الخشبية . وفي حلب معملان مهان للنجارة بانواعها ، وكذلك مدينة بيروت فان معامل هاته المدن الثلاث كادت تستأثر بتجهيز الدور والقصور والفنادق ومنها ما لا نقل جودته عن أدق ما يعمل من نوعه في الغرب مع الرخص والجودة والمتانة .

وان ما يسمى بالحلقات في القصور والقاعات القديمة دليل كافٍ على رقي فن النجارة . فان القصر او القاعة يبلغ طوله على الاعتدال ستة امتار في مثلها عرضاً وارتفاعه ايضاً يتسامى الى الستة امتار ، فجهاتها الاربع وسقفها مما يشهد للمتقدمين من النجارين بسلامة الذوق واثقان الصنع ، وبيع منجور بعض هذه القصور اذا كانت

سلمية من الاوربيين بأثمان باهظة ، وهو عبارة عن اخشاب فقط . وصناعة الدهان المدهون به ذلك الخشب هو من أروع الصناعات يشهد بذلك من له اقل الملم او ذوق من الناظرين في المحلات الخصوصية عدا ما كان من نوعه في المساجد وغيرها من المحال العامة وكله يشهد للمتقدمين من التجارين الشاميين بالبراعة والحذق وسلامة الذوق . والتجارون في الشام اليوم من أشهر تجاري العالم باعنائهم بصنعتهم ، والتجار بطبيعته ينبغي له ان يكون ذكياً جداً ، لما يقتضي لصنعتهم من الايلام بالهندسة والمساحة وضبط المقاييس والحساب وان يكون على جانب من سلامة الذوق في الوضع والصنع . فالنجار الذي يخلو من هذه الصفات لا يحق له ان يصير نجاراً . ان هذا النجار الشامي الموصوف آتفاً يعمل بيده وتدل عليه آثاره في البناء الخشبي في دور دمشق وحلب وغيرهما وما يسمونه الصلب وغيره من أبواب ونوافذ غاية في الاتقان . ومن صنع التجارين ايضاً قديماً الصناديق الخشبية ومنها ما هو مغشى بالصدف ومنه ما يسمونه بالحفر ، وهو على غاية الاتقان . ومنذ نحو عشرين سنة دخلت بيروت ودمشق آلات النجارة الحديثة التي تدار بالكهرباء فغدا مديرو المعامل يستطيعون ان يقاؤوا على بنايات كبيرة لصنع ابوابها ونوافذها بغاية السرعة .

وظهرت في البلاد صناعة جديدة على الطراز الغربي تسمى صناعة (الموبيليا) اي فرش الدور وتزئيدها ويتناول اسم الموبيليا جميع انواع الخزائن والمغاسل والمقاعد الخشبية المغلفة بالقماش الحريري ولوازم غرف النوم وغرف الطعام وغرف الاستقبال ، وكل ذلك يصنع اليوم في الشام في جميع مدنها الكبرى كدمشق وحلب وطرابلس وبيروت ، وهي تضاهي المصنوعات الاوربية من هذا النوع جمالاً واتقاناً ومتانةً ، وتعد هذه المعامل بالمئات ، ومما يدل على الذكاء في الصناعة ان تليذات المدارس الصغيرة يشتغلن اليوم من جملة الاشغال اليدوية على اختلاف انواعها واوضاعها ما تقر به العيون وبشعر بمستقبل مجيد . وقلما تجد واحدة من النساء الا وتجد اكثر من صنعة يدوية ، وذلك ممد يذهب بالأمية تدريجاً ، لان من لوازم الصناعة ان يشعر أبناء هذا الجيل بلزوم القراءة والكتابة لابنائهم وبناتهم ، فننوارى الأمية في غيابة العدم ، وتظهر الشام بالمظهر الحيد اللائق بها .

ومن الصناعات التي تمتاز بها دمشق خاصة ، صناعة خشبية تسمى اليوم بالمصري ، وهي بواقي خشب الجوز اليابس تفصل بحسب المطلوب وتصل صقلاً تاماً ، ويرسم عليها بالقلم عروق غاية في الإبداع ، ويحفر على حسب رسم القلم ، وينزل به الغراء وفوقه الصدف . ونقسم قسمين فما كان دقيق الرسم يسمى بالمصري ، وما كان رسم عرقه ظاهراً كل الظهور يسمى في عرف الصناع اليوم بالعرق . ويصنعون منه أنواعاً ، فمنها اليوم ما يسمى « بالجاردينيه » وهي أثاثة يوضع فيها قحف زهور صناعية ، بعرض مترين او ثلاثة أذرع ، ويجعل فوقها إطار من تلك الصناعة النفيسة طوله متران وعرضه متر . وفي داخل ذلك الإطار مرآة وبجانبه من الطرفين جناحان لطيفان لهما رفوف توضع عليها التحف المنوعة ، وفوقها تاج على علو متر أيضاً . وكل ذلك محلي بتلك الصناعة الصدفية يتخلله صباغ اسود قليل يزيد في لمعان الصدف . ويصنع من تلك الصناعة أشكال وأنواع متعددة منها الأصونة خزائن الثياب ومنها ما يسمى بالعرف اليوم بالبيرو (مكتب) وهو عبارة عن اربعة دروج كبيرة فوقها درجان صغيران ويصنع منه إطار للمرأة ، وإطارات للصور ومناضد ، وجميع ما يصنع من الخشب البسيط . ومنذ ثلاثين او اربعين سنة كثر طلب هذا الصنف الى اوربا . ولكن الحكومة البلدية لم تأخذ تلك الصناعة تحت رعايتها فكثرت الغش فيها ، وصارت الى البوار وانقطع عنها الطلب الى الخارج بتاتا ، وهي لا تروج الآن الا في دمشق وضواحيها نقر نبأ ، ولو عُنيت البلدية بمراقبة صناعتها ، وجعلت لهم رئيساً مسؤولاً لدردت تلك الصناعة على دمشق أرباحاً هائلة ولا صبحت اجرة الصانع يوماً نصف دينار وراجت في أقطار العالم أجمع لجمالها ودقة صنعها .

ومن أهم معامل النجارة والفرش معامل السيد الياس جرجي السيوفي في بيروت زرتها في سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) ومما قلته فيها : (المقتبس م ٧ ص ٥٧) رأيت صورة مصغرة من صورة الغرب في بلاد الشرق ، وتمثل لي فضل الذكاء العربي ، وانه وان لم ينق الغربي فليس دونه ، وان يد أبنائنا صناع في الاعمال لا يفوقها ابن فرنسا واطاليا وانكلترا والمانيا وسويسرا وبلجيكا الا بان الافرنج يرجعون الى اساليب في العمل ننقصنا ، او تكاد في اكثر البلاد لا تجد لها أثراً

يلتينا ، وهي ترجع الى اسباب رئيسة مهمة ، اولها الصبر على العمل ، وثانيها تجويد العمل ، وثالثها القدر اللازم للعمل من المال والمعرفة ، ورابعها الافضاد في الوقت والأيدي العاملة ، وخامسها تنشيط الاهلين والحكومات للمصنوعات الوطنية وحماية التجارة الداخلية بقوانين تنفذ على الصادر والوارد ، وسادسها وجود المواد الاولية التي يمكن بها الاستغناء عن البلاد الخارجية في الجملة .

دلت معامل السيوفي على ان الشرقي بمفرده أمة ، وان الامة بمجموعها ضعيفة ، بمعنى ان الشرقي يعمل مفرداً أحسن من عمله مجتمعاً ، وذلك لفقد التربية المشتركة بين المشاركة يرجعون اليها وتضم عراهم . فلو كان معمل الغزل في دمشق لفرد واحد منذ انشائه له خيره وعليه شره ، لما اضمحل هذا الاضمحلال الذي نراه عليه اليوم ، ولو كانت معامل السيوفي في بيروت لشركة لما رأينا فيها هذا النظام والنجاح ، وبذلك صح لنا اثبات ما قدمناه من ان الشرقي أمة بمفرده والامة ضعيفة بمجموعها ، وان لا سبيل الى قيام الأعمال الكبرى في بلادنا وان نقدر لها النجاح المطلوب الا اذا اتحدت مناحينا وتعلمنا تعليماً وطنياً اقتصادياً واحداً .

على هضبة من هضاب بيروت الجميلة في حي الأشرافية ، في مكان بعيد عن مركز حركة هذا الثغر ، بطل على سفوح لبنان وبيروت وعلى البحر الرومي من أخرى ، قامت هذه المعامل البديعة في بقعة فسيحة من الارض تدخلها فتخال نفسك في احدي معامل الغرب الكبرى ، واول ما يبدئك بعد الدخول من الرتاج ساعتان عن اليمين والشمال بجانبها صندوقان معلقان مقسومان الى بيوت صغيرة ، وفي كل بيت مقواة كتب عليها اسم احد العملة وطبعت عليها ساعات الغدو والغداء والرواح ، فمتى وصل العامل بعد الفجر وقبل الاشراراق في الشتاء مثلاً يضع مقواته في بيوتها ، فلا تلبث ان تكتب عليها ساعة مجيئه والدقيقة التي جاء فيها بحروف عربية ، وفي آخر اليوم او الاسبوع يرجع اليها مدير المعمل ، ويحسب المتأخر من المتقدم ، ويعدون ذلك بموجب نظام خاص لم جروا فيه على مثال نظام العمال في سويسرا والبلجيك والنمسا والمانيا . ومن قوانين العملة في هذه الممالك اختار مؤسس المعمل احسن ما يلائم هذه البلاد وينفع في نجاح عملته ويعود عليه وعليهم بالربح واقتصاد الوقت .

وهذه الساعة من أنفع ما يجب استخدامه في معاملنا ومطابعا ودواوين أعمالنا وبهوننا التجارية والمالية ودوائرنا العسكرية والملكية ليتعلم قومنا مراعاة الوقت والتدقيق في حسابه حتى يبارك لهم بساعات العمل وايام الحياة ، ويتعلموا ان التدقيق في المواعيد احد دعائم التنظيم في فروع الاعمال ، ومن اهم اساليب النجاح الذي غفل عنه معظم سكان هذه الديار وعدوا من ينظم اوقاته و يدقق في وعوده واستقبال خاصته ومن لهم علاقة به في ساعات محدودة متكبرا او مهوسا .

بباكر العملة في معامل السيوف في الصيف والشتاء والخريف والربيع على السواء وينقطعون ساعة وقت الظهور ثم يعادون العمل الى قبيل الغروب او الى بعده بقليل بحيث لا يتجاوز معدل ساعات العمل في اليوم تسعا بخلاف عمالة اوربا فانهم يعملون في بعض البلاد كبلجيكا مثلاً زهاء اثنتي عشرة ساعة لكن للمحيط وكثرة الأيدي العاملة والعادة والاقليم دخلاً كبيراً في هذا الاصطلاح . وفي معامل السيوف اليوم ٢٨٠ عاملاً مع ان الادوات التي اقتناها صاحبها تشغل ضعفي هذا العدد فيسنتيدون ويفيدون .

اكثر ما يعمل في هذه المعامل منجورات الدور الخشبية وأنواع الفرش وأثاث البهوت ففيها تعمل كما تعمل في الغرب فننأق الأيدي والعيون في تجويدها وتساءدها الادوات التي تدار بالفحم الحجري وتبلغ نحو الستين آلة ومنها لقطع الخشب وصقله وحفره وتقويره ونقشه ونثنيته فترى خشب الجوز والزان من واردات الروم (الاناضول) والاكاجو من كوبا وشوح النمسا وسنديان اميركا والخشب الباسي من فلقيه تعمل في تلك الادوات وتحركها تلك المحركات والآلات كأنها المعجين في يد خبازه او الملائط بيد البناء الحاذق .

قال لنا صاحب المعمل ان الآلة الكبرى المحركة في معمله هي بقوة مئة حصان تنفق في النهار ١٣ فرنكاً من الفحم وكانت الآلات التي هي اصغر منها تصرف من قبل اكثر من ذلك ، وبهذا يستدل ايضاً ان نفقات المعامل الكبيرة ادنى الى الاقتصاد واعمالها اقرب الى الجودة من مصنوعات المعامل الصغيرة لا سيما والمعامل الكبرى تنجلي فيها قاعدة تقسيم الاعمال فتجد العملة في معامل السيوف مقسومين الى عدة أقسام

قسم الأدوات وقسم التجارة وقسم الحفر وقسم البرداخ ، وللمحل رسام خاص وكلهم من أبناء العرب ليس بينهم أفرنجي . وتختلف اجرة العامل في اليوم من ستين بارة الى ستين قرشاً ويحاسب عن اجرته كل يوم سبت من كل اسبوعين في الشتاء ويحاسب في الصيف كل سبت قبل الظهر ليتيسر له الخروج ان أحب الى الجبل يصرف ليل الاحد وليل الاثنين فيه للترهة ، ويقضى على كل عامل ان يعمل ستة اشهر تحت التجربة اولاً ثم تحسم من مياومته اجرة اسبوعين تجعل في صندوق المحل حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من العمل كل يوم او كل اسبوع كما يفعل بعض العملة في المعامل ويتركون أصحابها معطلين . ومن جملة ما شهدته من النظام داخل المعمل قاعة كبرى وموائد يتناول عليها العملة طعام الظهر وآلة تضغط النشارة عندما توضع فيها وهي من اختراع احد العمال هنا وتلقى بها الى مكان بعيد خارج بناية المعمل ومن هناك يتباعها ارباب القامين . ومما رأيت خارج المعمل من النظام رصف الطريق الموصلة اليه على نفقة صاحب المعمل وغرس بعض الأشجار على جانبيها وبلغ طولها نحو كيلو مترين .

هذا ما رأيت في معامل السيوفي من النظام الذي لا أبلغ باني قلما رأيت في معمل برأسه شرقي ، ولذلك يصفق لصاحبه لانه بدأ به صغيراً سنة ١٨٨٨ في مدينة بيروت وكبره في سنة ١٩٠٨ في حي الأشرافية على الصورة التي رأيناها اليوم ونفقة عمارته وأرضه وأدواته تساوي خمسة وعشرين الف ليرة ، ولكن لا يتيسر لمن معه مئة الف ليرة ان يقيم مثله بادواته ونظامه اذا لم تسبق له معرفة كمعرفة السيوفي ولم يقض سنين مثله في التجارة ويحيط بما جل وقل من أساليب العمل وتجويده . فليت كل أعمالنا تجري على هذا المثال من النظام البليغ والنجاح الاكيد اه .

ومما يصح ان يلحق بالتجارة صناعة تنزيل الخشب ونزول الصدف او خشب الليمون فيه ، وهذه الصناعة كانت رائجة جداً ثم عدت ووجدت شبابها صناع دمشق منذ نحو خمسين سنة حتى أصبح ما يعمل منها مما يتناقس في اقتنائه . ونسبت هذه الصناعة لدمشق فيقال لها بالافرنجية (داماسكينه) .

القيانة والحدادة } كانت العرب تطرق المعادن في دمشق بانقان اكثر
والنحاسه } من انقان الغرب على ما قال ميشو ، واشتهرت كثير من

مدن الشام بهذه الصناعة منذ عرف تاريخ القيانة او القردحة اي صناعة عمل السلاح .
وذلك لان الحديد كان يكثر في الجبال ولا سيما في لبنان وحلب . وقد اشتهرت في
الجاهلية سيوف مشارف الشام في أقصى تخوم الجنوب ، وكانت تطبع بها السيوف
ونسب اليها فيقال السيوف المشرفية ، وكانت حاضرة المشارف مدينة مؤنة قال كثير :

اذا الناس ساموكم من الامر خطة لها خطة فيها السهام الممثل

ابي الله للشم الأ نوف كأنهم صوارم يجالوها بمؤنة صيقل

والصيقل هو الذي يجلو السيوف . ونسبت السيوف الي ديارف والى بصرى
وكتاهما في ارض حوران فيقولون السيوف البُصرية قال الحصين بن الحمام المرثي :

صفايح بُصرى أخلصتها قيونها ومطر دأ من نسج داود محكما

والقيون جمع قين صانع السلاح . وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها الفنن
الصياقلة في صنعها ، وقد عرفت بصفاء مائها ، واخضرار لونها ، وإرضاف حدها ،
ولطف فرندها ، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر
والرماح ، عرفها الصليبيون في القرون الوسطى ونسبوا الي دمشق وغدوا يفاخرون
بنقلدها ولا مفاخرة العرب بالسيوف اليمانية والرماح السميرية . وصناعة تنزيل الذهب
على السيوف والخناجر والمدى والبنادق كانت من أهم الصناعات الدمشقية ويحسب
أربابها من اهل اليسار و يعدون اليوم على الأصابع ولا يسع المنتصف الا ان ينحني
إعجاباً أمام جمال هذه الصناعة .

وقد نقل الفاتحون من العرب الي الاندلس صناعة صقل السيوف وهي الصناعة
التي نسبت الي دمشق حتى اليوم ف قيل لها بالافرنجيه (Damasquinage)
او (Damasquinerie) اي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه
الفعل عندهم (Damasquiner) .

وكانت تعمل السيوف في زحلة والشويرة ودومة من عمل لبنان وتعمل النبال
الفائقة في عمما من بلاد الغور . وكانت الدروع تسرد بيد الدارعين والخوذ

والسائرية تصنع في دمشق خاصة . ويمثل من الحديد كل ما يلزم ذلك المجتمع من الطبر والخناجر والمرادن والمغازل والصنارات والأسيخ والعقافات والقيود والزرد والمباضع والمبازغ والمشارط والآنية ، بطرق كل ذلك في كبرة الحدادين وسناداتهم و يضرب بمطارقهم ، وكانت وافية بالعرض .

ومن اهم اعمال صناعة النحاس في دمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية اليوم في حي الخضيرية وكذلك الحلقة اللتان على بابي المستشفى النوري وهو مدرسة الاناث اليوم . والاولى من القرن الثامن والحلقتان الاخرى من القرن السادس وهي آية الإبداع والمثانة وفي هذا البيمارستان أبواب من خشب من عصر صلاح الدين عليها مرابا المفاتيح على طرز الغرب اذ ذلك . وفي مستودع الجامع الأموي بقايا النحاس الذي كان على باب جبرون من أبواب الجامع تصور للمرء نموذجاً من إنقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في القديم . وفي بعض مدارس حلب حلقات قديمة من هذا القبيل تدل على مبلغ صناعها من الخندق وفيها أبواب من الحديد صنعت لبعض البيوت والمدارس القديمة آية الجمال الصناعي . ومن صناعة الحديد امثلة كثيرة مثل ابواب بعض خانات دمشق كخان الحرير وخان اسعد باشا وخان الزيت وابواب التكية السليمانية وشبابيكها . وشبابيك المدارس والديارات والجوامع والكنائس القديمة وأبوابها ودرقاتها في دمشق وحلب والقدس والناصرية وبيت لحم ولبنان وغيرها وكلها تدل على ترقى الحدادة والنحاسية دلالة عظيمة . مثل ابواب القلاع كقلعة عكا وحصن الاكراد وغيرها . وكثيرة الحديد في ارباض حلب عمل كثير من ابواب حلب القديمة من الحديد .

وكذلك قل عن سائر صناعات الحديد والنحاس وكانت تعمل منها السرج والمصابيح والمواقد والشمعدانات والشبابيك والكؤوس والصحاف والزهريات والمباخر والقماقم واوعية القهوة (الدلات) والالبان والطسوت والموائد والصواني والصحون والمصافي والمغارف والملاعق والقدر ، والقدر الشامية كانت مشهورة بكونها لا تنش والسطول والمساحن والهواوين والمدقات والمناشير والجرار والحقاق والأجراس والنعال والمسامير والمعابل والمساحي والمناجل والمطارق والاقفال والمفاتيح والمغلق والمناصب

والملاقط والسكاكين والمدى والمقال والمواسي والمبارد والقيود والجواشن والدروع والصنجات والجُرُز (العمد) والحسك والدرابزون والمناجيق والدبابات .
ومن الصناعات النفيسة صنعة الأجراس أجراس الكنائس فانها تصنع في بيت شباب ، واستأثر بهذه الصنعة لبنان من دون اقطار الشرق الأقرب ، وقد دخلت بلادنا مع الصليبيين على الاكثر ، وكانت البيع قبل ذلك تستعمل أجراساً من الخشب ، وما زالت هذه الصناعة محصورة ككثير من الصناعات في أسرة واحدة .
ولما جاء حديد الغرب الرخيص السهل على التطريق كثرت أدوات الحديد وثفن صناعه في صنعه ومنهم من عمد الى اتخاذ الادوات الحديدية كعامل بيروت ، ومنهم من اعتمد على الطرق القديمة في تطريقه ، وكثير من الأدوات الزراعية كالفؤوس والقدم (جمع قدوم) والسكك الزراعية والمقاريض وادوات السيارات تعمل في حلب ودمشق وبيروت والقدس وسائر المدن الشامية . ولا يزال الحدادون على ثفنهم حتى يساواو معمولات الغرب . والحاجة ام الاختراع .

وقد قامت دمشق في الحرب العامة بصنع أعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالفؤوس والمنشار والكلاب واللولب والفأس والرفش والقدر والمركن والمرجل والدلو والبرميل وعجلة النقل والركوب ومخفة الجرحى والمرضى ، كنت اذا رأيتها تظنها لجالها ومتانتها من صنع معامل الغرب . وقد جلب كثير مما يستعمل في هذه الصناعة من حلب ولبنان وبيروت ، ويستعمل فيها الحديد والنحاس والصفيح (الثنك) .
وتوفر الجيش التركي في تلك الايام على ملء الخراطيش وصنع القذائف والمدمرات واستجدادة أحسنها طرازاً وافعلها في وقت الحاجة وإصلاح البنادق والمدافع ، ما دل على ذكاء ابن هذه الديار اذا علم التعليم العملي المنظم بنظام المعامل الغربية . ولقد صنع احد مهرة الصناعة مدة الحرب بندقية من الخشب أخف من الماوزر فنال استحسان اهل هذا الشأن في الدولة .

ويصح ان تلحق صناعة النحاسين والصفارين بالحدادة ، وكانت في القديم ذات شأن مهم ، ولم يبرح في المتاحف والبيوت القديمة في المدن والقرى نموذجات منه صبرت على عمر الايام بجالها ، وما عمل منذ ستة او سبعة قرون كثير جداً ، والقديم

أقل منه ، وكان ما يصنع منه في دمشق يقال له الظاهري نسبة للملك الظاهر فيما زعموا ولا ندري أي ظاهر هو لانه كان من المنشطين لصناعته فنسب اليه تحبباً . وما فنئت هذه الصناعة راجحة تعمل من النحاس الثريات والمصابيح والفوانيس والتعليق والجفان والكؤوس والمباخر والقائم والصحاف والصواني والطرسوت والاباريق والصبجات ، مصنوعة من النحاس الأصفر منقوشة في العهد الحديث حروفاً لا تقرأ لان صناعتها تعاورها أناس أميون على الاكثر ، وكان يطرز ويرقش في القديم بكل معنى جميل . وفي حلب ودمشق وزحلة و بسكننا وبتغرين ودومة في لبنان مسابك حديد ، يقينون فيها الحديد قيناً جيداً ، والنحاس يعمل في كل بلد للانية وأمهات البهوت ، واجله ما صنعه صنعوا الأيدي في دمشق وحلب . ومن أوسع معامل النحاس الأصفر معمل السادة النعسان في دمشق فقد تفنن بصنع الزهريات والكؤوس والثريات وغيرها والسياح يتنافسون في اقتنائه وكثير من أر باب الثراء في مصر وأميركا واوربا يزنون ردهاتهم بقطع منه ولا يقل العاملون والعاملات فيه عن مائتي نفس .

وصناعة النحاس المنقوش من الصناعات القديمة في الشام وكل ما كانت تستعمله قديماً في بهوتها وحوانيتها هو من صنعها ، من صحاف كبيرة وصغيرة وبواط على غاية من دقة الصنعة وجمال الوضع والقديم منها يباع الآن باثمان باهظة ، وبيع من مدة الى احد تجار الآثار القديمة صحناف من النحاس بسبعين ليرة عثمانية ذهباً ويشترى الاوربيون ذلك نقديراً للفن وخدمة للتاريخ ، وفي الشام معامل كثيرة لصنع النحاس المنقوش وله رواج عظيم وهو أنواع كثيرة منها ثريات للتعليق في قصور الملوك والعظماء تزين برسوم جميلة جداً ، ومنها ما ينار بالكهر باء ، ومنها ما ينار بالشموع وصحاف كبيرة وصغيرة وما يلزم للاستعمال والزينة في البهوت وهو أنواع كثيرة . والمعقول ان تدموم تصديرات هذه الأنواع وتزداد ، لما في نقوشها من الانقان ، ودقة الصنعة والاعتدال في الأثمان .

* * *

من اهم الصناعات التي اختصت بها بلاد الشام من القديم } الزجاج
الزجاج صناعة الزجاج ، وعدما الثعالي من خصائص الشام }

وقال انه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال «أرقُّ من زجاج الشام» وقال بعض الحكماء : وارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام ، الى ان تجد الفرصة فاما ان يضرب به الحجر فيفضه ، واما ان تضربه بالحجر فترضه ، وربما كانت تعمل من هذا الزجاج المناظر للعيون ، قال احمد بن محمد الدينسري القاهري المتوفى سنة ٧٩٤ .

اتي بعد الصبا شبيبي وظهري رُحِي بعد اعتدال باعوجاج

كفي ان كان لي بصر حديد وقد صارت عيوني من زجاج

وقد اشتهرت صور منذ القديم بزجاجها ، وكان الرمل الذي يعثر عليه في جوارها يزيد الزجاج بهجة ليست له في غيرها من البلاد . وكانت معامل الزجاج في حلب وأرمناز مشهورة تصدر منه الى العراق ويتباهى به في قصور الخلفاء . واشتهرت معامل الزجاج في عكا الى القرن الرابع عشر ، وعرفت دمشق بزجاجها كما اشتهرت الخليل فكانت الزجاجية من صناعاتها منذ القرون الوسطى ومشهورة بعمل المصابيح التي تعمل فيها اشتهارها باساور النساء . وكان الزجاج معروفاً بالدمشقي يتخذ للزخرفة والزينة ومنه الاكواب والانية على اختلاف ضربها ، ويفهم مما وصفه به الشراء مبلغ ثمن الزجاجين بزجاجهم . واشتهرت الرقة بصنع الزجاج . وفي دار التحف بدمشق مجموعة من الزجاج الملون المنقوش المرقوش ، وهي اثمن المجموعات التي عرفت حتى الآن من نوعها . ومن أجمل النموذجات في هذه الطرائف البديعة ، ومنها الاكواب والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والاقداح والقوارير والكيزان والبواطي وكانت معاملها في دمشق وحلب والرصافة والخليل وصور وعكا على ما يظهر . وقد انحطت هذه الصناعة حتى انحصرت في دمشق وارمناز والخليل باناس فقراء يعملون من الزجاج القناني والبواطي العادية فقط . لانت صنع الزجاج النفيس الذي تعلمه البنادقة من معاملنا في الحروب الصليبية وتلقنوه عن معامل صور وانتشر صنعه في أرجاء اوربا بعد ان كانوا يستبضعونه من بلادنا قد ناس هذه الصناعة ففضى عليها او كاد . وكانت معامل الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي في دمشق رآها الرحالة بوجيبوحي سنة ١٣٤٦ م وبعد ان كانت معامل عكا وصور مما يضرب بمصنوعاته المثل فقدت أسرار الجمال في هذه الصناعة . وقبيل الحرب العامة (١٩٠٨)

أنشأ في دمشق السيد مسلم العمري معملاً لصنع الزجاج ، أنفق عليه عشرين الف ليرة عثمانية ذهباً ، وجرب عمله بواسطة صناع غربيين فجاء كازجاج الذي يجلب من الغرب ، ووافق الرمل الذي استعمل لكن المعمل لا يزال معطلاً ، وكانت الشركة الوطنية بنته على آخر طرز في شرقي المدينة ، ويظهر ان الشركة المساهمة متشاكسة بينها لان الشرقيين اعتادوا ان يعملوا فرادى لا مجتمعين .

* * *

الدهان
ومن صنائع الشام الدهان ، وكانت مما تمتاز به بعلبك . قال
في مسالك الأَبصار ، ويعمل في بعلبك الدهان الفائق من
الماعون وغيره ، ولكن دمشق وحلب وغيرها من المدن حيث كان للرفاهية أسواق
نافقة ، لم تكن دون بعلبك في هذه الصناعة ، فكان يدهن الخشب والحجر وبقي بحاله
القرون الطويلة . ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلاً يرَ الألوان زاهية
باهرة كأنها نقشت الآن ، وفي دمشق اليوم قاعات وأبهاء وأواوين مضي عليها زهاء
مئتي سنة ولا تزال برونقها تدهشك كما يدهش الداخل الى متاحف الآثار المصرية
من نقوش ببيان الملوك وبني حسن وسقارة وكتاباتها ورسومها ، وقد مضى عليها قرابة
اربعة آلاف سنة ، على حين ننصل الألوان المستعملة لهدنا وتكمد في سنين قليلة .
والسبب في نصول الدهان الجديد ، ومواده تأتي من الغرب منذ نحو خمسين سنة ،
ان الدهانات القديمة كانت من صنع البلاد ترجع الى اصل ثابت ويحافظ عليها من
المطر والشمس لان الأقدمين لم يكونوا يعنون بفتح الطيقان والنوافذ وتوسيع الابواب
مثل المحدثين ولذلك صبرت الأصباغ على الايام ، زد الى ذلك عنايتهم في تحجير
الأخشاب واكثرها من الدف الرومي او الجوز او السرو وهذه مما يصعب تطرق
التشقق والبلى اليه كالكريش والشوح الذي يجلب من الخارج وفيه مواد قطرانية
او غيرها وكانت لم في دمشق صناعة من الدهان تعمل من الحفر والنزيرل ويقال لها
الأبلى وهي ان يرسم الدهان الحجر بما يريد من الأشكال والنقوش ويجفرها النقاش
والحفار ثم يدفعها الى الدهان فيدهنها بصب الاصباغ في الشقوق التي يريدتها ثم تجلي
ونصل فيجيء صبغها كأنه من اصل الحجر ثابتاً براقاً ، ولا يعمل منه شيء اليوم .

وفي دمشق أسرة عرفت بأسرة الدهان ورئيسها اليوم السيد درويش واخوه محمد ونوري وأولادهم اختلفت بصناعة الدهان الذي يقال العجمي كما اختلفت بصنع هذا الأبلق . وتصنع هذه الأسرة مناخذ وخزائن واسكملت بهذا الدهان المعروف بالعجمي من النوع المقرنص تكون آية الإبداع وحسن الذوق تباع في قصور العظماء ويُنمَافس في افنائها وتبقى السنين الطويلة زاهية زاهرة . وقد دهنت عدة قاعات فجاءت آية الإبداع . وذكر الغزي ان احد شبان حلب تعلم في اميركا صناعة الدهان على الاصول الحديثة فجاء عمله غاية في الروتق والانقان ، والمنظر تعميم هذه الصنعة على هذا المنوال مع مراعاة المعرفة القديمة فيها .

هذا في دهان الغرف والابهاء والقاعات . واما صبغ الثياب والحرير والقطن والغزل والعين ، فكان الاعتماد فيها على أصباغ لهم جميلة يعرفونها ، ربما كان اكثرها من تركيبهم او من معادن البلاد وأجزائها . وكان للصبغ الدمشقي صيت بعيد في الاقطار ، لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه ، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غش فيها فلما تغلبت الأصباغ الغربية بطل استعمال القديم منها بل أُسي امره واعتيض عنه بالجديد . وجودة الأصباغ القديمة كانت السر في اشتهار الدباج الدمشقي قديماً حتى أوشكت لطافته ان تجري مجرى المثل . وفي حلب اليوم نحو ٣٠ مصبغة بالنيل و٥٦ مصبغة للغزل والحرير وفي دمشق مثلها ونحوها وكذلك في كل بلد يجسب حجمه وأرباضه .

وكان من أصباغهم الاصفرا ن اي الزعفران والورس ، والبرفير او الفرفير وهو الأرجوان (أحمر وأزرق) وكان ولم يزل للنيل الذي يخرج من الحولة او يؤتى به من الهند ، شأن في صبغ ثياب العملة والفلاحين . وانحطت هذه الصناعة تبعاً لانحطاط اكثر الصناعات ، لما جاءت الاصباغ الالمانية الحديثة حتى ان بعض معامل أفشة الحرير ترسل اليوم حريرها الى الغرب ليصبغ ويعاد الى البلاد ، فتعمل منه الشقق والثياب وتوشى على ما يشاءون ، والوشى في الثوب كالرئش في القرطاس والنقش في الخائط ، ويجاولون ان تكون ألوانها ثابتة لا تنصل .

الفخارة والقيشاني } وصناعة الفخار ين اشتهرت بها الشام ايضاً وكان
 في صور الخزافون المبدعون في الأعمار القديمة ،
 وكذلك في كفرطاب ، وكانت تعمل فيها قدور الخزف وتجلب الى غيرها ومنها
 نموذجات لطيفة حفظت في داري الآثار في دمشق وبيروت ، وكان ولا يزال يعمل من
 الخزف القلل والخوابي والاجانات والدوارق وأصاحي الزهور وغيرها ، يصنع ذلك في
 حلب ودمشق وطرابلس وبيت شباب وصيدا وبيروت وغزة وعيتا وراشيا (ويقال
 لهاتين البلدتين عيتا الفخار وراشيا الفخار) وصناعة الفخار على كثرة منافسة الخزف
 الغربي لها لا تزال متماسكة ، لانه لا يتيسر جلب كل شيء من الخارج . وأجمل
 الخزف اليوم ما عمل في حلب من الصيني الجميل .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر بلاد الشام على
 ما علمنا ، صناعة القيشاني التي دثرت من هذه البلاد وكانت مورد ربح لها ، وعنوان
 فخري ومباهاة . ترصف بها الجدران والحاريب والفساقي والسلسبيلات والبازهنجات
 والقائم والزهريات والقلل وغير ذلك . وكان يصنع على ما يظهر من الرمل الأبيض
 والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب ، وتكتب على سطوحها
 آيات وأحاديث أو أشعار ، او ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ، ويذرعها مسحوق
 الزجاج ، او نطلي به ممدوداً بسائل غروي ، ونشوي في نور معدة لذلك ، فيسبل
 الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة نقيها من الغوائل والمؤثرات زمناً طويلاً ، وتظهر
 النقوش والكتابات زاهية بالوانها الطبيعية . وفي سلسبيل جامع الدرويشية بدمشق
 نموذج منه أرخ سنة ٩٨٢ ، وقطعة أخرى كانت على قبر لطفي باشا أرخت بسنة
 ٩٩٨ وهي محفوظة بدار الآثار بدمشق وقد كتبت عليها الآية الكريمة « كل شيء
 هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » بخط تعليق مشرق وفي أعلاها رحمة المولى عليه
 كل حين . ولا تزال في بعض الجوامع والمدارس من هذا القيشاني العجيب نموذجات
 تأخذ بالابصار .

ومن أجمل النماذج من القيشاني بدمشق عمودان منه على طول متر في محراب

جامع التبان في المناخلية جوار باب الفرج ، ومنه نموذج كثير و يظن انه حديث في تربة
 جامع المرادية ، وفي مدخل السويقة في مدرسة اقوش النجيبى كتبت عليه آية الكرسي
 بالقيشاني البديع . وفي تكيتي السلطان سليمان وسليم وقبر في زقاق القرشي بالميدان
 كتب عليه هذا قبر الجنينين الطفلين يونس وفرج محفوظ في ادارة الاوقاف ،
 والقيشاني في جامع نكز مكتوب عليه آية التوحيد وفي مدفن بلال الحبشي الصحابي
 ١٤٦ قطعة من القيشاني المعمول في كوتاهية .

ولا يعلم تاريخ اندراس هذه الصناعة ، والمشهور انها كانت خاصة باهل بيت
 يتوارثون صنعها خلقاً عن سلف ، فدمروا ودمرت معهم منذ اكثر من قرنين . اخبرني
 احد أساطين العلم انه رأى القيشاني في جامع الدرر شية بدمشق مصبواً على الاحجار
 طبقة لطيفة وهو في غاية الحسن . ويظهر ان المادة القيشانية كانت تمدُّ على الحجر
 كما تصنع صفائح وألواحاً . وقد قام في العهد الاخير في كثير من المدن أناس لعمل
 الخزف الملون لتبليط البيوت دعوه بالقيشاني وهو لا يشبه القيشاني الا بالاسم فقط .

فقدت الشام عدة صناعات كانت ممتازة بها ، وتعد في جملة
 الموارد عيشها ، ومنها الوراقة صناعة عمل الورق . فقد كانت
 } الوراقة

هذه الصناعة من الصناعات التي تعدها من حاجياتها . وكانت العرب تكتب اولاً
 في اكتاف الايبل والحجارة الرقيقة البيض وعسيب النخل ، بعدما كانت الكتابة في
 الاديم والرقوق على ما قاله المقرئزي . وفي ايام بني أمية عمل الورق من الكتان
 وسمي بالخراساني . والغالب ان الشام أخذت في صنع الورق في دمشق وطبرية
 وطرابلس وحماة ومنبع قبل هذا التاريخ . وعامة المؤرخين من الفرنج على ان الورق
 من اختراع اهل الصين سنة ١٢٣ ق . م ونقل صنعه أسرى من الصين الى سمرقند
 في سنة ٧٥١ وفي سنة ٧٩٤ م أسس معمل للورق في بغداد ثم في دمشق ويظهر
 من بيت طرفة بن العبد البكري في معلقته ان القرطاس ينسب للشام والبيت .

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر كسبت الياني قده لم يجرد^(١)

ان القرطاس كان يعمل في الشام على عهده او قبله خلافاً لما قاله مؤرخو الفرنج ، وان الورق من صناعات الجاهلية . وكان يرتفع منه الى البلاد الأخرى كميات من دمشق ومن طبرية على ما ذكر ذلك المقدسي . وقد تعلم صنع الورق في دمشق اسيران افرنسيان على عهد الحروب الصليبية فلما عادا الى بلادها نشرتا صناعته في فرنسا ، ومنها انتقل الى جميع اوروبا . فدمشق على فرنسا بل على المدينة باسرها ، الفضل الاول في تعليم هذه الصناعة للغربيين ، وناهيك بانها أهم صناعة نشرت العلم والافكار في العالم . وقد حمل الشاميون الوراثة الى الاندلس في جملة ما حملوه من صناعاتهم ، على نحو ما حملوها الى شمالي افريقية . وكانت شاطبة من مدن الاندلس تصدر منذ سنة ١٠٠٩ م الورق بكثرة ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس .

وكان الورق يصنع اشكالاً في مكابس صغيرة ، ويعمل من الخروق البالية او الحرير واستبدل ورق القطن الذي منه الورق دمشقي بالحرير في سنة ٧٠٦ م رجل اسمه يوسف بن عمرو ، ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية بدمشق كتاب كتب سنة ٢٦٦ هـ على ورق يظن انه من الورق الشامي وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته . وقال الرحالة ناصر خسرو ان الكاغذ الجيد الذي كان يصنع في طرابلس يشبه ورق سمرقند الا انه أحسن صنعا . وذكر القلقشندي ان الورق المعروف بـرق الطائر ، اي الورق الذي تكتب به البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل ، هو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام . وهذا هو الورق الرقيق . والورق القديم أشبه بالبردي او الرقوق

(١) ذكر اليزوزني في شرح معلقة طرفة ان مقصود الشاعر بقوله كقرطاس الشامي كقرطاس الرجل الشامي وكذلك كسبت (دبغ) الياني اي الرجل الياني وهذا غير ظاهر وفسره ابو زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي في جمهرة اشعار العرب بقوله انه شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام وشبه مشفرها بالجلد المدبوغ بدباغ القرظ لئنه . . وهذا أصرح وأوضح .

بمتانته • ولا نعلم في اي زمن انقرضت هذه الصناعة من الشام • وحدثني احد علماء حلب ان الورق كان يصنع في الشهباء وان حياً من احيائها لا يزال اسمه الوراقة حيث كانت معامل الورق • والورق الحلبي الصقيل المتين مشهور الى عهدنا •
وقد قام في أوائل هذا القرن رجل من بيروت من بيت الباحوط ، فأسس معملًا مهماً في انطلياس على ساحل البحر ، وأصدر ورقاً جيداً كورق النمسا وفرنسا ، لكن معامل الورق في الغرب أرخصت صادراتها من الورق الى الشام ، فاضطر هو ان يُنزل ايضاً ثم خفضت السعر ولم تزل تنخفضه ، حتى قضت على هذا العمل النافع في زمن أصبح المجلوب من الورق كل سنة يساوي عشرات الالوف من الدينانير الى الشام وأصبح الورق حاجة من حاجات المدينة •

* * *

المرايا } ومن الصناعات التي كانت تصنع في هذا القطر ولا سيما في صيدا على ما قال بليوس وتصدر من البلاد صنعة المرايا ، وكانت مرايا الأقدمين من صفائح المعدن وهي المعروفة عند العرب بالوذائل واحدها وذيلة ، وكانوا يتخذونها باديء بدء من مزيج القصدير والنحاس ثم اتخذوها من الفضة خالصة او ممزوجة بمعدن ادنى ، ومنها مرايا من الذهب ، وقد اطلعنا على مرايا من الشبه والفضة استخراجت من ارض حمص • وهذه الصناعة مما تعلمه البنادقة على ما يظهر من الشاميين وانتقل من بلادهم الى الغرب كله ثم ننوسي عمله في بلادنا •

* * *

الصياغة } ومن أهم الصناعات القديمة التي لم تبرح على شيء من العناية الصياغة صياغة الذهب والفضة والنفن في تصويرها ووضع الاحجار الكريمة عليها ، وكانت تعمل هنا اكلة الجواهر واقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخللاخيل على أشكال ورسوم جميلة • والغالب ان المصنوعات المزينة من الصياغات الاجنبية نازعت هذه الصناعة وزاد كسادها كون شروط الحياة في هذا العصر اختلفت عما كانت عليه

في الأعراس السالفة ، وصارت رفاهية القرون الخالية مما يتعذر على ابن هذا الجيل الا قليلاً .

فصياغة الحلبي كما لا يخفى من الصناعات اليدوية الدقيقة جداً ، وهي تحتاج الى ذكاء ومهارة فائقة لما تقتضي حالتها من تغير أوضاعها وأشكالها بحسب ذوق كل عصر ورغبة اهله ، وهي تقسم كما أكد العارفون الى سبعة أقسام رئيسة . قال ان الاول ما يحلى به الرأس وأعظمها شأنًا ورواءً ما يسمى بالتاج ، وهو عبارة عن دائرة من الذهب الرقيق ، يختلف شكلها بحسب الزمان مرصعة باحجار الماس المختلفة مجموعها ، وهي اجمالاً من أحسن ما صنعته يد الانسان لتزبين رؤوس السيدات ، و يوجد اليوم اسماء كثيرة وانواع عديدة لما يزين به الرأس ، منها ما يسمى بالمشط ، والبرش ، والقمر ، وكثير من أشكال الطيور والحشرات كل ذلك من أبدع الاشكال والصور مرصع بالجواهر الكريمة .

ومما تزدان به الصدور من الحلبي أنواع متعددة ايضاً منها ما يدعى اليوم بحسب صورته وأشكاله مثل « قلب ، حبة ، فراشة ، زنبقة ، غزال ، دبوس ، كردان ، ضفدع » كل ذلك جميل في صنع ذهبه وترصيعه ، و تناسب تركيب احجاره ، مما يدل على رسوخ قدم في تلك الصناعة منذ اعصار قديمة ، وغالب ما تزين به النخور عقود اللآلي ومما تحلى به الزنبرد أساور الذهب الدقيق الصنع ويرصع غالباً بنص واحد كبير الحجم ورسمه على الاكثر حية او افعى ، ومما تحلى به المعاصم ويسمى اساور ترسم على أشكال متعددة من الذهب ، وترصع باحجار ماس ، ولها بحسب اشكالها اسماء متعددة منها « حبة ، برغي ، ماس ، سحب ، عصفير » وغير ذلك . وكلها بما فيها من دقة صنع تدل على سلامة ذوق صناعها .

وحلي الأناهل وعو ما يسمى بالخواتم ، وعامتها من الذهب ويركب عليها غالباً فص كبير الحجم من الماس او الياقوت او الزمرد او الفيروزج او فصوص صغيرة مناسبة الوضع ، بغاية الانتقاف ، ولها اسماء متعددة منها « مركيز ، زيتونة ، فريشة ، ذو الثلاثة احجار . ومن اكثر أنواع الحلبي الأقراط حلي الأذنان وهو أشكال متعددة ايضاً منه ما يسمى الآن قرط كف ماس قفل ، طارة ،

خروسة ، عسافير ، تركي ، بغدادي ، حرية ، مقرط الطويل ، وهو عبارة عن قطعة واحدة من ماس كبيرة الحجم ، معلقة بسلسلة من الذهب ، غاية في الدقة بطول ثلاثة سانتيمات تقريبا ، لها خفقان على الجيد جميل .

ويجيد فووه القرط يلوح شبه نجم خافق خلف القمر

وفي الشام الآن الوف من صناعات الحلي وتجار الاحجار الكريمة ، ولا يوجد بلد في القطر الا وفيه عدد كبير من ارباب هذه الصناعة النفيسة . ومن غريب الامر فيها انك لا تجد شكلاً راج في بلد الا وتجده قد راج في الشام من أقصاها الي أقصاها ، خلافاً للباسهم وبقية أزيائهم .

قال ولمكانة هذه الصناعة لا بد من الاشارة الى سبب ترقبها ذلك ان الشام مدينة للفتح العربي بها ، فان هذا القطر كما يعلم الباحثون ليس فيه مناجم ماس ولا ذهب من اول عصور التاريخ المعلومة ، ولكن الفاتحين من العرب بعد فتحهم اغلب آسيا وافريقية وعاصمتهم دمشق ، هادتهم الملوك في هاتين القارتين ، واغلب هداياهم هي الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنها ، وكان الخلفاء منهم يهدون منها القواد والامراء والأطباء والشعراء والعلماء والفقهاء فكثرت في أيديهم وزادت بطبعة الحال في أيدي الصاغة ، وتنافسوا في إتقان تلك الصناعة حتى صارت كما ترى اليوم في اعلى درجات الارتقاء .

ويمكن ان يعد في جملة الصياغة طبع الدراهم وضرب الدنانير من النقرة المذابة من الذهب والفضة ، فان الشام كانت من اول الأقطار التي طبعت فيها السكة الاسلامية ، وكانت الدنانير تضرب في الجاهلية بأيلة على البحر الأحمر ، وفي متاحف دمشق واوربا نقود ضربت في دمشق وحمص وابلبا وانطاكية وبلبك وطبرية ابام عمر سنة ١٧ وعليها كلها رسم ملوك الروم ثم اسم المدينة بالعربية واليونانية .

وكان لهم مهارة في معرفة البهرج والزيوف من النقود الصحيحة ، وكان بعضهم يذهبون الى ان الإكسبر اذا أضيف مثقال منه على الف قنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً ، ولم يثبت ذلك من طريق الكيمياء . وما برح الأحران الذهب والفضة معدنين خاصين ، ويمكن ان يعد في جملة هذه الصناعة صناعة لصق المينا بالمعدن

ومنها نموذج في دار الآثار بدمشق . وفي التاريخ العام ان معامل الشام كانت تصنع الخرز والانية الذهبية ذات الميناء ، اما صناعة الجواهر والصابغة فان ما بقي منها يدل دلالة كافية على رقي العرب في صنعها . وكانت العرب تحسن قطع الاجار الدقيقة . ونقشها بالرسوم وزبرها بالصور .

صناعة الصدف } واشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف يعملون منه
والرخام } الصناديق الصغيرة لوضع أدوات الزينة ، والمساج
والصلبان والدبابيس والدوي والمقاطع ورسومها وطيوراً وحيوانات من الفيل والأرنب ،
ويصنعون من خشب الزيتون هذه الصناعة نفسها مما يدل على رسوخ قدم قديم في
الصناعة ، وتباع في الغرب كميات كثيرة منها ، لما فيها من دقة الصنعة وجمال
الاسلوب والنفنن في الوضع والشكل ، ويتنافس الغربيون في اقتناء هذه المصنوعات
ويحبها اليهم كونها من الارض المقدسة .

واهل بيت لحم يعنون منذ قرون بصنع أدوات التقوى كالسبح والصلبان ، وبعض
مشاهد التوراة ، يصنعونها من عرق اللؤلؤ كما يعملون المرجان وحجر الخنزير او الحجر
المتين ، وهو مؤلف من الطباشير والحجر المستخرج من بحيرة لوط .

وكانت عكا في الدهر السالف تعمل صنوفاً من حاجيات الكنائس . ولبعض
صناع الرخام صنائع دقيقة في دمشق فمنهم من يعمل أحواض الماء من قطع صغيرة ،
فيها أنواع الرخام الملون ، وقد عمل احدهم خزانة للكتب من انواع الرخام الملون
لا يتجاوز القطعة الواحدة السنتيمتر الواحد فكانت طرفه من الطرائف التي آثروا بها
القصر السلطاني في فوق . وهذه الصناعات من الكليات فلما يرغب فيها حتى
الاغنياء ارباب القصور ، ولذلك رغب عن صنعها اربابها فكادت تدر . ولبعض
الصناع مهارة في تقليد العاديات القديمة وغيرها من الأعلام ، لا تكاد تختلف عما
صنع من نوعها منذ قرون ، يقننها بعض السياح على انها من القديم . وتقليد العاديات
مما عمت به البلوى في الغرب اليوم وهي مورد من موارد ربح الفقراء من الاغنياء
وهي تحتاج الى معرفة زائدة ومهارة غريبة .

ومن أهم الصناعات صناعة نسيج البسط ، يقلدون فيه
 السجاد العجمي والتركي . ولكنه أحط من العجمي
 لان هذا السجاد الشيرازي والاصفهاني يصعب ان يدانيه سجاد في العالم لا يكاد يفني
 حتى بعد استعماله قروناً ، كالأعينة الشامية تلبس عشرين سنة وهي بروقتها ومثانتها
 الا قليلاً . ويحى ما يقولون ان السجادات والاعبئة أجراء دائمون بلا أجرة . وكانت
 البسط الشوبكية وبسط أعناك في البلقاء وهوران وسجاد دمشق ، ومنها المصور
 باشخاص ورسوم ، مما اشتهر امره وذاع .

وفي دمشق وهوران وجبل قلمون ولا سيما جبرود وحمص وحلب الوف من
 الأنوال ، تحيك البسط من الصوف الخالص وكانت تصبغ بالاصباغ النباتية الثابتة
 من استحضار البلاد نفسها ، فحتفظ بالوانها بعد عشرات من السنين ، وتصبغ الآن
 باصباغ اوربية قليلة الثبات وهي على غاية من دقة الصنعة وناسب النقوش ومثانة
 الحياكة بحيث تضاهي أحسن ما يعمل من نوعها في الاقطار الاخرى . ويأتي بعدها
 صناعة السجاد والطنافس ، وتعمل في قرى حمص وحماة وهي المسماة بالحزوري
 والعدموني ، نسبة لقربة حزور وادمون ، وهي على غاية الجودة والمثانة يعمل من
 الصوف الخالص ومما يعاب عليه انه لم يزل يعمل من لون واحد وهو الأحمر القاني ،
 وتوشه متشابهة لانفنن فيها . ودخلت صناعة الطنافس على طريقة أحدث من
 الطريقة القديمة في حلب وبيروت ودمشق وذلك بدخول جاليات من آسيا الصغرى
 في السنين العشر الأخيرة ، يحسنون صنعه جداً الاحسان ، لكن النفوس لا تزال
 ترغب في سجاد فارس ، فانه لا يعادله شيء بمثانته وثبات ألوانه وتصويره ورقشه .
 وفي بعض قرى قلمون بصنعوت من الوبر بسطاً غليظة بيضاء تستعمل في الضياع
 والبوداي ، وتوضع على الأدرج في المدن . ويعملون الجوالق (الشوالات)
 والعدول على شيء من الجودة والمثانة وكذلك البلاس والمسوح .

وكان نسيج الحصير والباري من أفضل الصناعات تقوم باحتياج البلاد منه .
 واشتهر انه كان « الى جانب طبرية غابة حلفاء ورفقهم منها ، اكثرهم ينسجون الحصر
 ويفتلون الحبال » وقد رأى ناصر خسرو في القرن الخامس حصراً من هذه الحصر

الطبرانية تستعمل للصلاة وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مغربية . وقد ضعفت هذه الصناعة بانهيار البسط الافرنجية والحصر اليابانية الرخيصة ، ولكن القرى وكثيراً من المدن ما زالت تعتمد على المصنوع منها في ارض الوطن ، والحصر البيروتية مشهورة بجسها ولطافة ألوانها ومتانتها التي تفوق البسط الافرنجية كثيراً .

ومن أهم الصناعات المحدثه صناعة القرميد وهو صنو
 الأجر القديم نقرمد به السطوح ، وفي لبنان واللاذقية
 والصناعات المحدثه }
 ويافا معامل كثيرة منه وفي سنة ١٩١٨ أسس رجل افرنسي في اللاذقية معملاً لعمل
 القرميد ، والقرميد الآجرة العظيمة . ويعمل في هذا المعمل الفخار الصيني وبلاط الملاط
 لجودة التراب الخزفي في تلك الأجزاء . وفي القدس معمل للقيشاني او البلاط الملون .
 ومن الصناعات الجديدة صنعة لفائف التبغ تصنع منها كميات مهمة في حمانا وبكفيا
 وزحلة وبعض قرى بيروت الساحلية وتعمل منها كميات عظيمة في فلسطين ودمشق
 وحلب . وقد استنفادت فلسطين في الايام من الأخيرة الاكثر من زرع الدخان
 استفادة عظيمة وأخذت تصنع من اللفائف ما يقوم بحاجتها وتبيع منه الى الخارج .
 ومنها صناعة الطباعة وصنع الصور والحفر على النحاس والزنك وفي بيروت احسن مصانها
 ودمشق تقلدها بعض الشيء . ومن الصناعات المحدثه صنع الجليد وأهم معامله في
 بيروت وحلب وطرابلس وصيدا واللاذقية ودمشق وحيفا ويافا والقدس وهو يقوم
 مقام الثلج الطبيعي في التبريد . وكان الثلج السماوي يدخر الى آخر أشهر الصيف
 بحاله وكان هذا ينقل في القرون الوسطى على البغال من صيدا وطرابلس الى قلعة
 الجبل بالقاهرة في ثلاثة ايام لتبريد المياه في قصر الملك وعظاء الدولة هناك . وفي
 حيفا معمل للشمننو يستخرج من حجر الجبل المتاخ لها ومعمل للبنزين والسبيرتو . وفي
 كل من عكا ويافا معمل للثقاب (الكبريت) .

هذه أهم الصناعات الشامية وغالب الصنائع «تتبدل عليها ايدي الصناع من الواحد
 بعد الواحد الى ان ينيف على عشرة صناعات حتى يتم» وقد أفاض صاحب قاموس
 الصناعات الشامية بتعداد هذه الصنائع والحرف في دمشق خاصة على اختلاف اسمائها

وضروها فبلغت نحو ٣٤٠ حرفة وصناعة . ولا ين الصانع الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع قال ابن جماعة : واعلم ان هذه الصنائع استخرجها الحكماء بحكمتها ثم تعلم الناس منهم بعضها وصارت وراثه من الحكماء للعلماء ، ومن العلماء ، ومن المتعلمين ، ومن الاستاذين للتلامذة ، ومن التلامذة للصانع . وكان ولا يزال لكل حرفة زعيم او تقيب او شيخ او عريف ويسمى شيخ الحرف كلها بسلاطن الحرافيش ثم كني عنه احتشاماً بشيخ مشايخ الحرف والصنائع . وكان لارباب الصنائع ترتيبات اشبه بالنقابات الصناعية في الغرب ولذلك دام رواجها طويلاً .

* * *

تأثير الصناعات في } قلت من خطاب في الصناعات يوم الاحفالف
الماديات والاخلاق } بافتتاح الدباغة الوطنية الفنية (٥ كانون الاول
١٩٢٤ — ١٣٤٣) لقد فقدت معظم الصناعات ويا للأسف ، وآخر ما سيفقد منها
صناعة النسيج الضرورية النافعة ، فقد كانت صادراته من حلب وحماة وحمص
وطرابلس ودمشق تسد جانباً عظيماً من موازنة البلاد بما تأتي به من الأموال الطائلة
كل سنة ، فأصبحت الآن الى انحطاط ونازعتهما الأقمشة الافرنجية البراقة الدقيقة .
قيل انه كان في دمشق وحدها ثلاثون الف نول للنسيج قبل الحرب فأصبح عددها
اليوم نحو ثلاثة آلاف ، ولا تلبث اذا دامت الحال على هذا المنوال ان تضمحل كما
اضمحل غيرها من الصناعات ، ويفتقر أربابها ويهاجرون او يهلكون . وفي كل
ذلك خسارة واي خسارة على الوطن الذي ينجع بابنائنه ، واي فجيعة اعظم من الفجيعة
بالمال او الرجال او فقدتها معاً .

ومما تجنيه البلاد من اجتماع الناس على مثل هذه الأعمال الصناعية الشريفة
تربية الروح القومية فيهم واصلاح ما أمكن من شؤونهم الاجتماعية . واليك مثلاً
جرى في هذا المعمل يتخذ منه العاقل عبرة . ذكر لي مدير مدبغتنا هذه منذ مدة
ان مستشار الامور الاقتصادية في المفوضية العليا زار المعمل وسر بنجاحه كل السرور
ونشطه بالقول والفعل ، الا انه بدت منه حركة أسفغرها ، وذلك انه سأل كثيراً
من العملة عن مذهبهم ، وبالطبع فيهم من اهل الأديان السماوية الثلاثة ومن غير

الشاميين ايضاً . فاستغربت مع صاحبي هذا السؤال منه ولم أهدت لتعليقه . ولم يلبث المستشار ان زارني من الغد وذكّر لي في جملة حديثه سروره بالمدبغة الجديدة ، وقال : انكم معاشر الدمشقيين قد حللتم مسألة من أعزل المسائل في بلدكم لم تتمكن نحن في بيروت من حلها . وذلك اننا أردنا مرة ان نقوم بمشروع صناعي فيها فجاءنا اهل كل مذهب يريدون ان يستأثروا باكثر المنافع لا ببناء طائفتهم . ونحن كنا بالطبع نريد ان ينفع به من يعمل ويعرف . وهكذا ضاع الوقت في المجادلة على غير طائل ولم نتقدم شيئاً واحداً في الموضوع الاصيلي ، وسقط المشروع وهو جنين لان الناس هناك يريدون ان يقوم بذلك الروح . ولقد سررت ان رأيت في معملكم المسلم والمسيحي والاسرائيلي على اختلاف مذاهبهم . وكل فرد يعيش مع اخيه متسانداً متعاطفاً . قلت له : ولذلك استغرب بعض عملة المدبغة سؤالكم اول امس عن دين من رأيتوه فيه . فقال : ليس في العالم عمل اقتصادي قام على اساس الدين ولبنان الكبير غريب في حالته هذه فقلت له : هذه قاعدة قديمة سارت عليها دمشق منذ الفتح الاسلامي فكل من يحسن عملاً يوسد اليه مها كانت نخلته . فسرّ لقولي وسررت لتوفيقنا .

بقيت هناك مسألة لا بد من الاشارة اليها وأعني بها تأثير الصناعات في الاخلاق . فقد ثبت ان البلاد التي تكثر فيها الأعمال الصناعية والزراعية أحسن أخلاقاً من غيرها ، ويقل فيها المتشردون والثرثارون ، لان من طبع العاملين الأخذ بالنافع وترك الفضول على الجملة . ولذلك يضعف الشعب في ارباب الصنائع ، ونقل الموبقات المهلكات ، لانها لا تبي للعامل الا الوقت الكافي لراحته ونومه ، وهو على ثقة من انه اذا لم يحصر ذهنه في عمله يخرج صاحب المعمل او الحقل من خدمته . فالحكومة التي تحب ان يقل الشعب بين من وسد اليها امرهم يجب عليها ان تفكر ليلاً ونهارها في ايجاد اعمال رابحة لهم . وبذلك يقل المتشائمون والمشاغبون والمرجفون والناقمون . وليس أحسن ولا أنجح من هذه السياسة .

لا جرم ان اشتراك اهل البلد الواحد بل القطر الواحد والمملكة الواحدة في عمل اقتصادي ما يرفع مستوى القومية ايضاً ويلقن الناس معاني التضامن الوطني . فقد

رأينا في الدهر السالف سكان الجنوب وسكان الشمال من فرنسا يقننلون ويتحاربون ولم نقطع شأفة الفتن من بينهم الا عندما اشترك الجنوبي مع الشمالي في الاعمال الاقتصادية ، فأصبحت مصليحتها واحدة وارنفع النزاع من بينهما وأحسا انها أبناء امة واحدة . ولذلك نرى الى اليوم من بقايا تلك الأخلاق ان ابن الشمال يهزأ بابن الجنوب على حين كلهم سواء في مناحيهم ومنازعهم ، بل ان اهل شمالي فرنسا لا يعنون بغير صناعاتهم وتجاراتهم على الاكثر ويقل فيهم السياسيون والشعراء الأدباء وهم كبار جداً في اهل الجنوب كثرة فاضت عن الحاجة .

فيا حبذا اليوم الذي يشترك فيه قاصينا ودانينا ، فقيرنا وغنينا ، في إقامة الشركات على أنواعها ، إحياءاً لصناعاتنا واستبقاً للبقية التي صبرت على الايام من ثروتنا . فالزراعة عشر الثروة العامة في العادة ، والباقي من اسباب السعادة ، والنماء ثمرة الاعمال الصناعية . وما السكك الحديدية والبواخر والسيارات والقصور والمصانع الفخمة وكل ما في المدينة من ضروب الراحة والرفاهية مما بلذ وينفع ، الا نتيجة عمل العملة في المعامل ، وكل ما نشاهده وندهش به من انواع الصناعات في اميركا واوربا بل وفي يابان والصين هو ثمرة التعاون والعلم العملي . ولذلك ساغ لنا ان نقول ان كل من يدفعنا أمثال السيدين العمر بين ولو خطوة واحدة الى الأمام لنقرب بسفينتنا الفقيرة من ساحل السلامة يستحق ثناء الامة جمعاء . ولا رجاء لنا في الحصول على الحاجيات ثم التطلع الى الكاليات ، الا بتأليف شركات صغيرة باديءً بدءً نقوم برؤوس أموال وطنية ، وتستعمل من الادوات الجديدة ما لا غنية عنه ، نتمو بنمونا في مظاهر الحياة والانبعث . فنجن لا نقل عن الغربي ذكاً ونشاطاً وانما ينقصنا التنظيم والتدريب . وفي بلادنا اكثر المواد الاولية اللازمة في الصناعات لا تحتاج الا الى معرفة قليلة للانفعا بها والله الموفق والملمهم .



التجارة الشامية



موقع الشام من التجارة } كان من وقوع الشام في طرف آسيا وافريقية ،
وتجارة قداماء الامم } وقربها من الساحل المقابل لبحرها من اوربا ،
أعظم مركز تجاري في القديم ، ومن أمم ما حمل أبناءها على الرحيل بتجاراتهم ، منذ
عرف التاريخ امتداد سواحلهم ، وكثرة الأخشاب التي تجود في غاباتهم ، تساعدهم
على صنع السفن المتينة الكثيرة ، ثم ان مرونة اخلاقهم تدعوهم الى الاختلاط بغيرهم ،
ونقله وتعلم لغته ومماثلته في عاداته ، وبهذا كانت شهرة الفينيقيين الذين استولوا
على جزء مهم من تجارة شمالي افريقية ، وبلغوا جزائر بريطانيا ، وأفاموا لهم مكاتب
تجارية في كثير من سواحل هذا البحر المتوسط وبحر الظلمات ، وما زال الفينيقيون
أعظم أمة تجارية بحرية في الدهر السالف ، ينقلون الى الغرب حاصلات الشرق ،
والي الشرق بعض ما كان يعمل في الغرب ، الى ان قامت دولتا الرومان واليونان .
عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الارض . ولم يكن
لسائر شعوب الشرق من مصر بين وكلدانيين واشور بين ، ولا قبائل الغرب البربرية
(الاسبان والغاليون والطيلىان) ، عهد يركوب البحار وشق العباب . والفينيقيون
وحدهم جروا في تلك الايام على تجشم البحر ومعاركة العباب . فصيح ان يدعوا من
اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء ، يتساعون من كل شعب

سلعه ويقايضونه على غلات البلاد الاخرى . تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برأ والغرب بجرأ .

واعتماد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل نتجه وجهات ثلاثاً . احداها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبغ والعود واللبان والوايو والابازير والعاج والابنوس وریش النعام وقرود الهند . والقافلة الثانية ترحل الى بلاد آشور لتعود منها بالسنجة القطن والكتان والحمر والاحجار الكريمة والماء العطر وحرير الصين . ونقصد القافلة الثالثة الى انحاء البحر الأسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والاولوانى النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا (القوقاز) .

وكانوا يتعاونون محاصيل صناعات الشعوب المتقدمة ، ويبحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل . بصطادون الصدف من شاطيء بلاد اليونان ، ومنه يستخرجون صبغاً أحمر وهو الأرجوان . وكانت الانسجة الأرجوانية تستعمل عند الأقدمين كافة ملابس الملوك والامراء ، ويجلبون الفضة التي يستخرجها اهل اسبانيا وسردينيا من مناجمهم . وكان القصد من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر ، وهو مركب من نحاس وقصدير ولا أثر له في بلاد الشرق . ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه ، وينشدونه حتى في شواطئ انكلترا في جزائر القصدير . وحيثما حلوا يتخذون الرقيق ، يتعاونونه تارة كما كان يتناع النحاس العبيد في ساحل افريقية . والشعوب القديمة كلها كانت تنجر بالرقيق . وينزلون طوراً في احدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والاطفال وينقلون بهم الى بلادهم ويبعونهم في القاصية . واذا وانتمهم الحال ينقلون قرصاناً ، ولا يتحامون اطالة أيدي التعدي على غيرهم .

وقد أنشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي انجروا فيها . وهي مراكز للبرد حصينة . واقعة على شاطئ البحر على مرفأ طبيعي يخرجون اليها بضائعهم . وهي في العادة انسجة ونغار وحلي وأصنام ، فيأتي اهل تلك البلاد بغلاتهم يقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين زنوج افريقية . ونقام أمثال هذه الأسواق في قبرس ومصر وجميع بلاد البحر الرومي مثل افرطش وپونان وصقلية وافريقية

ومالطة وسردينيا ومالقة وفادس وربما أقاموها في موناكو من بلاد الغول . قاله المؤرخ سنيوبوس .

وكانت الشام في الزمن القديم كثيرة السكان زاهرة على ما يظهر ، وانت وفرة سكانها واستبحار عمرانها ، من مركزها الطبيعي وتجارتهما العجيبة ورباعها الحصية . وكان في وسع مصر ان تنازع الشام مكائنها التجارية ، بيد ان الحسد المتأصل في الطبقات الدينية والسياسية كان يمزقها ويحول بين المصر بين القدماء وبين كل صلة بالشام . فكانت الشام اذاً المستودع الوحيد للعالم المعروف . تأتي حاصلات آسيا وافريقيا مع القوافل الى مواني الشام حيث تحمل على سفن فينيقية . وكثيراً ما كانت تأتي أزمات على الشام تخرب بايدي الفاتحين ، وبسبب الحروب المتواصلة بين الممالك الصغرى التي كانت تنازع هذا القطر . فأضاعت البلاد على التدرج مكائنها ، خصوصاً منذ تحلصت مصر من نفوذ كهنيتها وتعاديهم ، وغدت منافسة لها بان جعلت من مركزها الواقع على بحرين مستودعاً سهل التجارة بين انحاء العالم .

وكثير من الحروب التي نشبت بين الشاميين والاشوريين والبابليين والمصريين ثم مع ممالك الروم في الغرب ، كان السبب فيها على الاغلب مسائل التجارة ، واردة الشاميين ان يفتحوا صدر بلادهم لتنفيذ اليها تجارات جيرانهم اذ غيرهم من الشعوب . ومن أهم المدن التي استأثرت بالتجارة في القديم البتراء ثم تدمر ثم حلب ودمشق . وكانت مدن فينيقية لولعها بالتجارة ترك الزراعة حتى انه بلغت الحال باهل صور ان أغفلوا تعهد الارض وكانوا يشترون مؤونتهم من الجليل والسامرة واليهودية ، ولما حاصر الاسكندر صور اضطر ان يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال .

وذكر ديودوروس ان ثروة الأنباط اصحاب البتراء كانت من الاتجار بالطيوب والمر وغيرها من العطريات ، يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطئ البحر المتوسط ، ولم تكن تجارة تمر في ايامهم بين الشرق والغرب الا على أيديهم ، وكانوا يحملون الى مصر خاصة القار لاجل التخنيط . ولما استولى الرومان على البلاد انتقلت التجارة الى تدمر وفارس . ووفق الفرس الى تحويل التجارة عن مصارفها القديمة الى أصقاع الفرات والخليج الفارسي . واخذ الرومان يعنون بإنشاء الطرق المعبدة في

الشام ، والوصل بين الشام والاقطار الاخرى كالجزيرة والعراق والحجاز ومصر
وارض الروم اي آسيا الصغرى ، ولا تزال الى اليوم بعض هذه الطرق ماثلة للعيان
في صرخد والشراة وانكرك وأيلة وجرش وهذه كانت طرق البتراء الى داخل الشام
وكانت انطاكية ترسل الى رومية الاصواف والاقمشة والحنطة ، والشرق يبعث اليها
بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل)
والنبيلة والعاج والاحجار الكريمة واقمشة الصوف والحريير والعبيد السود والحيوانات
النادرة ولا سيما القروود فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الأحمر
او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام مع القوافل .
فالتدمريون ومن قبلهم النبطيون عُنوا بالتجارة جد العناية ، لانها مورد معاشهم
وعلة حياتهم ، لضعف الزراعة في ارجاء كورهم ، فكانت القوافل على عهد ارتقاء
تدمر تحمل اليها من جزائر العرب الذهب والجزع والنشب واللبان والصحف والصبر
وعود الند ، ومن العراق اللؤلؤ ، ومن الهند انواع المنسوجات والقرنفل واليهار
والحريير الصيني والنيل والضبجاج والفولاذ والعاج والابنوس . كل هذا يأتيهم من
طريق القوافل في البوادي والقفار فيحملونها الى رومية عاصمة الرومان اما الارفاق
التي تأتيهم من البحر فكانت دون ذلك — قاله رنزال — وقد اكتشف امير روسي
في سنة ١٨٨٢ كتابة رسمية كتبت بالدمرية واليونانية يرثي عهدها الى سنة ١٣٧
للمسيح فهتمت منها احوال التجارة القديمة ومضمونها تعريف جمركي مطول اصدره
مجلس شيوخ تدمر حسماً لفن وقعت بين التجار وعمال الخزانة ، وفيها بيان ما يضرب
من المكوس على البضائع والمعاملات التجارية اجمالاً وافراداً وهي باهظة فكان كل
حمل جمل او حمار يرد او يصدر تضرب عليه اولاً ثلاثة دنانير رومانية (وكان
الدينار الروماني يساوي نحواً من ٧٢ سننياً) ثم فريضة اخرى تختلف باختلاف
جنس البضائع . والبضائع التي ورد ذكرها في هذه الجريدة كثيرة فمنها الرقيق
والجزر والارجوانية والزيوت العطرية المبعولة في قماق من الزخام الابيض او في
ظروف من جلد المعز ، ثم زيت الزيتون والشحم والملوحات المتنوعة والجلود والثياب
والاقمشة والغلال المختلفة والافاويه والاثمار اليابسة كحب الصنوبر والجوز واللوز

والعقاقير والملح الى غير ذلك . وينقسم كل حمل الى ثلاثة أقسام حمل الحمار وحمل الجمل وحمل العجلة ، وكان ثقل الاول نحو مئة كيلو والثاني أثقل منه بثلاثة أضعاف والثالث يبلغ نحو الف كيلو . قال دي فوكيه : وكانت القوافل التي تحمل الى تدمر خيرات المشرق تستخدم من الدواب الإبل والحمر وإذا وصل التجار الى حاضرة زينب (تدمر) أنزلوا عن ظهر الدواب الجوالق والاثقال المختلفة وحملوها على العجلات ليوصلوها الى جميع انحاء المملكة على السكك والشوارع الرومانية ، فاذا بحثت عن أسباب تدمر وبلوغها ذروة العمران وجدت لذلك سببين الاول مرور البضائع بها وإقامتها فيها مدة ودفع المكوس الى خزانة المدينة والثاني شهرة اهالي تدمر دون سواهم بقيادة القوافل في المفاوز والصحاري ، فلذلك صارت هذه الحاضرة في القرن الثاني للمسيح أشبه بمرافق عظيم على بحر البراري ترسو عند ساحلها تجارة الامم فتغني خزائنها كما جرى في القرون الوسطى لمدينة البندقية سلطنة بحر الروم . وقد اكتشف علماء العاديات عمودين نصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلاً ميلاً عليها اسم زينب واسم ابنتها وهبلات . واول هذين العمودين قريب الجبل والجسر الواقع على وادي العذار . والثاني برج الريحان شمالي الجبل .

وكانت الشام أهم محال الحرير ولا سيما صور وبيروت ، والشام من أهم ولايات الامبراطورية الرومانية . وذكر بيروكوب عند كلامه على انطاكية انها اول مدينة رومانية مهمة في الشرق لغناها واتساعها ونفوسها وجمالها وعادياتها . وتجب انطونين الشهيد من الترف الذي كان على أمته في انطاكية ، ومن عظمة أفامية وبيروت وغزة . وقد اضمحل ذلك على عهد يوستينيانوس لانه أراد ان يضع سعراً وسطاً للحرير فهلك تجاره وصانعه وخرت معاملته . ويرد تاريخ زراعة الحرير الى القرن الاول للحكم اليوناني على الشام ولا سيما في ضواحي بيروت . قال هيد : بعد ان ذكر ذلك وقد حدا حب الربح تجاراً مسيحيين ان يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لعرب اسبانيا وافريقية والشام ، فاتخذ شارلمان والباباز كريا وادريانوس الاول الاسباب لمنع ذلك . وقد وجدت في بلاد غاليا اي فرنسا اليوم وغيرها من المدن التجارية في الغرب كتابات فيها اسماء الشاميين الذين كانوا يسكنونها للتجارة منذ الزمن الأطول ، ومنها

ما وجد في جنابي على مقربة من مدينة تريفو ذكر فيها شامي اسمه تيم من قرية عتيل من اهل مدينة قنوت في جبل حوران كان يتجر مع غالبا بما يحمله اليه مواطنوه الى ارل على سفنهم ومنها الى ليون فما فوقها من مدن فرنسا .

ولم يكن تجار الغرب يهتجون بالسفر الى الساحل الشامي لاختد البضائع اللازمة لهم ، بل يحمل الشاميون انفسهم بنشاطهم المعهود على ما يظهر تلك البضائع ، مع ان حاصلات آسيا مما كان يلفت نظر الغربيين . وكان خمر غزنة مشهوراً في فرنسا على عهد الملك كوثران في القرن السادس لليلاد ، وحرير الشرق واحجاره الكريمة نثألف منها زينة العظاء والسادات . قال هيد : ان الشاميين كانوا يرحلون الى فرنسا على عهد حكومة الميروفنجيين ونزلوا في جنوبي فرنسا مثل ناربون وبوردو بل في أواسطها مثل اورليان وتور وكانت تحمل الى فرنسا أكياس الأدم من فلسطين . والظاهر ان الشام كان يفوق غيره باعماله الصناعية والتجارية . وصلات الشاميين محكمة مع الشرق والغرب . وكانت بلادهم على عهد الروم محط رحال قوافل الخليج العربي والخليج الفارسي وأواسط آسيا وهي أهم ولاية تجارية للروم . وفي الحق ان صلاتنا بالغرب زادت لما توطدت أقدم النصرانية في اوربا ، وأصبح زوار بيت المقدس يأتون الى فلسطين افواجاً وافواجاً ويحملون معهم شيئاً من تجارة بلادهم وياخذون ما عندنا مما يروج في أسواقهم .

تجارة العرب } العرب اهل تجارة لضعف زراعتهم ، فكانوا يوغلون
في الشرق والغرب لغرض الربح ، وقد كان لهم أسواق
يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها عامة قبائل العرب
من قرب منهم او بعد ، فكانوا ينزلون دومة الجندل على سيف بادية الشام اول يوم
من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكان يعشوم
فيها أكيدر دومة — وهو ملكها — وربما غلب على السوق كلها فيعشوم بعض
رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر ثم ينقلون الى سوق هجر —
قاله القلقشندي .

وما زال يقام في الشام الى اليوم في اماكن مختلفة أسواق لبيع المنوعات والخصال أشبه بمعارض هذه الايام في الغرب . وكانت تقام في دمشق في كانون الاول سوق تعرف بسوق قضيب البان رواه البيروني . وروى القالي ان قريشاً كانت تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، اي تقدم عليهم الاعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم وبييعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر وتمكن عنده وقال له : ان قومي تجار العرب فان رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب . فجعل كلما مرَّ بجيٍّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافاً . والإيلاف ان يأمنوا عندهم في ارضهم من غير حلف ، انما هو امان الطريق ، وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ويؤدون اليهم رؤوس اموالهم ويريجهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين اهل الشام ، حتى قدم مكة فاتاهم بأعظم شيء أتوا به بركةً ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم ، يوفيههم إيلافهم الذي اخذه لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها ، فانتسعت قريش في التجارة في الجاهلية . وهاشم هذا هو جد الرسول مات بغزة فنسبت اليه فقيل لها غزوة هاشم لان الروم كانوا يقيمون لهم سوقاً في غزوة في موسم معلوم وكانت قريش في الجاهلية تحضره وتمتار منه .

وكانت لهاشم بن عبد مناف رحلتان رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . قال الثعالبي : وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين ، احدهما ان ذؤبان العرب ، وصعاليك الاعراب ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائف ، كانوا لا يؤمنون على اهل الحرم ولا غيرهم ، والخصلة الأخرى ان أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبتني طيء وخثعم وقضاعة وسائر العرب يحجون البيت ويدنون بالحرمه له . ومعنى الإيلاف انما هو

شيء كان يجمله هاشم لرؤساء القبائل من الربيع ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الاسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الاعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفریقین ، اذ كان المقيم راجعاً والمسافر محفوظاً .

وخصبت قريش وأتاه خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها وطاب عيشها ، ولما مات هاشم قام بذلك عبدالمطلب ، فلما مات عبدالمطلب قام بذلك عبدشمس ، فلما مات عبدشمس قام به نوفل وكان أصغرهم . وذكر اللغويون من جملة التخرجات في اسم قريش التي كانت سادة العرب جاهلية واسلاماً ، انها سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها في البلاد بتبغى الرزق ، وقيل لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا اصحاب زرع وضرع من قولهم فلان ينقرش المال اي يجمعه . وكان ساداتهم على حبهم للتجارة اذا تولوا امراً من امور الامة تخلوا عنها . ففي التذكرة الحمدونية انه كان لعمر بن عبد العزيز سفينة يحمل فيها الطعام من مصر الى المدينة فبيعه وهو واليها ، فحدثه محمد بن كعب القرظي عن النبي (ص) « ايما عامل تجر في رعيته هلكت رعيته » فأمر بما في السفينة فنصدق بها وفكها وتصدق بختبها على المساكين .

فهاشم بن عبد مناف اذاً هو اول من أخذ الإبل لقريش . قال ابن حوقل : وفي غزاة استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية لانها كانت متجراً لاهل الحجاز ، بل ما قولك بان الرسول عليه السلام كان قبل النبوة تاجراً جاء مرتين في التجارة الى الشام ووصل الى بصرى بل ان كثيرين من أصحابه كانوا تاجراً قبل الاسلام ومنهم ابو بكر وعمر وعثمان .

وكان الانباط يحملون من الشام الى الحجاز الزيت والدّرّمك «دقيق الحواري» ويعودون الى هذا القطر بمحاصلات الحجاز . وفي السنة الثانية للهجرة أقبل ابوسفيان ابن حرب والد يزيد ومعاوية من الشام في قريب من سبعين راكباً من قبائل قريش كلهم كانوا تجاراً بالشام . وكانت تجارة ابي سفيان بيع الزبيب والادم كما كان الصديق وعثمان وطلحة بزازين . وخافت قريش لما أسلموا من انقطاع السفر الى الشام للتجارات لمخالفتهم اهل الشام بالاسلام فقال عليه الصلاة والسلام : « اذا هلك قيصر فلا قيصر ، واذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » معناه لا قيصر ولا كسرى

بعدهما في الشام والعراق ، ولا ضرر عليكم ، فقويت نفوس العرب على الاتجار مع هذين القطرين وكانوا من قبل يملكون المزارع في الشام ويقيمون وينعمون .
ولما رفرف علم الاسلام على الشام اتسعت الدنيا على الصحابة حتى ان عبد الرحمن ابن عوف الزهري أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق الى الاسلام كان تاجراً كثير الأموال بعد ان كان فقيراً ، باع مرة ارضاً له باربعين الف دينار فتصدق بها كلها وتصدق مرة بسبعائة حمل باحماها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل بخمسمائة فرس عربية ، وكان الزبير بن العوام ابن عممة النبي (صلى الله عليه وسلم) واحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل كان له الف مملوك يؤدون اليه الخراج فرما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلف أملاً كثيراً أبعت بنحو اربعين الف الف درهم وهذا لم يسمع بمثله قط — قاله الذهبي .

وكانت مراكز صور وطرابلس ثقلع من هاتين الفرضتين بالتجارة الى سواحل خليج القسطنطينية (بحراجه) وخليج البنادقة (الادر ياتيكم) وبحر تيطس (الاسود) وجزائر قبرس ورودس واقريطش (كريت) وكل ما قام به خلفاء المسلمين ووزراؤهم لتسهيل الحج على المسلمين من إنشاء الطرق وانباط المياه على طول الطريق الى ام القرى ، واقامة معالم الامن والراحة فيها للحمحاج قد أفاد التجارة اي فائدة .
وكانوا قسموا ارض الشام الى مراحل وبرد وفراسخ وعُنوا بالامن من وراء الغاية حتى يتجر الناس . وكانت طريق القوافل الى مصر على الكرك او على غزة ورفح . قال ريسون : وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر والشام ، وان العرب رقوا الصناعة البحرية ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الابر من الصينيين ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر اي ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ووضعوا السفائح المألوفة وردوا التمسك وبعثوا روح الحركة في مصارفنا الحديثة وكنت تراهم حيثما سكنوا مهدوا السبيل وأمنوها ، وعمروا المرايا والفرش ، وأصلحوا وأنشأوا الفنادق والرباطات ورتبوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن التجارية غير اوساط تجارية كبرى .

وكان الفرات بن حيان أهدي الناس بالطرق وأعز مهم بها وكان يخرج مع
عيرات قریش الى الشام وله يقول حسان :

إذا هبطت حوران من رمل عاجل فقولا لها ليس الطريق هنالك
فإن نلت في تطوافنا وانبعاننا فوات بن حيان يكن وهن هالك

ويقول بركولوتي ان اربع موانع عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية وخمس مدن
داخلية الرملة ودمشق وحماة وانطاكية وحلب اسنفادت من التجارة مع اللاتين
ولا سيما مع البيزنين والجنوبيين والقسطنطينيين والبنادقة وكلهم ايطاليون ، وهذه
الجمهريات الاربع ، بيزة وجنوة وطسقانه والبنديقية ، التي كانت تقسم ايطاليا
هي اول من اتجر مع الشام من أم الغرب وجاراهم بعض تجار من أهل بلجيكا
وانكلترا ثم عدلوا بعد بلادهم . وكان لهؤلاء الطليان ولتجار امالني ومارسيليا
مكاتب تجارة في الاسكندرية وفي المدن الساحلية والداخلية في الشام ، يقاضون
بواسطتها حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب ، ولما فتح الجنويون ثم البنادقة جزيرة
قبرس زادت صلات الشام مع هذه الجزيرة التي هي على ٩٣ كيلو متراً من ساحل
الشام في طرف جون الاسكندرونة وتعد من الشام . وجعل ملوك فرنسا لهم تاجراً
اسرائيلياً يذهب كل سنة الى الشرق يبتاع منه حاصلات آسيا . وكثيراً ما كان
اليهود سفراء في المفاوضات مع امراء آسيا .

وذكر ابن خرداذبة ان التجار اليهود الراذائية ، وكانوا ينسلكون بالعربية والفارسية
والرومية والافرنجية (الافرنسية) والانديسية (الاسبانية او البرنقالية) ، والصقلبية
(السلافية) يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برأً وبعراً ، ويجلبون
من الغرب الخدم والجواري والغلمان والدباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف
يركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالقرما « على ساحل مصر »
الى القلزم « البحر الأحمر » وان شأؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي
فيخرجون بأنطاكية ويسبرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية « في حوران » ،
واما تجار الروس وهم من جنس الصقلبية فانهم يحملون جلود الخنز وجلود الثعالب
السود ، والسيوف من اقصى صقلبية « بلاد الروس » الى البحر الرومي والخارج منهم

في البر يخرج من الاندلس او من فرنجية ، فيعبر الى السوس الاقصى فيصير الى طنجة ثم الى افريقية « تونس » ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ثم الى بغداد .

وكان يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخروب والملاحم والصابون والفوط والجبن والقطن والنفاح والقريش والمرايا وقودور القناديل والابر والنيل والتمور والحبوب والخرفان والعسل وشقاق المطارح والسُّجج والكاغد والبز والأرز ومن قدس « حمص وحماة » الثياب المنيرة والبلعسية والخبال ومن صور السكر والخرز والزجاج المحروط والمعمولات ومن آب قلوب اللوز ومن دمشق المعصور والبلعيس والديباج ودهن البنفسج والصفريّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة ومن بعلبك الملاين . واختصت حلب أيضاً كما قال ابن السخنة بالصابون الذي يجلب منها الى ممالك الروم والعراق وديار بكر وهو انخر صابون ، وبيع منه مجلب في اليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في الاشهر ، ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنبج والتعلب وسائر الوبر والبضائع الهندية ، فاذا حضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ، ولو أحضر الى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا يباع في شهر وعلى هذا فقس اه . وذكر ابن بطلان من اهل القرن الرابع من عجائب حلب ان في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن اه . وكانت تجارة الشام في هذا القرن والذي يليه زاهرة جداً ، وقد قسم جعفر بن علي الدمشقي (في الاشارة الى محاسن التجارة) التجار الى ثلاثة أصناف وهم الخزان والركاض والمجهز .

التجارة في القرون الوسطى } وكانت مراكز باري تسافر الى موالي الشام قبل الحرب الصليبية وقد عقد امراء سالرن ونابل وجايت وامالي في سنة ٨٧٥ م معاهدة مع العرب كما عقد صلاح الدين يوسف وجمهورية

بيزا معاهدة مؤرخة في ١٥ صفر سنة ٥٦٩ (١١٧٢) منح بها البيزانبيين عدة امتيازات خاصة بالنقاضي والمملكة . وحصل الفلورنتيون (اهل فلورنسه) من قايتباي سلطان مصر والشام على عدة امتيازات وكانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما وضع من الامتيازات الاجنبية للاوربيين في الشرق وكان المقصد منها ترويج التجارة الصادرة والواردة .

قال احد كتاب الانكليزان عكا بقيت بختليجها الجون الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل ، وكانت مرسى السفن في العصور الوسطى ، ولما كثر اعتماد سكان الشام في طعامهم على الأرز عظم شأن عكا ، لانها كانت الميناء الوحيدة لتوريد الى البلاد . وكان الناس يقولون اذا أراد « باشا » عكا تضرب المجاعة أطنابها في الشام . ولذلك صار امتلاك عكا ضرورياً لكل فاتح يريد امتلاك البلاد ، فحوصرت اكثر من سائر مدن الشام وكان اتصال اوربا بها اكثر من اتصالها بسواها .

كانت الحروب الصليبية من أعظم العوامل فيها التجارة ، وانفجع بذلك اكثر من جميع ام اوربا الايطاليون اهل جنوة وطسقانة والبندقية وبيزا ، وهؤلاء كانت لهم قصور في الشام تدل على غنى ، وسفن الطليان هي اهم الأساطيل التجارية في القرون الوسطى . وفي كتاب الهدنة بين الملك المنصور وولي عهده الملك الصالح وولده الملك الأشرف صلاح الدين مع دام مراريت بنت سير هنري بن الابرنس بمندمالكة صور سنة ٦٨٤ . « وليس للفرنج ان يجددوا في غير عكا وعتليت وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجاً ، ولا حصناً قديماً ولا مستجداً ، وعلى ابن شواني مولانا السلطان وشواني ولده متى عمرت وخرجت ، لا نعرض لازية البلاد الساحلية التي انعقدت المدينة عليها ، واذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا فلا تدخل الى البلاد التي انعقدت عليها ولا تتزود منها وان لم يكن صاحب تلك الجهة التي نقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا ، فلها ان تدخل الى بلادها وتتزود منها ، وان انكسر شيء من هذه الشواني والعياذ بالله في ميناء من المواني التي انعقدت المدينة

عليها وسواحلها فان كانت فاصدة الى من له مع مملكة عكا عهد او مع مقدمها ، يلزم كنفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ، ويمكن رجالها من الزيادة واصلاح ما انكسر والعود الى البلاد الاسلامية و يبطل حركة ما ينكسر منها او يرميه البحر فان لم يكن للذي نقصده الشوافي معهم عهد وانكسرت فلها ان تزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتوجه الى الجهة المرسوم بقصدها ويعتمد هذا الفصل من الجهتين »

وفي كتاب الهدنة التي عقدت بين الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وبين دون جاكم الريدراغون صاحب برشلونة من بلاد الاندلس واخويه دون فلدر يك ودون بيدرو وبين صهر به دون شانجه ملك قشتالة وطليلة وليون وبلنسية واشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والغرب الكنفيل بمملكة ارغون وبرتقال ودون الفونس ملك برتقال من تاريخ ٦٩٢ ان الملك دون جاكم واخويه وصهر به يفسح كل منهم لاهل بلاده وغيرهم من الفرنج انهم يجلبون الى الثغور الاسلامية الحديد والبيض والخشب وغير ذلك وان سائر اصناف البضائع والمتاجر على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة في الديوان المعصور .

واعتماد الاوربيون بعد الحروب الصليبية حاصلات الشرق ، فلم يعد لهم طاقة على الاستغناء عنها ، وملك ازمة التجارة في البحر مع الطليان الكاتالانيون والبروفانسيون والقبرسيون والروديسيون ، واصبحت جزيرة رودس بمثابة مالطة وجبل طارق اليوم ، وكانت قبرس تهدد شواطئ الشام و منافذ النيل . قال صالح بن يحيى : ان مراكب الافرنج أخذت تتردد الى بيروت بعد الحروب الصليبية بالتاجر قليلاً قليلاً ، وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس فيرسل صاحب قبرس بضائعهم في شونتين كاننا له الى بيروت نقلةً بعد أخرى ، وكان للقبارسة جماعة من التجار يسكنون فيها اي في بيروت ، ولهم خانات وحمامات وكنائس ثم بطل ذلك .

ونكاثر حضور مراكب طوائف الافرنج وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ بيروت ، وهي تبلغ جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر

ومشارف وشاذة يوليهم نائب دمشق والمتوفر من المرتبات يحمل الى دمشق . وذكر
لامنس انه في نحو سنة ١١٣٦ جاءت مراكب فرنسوية عليها تجار فرنسيس من
مرسيليا ثم اخذت بعض مرافئ جنوبي فرنسا كمولينيه وارل تبعث سفنها ، وبذلت
جنوة جهدها لتبقى لها الأفضلية في التجارة مع الشام ، وكانت عكا المرفأ الاعظم
اولاً بين مواني الشام وقاعدة التجارة ومركز القناصل العمامين ، ثم مرافئ صور
وطرابلس والسويدية التي كانت تسمى ميناء مار سمعان ثم بيروت . ومنذ القرن
الخامس عشر تقدمت بيروت سائر مواني الشام ، وكان تجار الافرنج يستأجرون من
بلادنا الحرير والقطن بكميات وافرة والكتان والخام والانسجة الكتانية والحريرية
يتنافس الاوربيون في اقتنائها لجمال صنعتها ، وكانت صور لا تزال تاجر بالارجوان
واشتهرت بآنيها الصينية وزجاجها الفاخر ، وقبل الاوربيون على حرير انطاكية
وزجاجها ، وبتناعون السكر بالكميات الكبرى من صور وطرابلس وغيرها من مدن
الساحل ، الى غير ذلك من ضروب الثار والعقاقير والحشائش الطبية والافاويه العظيمة
وكان البنادقة يجلبون من حلب مقادير عظيمة من القطن والشب والبهار وخيرات الهند
والعجم تندفق اليها . وكان مبدأ اشتداد صلات الشام مع الغرب منذ الحروب
الصليبية . وقد اخذ تجار الافرنج انفسهم بفضل صلاح الدين ثم أخلافه من بعده
يغدون ويروحون في هذه البلاد ، والحرب ناشبة بين الفريقين لايمس احدهم باذي ،
ولا يعتدي على حقوقه ، حتى اضطر الصليبيون ان يعاملوا تجار العرب على هذه الصورة
في البلاد التي بقيت في أيديهم الى آخر مدة الحرب مثل صور وعكا وانطاكية
لاينال التجار منهم كبير اذى وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وتجار
النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعمهم .

ولم تكن جمهوريات ايطاليا في حرب الصليبيين دولاً بحرية من الطراز الاول
بل كانت منظمة باحسن النظم الجمهورية ، ومع هذا فكثيراً ما كانت تشب الحرب
بينها حتى تستأثر احداها بالتجارة في الشام ، فكان الجنوبيون اعداء البنادقة ، وكذلك
كان الكتالانيون ، واضطر البروفانسيون ان يدخلوا تجارتهم الى هذه الديار
بواسطتهم ، وهم يريدون ان يستأثروا بنقل زوار بيت المقدس وان تمر تجار ما وراء

جبال الألب من مثل جوخ الفلاندر في مواني ايطاليا ، ونقل على سفنهم وتستوفي عنها رسوماً خاصة . ولما احتل الجنويون الماغوسة في قبرس بدأ اللاتين بزيارة دمشق وبقية الشام ، وكانت حال التجارة في الدور الثالث من أدوار القرون الوسطى في دمشق على أحسن ما يكون ، فكان التجار الاوربيون اذا انتموا اليها رأوا فيها عدة زملاء لهم من بلاد مختلفة مثل البندقية وجنوة وفلورنسة وبرشلونة وغيرها ، فيبيعون وبتاعون ، وكان اجتماعهم في خان برفوق وقد أقام بعض البنادقة في حماة بين حلب ودمشق ، ومن حماة كانوا يتباعون القطن . وكان للاوربيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول واول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة ١٣٨٤ م واسمه فرنسيسكو داندللو وكانت دمشق مستقر القناصل ، الا ان لامنس يقول : ان اول ما ورد اسم القنصل في جملة النزلة الجنوبية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ودعوه اولاً بنائب القمص (Vicomte, Vice - Comg) ثم انتشرت هذه الرتبة في أماكن شتى في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل وأطلق اولاً على الايطاليين ، وبعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل .

* * *

التجارة في القرون الحديثة } وكانت حلب في هذا الدور من اول المدت التي اتجرت مع الطليان ، وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الاولى وزادت مكائنها منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان البنادقة يتاجرون من مليونين الى ثلاثة ملايين دو كما مع حلب كل سنة ، وقد احتفظت الشهباء بمركزها التجاري المهم فكانت نقطة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر المتوسط . ثم انتشر فيها الفرنسيين ولكنهم اضطروا ان يغادروها للاضطرابات السياسية الى أنطاكية ، كما اضطرت تجار الافرنج في دمشق الى مبارحتها الى صيدا وبيروت وعكا . وفي سنة ١٥٠٧ م عقدت الدولة العثمانية مع فرنسا معاهدة تجارية فكانت سفن فرنسا تأتي الى مواني الشام ولا سيما طرابلس وصيدا وتأخذ منها حاصلات وتجلب اليها بضائع . وكان الافرنج في حلب اكثر مما هم في دمشق ، لانها أقرب منفذ لاتصال الشرق

بالغرب ، فكان تجارهم يأتونها من نجرالسويدية يتجرون مع أهلها ويقايضون محاصيلهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق ، ولا سيما الهند وفارس والعراق ، وكانت فرنسا والبنديقية اول البلاد الاوربية التي انجرت مع حلب وعقدت معها الصلات المهمة وأقامت المكاتب التجارية ، ثم جاء الانكليز في القرن السادس عشر وتلاه الهولانديون ، وقد ناسل بعض الافرنج في حلب وارثاها وتأثروا وعدوا كأنهم من أهلها ، وكان البنادقة يتجرون بالبحار يأخذونه من حلب بمقادير وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن .

وكانت في حلب وكلاء لتجار الهند وبلاد الكرج والفرس والأرمن وغيرهم ، وللبنادقة بين أم البحر المتوسط موقع ممتاز ، ولئن أفقد حلب فتح الطريق البحري الى الهند الشرقية بعض مكانتها التجارية ، فقد كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر زاهرة بتجارها . وكان في حلب سنة ١٧٢٥ ثمانون وكالة تجارية ليهوت تجارية اوربية ، واكثر اعتماد الاوربيين على سماسرة من اليهود ويتجرون بالصادر والوارد ، وكثر تجار الانكليز فيها منذ عهد ملكهم جاك الاول (١٦١٣ — ١٦٢٥) .

وفما عدد تجار الاوربيين في عكا وصيدا وبيروت ولا سيما في هذا النفر ، فأصبح على ما روى لامنس في القرن الخامس عشر ولا سيما بعد عهد تيمورلنك ملئني شعوب البحر المتوسط وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه من العائم والطرايش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين . وفي القرن الثامن عشر اقترح تجار الفرنج ان تعمر ميناء اللاذقية مبنين للحكومة حسن مستقبلها ، فلم يقبل المتصرف هذا الاقتراح وقال ربما أكون غداً في جدة فلماذا أتخلى عن الموجود وأتطلب مستقبلاً مجهولاً .

ومن كان لهم اليد الطولى في نشيط التجارة في هذه الديار الامير نجر الدين المعني الثاني في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة . وكثيراً ما كانت مراكب الافرنج تأتي لمشتري الخنطة الى مواني عكا وصور والرملة وطنطورة وربما بلغت السفن الصغيرة (البرش) الراسية في عكا نحو ١٥٠ . ولقد توسع نجر الدين في الامتيازات الاجنبية فسمح للفرنسيس ان يبنوا خاناً عظيماً في صيدا ، ولأهل فلورنسة ان يفتحوا قنصلية ،

فأصبحت صيدا ميناؤها أوائل القرن السابع عشر أهم مواني الشام . وفي أيامه فتح الشوف للمسلمين الكبوشيين وعمر لهم أدياراً — قاله لامنس .

وفي عصر نجر الدين كان يحمل من دمشق الى الديار المصرية عشرة قافات كما قال صاحب محاسن الشام : وهي قصب الذهب . قبع . قرضية . قرطاس . قوس . قبقاب . قراصيا . قمرالدين . قريشة . قنبريس . ونقل الغزي عن معجم التجارة العام المطبوع سنة ١٢٢٣ (١١٣٦) ان حلب لا تضامها بلد بتجارها الذين يقصدونها من أقطار الدنيا ، فان خاناتها التي لا نقل عن اربعين خاناً لا تزال خاصة بالهنود والفرس والترک والفرنچ وغيرهم بحيث لا تقوم بكفائتهم . قال ومن خصائصها التجارية وجود اللحم الذي يأتي تجارها بالأخبار من اسكندرونة بثلاث ساعات بسبب تربيته بحلب وحمله الى اسكندرونة بأقفاص ، فاذا طراً خبر عقلت البطاقة في رقبة الطير وسرح ، فيصير الى حلب طالباً لفرأخه .

قال صاحب « كتاب الشام على عهد محمد علي » : ما زالت حلب ودمشق المركزين العظيمين للتجارة في الشام ، وما برحت حيفا وبيروت وطرابلس وانطاكية واسكندرونة هي المواني التي يكثر اختلاف السفن الاوروبية اليها ، وهي المحطات الرئيسة لتجارة الشرق ، فتأتي قوافل بغداد الى دمشق وحلب حاملة من بلاد العجم النباك والسجاد ، ومن غيرها اللؤلؤ والاحجار الكريمة ، ومن الهند الطيب والعقاقير والافاويه ، وفي عودتها تحمل جوحاً وأقمشة من عمل اوربا ، وألبسة حريرية من صنع دمشق وحلب ، وبضائع منوعة ومصنوعات خشبية وصدفية ونحاسية ، وبسوء السياسة المخالفة لما هو جار في اوربا ، اذ كان ينشط التجار الغرباء دون التجار الوطنيين ، أصبحت معظم التجارة العربية في الشام تجرى تحت اسم اوربي . وقبل ان يفتح ابراهيم باشا هذه البلاد كان التجار الوطنيون يدفعون الى الافرنج ثلاثة ونصفاً او اربعة في المئة ليتأتى لهم ان يتجروا باسمائهم ، لان الافرنج لا يدفعون على الاكثرز يادة على اربعة في المئة من كل ما يطلب من المكوس والضرائب ، على حين كانت العرب خاضعة لاداء ١٨ او ٢٠ وربما ٢١ في المئة . وقال ان عمال ابراهيم باشا كانوا يتجرون ويحتكرون أصنافاً من التجارة .

ولما قلَّ الأمن في البحر على عهد نابوليون الاول و بسوء الادارة العثمانية وبثورات الانكشارية سنة ١٨١٤ و ١٨٢٦ و بزوال سنة ١٨٢٢ و ٢٧ و ٣٢ و و بقاء سنة ١٨٣٢ وطاعون سنة ١٨٣٧ خربت تجارة حلب ودمشق ، وكثرت البضائع الانكليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة تجيء الشام من طريق ليفورنا في ايطاليا . وكانت الحاصلات الغير المعمولة التي تعود الى الشام معمولةً ، سبب خراب هذا القطر ، مثل حرائر ليون التي أخذت تسمى حرائر دمشق ، وحلب وماناسة حرائر ليون التي نقلت حرائر دمشق أحسن تقليد وتباع بأثمان بخسة ، قضى على صنائع دمشق بعد ان كانت تعمل اكثر من ٤٠٠ الف قطعة قماش من الحرير والأقمشة الحريرية المزروجة بالقطن . وكانت تجارة الحاصلات التي تبتاع بالسلف والسلم ، خراب الفلاح الشامي البائس ، وكثير من تجار الاوربيين كانوا يستحسنون هذا النوع من التجارة ، ومنهم من كان يمتدتها وقد يربح المتجر بها خمسة وعشرين في المئة ، وبعدها صاحب الذمة غنياً ، وكان يصل الى بيروت كل سنة ١٣٤٠ سفينة تحمل ٧٨٤٨ طناً ويخرج ٨٠٥ سفن تحمل ٥٠٠٥ يخرج منها القطن والحرير والتبغ والاسفنج والفوة والزيت والصابون بكمية وافرة والسمن والكهون والعفص . وتجارة الواردات تبلغ ٤٤٠٣٦٦٠٦٧٠ قرشاً منها نحو ١٥ مليوناً من مصر وتجارة الصادرات ٢٦٠٨٧٤٠٢٧٠ منها نحو ١٣ مليوناً لمصر ، فكانت الشام تخسر مسانحة نحو ١٨ مليون قرش تسدها سبائك ذهب او تقوداً ، وهذا على عهد الحكومة المصرية . وبعض هذه الصادرات قد بطل إصداره اليوم من بلاد الشام .

ولقد تضررت حلب ودمشق بفتح البرنقالبين طريق رأس الرجاء الصالح في جنوبي إفريقيا سنة ١٤٩٧ م لما فتحه الملاح البرنقالي فاسكودي غاما ، وكان كشفه من البرنقالبين الملاح بارتلي دياز من قبل ، واول من اكتشفه من البيض في الحقيقة الفينيقيون نحو القرن السابع قبل المسيح ، وتأذت تجارة حلب ودمشق بفتح الافرنسبين ترعة السويس سنة ١٨٦٨ ، وكان من نكبة الشام بفتح هذه التركة ان انتقل كثير من تجار دمشق وحلب الى بيروت والاسكندرية والقاهرة وطنطا وازمير وسلانيك والاستانة ومانشستر ومارسيليا وميلانو وغيرها من المدن الاوربية والافريقية

والآسيوية ، وقد تحولت تجارة الصين والهند الى البحر ، وبطل عمل القوافل التي كانت تغسده وتروح بين الشرق الادنى والأقصى ، وقل عدد الذين يبرون بدمشق من بلاد الروم وغربي آسيا للذهاب الى الحجّاز ، وأصبح معظمهم يركب البحر الى البقاع الظاهرة تخفيفاً من عناء الأسفار في المفاوز والقفار ، واقتصاداً من الدرهم والدينار . وانحصرت التجارة الداخلية في حدود ضيقة ، وأصبحت لا تنعدي حدّ المستهلكات ، وصار لها مواسم قلما تروج في غيرها ، ولما انتظم سير السفن البخارية ، واستنقام مجراها ومرسأها ، وكثر اختلافها الى موافى الشام ، وكانت رحلاتها من قبل منقطعة مختلفة المواعيد ، تجرّأ الناس على الاتجار وتضاعفت الصلات التجارية بين الشام والأصقاع الافرنجية .

وظهرت ظاهرة مهمة في الشام منذ نحو ستين سنة أثرت فيه تأثيراً كبيراً ، وذلك ان جماعة من تجار بيت لحم في فلسطين حملوا مصنوعاتهم الخشبية والصدفية الى معرض فلادلفيا سنة ١٨٧٦ م فربحوا كثيراً ولما عادوا كثر المقنفون لا تآرهم من التجار وغيرهم من أهل الشام وبدأ الناس بالهجرة طلباً للربح ، وكانت الهجرة مقصورة اولاً على سكان الجبال من لبنان وعامل واللكام ثم تعدت الى سكان السهول ، وكان المستأثر بها سكان القرى فتعدت الى سكان المدن ، وكان التجار على الاغلب مسيحيين فأصبحوا بعدئذ من جميع أهل الأديان من الشاميين ، ولم يلبث نطاق الهجرة ان توسع ، وما نراه في اللبنانيين الشرقي والغربي ، وما اليهما من الجبال من الدور والقصور عمر اكثره بدرام اميركا ، ويقدر اليوم المهاجرون الى اميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا وغيرها من البلاد التي ترحب بالأيدي العاملة بزهاء ستمائة الف مهاجر شامي .

وقد ساعد على دوام الهجرة اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية ثم استرسال الحكومات العثمانية ثم المنندبة في اهمال الحركة الاقتصادية وإلقاء الحبل على الغارب . وقد كان عمال العثمانيين يودون لو هاجر جميع المسيحيين من الشام ، لينجوا من دعوى اوربا في حماية الأقلية ولكن بهجرتهم ضعفت التجارة ، وكيف ننجح التجارة في أمة والحكام هم التجار ، وقد رأينا من ذلك أمثلة مهمة خلال الحرب

العامه ، فكان عمال الأتراك لا فرق بين الكبير والصغير منهم يحتكروا معظم الحاجيات دع الكاليات ، فكنت تراهم كلهم تجاراً يؤخرون الأرزاق عن الجنود في ساحة الحرب ويقطعون مواد الحياة عن الرعية ، حتى يشحنوا بضائعهم وبنموا فرصة ارتفاع أسعارها ، فاغتنى بذلك كثير من عمالهم ثم افنقروا بعد حين . « واذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا وان شاركوه في حمل السلاح هلك » .

على ان بعض البلدان استنفادت كثيراً من الحرب العامة ومعظم المدن التي استنفادت حلب ودمشق وبيروت والقدس . قال الغزي : ان التجارة في حلب آخذة بالتقدم منذ ثلاثين سنة ولذا كثر عدد التجار زيادة عظيمة بحيث بلغ ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل هذه المدة ، وكان معظم هذه الزيادة في ايام الحرب العالمية فان أرباح التجارة التي كانت في غضوننا جرت العدد الكبير من ذوي الصنائع اليدوية من صنائعهم الى الاستزاق بالتجارة فنجحوا وربحوا ارباحاً طائلة ، ونشأ من بينهم أصحاب ثروة تستحق الذكر . الى ان قال : وفي سنة ١٣٤١ بدأ دولاب التجارة يدور ببطء فأخذت الثروة العامة في حلب بالانحطاط لاغلاق الأناضول أبوابه في وجه تجارة البضائع المعدودة من الكاليات وغلاء اجور النقل في السكة الحديدية وتلاعب الصيارفة والمحتكرين بالأوراق النقدية والنقود الذهبية الى غير ذلك من الاسباب .

ومن أعظم الفوائد التي نجت للشاميين من تعلم اللغات الاجنبية كالفرنسية والانكليزية بواسطة مدارس التبشير والمدارس الطائفية ، ان كان من هؤلاء المعلمين واكثرهم من غير المسلمين عمال لتجارة الواردات من الغرب على الاكثر . واستأثر المسلمون بتجارة الصادرات فكان منهم تجار شاميون في الاسكندرية ووطنطا والقاهرة والسودان والأستانة وازمير ، وكل بلد في الارض مها بعدت الشقة اليه ترى فيه تجاراً شاميين ، وأنجح تجارهم في مصر والامير كتين واوستراليا . ولنا تجار في العراق والحجاز وفارس والهند ويايان وجنوبي افريقية وأواسطها على نحو ما وصفنا شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ورجال الشام في كرة الارض يسارون في المسير الغاما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيد ش وبيرون للنضال سهاما

ومن أهم المواسم التي كانت في فصل مخصوص من السنة تدب فيه روح الحركة في التجارة موسم السياح ، فكان سياح الغرب يأتون أوائل الربيع لزيارة الاماكن المقدسة والمصانع التاريخية في فلسطين وبلبك وتدمر ودمشق وغيرها ويقدرون بخمسة آلاف سائح كل سنة على الاكثر الى المدن الوسطي والشامية وباكثير من ذلك الى فلسطين فقط ، والموسم الآخر موسم حجاج افريقية وآسيا واوربا وكانوا يقدرون بخمسين الف حاج ، والفضل في ذلك يرجع لسهولة المواصلات في البر ، ولاسيما بعد امتداد السكة الحجازية ، ولرخص اجور البواخر في البحر ، ونافس شركات الملاحة في تخفيض الاجور . وموسم الحج بطل بالحرب فنزل معدل من يزورون الشام ويتجرون ويتساعون . اما موسم فلسطين فان كثيرا من تجارها أصبح رزقهم موقوفاً على ما يربحونه في موسم الزوار في القدس وبيت لحم والخليل والناصره وغيرها ، وبدأ الشرق العربي يربح كثيرا من السياح الذين يختلفون الى ذاك الصقع لزيارة جرش وعمان والبراء وقصر المشق وغيرها . ومتى انتشر الأمن في القطر ، وكثرت الخطوط الحديدية في البر ، والسفن التجارية في البحر ، وحمى الحكومة التجارة بقوانينها وأحكامها العادلة ، ومعاهداتها مع الأمم المجاورة ، انتبه التجار الى التجدد في متاجرهم ، لا الجمود على الطرق البالية . ولا نعد تاجراً من يجرق مخزنه او ما فيه ليربح ضمانه من الشركة الضامنة ، او يتلكأ في أداء الذم التي عليه ، او يضارب في الاسواق فيؤذي الفقير او يعامل صاحب المعمل في الغرب فيتلاعب في الأسعار والصوافي ، فان هذا مما يؤخر الصادر عنا والوارد علينا ، وفي كل ذلك ما يزيد الغبن ويورث الخسارة في العاجلة والآجلة لا محالة .

ولقد ثبت في العهد الأخير ، وخصوصاً لما أخذ المسلمون يجارون اخوانهم المسيحيين في تعلم اللغات الغربية ، وينقنون اصول التجارة وما اليها من أساليب نهنن أم الحضارة في الكسب ، وأوضاعهم الجديدة في استثمار أموالهم في مصارف خاصة بهم ، ان

الغريبين يتعذر عليهم ان يتوسعوا بعدد في الاتجار في القطر ، وفتح بيوت تجارية مهمة على المثال الذي كان لهم وحدهم في القرن الماضي ، وقطع أرزاق أبناء البلاد في عقر دارهم . ذلك لان التاجر الوطني أقل من التاجر الغربي في مطامعه ومطالبه ، يكتبني بالربح القليل فيتأثّل ويرتاش ، وبصبر في الأزمات ، ويحسن المدخل والمخرج في البياعات ، وهو عزيز في قومه وبين أهل جيله وقبيله ، يعرف بلده وما يصلح له ويروج فيه ، ونفقاته إجمالاً أقل من نفقات الغريب . واذا تساوى الوطني والدخيل من كل وجه ، فالوطني يؤثر معاملة مواطنه لا محالة .

واذ جارى التاجر العربيُّ التاجر الغربيَّ او كاد ، تجلت في ابن الشام أخلاق التجارة ، والنفوذ في قاعدة العرض والطلب ، وبدا في هذا الميدان ذاك الشرف المغيب الذي كان كامناً في نفسه ، وورثه مع الدم المتسلسل فيه من آبائه الأقدمين ، عرباً كانوا اوروماً او فينيقيين ، وبذلك أصبح الرجاء مقدراً بان يستأثر الشاميون بتجارة بلادهم . فان عملوا باختلاطهم بالأُم الحية ما ينقصهم من ضبط ونظام ، وساعدهم على هذا الانبعاث قلة من يأتي من الغرب من ارباب الطبقات الاولى في التجارة ، وكان التاجر المتوسط الحال بماله ومعرفته منهم أقل حظاً ممن يماثله من الشاميين في أسواق المتاجرات ، واذا كان من البعيد على النوايح من كل صنف في الغرب ان يغشوا بلادنا كله كان في ذلك — النفع العظيم لنا في تجارنا ، ومتى حللنا روح الشامي وما انطوى عليه من مراعاة الشرف والاحتفاظ بالثقة ، والبعد عن التدليس والمؤالسة ، وإرادة النصح في الجملة ، كان التاجر كل التاجر ، الذاهب في الارض بجاع المفاخر ، وباستقامة تاجرنا في معاملته ، يدفع عن البلاد كثيراً من الغوائل الاجتماعية ، ولا يهين العيش ويطيب ، الا اذا قلَّ لابتزاز البلاد توافد الغريب من الجنس الذي قال فيه حافظ :

بِقَتْلِنَا بِلَادَ قَوَدَ وَلَا دِيَةَ وَلَا رَهَبَ وَيَمِشِي نَحْوَ رَابِتِهِ فَتَحْمِيهِ مِنَ الْعَطَبِ

التجارة^(١) والاقتصاديات } نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ ولم تكن
 في العهد الحديث } الشام على استعداد للدخول في غمارها ،
 ولم تأخذ الأهبة الكافية لمقاومة طوارئها ، وما لبثت الدولة العثمانية والبلاد الشامية
 التابعة لها ان دخلت في صفوف المحاربين الى جانب الدولة الالمانية وحلفائها ، فخصرت
 موافى الشام وبدأت أسعار البضائع ترتفع تدريجياً وذلك في أصناف الملابس
 كأ نواع منسوجات القطن والصوف على اختلاف أنواعها او في المأكولات كأ نواع
 السكر والقهوة والأرز او في سائر الحاجيات والكياليات كالبنترول (الكاز) والكحول
 (السيروتو) وأنواع المواد القرطاسية والزجاجية والأصباغ والمواد الكيماوية على
 اختلاف أنواعها ، وشعر الناس بالحاجة الى الاقتصاد والتفكير في استجلاب هذه
 الأصناف من البلاد المجاورة بقدر الإمكان .

وقد اشتدت الأزمة الاقتصادية بفقدان الأيدي العاملة أيضاً من المدن
 والقرى ، بسبب النفي العام الى التجنيد في جميع أصقاع الشام ، وكان من نتجسوا
 من التجنيد الاجباري هم الذين لم يتدربوا على التعليم العسكري فدفعوا بدلات نقدية
 مرات متعددة خلال أعوام الحرب . ولقد كانت هذه البدلات تكلف مبالغ طائلة
 في السنين الأخيرة ، وأعلنت الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب (قانون تأجيل
 الديون) بقواعد مخصوصة أقرتها .

ولم يلبث الضيق ان عمَّ والقد ان قلَّ وخصوصاً بعد ان وضعت السلطة العسكرية
 يدها على جميع وسائل النقل في البلاد مثل السكك الحديدية ودواب النقل
 والمركبات والسيارات فكانت أسعار الحاجيات تختلف اختلافاً بيناً في بلاد الشام
 القريب بعضها من الآخر وذلك بالنسبة للتشدد او التساهل الذي كانت تبديه
 الادارة العسكرية في استخدام أسباب نقل البضائع . انقضت السنة الاولى للحرب
 فأصبحت دمشق مركزاً للجيش الرابع الزاحف على ترعة السويس . وأنشأ يعقد البوع

(١) كتب هذا الفصل في التجارة الحديثة صدقي الاستاذ السيد لطفي الحفار

العظيمة والالتزامات الكبيرة سداً لحاجات الجيش المذكور ، فبدأت هذه الأزمة الشديدة بالانفراج ، وأخذت ادارة الجيش تتساهل باستخدام المهندسين في ادارات المتعهدين والملتزمين ، ونشطت الحركة التجارية والصناعية في الشام . ولا ينكر ان الجيش الرابع صرف مبالغ طائلة في أسواق التجارة لضمان حاجاته الكثيرة التي لم يتمكن من تأمينها بطرق الاكراه او بواسطة الضرائب الحربية التي رأى انها عقيمة لا نفي بالحاجة ، وبعدئذ فكر بعض التجار باستجلاب بعض الحاجات الضرورية التي غلت أسعارها وعزّت وجودها من بلاد نجد التي كانت تستورد بضائعها من الهند وفارس على أيسر وجه وطأً نينة ، لان امير نجد عبد العزيز بن السعود كان مالياً لا نكلترا لا يجد ضيقاً ولا رهقاً في استجلاب البضائع ومواد الغذاء على اختلاف أنواعها .

ولقد كانت هذه الطريقة من أهم الوسائل لسد حاجات البلاد والجيش ، ولايجاد حركة تجارية جيدة كانت تدرّ ذهباً وهاجاً على المتاجرين والمستوردين ، كما ان كثيراً من التجار اتخذوا وسائل عديدة لاستجلاب كثير من البضائع الالمانية والنسوية بواسطة رجال الجيش واستخدام وسائلهم لنقل هذه البضائع بالانفاق معهم ، وتبادل المنفعة بينهم ، وبذلك انفرجت الأزمة الاقتصادية التي بدأت في السنين الاوليين من الحرب ، واغتني كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الادارة والجنديّة باستخدام هذه الوسائل في النقل ونقل أصناف التجارة ، والبلاد محصورة لم يرد اليها شيء قط من طرقها البحرية العديدة . ولقد كثرت النقود الذهبية في التعامل بما انفق من إدارات الجيش ، وما ورد البلاد من طرق البر من البضائع ، وما كانت بريطانيا العظمى تنفقه في أنحاء البلاد المجاورة عن سعة من الذهب الوهاج لتأييد الثورة العربية ، حتى أصبحت البلاد في أواخر سني الحرب على أحسن حالات اليسر والرخاء .

فارتفعت اسعار العقارات والمزارع ، وشعر الناس بكثرة النقد الذهب في ايديهم حتى كان المشتري لا يجد من يبيع عقاراً او ارضاً الا بثمن فاحش ، الى ان دخلت الجيوش الانكليزية والعربية هذا القطر تحمل بين يديها الذهب وثقلته

بلا حساب ، و يقدر ما أنفقه الجيش الانكليزي في سنة ١٩١٩ والأشهر الاولى من سنة ١٩٢٠ في ارض الشام بما يقارب الثلاثة ملايين من الجنيهات المصرية .

الورق النقدي والعوامل } وحدث خلال الحرب ان اتجر كثير من المالبين
في تدني الاقتصاديات } باوراق النقد الدولي على اختلاف انواعه ،
وأصبح بعضهم يستورده من طريق المانيا والنمسا وسويسرا الى الاستانة ، ومنها توزع
في أنحاء بلاد العرب مثل الكورون النمساوي والمارك الالماني والشلن الانكليزي
والفرنك الفرنساوي والروبل الروسي واوراق النقد التركية والاسهم اليابانية
والعقارية المصرية والارجنتية على اختلاف انواعها ، واصبحت تباع بقيم نخط
احياناً عن قيمتها الحقيقية ٢٥ الى ٥٠ في المئة . وتدني سعر الروبل الروسي الى ١٠
و ١٥ في المئة وكذلك المارك والكرون ، فأقبل عدد كبير من التجار وارباب الاملاك
حتى والنساء على مقنناتها وذلك على أمل ان تعود الى اسعارها الاولى بعد ان تضع
الحرب العامة اوزارها . و يُقدر الخبيريون ان الشام ادت قيمة ما ادخرته من اوراق
النقد هذه ما يربو على خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبياً ، كانت القوم يأمل بيعها بما
يقارب اسعارها الاولى ، وبذلك يربحون ربحاً عظيماً من أيسر طريق .

ثم أعلنت الهدنة عام ١٩١٨ وبدأ تجار الشام يستوردون البضائع المنوعة التي
أعوزتها كل الاعواز من البلاد المصرية اولاً ثم عقدوا المبيعات المختلفة من اوربا
باسعار عالية ، اذ اضطر ارباب المصانع والمعامل الى رفع اسعار بضائعهم لعوامل
عديدة ، منها قلة الأيدي العاملة بعد الحرب العامة ، وغلاء المواد الاولية للصناعات
المنوعة ، وارتفاع اسعار الفحم واجور المواصلات ، وراح الكثيرون بالنظر للحاجة
الماسة الى عقد مبيعات عظيمة من انواع البضائع المنسوجة والمغزولة على كثرة أنواعها ،
ومن الأصناف الاخرى كمواد الزجاج والقرطاس والكيمياء وغيرها فأدت الشام
اثماً باهظةً وقيماً فاحشةً جداً في اتياع البضائع المستوردة في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠
حتى غصت المخازن والمستودعات بهذه الأصناف ، وضافت بها الأسواق على اختلاف
درجاتها ، وكان لهذا الاندفاع الكلي الذي لا نسبة بينه وبين حاجة البلاد بسبب

الارباح التي كانت تدرُّ أولاً ، فعل عنيف وصدمة قوية أصيبت بها الأسواق فكانت من بوادر الضيق وحدثت الأزمات الاقتصادية للأسباب الآتية :

اولاً : ان الشام ولا سيما دمشق كانت تكتنز كميات عظيمة من ورق النقد المختلف الضروب فطراً عليها النزول العظيم وأصبح قسم منها في حكم المعدوم مثل الروبل الروسي والكرون النمساوي والمارك الألماني وغيرها ، وكانت الخسارة تقدر بنحو خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهباً خسرتها بلاد الشام ولم تموض منها شيئاً .

ثانياً : نزول أسعار البضائع المتوالي منذ عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٢ وورود كميات كبيرة من البضائع المتنوعة التي ما زالت مخزونة على التوالي عند أصحابها فطراً النزول التدريجي عليها ، وذهب بقسم كبير من ثروة كبار الأغنياء والتجار .

ثالثاً : حدث بعد ان دخلت الجيوش الفرنسية الى المنطقة الداخلية في أواخر عام ١٩٢١ ان وضعت الحواجز الجمركية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها ، وكانت من قبل وخصوصاً دمشق مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية الى الحجاز وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والناضول فأصبحت بمعزل عن هذه البلاد المحاورة ، بالنظر للتبديل السياسي الذي حدث بعد الحرب العامة ، وصارت مصنوعات الشام التي كانت تصدر الى هذه الأقطار حرة لا مراقبة عليها ولا قيد من القيود الثقيلة والحواجز الجمركية فكاد يقضى على هذه الصناعات وعلى تجارها وعمالها .

* * *

الحواجز الجمركية } عقدت المفوضية الفرنسية العليا في الشام اتفاقاً مع
المفوضية الانكليزية العليا في فلسطين يوم ٢٢ ايلول
سنة ١٩٢١ م لتأسيس جباية الجمارك على البضائع التي تتبادل هاتان المنطقتان التجارة
بها ، وحدثت دوائر مكس على الحدود وداخل البلاد لما تقنضيه هذه الجباية ، وعلى
أثر ذلك اجتمع عدد كبير من تجار دمشق ونفاوضوا قضية هذه الحواجز وأضرارها
على التجارة والصناعة وقر رأيتهم على انتخاب لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة
اشخاص للعمل في هذه القضية ، وايجاد حل مناسب لها ، ورفع هذه الحواجز الجمركية
الضارة ومنهم كاتب هذه السطور فبدأت اللجنة عملها بان قدمت تقريراً مطولاً

للمراجع الرسمية بينت فيه مقدار الأضرار التي ننتجها من وضع هذه الحواجز الجمركية بين جنوبها وشرقها وشمالها خصوصاً الصناعات الوطنية المتنوعة وضمنه احصاءً دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المقدرة للأصناف المصدرة خلاصته :

ان في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠٢٦٠ نولاً يشتغل بها ٤٦٢٦٠ عاملاً ، وهذه الأنوال تخرج مقدار ٤٥٦٨٥٠٠ قطعة قماش قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، وذلك للأصناف الآتية فقط : الألاج الحريية والقطنية ، التركية ، الدبما ، الحامدية ، الملات الحريية والقطنية ، العبات ، الستور على اختلاف أنواعها ، السلوكات الاغباني ، الشال الحريي والصوفي ، والكمر والمضربات في مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات الوطنية التي هي برسم التصدير الى الجهات المجاورة ، وتابعت بياناتها - في الأضرار التي تعود على البلاد وقدمت احتجاجاً مطولاً بينت فيه الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تنتج من وضع هذه الحواجز الجمركية وخلاصته بعد ان أتينا على وجهة النظر الحقوقية التي هي غير داخلة في بحثنا ما يأتي مختصراً :

اولاً : انه ليس من مصلحة سورية وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل احدهما عن الأخرى هذا الفصل المضر لانه يقلل العلاقات التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين وهذا يُفضي بالتدريج الى انقسام هذه الأمة الواحدة الى أمتين ويؤدي الى تباعد المشارب وتباين الأطوار والنحلل الروابط بينهما تدريجاً الى ان يصبح البون عظيماً وتضعف عرى الألفة والاتحاد المستقرة الآن . وقد اتفق جميع علماء الاجتماعات على ان الصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب ، وان الحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات والصلات ، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء عن الفلسطينيين كما ان الفلسطينيين يحسبون انفسهم قسماً من الشعب السوري العربي فجميعهم لا يرضون بوجه من الوجوه ان تفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم القومية والعنصرية ، و تقضي على آمالهم الوطنية ويرجون من الدولتين المختلتين ان لاتعاونوا الدهم على نفر بقهم والابقاع بينهم :

ثانياً : سلطت السياسة على إخواننا في الجنوب مناظراً شديداً وخصماً لدوداً ،
 ونعني بهم الصهيونيين الذين لا يفتأون يدسون الدسائس لاضعاف الوطنيين وإذلالهم
 ليتمكنوا هم من الاستعلاء عليهم واستلاب أموالهم والأخذ بمخنق أوطانهم . واي
 وسيلة أنجح لهؤلاء الصهيونيين من تفريق أهالي فلسطين عن إخوانهم في سورية
 وقطع العلاقات بينهم تدريجاً !

نحن لا نرى في احداث هذا الحادث الجمركي سوى تدبير مهلك سعى به جماعة
 الصهيونيين ليتمكنوا من الوصول الى أغراضهم ، ومعاذ الله ان تكون الدولتان
 العظيمتان منفذتين لرغائب الصهيونيين في امر ليس فيه الانكايه الاهلين واضعافهم وهما
 قد تعهدتا في المادة العاشرة من معاهدة سيفر بحماية جميع مصالح الوطنيين قبل كل شيء .
 ثالثاً : ما زالت جمارك البر الموضوعة في داخلية البلاد عرضة لصعوبات عظمي
 في ضبطها وجبايتها حتى عند أرقى الدول وأقدرها ، والقيام بهذا العمل بين سورية
 وفلسطين شاق جداً لا يستطيع انقائه ولا تُرجى سلامته ، ولذلك اسباب كثيرة
 لا تسهل إزالتها ، منها ان الوسائط الثقيلة بالقطر الحديدية بين المنطقتين محدودة
 جداً والطرق الأخرى مفتحة على طول الحدود تحتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات
 النقل في الليل والنهار ، ولا سبيل لمنع التهريب منها ، وقد يكون المهرب من
 التجارات اكثر مما يمر بادارة الجمرك فتكون النتيجة ان الذي يتمكن من تهريب بضائعه
 بدون جمرك يزاحم التاجر الأمين الذي يؤدي جمركها المفروض عليها ، ويقعذر
 بيع البضائع المدفوع رسومها فتضطر الحكومة الى مراقبة جميع الطرق واقامة الخفراء
 على الحدود ، وانفاق الأموال الطائلة في هذا السبيل ، ولا يخفى على درايتكم وخبرتمكم
 ما ينتج عن ذلك من المحاذير الجمة التي منها :

(ا) القتال الذي يقع بين المحافظين والمهربين كما هي الحال في مسائل تهريب
 الدخان او هي محصورة في صنف واحد من التجارة وهي زهيدة بالنسبة الى الأصناف
 الأخرى لمختلف البضائع المتنوعة التابعة لهذا الجمرك الجديد .

(ب) افساد أخلاق الناس باعطائهم سبباً جديداً لمخالفة القانون وارتكاب
 جريمة التهريب التي تحملهم أحياناً على ارتكاب جرائم أخرى للفرار باهوالهم .

(ج) افساد أخلاق المأمورين الذين يتولون امر المحافظة بفتح سبيل جديد أمامهم لأخذ الرشوة ، والاشتراك مع المهربين كما هو المألوف والمعروف في الأعمال التي هي من هذا القبيل ولسنا نجد فائدة تقابل هذه الأضرار ، ولا حسنة توازي هذه السيئات .

العامل الاقتصادي } ان الأضرار المادية التي تحل بالبلاد السورية من تطبيق هذا الاتفاق غير قابلة التعمداد ، ويقال

على وجه الاجمال ان هذا الحاجز الجمركي بيننا وبين القسم الجنوبي من سورية يكون سبباً لبقاء عشرات الألوف من الخلق بدون عمل ونتعطل تجارة البلاد وصناعاتها ، لان القسم الاعظم من الغزول والمنسوجات الاوربية التي ترد الى دمشق وحمص وحماة حتى وقسماً عظيماً مما يرد الى حلب ينسج ويفصل ويخاط ويصبغ ويحوّل الى سلع تجارية من ألبسة وغيرها والسجعة منوعة وتصدر الى الجنوب ، فاذا وضع عليها ضريبة جديدة بمعدل احد عشر بالمئة رسماً جمركياً يتعذر تصريفها ويضطر المشتغلون بها الى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جداً وهذه الصناعات القديمة في سورية هي المورد الوحيد لرزق الكثيرين من السكان كما ان هذا الضرر يلحق ايضاً سكان فلسطين بحرمانهم من إصدار معمولاتهم ومصنوعاتهم الينا وكساد العمل عندهم وعندنا في آن واحد ونلفت انظاركم الى مقابلة العلاقات التجارية والبريدية والنقلية بين سورية وفلسطين قبل تطبيق الاتفاق المذكور وبعد تطبيقه في هذه المدة الوجيزة .

ويناخص هذا الاتفاق الجمركي نصوص الحقوق الدولية ولا يأتلف مع العادات المعمول بها ويضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويأتي هادماً لعمران البلاد ومورد الفقير والعُدم ، ويودي بالتجارة والصناعة الوطنية ، ويخدم خطة الصهيونيين المؤسسة على اقتلاع جذور العرب من تربة الشام الجنوبية وهو مضعف لعلائق الشام في التجارة مع اوربا وراجع بالصناعة السورية القهقرى وضارب على الآمال الوطنية سوراً من اليأس والعناء وموهن للثقة التي وضعها الشاميون في دول الحلفاء فهو أضرار مجسمة بعضها فوق بعض ولذلك نطلب ابطال هذا الاتفاق

وإزالة كل حاجز اقتصادي بين أقسام الشام الشمالية والجنوبية ويمكن الاتفاق بزيادة الجمارك على الواردات الأجنبية في ثغور الشام البحرية فقط من العريش الى الاسكندرونة ونقسم حاصلات هذه الجمارك بين المناطق بنسبة تقر ببنية نقاس بمقدار الاستهلاك في كل المناطق . واذا حصل فروق زهيدة بهذه النسبة على احدى المناطق بسبب خطأ التقسيم فهو أسهل بكثير من تحمل الأضرار المدهشة التي يولدها تأسيس الجمرک الداخلي .

ووقع على هذا الاحتجاج بضع مئات من كبار التجار أرباب الأموال والأعمال والصناعات ، وقدّم مثله من تجار المدن الفلسطينية ، فألغيت هذه الاتفاقية وحل محلها اتفاق آخر عقد بين المفوضتين في سورية وفلسطين وجعلت فيها الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية الا ما كان من استيفاء واحد في المائة على قيمة البضائع الصادرة والواردة رسوماً للبلديات ، وعلى التجار ان يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة ، وعلى أساسها يجري الحساب بين ادارة الجمارك في المنطقتين بنسبة ما يوجد في البضائع من المواد الاولية المؤدى عنها رسوم جمركية ، حين دخولها الى ثغور الشام وهو ما يحملونه على قاعدة الجمارك المشتركة وذلك أحسن قاعدة للبلاد المتاخمة بعضها لبعض والمتصلة اجزاؤها وحدودها ، والمتداخلة في أعمالها ونقلها من حيث التجارة والصناعة . وعلى قاعدة الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع الشرق العربي اي حكومة شرقي الأردن .

ولما كانت قد حصرت جباية الرسوم الجمركية بجميع الواردات الأجنبية الى البلاد السورية في الثغور البحرية نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد السوري التي كانت مؤلفة من ولايتي حلب ودمشق والاسكندرونة وانطاكية ومنطقة العلويين وبين لبنان الكبير ومع ان هذه البلاد تستهلك القسم الأعظم من الواردات الأجنبية ، كانت حصة الجمارك التي كانت تدفعها الادارة العامة الى حكومة الاتحاد السوري لا تتجاوز ٣٢ في المئة وهي أقل بكثير مما كانت تدفعه الى حكومة لبنان الكبير وذلك استناداً على طريقة الاحصاء التي كانت متخذة لمعرفة أنواع البضائع التي ترد الى بلاد الاتحاد السوري . وبعد أخذ ورد أصدر المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في

سورية ولبنان حكمه في ان تأخذ سورية اثنين وخمسين في المئة والباقي يخص بلبنان الكبير ، كما انه قرر فساد طريقة الاحصاء المتخذة قبلاً والغاءها ، وعلى هذا الأساس لم تزل توزع الحصص الجمركية رغم ما فيها من الاجحاف بحق الدولة السورية الداخلية .

تستورد البلاد السورية البضائع المنوعة اللازمة } الواردات والصادرات
 لاسواقها من الخارج ، واهم وارداتها السجدة
 القطن والحريز على اختلاف أنواعها ، والأجواخ والأواني البلورية والأدوات
 الفرطاسية والادوات والآلات من الحديد والكاز ومواد البناء كالخشب والشمينو
 والمواد الكيماوية وحاجيات الصيدليات وغير ذلك .
 وتصدر الى الخارج ما يزيد عن حاجتها من حاصلات الزراعة وبعض المنسوجات
 من القطن والحريز المعروف بمجودة صنعه واثقائه وجماله في بلاد الشرق وكذلك بعض
 المنسوجات من الخشب والنحاس الممتاز بدقة الصنع والسكاكر ومهيبات الفواكه والحريز
 والصوف والجلود والتبغ والصابون وغير ذلك .
 ويجري أكثر التصدير والتوريد في أسواق المدن الآتي ذكرها مرتبة حسب
 مكانتها وهي : بيروت ، طرابلس الشام ، الاسكندرونة ، اللاذقية ، صيدا ، من
 النغور البحرية وحلب ودمشق من المدن الداخلية ، ويجب ان لا يفهم ان مقطوعية
 الاستهلاك في هذه المدن تتبع التصدير والتوريد بل بالعكس فان شأن الاستهلاك
 غالباً في الحواضر الداخلة وما يتبعها من القرى وكثرة السكان كما تقدم في بحث تعيين
 الحصص الجمركية بين سورية ولبنان ، ولكن المعول في حركة التوريد والتصدير على
 النغور البحرية كما لا يخفى وهي واسطة النقل والشحن . ومن الاطلاع على الجداول
 الآتية المأخوذة من إحصاءات ادارة الجمارك يظهر مقدار الواردات والصادرات في
 السنين التالية والبلدان الاجنبية التي تستورد منها بلاد الشام بضائعها بحسب مكانتها :

* واردات سنة ١٩٢١ *

الاسكندرونة		طرابلس		بيروت		من
عددطن	فرنك	عددطن	فرنك	عددطن	فرنك	
٣٤٨٣٥٣٢	٦٠٦	٢٧٤١٣٣٢	٩٣٨	٩٤٨١٥٠٠٠	٢١٢٢٥	فرنسا
٨٩٨٧٤٥٩	٣١٥٤	٣٧٢٤٠٣٢	١٥٥٣	١٣١٤٦٠٠٠	٢٦٦٣٠	انكلترا
٢٧٩٦٦٤٦	٤٣٦	٢٧٦٣١٣٠	٢٠٩٢	٤٧٣٣٠٠٠	١٢١٣٥	ايطاليا
٨٠٥٧٠	١٠٥	٦٨٧٥٢٢	٢٨٧	١٢٠٠٠٠٠	٣٤٩٠	المانيا
١٣٤١٩٤٤	٦٠٥	٢٩٨٢٥٢٦	١٦٩٣	٢٣٢٩٠٠٠	١٣٣٠٠	بلجيكا
٣١٢٣٥١٢	٥٦٢	٩٧٦٧٥٥٥	٥٠٧٧	٣٣٠٧٥٠٠	١٧١٤٥	الولايات المتحدة
٢٨٩٦٦٦	٤٧	٩٤٣٦٣٥	٥٥٢	٨٠٠٠٠٠٠	١٧٤٥	هولاندا
٦٠٦٥٠٧٢	٢٨٢١	٣١٩٦٨٧٦١	١٩٥٥٩	٩٦١٥٠٠٠	٤١٨٣٠	مصر
٥٢٢٤٤٠٩	١٤٥٠	٩١٩٨٢٧٧	٥٢٢٩	٢٥٦٤٠٠٠	١٦٩٢٥	تركيا
٤٨٣٣٥٢	١١٣	١٣٢٦١٦	١٥٠	٧٧٤٠٠٠٠	٣٧٩٥	بلاد مختلفة
٣٢٥٨٦١٦٤	٩٨٩٩	٦٤٩٠٩٣٧٧	٣٧٢٣٠	٤٧٩٥٠٠٠٠	١٥٨٢٢٠	المجموع

* واردات سنة ١٩٢٢ *

الاسكندرونة		طرابلس		بيروت		من
عددطن	فرنك	عددطن	فرنك	عددطن	فرنك	
٢٢٨٣١٠٤	١٠٩١	٢٤٦٤٠٩٧	١٢٦٩	٣٣٥٥١٥٣١	٩٧٣٢	فرنسا
٢٥٨٦٣٢٢	١٦١٣	٣١١٥٤٥٢	٦٣٨	٤٥٦٩٦١٤١	٧٨٤٣	انكلترا
٦٦٨٩٦٤	٤٢٥	٤٠٧٣٤٤٩	١٦٣٢	٢٠٤٢٦٤٩٠	٧٥٠٠	ايطاليا
٧٩٢٣٦٩	٢٩٨	٤٢٨٤٥٦٦	٩٢٢	١٥٠٥٤١٤٠	٤٧١٧	المانيا
٢٢١١٣٠٩	١٦٠٤	٢٠٠٢٥١١	٦١٨	١٣٣٢٦٨٧٢	٥٩٨٩	الولايات المتحدة
٤٢٥٩١٣	٣١٧	٢٨١٥٢٩٩	٢٨٦١	١١٨٨٣٥٧٤	١١١٩٤	بلجيكا
٧٩٩٥٧	٢٨	٣٧٢٩٤٤	١٩١	٣٠١٩٩٠٩	٨٦٢	هولاندا
٢٩٦٠٥٤٦	٢٥٢٥	١٣٨٥٢٤٧٧	٠١٣٤	٢٩٠٣٤٥٣٥	٢٠٢٦٥	مصر
١٦٦٤٠٤٩	٧٠٨	١٨٣٠٩٩٨	١٠٧٧	٨٧٨١٢٢٩	٥٨١٢	تركيا
٦٤٦٠٥٤	٣٥٠	٩٨٨٩٨١٥	٣٢٤٦	٥٥٩٥٩٣٢	٥٣٥١	بلاد مختلفة
١٤٣١٨٥٨٨	٨٩٥٩	٢٤٨٠١٦٠٨	٢٢٥٨٨	١٨٦٣٧٠٣٥٣	٧٩٢٦٥	المجموع

* صادرات سنة ١٩٢١ *

الى	بيروت		طرابلس		الاسكندرونة	
	عددطن	فرنك	عددطن	فرنك	عددطن	فرنك
فرنسا	١٠٥٠	١٣٠٠٠٠٠٠	١١١	٨٣١٩٥٣	٣٠٥	٢١٦٢٨٩١
انكلترا	٩٥	٥٢٥٠٠٠	١٢٦	١٣٥٨٧٧	٩٠	١٩٨٠٨٨
ايطاليا	١٥٥	١١٢٠٠٠٠	١١٢	٨٢٣٦٧٤	١٣٣	٦٣٦٧١٢
المانيا	٣٠٠	٤٩٠٠٠٠				
بلجيكا	٥	٦٠٠٠٠				
الولايات المتحدة	٢٧٥	١٩٨٥٠٠٠	١٠٤	٧٦٦٥٧٦	١٧٩	١٤٥٩٢٦١
هولاندا	٦٠	٨٠٠٠٠				
مصر	١٧١٠	٤٩٢٠٠٠٠	٦١٣	١٣٥٩٠٨٣	٣١٤	١١٩٤٠٩٢
تركيا	١٠٥٥	٤٩٧٠٠٠٠	٩٠٣	٣١٩١٢٦٩	١٦٥	١٢٠٧٢٠٦
بلاد مختلفة	١٤٥	٥٢٥٠٠٠	١٧٠	٣٥٩٩٤٦	١	٣٠٨٧٦
المجموع	٤٨٥٠	٢٧٦٧٥٠٠٠	٢١٣٩	٧٤٦٨٣٧٨	١١٨٧	٦٨٧٩١٢٦

* صادرات سنة ١٩٢٢ *

فرنسا	٣٣٣	٥٥٩٧٥٦٢	٣٥	٢٥١١١٠	١٧٣	٧٨٥٢٥١
انكلترا	٢٥٠	٣٠٦٧٢٤	٢٧	٩٢٦٦٦	٦١	١٤٩١٧٠
ايطاليا	٩٣	٤٧٢٣٩٩	٢٦	١٥٥٠٩٠	١٣٠	٦١١٢١١
الولايات المتحدة	١١٥	٥٩٨٥٩٨٦	٨٣	١٨٩٥٠٣	٥١٣٩	٥٣٨٨٦٨٧
المانيا	٢٧٥	٦٩٦٧٣٦	٦٤	٥٤٣٩١	٢٩	٥٧٥١١
مصر	٢٣٦٩	٤٨٧٣٨٨٩	٧١٩	٦٧٧٤٩٧	٢٥٥	١١٦٠٠١٣
تركيا	٢٤٠	٢٤٥٦٦٠٢	٧٢٧	١٧٨٩٨٣٥	٢٤٠	١١٩٢٧٦٩
بلاد مختلفة	٢١٦	٦٧٣٢٦٧	٣٣٤	٧١٤٤٦٩	٣٤	٢٤٨٩٢٠
المجموع	٤١٧٣	١٥٦٧٥٧٦٥	١٩٨٥	٤٤٢٤٥٦١	٦١١١	٩٥٩٣٥٣٢

بيان إحصاء ما ورد وما صدر الى البلاد السورية كل بلد بمقدار ما ورد اليها وصدر منها في سنة ١٩٢٤ *

اسماء البلاد	الوارد سنة ١٩٢٤		الصادر	
	القيمة بالفرنق السوري	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالفرنق السوري	الكمية بالكيلو غرام
بيروت	٢٥١٢٠٩١٠١٦	٢٢٢٨٨٩٤٩٠	٤٢٤٦٢٥٩٤٠	٢٠٢٨٠٤١٣
طرابلس الشام	٤٥١٠٥٢٦٥٠	٣٧١٤٤٢٩٢	١٤٨٥٣٢١٦٣	١٥٣٠٩٤٨٩
الاسكندرون	٤٢٧٠٩٢٥٦٧	٣٨٧٦٠٠٨٤	٤١٢٠٣٤٥٢٢	٢٠٢٦٦٧٩٧
اللاذقية	٣٠٨٣٣٩٦٦	٤١٩٤٣٣٢	٣٢٩٩٣٢٥٥	٢٤٩٨٦٤٣
دمشق	٢١٩٩٥٦٦٣	١٨٤٢٥٣٤٦	٤٠٢٨٧٦٧٣٦	٨٤٣٤٢٦٦
حلب	٣٤٢٦٩١٥٧٦	١٦٠١٠٩٤٤	٢٩٥٣٨٨٨١٤	٥٦٦٥٠٧٠
المجموع	٣٩٨٥٠٠٠٠٠٠	٣٣٧٩١٠٧٢٠	١٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٧٠٩٥٧٩٣١

* بيان إحصاء الوارد والصادر في البلاد السورية باعتبار كل بلدة على حدة في سنة ١٩٢٥ *

اسماء البلاد	الوارد سنة ١٩٢٥		الصادر	
	القيمة بالعموش السورية	الكمية بالكيلو غرام	القيمة بالعموش السورية	الكمية بالكيلو غرام
بيروت	٣٩٨٤١٠١٧٧	٣٠٦٢٦٦٢٠٩	٧١٥٩٦٦٢٩٨	٣٣٠٢٤٧٦١
طرابلس الشام	٣٩٢٤٣١٦٨٣	٤٣٨٤٣١٢٥	١٣٥٧٧٥٥٦٢	١٦٨٣٢٠٨٨
الاسكندرونة	٦٦٦٦٩٣٧٦٦	٤٦٣٨٨٨٢٢	٦٤٥٧٧٨١٠٠	١٩١٥٥١٨١
اللاذقية	٣٦٠٩٤٨٨٤	٤٣٩٤٣٢١	٣١٢٣٣٨٢٨	٣٢٤٦٣٧٢
دمشق	٢٨٩٨٢٢٢٧٨	٢٤٦٥٣٥٩٣	٤٤٧٤١٠٣٩٥	٨٩٤٧٥٥٥
حل	٥٠٦٠٨٢٠٦٠	٢٣١٤٣٢١٦	٣١٨١٠٠٧٣٥	٦٦٠٦٩٦٦
المجموع	٤٨٧٥٠٠٠٠٠٠	٤٤٧٤٨٨٥١٨	٣٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠	٧٧١٥٠٥٤٣

ونرى من النظر في جداول الإحصاء المتقدمة ان فرنسا وانكلترا هما في الدرجة الاولى بالنسبة للصادرات الى الشام ويأتي بعدها كل من ايطاليا وبلجيكا والولايات المتحدة .

وكذلك يظهر ان المقايضات في التجارة بين الشام ومصر في تقدم مستمر ، وان حركة التصدير من سورية الى البلاد المجاورة كفلسطين وشرقي الأردن حسنة جداً وعليها المعول في كثير من المصنوعات الوطنية بالنظر للرغبة فيها والحاجة اليها في تلك البلاد المجاورة ، وكذلك حركة النقل (الترانسيت) بين الشام والعراق والبلاد الايرانية فانها قد ارتقت وتحسنت وذلك بعد فتح طريق السيارات بين سورية والعراق وسيكون لهذه الطريق شأن كبير في تحسين العلاقات التجارية وتنشيطها بين هذه الأقطار المجاورة .

الصادرات والواردات } بلغ محصول الشام من الصوف في سنة ١٩٢٥
} ٤٦٠٠ طن موزعة على الترتيب الآتي من

حيث قوة الإنتاج :

حلب	٢٠٠٠	طن خام
حماة	١٥٠٠	=
حمص	٣٠٠	=
دمشق	٣٠٠	=
بلدان مجاورة	٥٠٠	=

ومن مجموع هذا المحصول الذي كان ينقص ٢٠٪ عن محصول سنة ١٩٢٤ نتج ٢٣٠٠ طن من الصوف المغسول ، وكانت الولايات المتحدة هي التي تستورد صوف البلاد الشامية بالدرجة الاولى .

كانت حركة التصدير للاقمشة على اختلاف أنواعها خلال ثلاث السنين الاخيرة كما يأتي : وقد اقتصرننا على الوارد بطريق بيروت لان معظم كمية الوارد كانت تمر من تلك الميناء .

سنة ١٩٢٥	سنة ١٩٢٤	سنة ١٩٢٣	
طن ١٣٥٦٢	طن ١٢٥١٦	طن ١٠١٧٩	ايطاليا
= ٦٣٧٤	= ٧٧٧٩	= ٩٣٣٦	مصر (توانسيت)
= ٥٦١٤	= ٦٤٤٧	= ٦٩٤٠	انكلترا
= ٣٨٤٠	= ٤٢٧٦	= ٣٥١٢	فرنسا
= ٣١٠٤	= ٢٧٩٧	= ٢٠٥٩	بلجيكا



✳ احصاء محاصيل الحرير في لبنان سنة ١٩٢٥ ✳

اسم المقاطعة	عدد شجرات التوت ومحصول الفيلاج			عدد العلب التي وضعت للتبذير (البض)	كمية الفيلاج المحاصلة بالكيلو غرام	المعدل الوسطى المحصول العلبه
	عدد شجرات التوت					
	الموجود	الجدد غرسه سنة ١٩٢٥	الهالك في سنة ١٩٢٥			
طرابلس الشام	١٦٣٩٤٥٠	٨٨٣٨٦	٤٠٠٠	١٣٤٩٤	٣٣٧٣٥٠	٢٥
البتروف	٦١٠٠٨٢	٨١٥٧٠	٩٤٠٠	٤٩٨٧	١١٩٦٨٨	٢٤
كسروان	٢١٨٤٢٠٢	١٠٥٥٩٨	١٠٣٥٠	٩٥٣٧	٢٢٨٨٨٨	٢٤
المن	١٨٩٨٧٠٥	١١٢١٥٠	٥٨٩٠	٨٣٢١	١٨٣٠٦٢	٢٢
بيروت	٢٠٠٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠	١٥٠٠	٤١٥٠	١٠٣٧٥٠	٢٥
الشوف	٣٣٢٨٠٣٧	٢٢١٦٤١	١٥٥٠	٤١٥٠	١٠٣٧٥٠	٢٥
بعلبك	٢١٥٥٠	٤٠٠٠	٠٠٠٠	٣١٢	١٠٩٢٠	٣٥
زحلة	٢٦٠٧٠٠	٢٤٧٥٠	٢٠٠	٩١٩	٢٥٧٣٢	٢٨
صيدا	٧١٣١٠٠	٤٥١٥٠	٥٠	١٧٧٨	٤٤٤٥٠	٢٥
صور	٤٠٧٧٥	١٥٠٠٠	٢٠٠٠	٢٣١	٧٧٧٨	٣٨
مجمعيتون	٢٢٦٢٠	٨٩٠٠	٠٠٠٠	٣٦٤	١٠٥٦٠	٤٠
دير القمر	٥٧٤٨٨٠	١٩٧٨٦	١٥٠٠	١٦٠٠	٣٢٠٠٠	٢٠
الجموع	١٣٠٥٨١٠٧	٩٣٨٩٣١	٣٦٤٤٠	٥٩٨٤١	١٤٧٠٦٢٦	٣٣٢

وقد اشتغل في موسم (١٩٢٥) ٨٩ حلاله حرير:

منها	٧٥	تعمل على طرفين
	١٠	على اربعة أطراف
	٣	على ستة أطراف
	١	على ثمانية أطراف
	٨٩	المجموع

فهذه ال ٨٩ حلاله مجهزة بـ ٣٤٥٥ مغطساً .

بلغ الوارد من الحيوانات الى هذه البلاد خلال سنة ١٩٢٤ عدد ٣٠١٦٤٣ رأس حيوان والوارد في سنة (١٩٢٥) ١٨٤٦٣٨ رأساً . واما الصادر في سنة ١٩٢٤ فكان ٢٠١٧٢٦ حيواناً وفي سنة ١٩٢٥ كان ٢٨٤٦٣٨٩ حيواناً . وهذه الحيوانات تشمل أجناس الخيل والبغال والحمير والبقر والجمال والخنزير .

صناعة البلاد في ولاية حلب - ان التدابير التي اتخذتها الحكومة سنة ١٩٢٥) التريكية بشأن تغيير لباس الرأس الوطني قد أثرت تأثيراً سيئاً في نشاط الصناعة الحلبية . فقد اشغل في حلب ٢٤٠٠ نول في شهر كانون الاول يقابلها تشغيل ٢٧٠٠ نول - في شهر تشرين الثاني وقد بلغ معدل ما يحصل منها ٧٥٠٠ ثوب قطني مغزول بطول ستة أمتار و ١٢٠٠ ثوب بطول خمسة أمتار و ١٠٧٥٠ سلكاً أغبانياً كوفيات ومناديل . ويضع في دير غطا وابو الظهور الكتان الاهلي والقماش المستعمل لصنع الخيم (الوبر) . وقد بلغ محصول الصابون في حلب ١٢٦٠٠٠ كيلو غرام ومحصول الزيت ١٨٢٥٠٠ كيلو غرام واللباقات قد حضرت ٧٥٠٠ من جلود الخرفان و ١٩٠٠ جلد ماعز و ٢٠٥٠ جلد حملان (خرفان صغار) و ٣٠ جلد ثور يكون مجموعها ١١٤٨٠ وقد أمنت المطاحن في حلب منتوجاً يقدر بـ ٢٥٥٠ طنناً من الطحين وأنواعه . وقد شوهد نقص محسوس في تحضير أدوات التعمير في هذه النسبة بالنظر للازمة الاقتصادية التي بدأت فيه .

لواء الاسكندرونة - لا يزال النشاط الصناعي عظيماً في حلالات الحرير في
السويدية وجبل موسى وفي معامل الصابون في انطاكية وفي المطاحن .
حكومة العلوبين - قد خطط انشاء معملين لخلج القطن احدهما في اللاذقية
والثاني في جبلة كما ان المعاصر تعمل عملاً جيداً . وقد اخذت انوال القطن الخامي
في قرى اللاذقية وصهيون تعمل بجد ونشاط وكذلك مدايح اللاذقية .

* * *

وهاك الوارد الى ميناء بيروت من الأقمشة على اختلاف انواعها من الحرير
والقطن والصوف والكتان بالبالات او الطرود او الرزم في ثلاث السنين الأخيرة .

سنة	١٩٢٣	١٩٢٤	١٩٢٥
فرنسا	٣٥١٢	٤٢٧٦	٣٨٤٠
انكلترا	٦٩٤٠	٦٤٤٧	٥٦١٤
اميركا	٦٢	١٤٣	٢٢٨
ايطاليا	١٠١٧٩	١٢٥١٦	١٣٥٦٢
بلجيكا	٢٠٥٩	٢٧٩٧	٣١٠٤
هولاندا	٥٧٢	٥٢٢	٣٢٥
المانيا	٨٢١	٣١٧	٢٧٠
بواسطة تريستا	٥٨٦	٨٥٥	٦٥٩
بواسطة الاستانة	٢٥٦	٢٣٠	٥٠
ترانسيت مصر	٩٣٣٦	٧٧٩٩	٦٣٧٤
المجموع	٣٤٢٢٣	٣٥٩٠٢	٣٤٠٢٦

ويظهر لمن يدقق في هذه الجداول الفرق الكبير بين الصادرات والواردات في البلاد الشامية ويحكم عليها حالاً أنها سائرة في طريق الافلاس ، ولكن الحقيقة هي ان الفرق أقل مما يظهر لاول وهلة ، لان للبلاد الشامية موارد أخرى غير صادراتها وان كانت لا تسد هذا العجز ، ولولا هذه الموارد لوقعت البلاد في هوة الافلاس منذ زمن طويل ، وهي تُنحصر فيما يلي :

اولاً — الأموال المرسلة من المهاجرين الشاميين المنتشرين في أنحاء الارض ولا سيما في البلاد الاميركية حيث أصبح الشاميون يجدهم واجتهادهم يملكون ثروة كبيرة بواسطتها يوالون ارسال معاوناتهم الى اهلهم وأقربائهم في الشام وتقدر هذه الاموال بليون ليرة انكليزية ويحسب إحصاء سنة ١٩٢٢ بثلاثين مليون فرنك سنوياً .

ثانياً — واردات الاصطياف والسياحة وهي تقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات واذا ساعدت الحكومات على تنشيط الاصطياف وتنظيم الطرقات وتسهيل المواصلات ونشر الأمن والطمانينة تجني الشام موارد كبيرة من هذا السبيل ذلك لان هواء الشام المعتدل وماءها العذب وجمالها الطبيعي كل هذا مما يحمل المصطافين على ارتياد مناهلها ، وكما زادت العناية في هذا المورد الكبير تزيد واردات البلاد على نسبة ما يبذل من العناية لتنشيط وسائل السياحة والاصطياف .

ثالثاً — فوائد الأموال والسهم والقطع المالية الموجودة في ايدي السكان وهي تقدر بثلاثمائة وخمسين الف ليرة انكليزية . الى غير ذلك من الموارد الأخرى الضئيلة ولا سبيل الى تنظيم موازنة اقتصادية جيدة الا بتجسين زراعتنا ، وبلادنا زراعية من الدرجة الاولى ، والعناية متوجهة اليوم الى تعمير زراعة التوت لتربية دود القز وموارد الحرير الشامي آخذة بالزيادة وصناعته سائرة نحو الاثقان كما يظهر من مراجعة الجدول المتعلق بتربية انتاج الحرير . وكذلك زراعة القطن في الجهات التي تصلح له وهي كثيرة جداً ، ومثل ذلك يقال في التبغ والأثمار وغيرها والعناية بتربية المواشي . وكذلك بذل الجهود في ترقية الصناعات الشرقية المتنوعة والاستغناء بقدر الإمكان عن المصنوعات الغربية . وبهذه الوساطة نصل الى التوازن بين الصادرات والواردات فيزول الخطر الاقتصادي الذي يهدد البلاد والذي نعاني شدته الآن

خصوصاً اذا طرأ على البلاد حوادث لم يحسب حسابها كما حدث في السنة التي نحن فيها فالبلاد الشامية استقبلت عام ١٩٢٦ وهي تكاد تنوء بضائقتها الاقتصادية ، وأزمتها المالية . فالاشغال تعطلت ، والصناعات وقفت ، والتجارة فلتت ، والاسواق التجارية كسدت ، — لاسباب عديدة نذكر هنا أهمها — اولاً : ان الشام مٌني في السنة السابقة بخطط مزروعاته سواء كان في حوران او في الغوطة وفي جهات حمص وحماة التي بليت بمحشرة السونة فعطلت الموسم وفي الجهات الشمالية ايضاً ، وبدأت الشام تستورد الخنطة والحبوب من البلاد الاجنبية لسد حاجتها منها وذلك عوضاً عن ان تصدر هذه الغلال الى البلاد المجاورة وكان مقدار ما استوردته على أقل تقدير يربو على المليون ليرة ذهباً قيمة المواد الغذائية .

وبهذه المناسبة أصدرت الحكومة قراراً أجلت فيه استيفاء الديون التي لمدينة دمشق على حوران الى السنة القادمة فلم يتمكن تجار الحبوب من استيفاء ديونهم بسبب هذا القرار الذي لم تكن هناك ضرورة تستدعي إصداره وكان سبباً لعرقله سير المعاملات بين الدائنين والمدينين ، وقد قامت غرفة التجارة في دمشق حين صدوره بتقديم تقرير مطول ننتقد فيه هذا القرار وتبرهن على عدم وجود الاسباب الكافية لصدوره ، وعلى مبلغ الاضرار التي نتجت عنه كما يظهر من مراجعة نشرتها الصادرة في شهري ايار وحزيران من السنة الماضية .

ثانياً — بعد ان اصطدمت الاسواق التجارية بعدم تمكنها من استيفاء ديونها التي في حوران وهي تربو على مائة الف ليرة عثمانية ذهباً منعت ايضاً حكومة شرقي الاردن إصدار السمن والغلال الى جهات سورية وبذلك ايضاً تأخر تسديد الديون التي لدمشق على تلك الجهات وتقدر قيمتها بثلاثين الف ليرة عثمانية ذهباً .

ثالثاً — نشبت الثورة في جبل حوران في آخر ايام موسم الحبوب والغلال اي في شهر تموز وتعطلت أعمال التجارة وامنع إصدار الحبوب الى أسواق مدينة دمشق ، وكانت حالة الموسم في الجبل جيدة والتجار الذين لهم علاقات كبيرة مع جبل الدروز سواء كانوا من تجار أنسجة الالبسة على اختلاف أنواعها او من تجار الحبوب لم يتمكنوا ايضاً من قبض شيء من ديونهم الطائلة وامنع عليهم التحصيل ، وسدت في وجوههم

ابواب الرزق ، وقد قدرت الديون التي لمدينة دمشق على جبل الدروز بمئة وخمسين الف ليرة عثمانية ذهباً لم يتمكن الجبل من تسديد شيء منها بسبب الثورة الناشئة فيه .
 رابعاً — وكانت توالى في شهر تشرين الاول حوادث العصابات في الجهات القريبة من دمشق وهددتها باكتساحها مخاف التجار على أموالهم وعلى بضائعهم المتراكمة في محلاتهم ومخازنهم وكان يخشى حدوث فوضى ونهب في الأسواق فبدأ التجار ينقلون بضائعهم وأموالهم الى البيوت القريبة من أهم أسواق المدينة كمحلة الحصيرة القريبة من سوق مدحت باشا وزفاق سيدي عامود القريب من سوق الحميدية وذلك خشية السلب والنهب ، وفي أواخر الشهر المذكور تمكنت بعض العصابات من الدخول الى المدينة فضربتها السلطة بالقنابل واحترقت الاحياء القريبة من تلك الأسواق وهي التي نقل التجار بضائعهم اليها خشية النهب ولم يحسبوا للحريق حساباً فتدمرت تلك الأحياء العديدة برمتها وفيها أمتعة وأثاث ومفروشات وبضائع تقدر الخسارة باربعة ملايين ليرة عثمانية ذهباً .

خامساً — على أثر حصول هذه الحوادث بدأت الأسواق التجارية تشعر بالضيق الشديد وقلة النقد وتشددت المصارف المالية بقبض ديونها المستحقة ، وصار يخشى ان تقع إفلاسات عديدة ، لو لم نندارك غرفة التجارة بدمشق الامر ونسعى بصورة حبية مع مديري المصارف لاجراء بعض التسهيلات اللازمة للتخفيف من هذه الضائقة ، وبذل المعونة بتسهيل معاملات الاقراض وقبض الديون ، فبدأت بعض المصارف لاجراء بعض التسهيلات في تسديد الديون المستحقة وقبلت ان تقبض في المئة خمسين من اصل السندات المستحقة وترجي الباقي الى مدد قريبة بالتواقيع السابقة وبعضها شدد الوطأة على دائنيه فلم يقبل اجراء مثل هذه التسهيلات واما فيما يتعلق بالاقراض فانهم أجمعوا كلهم على عدم التسليف ، واذا جرى لبعضهم فبالفائدة الباهظة والشروط الثقيلة .

ما يجب للنجاح في } لا يجد المفكر في أحوال التجارة والصناعة أمامه
 الاقتصاديات } سوى الطرق الآتية لنجاح تجارنا ووضعها على اساس
 اقتصادي متين ورفي صناعتنا لتضاهي الصناعات الغربية ونقاوم مزاحمتها العنيفة .

اولاً - تأليف الشركات الصناعية لتأسيسها على الاصول الميكانيكية الحديثة ، ولقد جربنا القيام لتأليف شركات مساهمة في احوال مختلفة ، واتخذنا وسائل التشجيع فلم نذوق لذلك الى الآن ، ذلك لأننا لم نألف بعد مثل هذه الاعمال المشتركة . ولا سبيل الى تحسين صناعتنا وانقاذها الا بتأليف هذه الشركات المتنوعة ، ومتى تم لنا الظفر للقيام بمثل هذه المعاهد نعتقد اننا بدأنا نقاوم تيار الصناعات الغربية لتحل محلها صناعتنا الجميلة ، الممتازة بقوتها ومتانتها ، والتي تحتاج الى مفاداة ابناءها لتوسيعها وانقاذها . خصوصاً وان رخص اليد العاملة ورخص المواد الأولية كفيلان بفجاح كثير من صناعاتنا بالنظر لتوفر هذين الشرطين الأساسيين .

ثانياً - وضع الرسوم الجمركية على قاعدة حماية الصناعة الوطنية .

ثالثاً - العناية الفائقة بحسين زراعنا وعلى الاخص منها القطن والقنب والفاكهة المعروفة بجودتها في ارض الشام والعناية بتصديرها الى الخارج فان جارنا مصر تستورد من أنواع الفاكهة حسب احصائها ما تساوي قيمته ٣٧٥ الف جنيه فهل فكرنا في تحسين وسائل الإصدار لأنواع فاكهتنا المعروفة بكثرتها وطيبها ؟ وكذلك القول في زراعة التبغ . وعلى ذكر هذا الصنف العظيم لا بد من القول ان بقاء شركة حصر الدخان (الرجيبي) مع انتهاء مدة امتيازها أضرت بزراعة الدخان ضرراً بليغاً حال دون الاستفادة منه فائدة تعود بالخير والنماء ، اذا كانت حرة طليقة من قيود هذه الشركة واستبدال رجالها . ومن المحقق ان تنشيط زراعة الدخان على أنواعه وتشجيعه يقلل من تقليل هجرة المهاجرين وتخفيف قوة تيارها الجارف ويقتصد للبلاد مبالغ طائلة تدفعها ثمناً للدخان الأجنبي .

رابعاً - جعل عملة البلاد على قاعدة الذهب ، ذلك لأن وضع عملة البلاد الشامية على قاعدة (الفرنك) الفرنسي واستصدار الاوراق النقدية السورية على هذا الاساس قد أضرت الاسواق التجارية ضرراً بليغاً ، وسبب لها خسائر كبيرة بسبب صعوده وهبوطه المتوالي ، وليس ثمة ما يبرر جعل عملة البلاد على هذا الاساس من الوجهة الاقتصادية او من الوجهة الحقوقية فقد كان سبباً لاخراج كمية كبيرة من الذهب المخزون في البلاد وتصديره الى الخارج واحلال هذه الاوراق التي مضى عليها وقت

طويل وهي تميل نحو الهبوط وتحل محل الذهب ، حتى أصبح المتداول منه قليلاً جداً شعرت به البلاد شعوراً محسوساً ، وكان له أثر سيئ في أسعار العقارات والارضين وسبب نزولها نزولاً فاحشاً ، فالمعروض من مختلف الاملاك كثير جداً ، والمشتري لا يوجد الا قليلاً بالنظر لقلّة الذهب الموجود .

خامساً — الاقلال من استعمال الكماليات وأدوات الزينة والترّف وبذل الغيرة في استعمال المصنوعات الوطنية بقدر الإمكان لاسيما الحلويات والسكاكر الافرنجية فان مصنوعات البلاد من هذه الأنواع تفوقها جمالاً وإتقاناً ولذة ، فقد ارتقت هذه الصناعة في البلاد رقياً حسناً كان من أثره تصدير كميات كبيرة منها الى البلاد الغربية ايضاً وخصوصاً أصناف مرببات الفاكهة على اختلاف أنواعها والاحتصار على مصنوعات البلاد من هذه الأنواع يوفر مبالغ طائلة تقدر بمئات الالوف من الدينانير الذهبية . وربما يظن بعضهم ان المسألة أبسط من ان تحتاج لمثل هذا الاهتمام ، ولكنه اذا رجع الى إحصاءات الوارد من هذه الاصناف رأى ان الوارد من أصناف (الشكولاته) وحدها يربو على المئة والخمسين الف ليرة ذهباً وعندنا من انواع الحلوى التي مادتها من ثمر البلاد وعمل ايدي ابنائها ما يقوم مقامها حتى عند أشد الناس ترفاً وبذخاً .

سادساً — تخفيف الضرائب عن عائق الاهلين وقد أصبحوا لا يطبقون حملها بالنظر لكثرتها وتعددتها وزيادتها بالاضافات التي طرأت عليها ، مع قلّة أسباب الرزق وضعف موارد الاقتصاد ، وبما ان قضية الضرائب قضية مهمة جداً اذ كر كلمة موجزة عنها فأقول :

الضرائب } نناقضى الحكومة الآن ضرائب فاحشة بحجة الضرورة
الماسة لتسديد ميزانيتها ، واذا كانت القاعدة الاقتصادية
القائلة (ان ثروة الحكومة من ثروة الشعب) صحيحة وجب على الحكومة ان تراعي
ثروة الاهالي والاحوال الاقتصادية الحاضرة ، ولا يمكنها ذلك الا اذا أمعنت النظر
في حقيقة الثروة التي يملكها الشعب مع نسبة الضرائب التي نناقضها الحكومة الى
هذه الثروة . فثروة الشعب اليوم سواء كانت عقاراً او تجارة ضعيفة جداً والدليل
المتنع الذي لا يمتثل الرد على ذلك هو : ان الثروة الحقيقية في البلاد وهي الارض

والاملاك التي أصبحت قيمتها الآن أقل من قيمتها قبل سنين بمعدل اربعين بالمائة وأقل من أثمانها قبل الحرب العامة عشرين بالمائة على أقل تعديل . فاذا كانت هذه نسبة أثمان الثروة الحقيقية التي يملكها الشعب أصبح من المتحتم على الحكومة اليوم الاهتمام الكلي لتخفيف هذه الاعباء الثقيلة عن عائق الشعب ولا يمكن تخفيفها الا بتعديل جباية الضرائب وطرحها على وجه يلائم مصلحة الشعب والحكومة في وقت واحد .

وقد وضعت هذه الضريبة موضع الاجراء يوم البداءة بالتنظيمات الخيرية اي من سنة ١٢٥٥ هجرية وذلك عندما ألغيت رسوم الاحتساب . واخذت تجي اعتباراً من السنة المذكورة بصورة موحدة مع ضريبة الخراج ، وعلى نسبة القيمة التي يجري تقديرها في الاملاك والمزارع والاموال والحيوانات ودرجة الثروة والاستطاعة في كل فرد من الاهلين واخيراً بمقتضى تعليقات الترخير المؤرخة بسنة ١٢٧٥ ونظام الترخير العمومي المؤرخ سنة ١٢٧٧ وأخذت تستوفى على نسبة ثلاثة في المئة من مجموع الارباح التي تقدر لكل شخص من ارباب الصناعة والحرف . وبعد ذلك بمقتضى قرار الاملاك والاعناب والاعشار المؤرخ في ٥ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ وفي ٤ شباط سنة ١٩٢٥ أبلغت النسبة المذكورة الى اربعة في المئة وبعد ذلك اي اعتباراً من سنة ١٣٠٣ أبلغت الى خمسة في المئة وبعد ذلك بمقتضى نظام الخراج (الويركو) المؤرخ في ٢٢ آذار سنة ٣٢٣ والنظام المؤرخ في ٨ كانون الثاني سنة ٣٢٧ المعدل الى النظام السابق صار تحرير طرحها .

وبدأت الحكومة العثمانية تجبي ضريبة المسقنات منذ سنة ١٢٧٥ بترتيب ضريبة الخراج فأجرت تحرير المسقنات في المدن والقرى والقصبات وبدأت بجبايتها بنسبة خمسة في الالف من بيوت السكن التي لا تتجاوز قيمتها العشرين الف قرش وثمانية في الالف من بيوت السكن التي تربو قيمتها على ذلك المقدار وعشرة في الالف في بقية المسقنات المعدة للايجار . هما تكن قيمتها وعشرة في الالف ايضاً من البساتين والكروم المستثناة من الاعشار واربعة في الالف من مسقنات الاوقاف المكلفة بدفع خرج الحاسبة ثم انها في سنة ١٣٢٦ مالية غيرت هذا الشكل وأصدرت قانوناً يقضي بتحرير جميع المسقنات وتعيين ايراد غيرصاف لها بدلاً من القيمة السالفة الذكر وفي سنة ١٣٢٨

بدأت بتعيين هيئات التحرير وبأشرت بتطبيق مواد ذلك القانون في أفضية دمشق وحماة وحمص وبلبك والبقاع والزبداني وهو يقضي باستيفاء اثني عشر في المئة من جميع المسقفات سواء كانت للسكن او للايجار ونسعة في المئة من الطواحين والمعامل والبيوت المعدة للسكن المعمولة بالخشب واللبن ومن جملة مقتضيات هذا القانون استثناء بيوت السكن التي وارداتها ٢٥٠ قرشاً او اقل من ذلك واعفاء هذا المقدار من واردات البيوت التي وارداتها من ٢٥١ الى ١٠٠٠ واستيفاء الضريبة المذكورة من بقية الواردات الى آخر ما جاء في هذا القانون الذي وضع موضع الاجراء اذائل سنة ١٣٣٣ شرقية ثم ان الحكومة العثمانية قررت ضم ضريبة الحرب التي أحدثتها في سنة ١٣٣٨ على الضريبة المذكورة وقدرها خمسة وعشرون في المئة وفي سنة ١٣٣٠ زادت عليها ايضاً عشرة في المئة باسم حصتي الولاية وطرقها وعشرة في المئة ايضاً باسم حصة البلدية وما كان من تلك الزيادات التي هي حصتها الولاية وطرقها وضريبة الحرب فانها أدخلتها في موازنتها وجعلته من جملة وارداتها خلافاً لحصة البلدية فانها كانت وما زالت تدفعها الى صندوق البلدية بنسبة مجموع الجباية . ثم ان الحكومة العربية ألغت ضريبة الحرب منذ سنة ١٣٣٥ (١٩١٩م) ونحت نحو الحكومة السابقة باستيفاء بقية الضمائم كما انها اعتباراً من سنة ١٣٣٦ (١٩٢٠م) زادت على ضريبة المسقفات هذه خمسين في المائة على الاملاك المعدة للايجار وخمسة وعشرين في المائة على البيوت المعدة للسكن التي تربو ضربتها على المائة . وأضفت على حصة البلدية عشرة في المائة وأبلغتها الى عشرين في المائة . وبهذه الوسطة ارا نظرنا في نسبة ضريبة المسقفات التي يجب استيفاء اثني عشر في المائة عنها نجد ان الحكومة تلتزم في الآن احد وعشرين في المائة وستين سنياً .

مثال من الشركات } قدمنا اننا لم ننجح في تأليف الشركات المساهمة
النافعة } لتأسيس صناعاتنا على الاصول الحديثة ، لاننا لم
نتشرب بعد روح الاعمال المشتركة ، غير ان الواجب يقضي علينا بان نذكر كلمة عن
اول مشروع كبير قام به الدمشقيون مشتركين ، وكان مثلاً حسناً لفائدة التضامن

والتعاون في سبيل الاعمال النافعة ، ذلك مشروع جر ماء عين الفيحة الذي دعت اليه غرفة التجارة وبذلت جهودها في سبيل إتمامه فقدمت لأئمة المشروع الى حكومة دمشق (٢٤ آب عام ١٩٢٢) . وقدرت كُلف جر المياه ومصاريفه بمائة وخمسين الف ليرة عثمانية ذهباً يدخل فيها نفقات الشبكة الداخلية في المدينة وُزعت على خمسة آلاف متر فأصاب المتر ثلاثون ليرة عثمانية ذهباً وهكذا أقرت اللجنة التي ألفت لهذا الغرض المشروع وقامت بالدعاية اللازمة للاشتراك به . ثم ان اللجنة الاولى حينما أتمت عملها التأسيسي عرضت الخمسة آلاف متر للاكتتاب العام وسعت لترويجيه بقدر ما ساعدتها الحال الى ان اكتب قسم كبير من الاملين وأعلنت ان الذين يدفعون القسط الاول من قيمة اكتبهم يصبحون اعضاء في جمعية ملاك الماء ولهم وحدهم حق انتخاب ثمانية اعضاء يؤلفون نقابة ملاك الماء حسب نص نانوت هذه الجمعية وهؤلاء يضمون الى الاعضاء الطبيعيين الذين نصت عليهم المادة السادسة من المقابلة المعقودة بين حاكم دولة دمشق ورئيس بلديتها ويؤلفون (لجنة ماء عين الفيحة) .

واكتتبت الاهالي بثلاثة آلاف متر ودفعت قيمة القسط الاول البالغ ثلاثين الف ليرة عثمانية في الاوقات المعينة الى المصرف السوري اللبناني ثم تقدمت المالية واشترت مقدار الف وخمسمائة متر بشروط حسنة . وبعدئذ عرض المشروع للالتزام في البلاد الاوربية والاميركية والاسيوية وتقدمت شركات قديرة من الوجة المالية والفنية للمناقصة فيه بعد ان أرسلت مهندسيها ودرسوا المشروع بصورة عملية على الجبال وعلى المصورات الموضوعه له ، وجرت المناقصة بين اثني عشرة شركة بعد اثبات اقتدارها المالي والفني على الاصول . وشوهد ان شركة الخواجات أصفر وسارة هي التي قدمت أقل الاسعار وهي تنزيل خمسة ونصف في المئة من القيمة الخمننة لجر المياه من نبع الفيحة الى خزان المهاجرين وهكذا باشرت الشركة المذكورة العمل بالانفاق مع شركة (نيك) المتخصصة بحفر الانفاق بأحدث الادوات والعمل سائر في طريق النجاح وسيكون مثالا حسناً لفوائد الاعمال المشتركة ومقدمة لتشجيع الناس على الإقدام لتأليف الشركات للقيام بالاعمال الكبيرة التي لا يمكن لفرد ان يقوم بها وستبني

مدينة دمشق من هذا المشروع العظيم فوائد كبيرة من الوجهة الصحية والعمرانية
ذكرت هذا المشروع لان له علاقة كبيرة بتاريخ البلاد الاقتصادي (انتهت مقالة
الاستاذ الحفار) .

* * *

تجارة فلسطين في }
الدور الجديد }
اما فلسطين فقد كانت تجارتها في العهد الاخير في
صعود وهبوط وصادراتها أقل من وارداتها لكن التحسن
مطرد في حالتها ويؤخذ من تقرير ادارة الجمارك والمكوس والتجارة على ما عرته
الجملة التجارية ان مجموع واردات الجمارك والمكوس والمواني كان سنة ١٩٢٥
١٠٩٠٩٥٥ جنيهاً مصرياً يقابله ٦٥٦٠٨٨٠ ج م في سنة ١٩٢٤ وقد زاد الدخل
من مكوس التبغ على ١٠٠ الف جنيه . وأُعفيت من الرسوم الجركية النخم والكاز
الوسخ وزيت ديزل وسدله والمازوت والبراميل والمواد الاولية التي تدخل في الصابون
وكسر بزر الزيت والدباغة والنسيج . وأُعفيت ايضاً بضائع قيمتها ٥٩٠٢٤٤ ج لما نقضي
به حقوق المعاهدات الدولية . وبلغ مجموع قيمة الواردات ٧٣٣٨٠٤٩١ ج مقابل
٥٠٢٦٦٠٣٤٩ في سنة ١٩٢٤ ومجموع قيمة الصادرات من نواتج فلسطين ١٠٢٩٧٠٥٥٩
مقابل ١٠٠٠٨١٢ في السنة التي قبلها وكانت أهم الزيادة في الواردات الحبوب
والدقيق ومواد البناء والبضائع القطنية من الادوات والسيارات وأنواع الكاز .
و بلغ ما بيع من الملح ٤٧٩٤ طنًا مقابل ٣٤٥٧ طنًا في سنة ١٩٢٤ .
ان انتعاش التجارة من أزمة سنة ١٩٢٣ الذي ابتدأ منذ سنة ١٩٢٤ قد ظلَّ
مستمرًا بتأثير النازحين الجدد وما جلبوه معهم من رؤوس الاموال التي أودعوها
المصارف فسهلوا بذلك اعطاء السلمات وقد هبط معدل الفائدة الى أدنى رقم منذ
الاحتلال ولكن المشتريات المبنية على المضاربة توقعاً لزيادة الطلب وعلى الخصوص
فيما يتعلق بتجارة المباني واستثمار الأموال في ابنية واسعة النطاق مع مشتري الارض أدت
الى قلة النقد قرب نهاية السنة فنشج عن ذلك قبض المصارف يدها عن التسليف . وقد زاد
معدل المعيشة بنسبة ٤٦٤ بالمائة عن سنة ١٩٢٤ وارتفعت اسعار الجملة ٧١٢ بالمائة .
وبلغت صادرات البرتقال ١٠٨٦٨٠٢٩١ صندوقاً مقابل ١٠٨٨٠٠٧٨٣ في سنة

١٩٢٤ وكانت الاسعار عالية وكان معدل المبيعات الاولى ١٢ - ١٥ شلناً الصندوق . وكسدت تجارة الخمر الصادرة وقل الوارد منها ٧٨٥٠ ج وصدر من الصابون ٥٨٥٥ طنناً قيمتها ٢٤٧٠٧٢٥ وأدخل تحسين على صناعته فصار يعمل منه الصابون المطيب . وفي فلسطين سبعة معامل للتبغ واللفائف وسبعة معامل للنباك وكانت ناتجها من اول ايار ٢١٩٠٨٠٠ كيلو غرام من اللفائف و ١٢٠٠٠٠ من التبغ المفروم و ٤٠ في المائة من التبغ المصنوع في المعامل وهو من ناتج فلسطين والمساحة المزروعة تبعاً ونباكاً في فلسطين هي ثلاثة آلاف آكر (الا ٥٢ آراً والار مئة متر مربع) وما زال تهريب التبغ مستمراً على درجة واسعة .

وقسمت الواردات المستهلكة في فلسطين في سنة ١٩٢٥ اربعة أقسام منها ١٠٩٨٧٠١١٠ ج ثمن مأكولات ومشروبات وتبغ و ٦٢٧٠٥١٨ مواد خام وبضائع اكثرها غير مصنوعة و ٣٠٩٦٧٠٥١٨ بضائع مصنوعة كلها او معظمها و ٧٥٦٠٣٤٤ صادرات شتى وأهم مصادر الواردات ونسبتها الى المجموع بريطانيا العظمى ٣٠٨٣٠١٥٦ ج اي ١٤٦٥ بالمائة وسورية ١٠١٧٠٩٠٣ اي ١٤٤٥ في المائة والمانيا ٩٣٠٤٣٩ اي ١٢٦٥ في المائة واميركا ١٦٦٦٩٩٩ اي ٩٦٥ وبلدان بريطانيا اخرى ٥٨٣٠٥٥٠ اي ٧٦٥ وفرنسا ٥٦٣٠٦٨٩ اي ٧٦٥ ومصر ٣٧٥٠١٦٩ اي ٥٦٥

وتقسم الصادرات الى مأكولات ومشروبات وتبغ وقيمتهما سنة ١٩٣٥ ٨٨٢٠٢٣٤ ج ومواد خام وبضائع اكثرها غير مصنوعة ٦٦٠٨٠٨ بضائع مصنوعة كلها او معظمها ٣٠٠١٢٨ وأشياء أخرى ٤٨٠٣٣٩ وأهم موارد الصادرات مصر ويصدر اليها بما قيمته ٥٧٧٠٢٧٧ ج اي ٤٤٦٥ في المائة وبريطانيا العظمى ٤٤٣٠٧٧٤ ج اي ٣٠ في المائة وسورية ١٠٥٨٠١٠٢ اي ١٢٦٥ واميركا ٢٥٠٦٠٠ وفرنسا ٢٢٠٩٣٢ والمانيا ٢٠٠١٩٠ وابطاليا ١١٠٩٦٨ وأهم الزيادة في الصادرات التي كانت في البرنقال وصابون الغسيل فزادت صادرات الاول ٩١٠١١٥ والثاني ٤٣٠٨٣٤ ج .

وذكرت المجلة التجارية ان النسبة بين الواردات والصادرات في فلسطين نقل شيئاً فشيئاً فالنسبة بين البضائع الصادرة والمعاد تصديرها وبين الواردات هي في سنة ١٩٢٥ ١ - ٣٦٥ وكانت ١ - ٥٦١ في سنة ١٩٢٢ و ١ - ٤٦٦ في سنة ٢١ و ١ - ٥٦٤ في

سنة ٢٠ و١ — ٥٦٣ في سنة ١٩ فتجارة فلسطين في تحسين مطرد . ولكن الزيادة في واردات سنة ١٩٢٥ هي نحو ٤٠ في المائة عن سنة ٢٤ ونحو ٥٣ في المائة عن سنة ٢٣ اما الصادرات فزيادتها نحو ٨ بالمائة عن سنة ٢٤ ونحو ١٤ بالمائة عن سنة ٢٣ وشتات ما بين سير الصادرات وسير الواردات . ويعرف مركز البلاد الحقيقي ويقدر مالها وعليها من ميزان تجارة البلاد لسنة ١٩٢٣ وهو ميزان صحيح في الجملة مأخوذ من قلم إحصائي دائرة التجارة ومن بعض ذوي الخبرة والاختصاص .

المصرفات	جنيه مصري	الواردات	جنيه مصري
المصرفات الظاهرة		الواردات الظاهرة	
قيمة الواردات	٤٨٢٥١٨٥	قيمة الصادرات المعاد تصديرها	١٣٧٧٢٠٧
المصرفات الخفية		الواردات الخفية	
واردات من شرقي الاردن	٥٠٠٠٠	الصادرات الى شرقي الاردن	١٥٠٠٠٠
وفر الموظفين الاجانب	١٥٠٠٠٠	تجارة السياح	١٦٠٠٠
ارباح المصارف	١٠٠٠٠٠	اموال المهاجرين	٢٥٠٠٠٠
أرباح شركات التأمين	١٠٠٠٠	تجارة الترانسيت	٥٠٠٠
أرباح شركات غيرها	٢٥٠٠٠	البنجة الصهيونية	٥٠٠٠٠٠
مصارف الطلبة الفلسطينيين	١٥٠٠٠	الجمعيات الخيرية	٨٠٠٠٠٠
خط سكة حديد يافا — القدس	٩٨٠٠٠	اموال مشغلة في الخارج	٢٠٠٠٠
المجموع	٤٤٨٠٠٠	نفقات الجيش البريطاني	١٥٠٠٠٠٠
		نفقات المهاجرين الشرقية	١٠٠٠٠٠
		واردات المواني	٥٠٠٠
		المجموع	٣٦٧٠٠٠٠
		عجز سنة ١٩٢٣	٢٢٥٩٧٨
المجموع العام	٥٢٧٣١٨٥	المجموع العام	٥٢٧٣١٨٥

ومن الاسباب العديدة التي تحول دون الانتاج في الوقت الحاضر وفي فلسطين

قلة الابدعي العاملة من بشر وحيوان وقلة العمال الفنيين في سبيل الانتاج المختلفة ومشكلة الارض وخصوصاً المشاع وقلة رؤوس الاموال اللازمة للقيام بالمشاريع الكبرى . وفي الحق ان بريطانيا العظمى تعني باصلاح الحالة الاقتصادية في القسم الذي هو تحت إشرافها من ارض الشام شأنها في كل ارض احتلتها وربما لا يصدر هذا الكتاب حتى تصدر بريطانيا العظمى في حكومة فلسطين قرصاً باربعة ملايين ونصف مليون جنيه انكليزي ونضمن الخزانة الانكليزية رأس المال والفائدة وبصرف هذا المبلغ في انشاء سكك حديدية وفرض بحرية وغير ذلك من المشاريع النافعة وفي شراء السكك الحديدية الموجودة ورؤوس الاموال التي تستثمر الآن من حكومة بريطانيا العظمى وأعظم بذلك من عمل اه .

* * *

تجارات الامم المختلفة^(١) } يقدر الخبيريون الواردات الى سورية ولبنان من
في الشام } القارات الخمس بثمانية ملايين دينار ذهبي مسانحة
وغالب ذلك من الاشياء الكالية التي تقتضيها حالة الحضارة والترف ، فمن أهم ما استورده الشام من فرنسا الكتب المدرسية والمطبوعات العلمية والادبية والسياسية وادوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وأنوال النسيج الافرنجية ومواد الصيدلة والعقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة ومعدات موائد الطعام من سكاكين وملاعق ومتمت اخونة الطعام ، ولوازم القاطرات الحديدية والشاحنات ، ومن مواد البناء الترابية الكلسية والطوب والقرميد والبلاط الصناعي وآلات النجارة ومعدات الأبواب والنوافذ الحديدية والآلات الكتابية من عربية وافرنجية وأسلحة الصيد والمسدسات . من معامل سانت اتين الشهيرة وغيرها مع ما يلزمها من القذائف والبارود ، والأجواخ الصيفية على اختلاف أنواعها ، وأقمشة النساء من حريرة وقطنية ، وأوان خزفية وبلورية وروائح عطرية على اختلاف أنواعها ، والخمور والدقيق والمطابع وما يقضي لها من حروف وآلات طباعة والمواد الكيماوية وغير ذلك .

(١) كتب هذه المقالة صديقي الدرّاة السيد محمد شخاشيرو .

ومن أهم ما نستورد من انكلترا القصدير وجميع المعادن والاجواخ الشتوية الغالية الثمن ، وجميع المنسوجات القطنية وهي أنواع كثيرة والغزل بأنواعه والموسى والسكاكين المعروفة بالانكليزية وسرر النوم على اختلاف أنواعها المعمولة من الحديد والنحاس وسرر السفر وبعض مطبوعات علمية وأدبية وأسلحة الصيد والمسدسات وما يتبعها وكثير من العقاقير والمستحضرات الطبية وآلات الجراحة والأسلاك النحاسية والمركبات ولوازمها . وأهم ما يرد على الشام من ايطاليا البسة الصوف على اختلاف أنواعها واكسية القطن كالمدام واليني والأجواخ الرخيصة الثمن والرخام المرمر الملون وبعض مطبوعات علمية وأدبية وقسم من السيارات والمركبات . وأهم ما يردنا من المانيا المطبوعات العلمية والادبية وورق الكتابة وأدوات النجارة على تعدد أنواعها وأشكالها من مناشير ومطارق وأدوات الأبواب والنوافذ الحديدية وسرر النوم من النيكل والحديد والنحاس وسرر السفر والمسامير وأسلحة الصيد والمسدسات وتوابعها والرصاص والقصدير والاواني الخرفية وآلات الجراحة والعقاقير والمستحضرات الطبية والادواني النحاسية من طسوت وأباريق وأواني الحديد المدهون المستعمل في المطابخ والأصباغ على أنواعها والادوات الكهر بائية على تنوع ضرورها والآلات الرافعة للماء وادوات الزراعة الحديثة والجوخ .

وأهم ما يرد من النمسا الصناديق الحديد والمقاعد والكراسي الخشبية المعروفة بالخيزران على اختلاف اشكالها والورق . ومن بلاد المجر الكبريت والفاصوليا . ومن روسيا سخانات الشاي الفاخرة (السماورات) منها الابيض ومنها الاصفر ، وخيطان الفضة المموهة وتدخل في الصناعة الشامية لوشي الحرير ، والبتترول والطنافس والبسط الغالية الثمن ، والفراء الفاخرة والاحذية المطاطة تجيء عن طريق الاستانة . وأهم ما تصدر الينا بلجيكا بولر المرايا وزجاج النوافذ وأسلحة الصيد والمسدسات وحديد البناء وحديد الصناعة ولوازم حافلات الكهرباء وآلات الزراعة . وأقمشة وأجواخ كثيرة والصودا والسلك والورق . ومن بولونيا الخشب والمسامير . ومن اسبانيا القمصان والجوارب والفلين والزئبق وبعض الادهان . ومن سويسرا الساعات الذهبية والفضية للنساء والرجال والمطرزات الصيفية من الأقمشة والدنيللا والشوكولاتا

والجين واللبن المعقم والزبدة وأدوات النسيج والاحذية • ومن هولاندة الجبن والجليسرين والسبيرتو والجمعة والشمع والملبس (درويس) والبسكوت والبويا والأواني الخزفية البديعة والحليب المعقم والكتب العربية الجيدة •

وأهم ما يردنا من اسوج (السويد) الكبريت والمقوَّى • ومن النرويج زيت السمك والقطران وزيت النفط (الترينين) • ومن الدانمارك الحليب المعقم والسمك المقدد والمغموس بالزيت والجمعة • ومن البرنقال سمك السردين • ومن التشيكوسلوفاكيا السكر والبلور والمالقي والجوخ العربي والجوخ العادي والازرار والطرايش والحرامات الصوف والاواني الزجاجية على اختلاف انواعها • ومن بلغاريا الجبن البلغاري • ومن رومانيا الاخشاب على تعدد أنواعها وتعرف بالقطراني والشوح وقليل من البترول • ومن اليونان التبغ والزيت والكونياك • ومن اميركا الشمالية والجنوبية آلات الخياطة والسيارات وما ينبغي لها والدراجات والمركبات والزيت المعدنية والبترول والالكحول والبنزين والاحذية والقهوة والخشب المعروف بالاميركاني والساعات الاميركانية وآلات الهائف والبرق والمطاط (الكاوتشو) وادوات الكتابة • ومن اوستراليا الدقيق الاوسترالي وغير ذلك •

وأهم ما يرد علينا من اليابان والصين الخزف الصيني والياباني وهو اشكال متعددة وله قيمة باهظة والحصر المنقوشة والحرير الياباني والصيني والغزل والشاي الصيني والخام من اليابان والصين والحرير من شنغاي • ومن جاوة بطريق الحجاز الشاي والقهوة وأقمشة الحرير الصفيق المعروفة بالاستكروزة •

وأهم ما يردنا من طرابلس الغرب وتونس والجزائر والغرب الاقصى نسيج صوف فاخر يعرف بالحرام وهو دثار الشتاء وحرير للصناعة هو أحسن أنواع الحرير • ومن الجزائر التبذ الفاسخ • ومن السودان الفول السوداني وبعض البهارات والشمع والريش والعاج • ومن الحبشة القهوة • ومن مصر الأقمشة الصوفية يخطونها عبآت في جميع بلاد فلسطين والشال الحريري والارز والسكر والمطبوعات العربية في مختلف العلوم والفنون •

ويردنا من تركيا الاحجار الكريمة وبعض مصنوعات الصياغ من الاواني الفضية

الدقيقة الصنع ، والبسط الاورفلية نسبة الى اورفة والطنافس وغالبها تعرف باسماء البلاد التي تعمل فيها فيقال لها الرشواني والقيصري والكرداسي الى آخر ما هنالك من الاسماء . وأهم ما تستورد الشام من بلاد الكرد الغنم والخيول المعروفة بالجلب وهي لحمل الاثقال والحراث والبسط والطنافس واللبد المعروفة بالكردية وهي بقاية المتانة والجمال . واكثر ما تبعت العراق البسط المعروفة بالبغدادي والعبات المعروفة بالجيلانية نسبة الى جيلان وهي غالبية الثمن ومنقنة جداً والملاآت الحريية وتعرف بالبغدادية يتخذها نساء القرى الشامية غطاءً . وأهم ما تتناوله من اليمن والحجاز البن او القهوة المعروفة بالعدينية ومن المدينة المنورة بعض الطيوب والمرائح والتبر والحناء . ومن نجد الابل والخيول العربية المشهورة .

وأهم ما يزد من بخارى الطنافس والبسط المفتخرة وتعرف باسماء حواضرها . ويرد من الافغان الطنافس والبسط الجيدة وتعرف بالافغاني . ومن الخليج الفارسي اللؤلؤ ومصنوعات يدوية من بسط وطنافس وخراج واعبئة وهي على غاية من الابداع وغالبية الثمن . ومن فارس الشال الثمين والبسط والطنافس وعبات الوبر وتعرف غالباً تلك الاشياء باسماء حواضرها فيقال الشيرازي ، التبريزي ، الهمداني ، الخراساني من حواضر فارس ومن أهم مجلوباننا التنباك الاصهباني وهو اكثر مقطوعة في البلاد الشامية والأسلحة البيضاء من سكاكين وخناجر وسيوف وتعرف بالعجمية والخوايار يجلب الآن من بحر الخزر .

وأهم الوارد من بلاد الهند الطيوب من مسك وعنبر وعود وكافور والنيل والشاي على اختلاف أنواعه ومصنوعات النحاس من أباريق وطسوت وطاسات وأقداح صغيرة وكبيرة وصحاف تعرف بالهندي والبهارات والأفاويه بانواعها . وأهمها الشال البديع الصنع من صناعة كشمير ولاهور ، ويساوي الثوب منه وطوله ثلاثة أمتار بعرض متر ونصف من اربعين الى خمسين ديناراً .

هذا مجمل ما يأتي من البلاد المختلفة من ضرور الحاجيات والكماليات ، عدا أصناف المأكولات من شكولاته وثمار محفوظة وبقول وحبوب ودقيق وفاكهة ولحوم مقددة وأنواع السكاكر الافرنجية التي لا يتناولها العد ، مما يصدر الينا بحسب اللزوم

ورواج سوقه اذا أُصِيبَت البلاد بآفة في نواتجها ، وهذه الأصناف والأَنْواع
المحبوبة تدل على دقة نظر تجارها وحسن انتقائهم ، وضر بهم طول البلاد وعرضها ،
حتى لا تكاد ترى فيما نعلم بلداً في الارض لم ينزله شامي ببيع او يشتري . ويقال في
الأمثال العامة « أعرج الشام وصل الهند » ، واذا تأملت هذه الجولات الصناعية
وجدتها مثال الجمال والمتانة مما يدل على ذكاء مستهلكيها ورسوخ قدمهم في الحضارة
والترف . وقطر كهذا بينه وبين الغرب صلات مستحكمة في التجارة منذ أكثر من
ألفي عام وبينه وبين الشرق صلات مثلها منذ عرف التاريخ هو عميل قديم أمين
جدير بان ينظر اليه بعين العطف ويهتم بشأنه ولا سيما من اهل الغرب اه .

رأي في ازدياد الثروة }
والتجارة } بعد ان عرفنا بالفصول السالفة تاريخ التجارة
ووقفنا على حالة تجارته اليوم ، وصلاته الاقتصادية مع الشرق والغرب ، ورأينا العجز
الظاهر في موازنته واختلال مجاربه الاقتصادية ، وان دخله أقل من خرجه في الجملة ،
يجدر بنا ان نلقت نظر ارباب الشأن في الامة ، الى ان الشام باعتدال أهوية
وجميل طبيعته ، وتوسطه بين أقطار الشرق والغرب ، وما في تاريخه وآثاره من
البدائع والروائع ، يستطيع اهله ان يجعلوه محط رحال معظم المسلمين في آسيا وافريقية
وأقرب السبل الى ذلك في نظر المفكرين ، ان يصلح ما تجرب في الثورة العربية من
خط السكة الحجازية الممتد من دمشق الى المدينة المنورة ، ويتم مد الخط الحديدي
الى مكة المكرمة وجدة ، وعندها يستطيع حجاج العراق وفارس وافغانستان
وبلوجستان والهند والصين وغيرها ان يسلكوا الى الارض الطاهرة عن طريق الشام
من العراق على السيارات ريثا يمد خط حديدي عريض ، وتكون دمشق المحطة
المهمة للصادر والواردين ، ودمشق هي المدينة الاسلامية الرابعة بقديسياتها ، بين
أكثر بلاد الشرق الاسلامي وبين الحجاز ، فاذا تم ذلك لا يقل عدد الحجاج الذين
يؤمون دمشق عن ثلاثمائة الف كل سنة فاذا صرف الفرد عشرة دنانير ، واصطاف
في الشام من العراقيين والمصريين عشرون الفاً كل سنة على أقل تعديل ، وزارها

عشرون الفاً من سياح الافرنج ، لا يقل ربح الشاميين كل سنة عن اربعة الى
 خمسة ملايين دينار من هذه الطرق التجارية . ومما يسهل الوصول اليه عقد
 معاهدة بين حكومات الشام وحكومة سلطان نجد وملك الحجاز جلالة عبد العزيز
 آل سعود . حينئذ يعمر الحجاز وتم للشام سعادتها لانها بالسكة الحجازية كانت
 تمون الحجاز قبل الحرب الكبرى فيسافر كل يوم من دمشق سبع مركبات تحمل من
 الطعام والبضائع ما لا يقل وزنه عن مئة الف كيلو ، وناهيك بذلك من تبادل المنافع
 بين هذه الاقطار والممالك ، وما في ذلك من تيسير سبل الحج على شعوب لا تقل عن
 مئة وثلاثين مليوناً في العدة ، كانت ترحل الاشهر للحج واليوم تكفيها الاسابيع
 القليلة مها بعدت عليها الشقة اذا امتطت هذه السيارات وهذه القطارات +
 ثم اذا تم انشاء الخط الحديدي بين طرابلس وحيفا نصل كالة في فرنسا بالقاهرة
 عن طريق اوربا وتركيا وتصبح الشام نقطة الاتصال بين اوربا وآسيا وافريقية وفي
 ذلك من الفوائد لتجارة الشام ما لا ينكر ما عاقل يريد خير هذه البلاد +



—*— فهرس الجزء الرابع *—

« من خطط الشام »

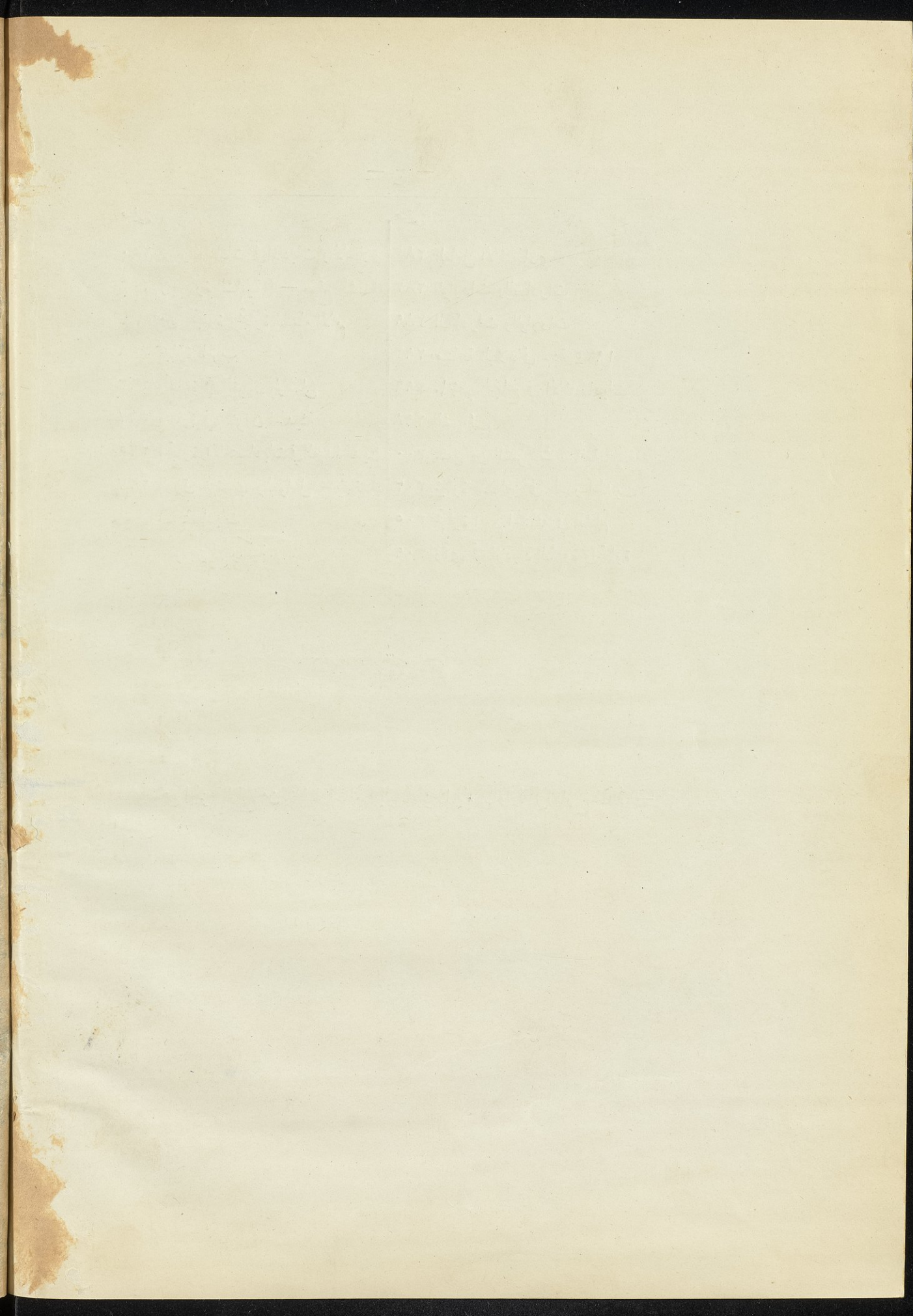
صفحة	صفحة
٦٠ الآداب في القرن الحادي عشر	٣ (التاريخ المدني — العلم والآداب) —
٦٤ العلوم والآداب في القرن الثاني عشر	ما يراد بالعلم والآداب
٦٨ العلم والآداب في القرن الثالث عشر	٩ العلم والآداب عند أقدم شعوب الشام
٧٠ العلوم المادية في منتصف القرن الثالث عشر	١٢ مواطن العلم في القطر قديماً
عشر	١٤ العلم عند العرب وما حملوا منه إلى الشام
٧٤ المعاصرون من العلماء والآداب	١٥ جمع القرآن ونشره في الشام
٧٧ تأثيرات الأجانب في التربية	١٨ العلم والآداب في القرن الأول
٧٩ الآداب في القرن الرابع عشر	٢٠ خالد بن يزيد أول فيلسوف مسلم
٨٤ الجامعات والكليات	عني بالنقل وأوائل التدوين
٨٦ الإخصاء	٢٥ علماء القرن الثاني والآداب والنقطة
٨٨ الصحافة العربية	والمنشئون فيه
٩٤ الطباعة والكتب	٢٩ العلم والآداب في القرن الثالث
٩٩ (الفنون الجميلة) — تعريف الفنون الجميلة	٣٢ الآداب في القرن الرابع ونهضته على
١٠٠ الموسيقى والغناء	سيف الدولة
١١٢ التصوير	٣٥ الآداب في القرن الخامس
١٢٨ النقش	٣٨ العلم والآداب في القرن السادس
١٣٢ البناء	٤٣ العلم والآداب في القرن السابع
١٣٧ الشعر والفصاحة	٥٠ الامام ابن نيمية والاصلاح الديني
١٤٠ الرقص	والعلم والآداب في القرن الثامن
١٤٥ متى ترتقي الفنون الجميلة	٥٥ العلوم في القرن التاسع
	٥٧ انحطاط العلم والآداب في القرن العاشر

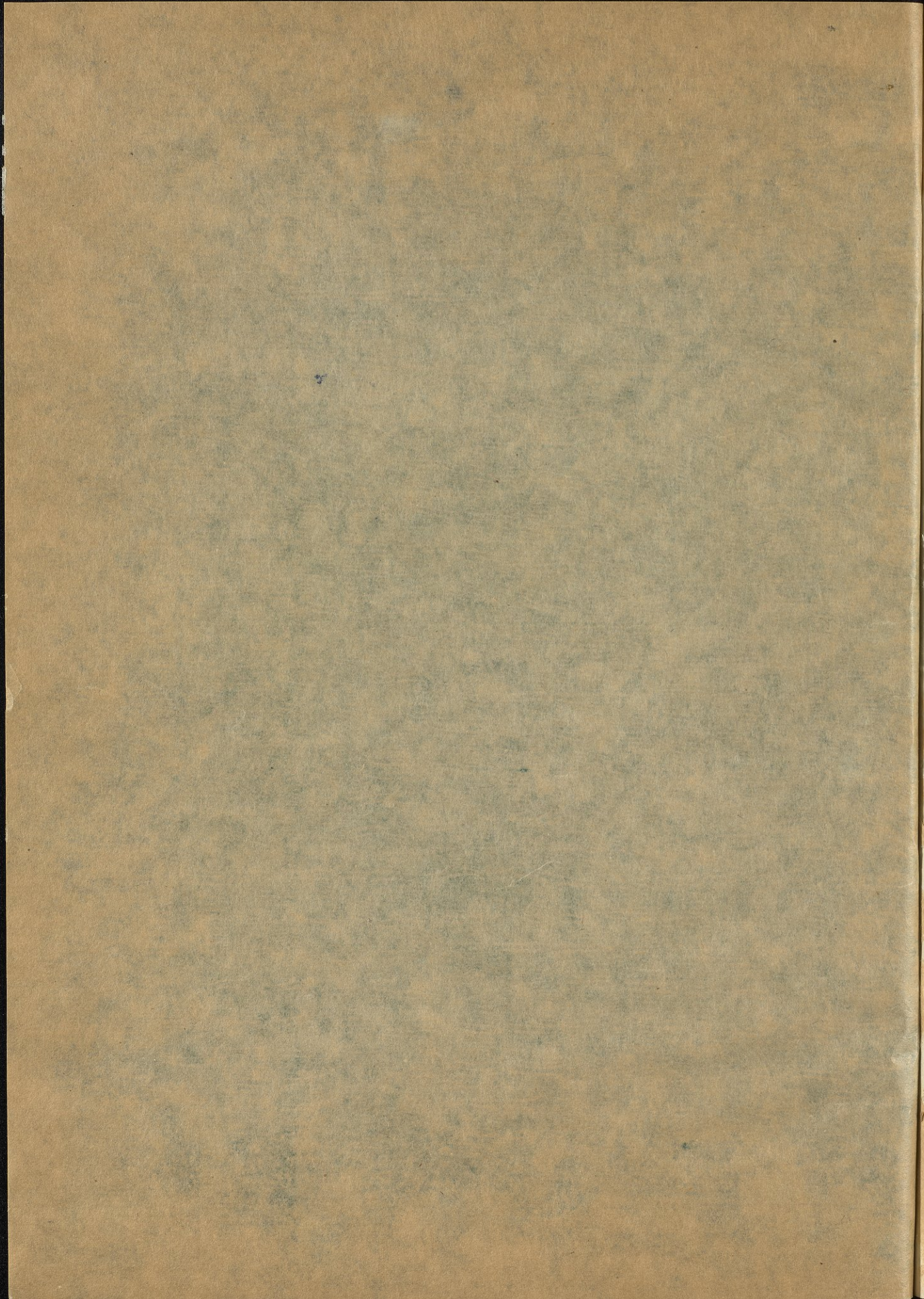
صفحة	صفحة
١٩٧	١٤٧ (الزراعة الشامية) — العاصر والغامر
٢٠٢	١٤٨ قلة العناية بالانهار
٢٠٨	١٥٠ خراب الزراعة والمزارع
٢١١	١٥١ عوامل الخراب
والاقتصادية	١٥٣ آفة الهجرة على الزراعة
٢١٢	١٥٥ خصب الاراضي ومعالجتها وما يزرع فيها
٢١٤	١٥٦ تقسيم السهول والجبال
٢١٧	١٥٧ من الذين أدخلوا الطرق الجديدة
٢١٧	١٥٨ درس الزراعة
٢١٩	١٥٩ نقص كبير
(الصناعات الشامية) — مواد الصناعات	١٦٠ التحسين الاخير
٢٢٠	١٦٢ عناية الاقدمين بالزراعة
٢٢٦	١٦٤ أصناف الزروع والأشجار
٢٢٧	١٦٩ الأشجار غير المثمرة
٢٢٨	١٧٢ الأشجار المثمرة وغيرها
٢٣٤	١٧٣ الصناعات الزراعية القديمة
٢٣٧	١٧٧ معادن الشام وحماتها
٢٣٩	١٨٢ الحماة الشامية
٢٤١	١٨٤ نظرة في الفلاحة الشامية الحديثة —
٢٤٢	أقاليم الشام
٢٤٤	١٨٨ أترية الشام
٢٤٤	١٩٠ حراج الشام
٢٤٧	١٩٣ الري في الشام
٢٤٨	١٩٤ زروع الشام وأشجارها
٢٤٩	

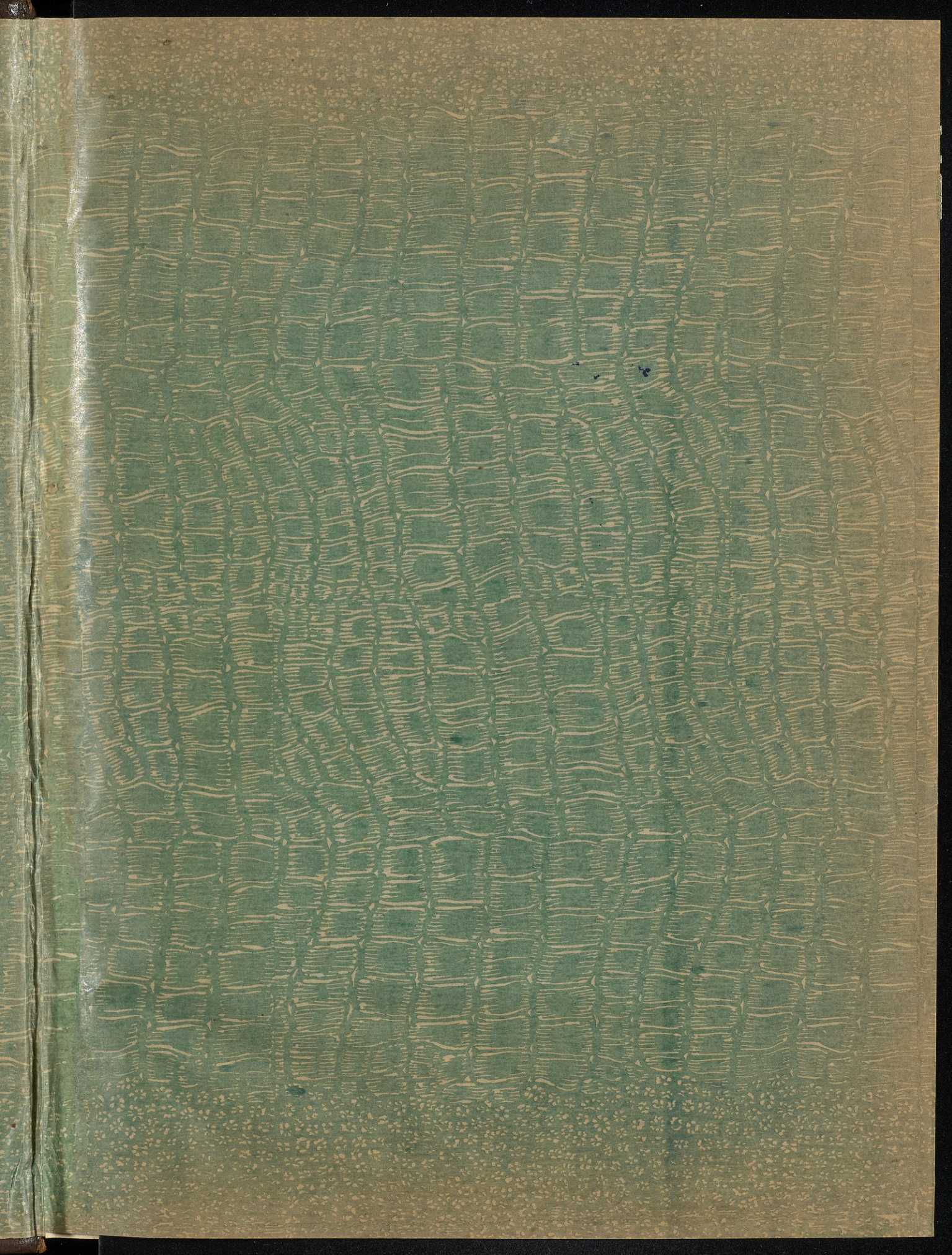
صفحة	صفحة
٢٨١	٢٥٠
العامل الاقتصادي	تأثير الصناعات في الماديات والاخلاق
٢٨٣	٢٥٣
الواردات والصادرات	(التجارة الشامية) — موقع الشام .
٢٨٩	من التجارة وتجارة قدماء الامم
٢٩٢	٢٥٨
صناعة البلاد في سنة ١٩٢٥	تجارة العرب
٢٩٦	٢٦٣
ما يجب للنجاح في الاقتصاديات	التجارة في القرون الوسطى
٢٩٨	٢٦٧
الضرائب	التجارة في القرون الحديثة
٣٠٠	٢٧٥
مثال من الشركات النافعة	التجارة والاقتصاديات في العهد الحديث
٣٠٢	٢٧٧
تجارة فلسطين في الدور الحديث	الورق النقدي والعوامل في تدني
٣٠٥	الاقتصاديات
تجارة الامم المختلفة في الشام	٢٧٨
٣٠٩	الحواجز الجمركية
رأي في ازدياد الثروة والتجارة	



انتهى الجزء الرابع من خطط الشام و يليه الجزء الخامس واوله (التاريخ المدني —
الجيش) .







956.9
K9654
v. 4

07651929

OCT 18 1957

956.9
K9654 v4 C1

07651929

